بدايات

فصلية ثقافية فكرية العدد ٢/ صيف ٢٠١٢

رئيس التحرير: فواز طرابلسي
الادارة: زهير رحّال
الموقع الاكتروني: غسّان عيسى
تصميم واخراج: جنى طرابلسي
المدير المسؤول: زينب ياغي

شارك في انتاج هذه العدد:
عساف كفوري، ديما الشريف،
رشا السلطي، ميسون سكّرية،
سحر مندور، إرنست خوري.
تصدر عن: شركة بدايات، ش.م.ل.
سعر النسخة: لبنان ١٠،٠٠٠ ل.ل.،
الاردن ٥ دينار، الكويت ٢،٥ دينار، مصر
٢٥ جنيه، المغرب ٥ دراهم،تونس ٥ دينار
فرنسا ٤ يورو.
التوزيع: شركة «ناشرون» لتوزيع الصحف
والمطبوعات، بيروت، لبنان.

الاشتراكات:
لبنان: أفراد ٣٥$، مؤسسات ٧٥$،
إشتراك تشجيعي ١٠٠$
البلدان العربية: افراد ٥٠$، المؤسسات
١٥٠$
اوروبا: أفراد ٦٠$؛ مؤسسات ١٨٠$
اميركا وباقي البلدان: افراد ٨٠$؛
مؤسسات ٢٤٠$
رقم الحساب المصرفي:169102231
Swift: BLFSLBBX
IBAN:35001000000000000169102231LB

العناوين الإلكترونية:
editor@bidayatmag.com
subscriptions@bidayatmag.com
administration@bidayatmag.com
www.bidayatmag.com



المحتويات

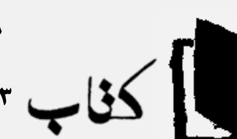
العدد ٢/ صيف ٢٠١٢











الغلاف ١
رندا مداح، «صرخة»

الغلاف ٢ و٣، ٤
زاريا زارادشت،
«احتفالية القتلة»،
«تحت القصف»،
«دماء في بابا عمرو».

الرسوم الكاريكاتورية في هذا العدد لامير رسامي الكاريكاتور العرب وشهيدهم ناجي العلي تحية له في ذكرى إستشهاده الخامسة والعشرين .


يا عين


ذاكرة


فيها نظر


ن والقلم


ثقافة الناس للناس


نهوند



لفصل جديد من فصول التغيير

استقبل العدد الاول من «بدايات» استقبالا متفاوتا. كان الاحتفال بصدور المجلة في نهاية مارس مناسبة للتلاقي والفرح والتضامن، زاد عدد الذين شاركونا فيه على المتوقع. تلقينا الترحيب بالمغامرة والاعجاب الاجماعي باتقان الاخراج وجماله. وواجهنا كذلك التشكيك في حظ مجلة فصلية من الحياة في ظل هجمة الإعلام الالكتروني على الصحافة الورقية. ووردتنا ملاحظات عن التبويب وحجم المادة وزيادة الفسحات بين المواد واقتراحات منها ما يدعو الى التشجيع على الحوارات واجراء المقابلات وتوسيع زاوية الفكر والنظرية وغيرها. وقد بدأنا بتنفيذ القسم الاكبر منها في هذا العدد.

من حيث ردود الفعل الكتابية، أشار حسين بن حمزة (الاخبار، ٣٠ آذار ٢٠١٢) الى «جاذبية» التبويب والإخراج الفني. وعلّق على المشروع قائلا «تقترح علينا «بدايات» جرعات ثقافية متخففة من «ثقل الدم» المعهود في التنظير المتعالي والمماحكات الايديولوجية التقليدية... تصبح صفحات المجلة فضاء لوجهات نظر متعددة. هكذا تخوض المجلة أكثر من اختبار على صعيد الممارسات واللغة. اليسارية والماركسية موجودتان طبعا، لكنهما ـ باستثناءات قليلة ـ متذررتان ومتذاوبتان في سياقات اوسع».

من جهته، أبدى محمد أبي سمرا (النهار، ٢٣ نيسان ٢٠١٢) الاعجاب بمساهمات الكتّاب الشباب فرأى فيها الدليل على ان الثورة تتعدى الفعل السياسي والاجتماعي الى «وعي وتحسس جديدين للعالم والواقع وعلى صعيد المخيلة الفنية الكتابية ايضا». وأبدى في المقابل أسفه لأن سائر مواد العدد لم ترقَ الى ذاك المستوى. وشارك ناهض حتّر أبي سمرا الاعجاب بمساهمات الشباب (الاخبار، ١٧ نيسان ٢٠١٢) ووجد ان الاخراج «جميل في الشكل ومؤثر في عرض المادة ومريح للقارئ» ما جعل المجلة بالجملة «أنيقة ومسلّية» مع أنها «لا تقول شيئا محددا سوى انها تحرّض على النظام السوري، مباشرة او التفافا». هكذا؟ لم تقل المجلة شيئا محددا غير التحريض على النظام السوري على مدى ٢٠٠ صفحة؟! على صعيد آخر، لم يجد احدٌ في القسم الثقافي من جريدة «السفير» في صدور زميلة فصلية ثقافية فكرية جديدة ما يستحق الكتابة او التعليق.

لن نخفي استغرابنا للاستهجان العدائي الذي استقبل به بعض الاعلاميين من صنف اليسار السابق والمرتدّ في طرفَي الاستقطاب السياسي اللبناني. لم نستغرب التهم السياسية والفكرية الموجهة للمجلة ولكتّابها او لمشروعها اليساري. وهي تستدعي ردودا تفيض عن وظيفة هذا التقديم. ولا نحن استغربنا التصعيد الكلامي في كيل الاتهامات: من «اليسار الليبرالي» الى «اليسار النيوليبرالي» عند ابراهيم الامين (الاخبار، ٢٣ نيسان ٢٠١٢) لمجلة تعتبر نفسها متخصصة في نقد ـــ حتى لا نقول نقض ـ النيوليبرالية. ويأتي التصعيد عند دلال بزري من «لغة الخشب» الى «لغة الحديد» (المستقبل، ٢٩ نيسان ٢٠١٢). فهذه كلها تدخل في باب حرية الرأي وحق الاختلاف. لكن التلاقي على إنكار حريتنا في ابداء آرائنا الى حد اعدامها هو ما نستغربه. تنكر علينا دلال البزري الحق في ادعاء ـــ مجرد ادعاء! ـــ «انتاج

معارف» عن الثورات العربية على اعتبار ان القائمين على المجلة «زعماء عهد بائد مثلهم مثل الانظمة الآيلة الى السقوط». واقصى ما يتمناه لنا ابراهيم الامين ان تكون بداية المجلة هي نهايتها.

مَن توجد تحت إبطه مسلّة تنعره، يقول المثل. ونعرة المرتدّين ماض يحاولون عبثا اغتيال اشباحه بدلا من التصالح (النقدي) مع النفس ومعه. يأخذ هؤلاء علينا عدم الاعتراف بأن اليسار قد هُزم. اعترفنا ونعترف بأن اليسار تعرّض لهزائم. ولسنا نعترف بـ«هزيمة» بالمطلق لأن الحياة لا تعرف ثنائية «هزيمة/انتصار» الفهلوية المتسلطنة على الفكر السائد. مهما يكن، الفارق كبير بين الاعتراف بالهزيمة وبين الاستسلام، والفارق أكبر بين الاعتراف بالهزيمة وبين اعتبار الهزيمة مبرراً للانتقال الى الموقع النقيض من القيم والاهداف والمبادئ ومن علاقات السلطة والمال والنفط والاستغلال.

يبقى ان ما يعنينا كمجلة هنا هو تسجيل جملة ملاحظات مقتضبة تتعلق بتقاليد الادب الصحفي والاحتراف، وبسياسة النشر.

نوّد ان نهمس في أذن ابراهيم الامين (الاخبار، ٢٣ نيسان ٢٠١٢) أن التعبير بالهَرَم (والشيخوخة) هو مثل التعبير بالحَوَل. من جهة ثانية، وسوس وسواس لناهض حتّر ان سياسة النشر في المجلة تمارس «المكر» (الاخبار، ١٧ نيسان ٢٠١٢) . ذلك ان نشر نص لالياس خوري يدلّ على اننا على ارتباط عن طريق «خيوط لا تُرى بـ«يسار» ثورة الارز المجيدة !». فحبذا لو يستظهر هذه الخيوط التي لا تُرى لنراها ويراها القراء والملأ من يسار ويمين ووسط! كذلك وجد حتّر في نشرنا مقالا نقديا لجوزيف سماحة عن معمر القذافي كتب في العام ١٩٨٩ «تبريرا ضمنيا للعدوان الامبريالي الخليجي على ليبيا» في العام ٢٠١١. فلعله يستشهد بنص واحد لاحد المشرفين على المجلة يمكن ان يفهم منه التأييد للعدوان الاطلسي على ليبيا. ثم اننا لم نفهم لماذا يصنّف ناهض حتّر نشرنا نصاً لسمير قصير عن «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» في باب «التعريض الماكر بالمقاومة الفعلية الراهنة وخياراتها السياسية». ولا نحن فهمنا معنى إسباغ صفة «المقاومة الفعلية» على المقاومة الراهنة تخصيصا. فهل كانت سابقاتها، منذ العام ١٩٣٦ الى العام ١٩٨٥، «غير فعلية»؟

يؤسفنا ان نشر «بدايات» للوثائق الرسمية الاميركية عن التدخل العسكري السوري في لبنان في ربيع-خريف ١٩٧٦ لم يلقَ الاهتمام الاعلامي والاكاديمي التاريخي الذي يستحقه. والتقصير في الترويج ولفت الانتباه هو منّا بكل تأكيد. لكن ناهض حتّر اكتشف ان «الوظيفة الراهنة لهذا التذكّر واضحة من حيث وقوعها في باب التحريض والتحشيد، لا في باب التاريخ والتفكير». والمقصود طبعا التحريض والتحشيد ضد «النظام السوري». فلعله يفيدنا متى وكيف يكون لنشر وثائق تاريخية وظيفة «غير راهنة». مهما يكن، فلو كلّف ناهض حتّر نفسه عناء قراءة الوثائق، بدلاً من الحكم عليها «على الهوية»، لعله كان اكتشف ان «المكر» في الوثائق هو النعت المناسب لهنري كيسنجر الذي امل من إجازة التدخل العسكري السوري في لبنان العام

١٩٧٦ ان يــؤدي الــى مـواجـهـة ســوريــة ـــ فلسطينية تنتهي بسقوط نظام حافظ الاسد وبقتل ياسر عرفات.



يسرّنا وضـع هـذا الـعـدد الجديد مـن «بـدايـات» بين أيـدي الـقـراء. تقع الـمـادة الاولـى تحت عـنـوان «الانـقـلاب على الـثـورات» لمحاولة رسـم معالم مرحلة جـديـدة من مراحل الـثـورة. وقـد خصصنا ملف العدد للمعارك الدائرة حـول الـدسـاتـيـر، فبعد الـدراسـة الشاملة الـتـي يكتبها سليمان تقي الـديـن، ثلاثة نـمـاذج لمعارك دستورية في مصر والبحرين والمغرب لمحمد العجاتي وعبد النبي العكري ومحمد الخضيري.

فـي زاويــة «مــن بــاب اولــى» تقرير لــروزي بشير عن العربية السعودية، وبحث جمانة فرحات عن مصير الثورة في اليمن تليهما دراسـة لمايكل كلير عن العلاقة بين النفط العربي وتـجـارة الاسلحة. ونـواصـل نشر الكتابات الشبابية من مصر وسورية وفلسطين ولبنان والعربية السعودية.

يعالج سمير أمـيـن فـي «عـوالـم فـي عـالـم» نموذجين للتنمية فـي الهند والـصـيـن، ويـتـسـاءل عـن مصيرهما بين تحديث الرأسمالية واختيار طريق جديد نحو الاشتراكية. بعد تقرير ديما الشريف عن أزمة النظام الرأسمالي اليوناني التي تهزّ اوروبـا، تحلل نـوراي ميرت الانـقـلاب في سياسات «حزب العدالة والتنمية» تجاه القضية الكردية في تركيا.

فـي زاويــة «يـا عـيـن» ١٣ مشهداً مـن سيناريو فيلم «الـقـرامـطـة» لعمر امـيـرالاي ومحمد ملص الـذي كُتِب بالتعاون مع الـروائـي صنع الله ابراهيم وصمم له الازيـاء جـان بيار دليفر. لـم يـرَ الفيلم الـنـور، الا ان السيناريو ـــ الـذي يـقـدّم لـه محمد ملص هنا ـــ يستحضر الغائب العزيز عمر، ويضيء محطة هامة في مسيرة السينمائيّين السوريين، بمثل مـا يقول الكثير عـن زماننا هـذا. وفي «يـا عين» ايضا تعريف بالفنان الـسـوري محمد عمران، ودراســة لبسمة عبد العزيز عـن جـدران مصر بين ولادة فن ثوري وشهوة المحو الرسمية.

زاويـــة الـكـتـب مـكـرّسـة لقضايا الاقـتـصـاد الـسـيـاسـي في ســوريــة والخليج وفلسطين بتوقيع ميسون سـكّـريـة وعمر ضـاحـي. وفـي «ذاكــرة» فصل مـن مـذكـرات الصحافي المصري الفرنسي الكبير إريـك رولـو يتناول نشأته في مصر واول مقابلة له مع الرئيس جمال عبد الناصر. تليها دراسـة فـواز طرابلسي عن العنف في الحروب الاهلية من خلال الحالة اللبنانية.

نخصّص زاويـــة «فيها نظر» لمقابلة مـع عزيز العظمة عـن الاسلاميين بين ديـن ودنـيـا ولـدراسـة دوريــن خـوري عن الفيلسوف الماركسي سـلافـوي جيجك. نصان للطاهر لبيب وريـاض بيدس يفتتحان زاويـة «نـون والقلم» تليهما مختارات مـن أدب أحمد فـارس الشدياق أردنـاهـا مساهمة فـي إحياء الاهـتـمـام بـهـذه الشخصية النهضوية الاستثنائية، العاصي على التصنيف قدر عصيانه على كل ظلم وتمييز واستغلال.

نفتتح اخيرا زاويتين جديدتين. ننشر في «ثقافة الناس لـلـنـاس»، نـص محمد الـحـجـيـري عـن الـراقـصـة المصرية الكبيرة تحية كاريوكا وقصيدة من الـتـراث الشعري الشعبي التونسي الـمـقـاوم. ونفتتح «نـهـونـد» بتحليل سمر محمد سلمان لتلحين رياض السنباطي لقصيدة «أشواق».◆

«بدايات»

الثورات في المرحلة الانتقالية

فواز طرابلسي

لا حاجة الى تكرار البداهة: لقد دخلت الثورات العربية مرحلة جديدة من تطورها لاكثر من عامل وسبب.

حققت الحركات التي تستحق ان تسمّى «اطول ثورات في التاريخ» انجازات استثنائية. أسقطت اربعة حكام إستبداديين بقوة النضالات والبطولات والتضحيات الشعبية، وفرضت محاكمة اثنين منهم بتهم القتل والفساد، وإن تكن لم تنجح في منع اعفاء احدهم من المحاسبة لقاء تنحيه عن الرئاسة. وانعقدت انتخابات حرّة الى هذا الحد او ذاك فازت بها أحزاب اسلامية في تونس والمغرب ومصر كما فاز عضو قيادي في «جماعة الاخوان المسلمين» برئاسة الدولة المصرية. وبعد اربعة عقود او اكثر من الاستبداد والاستنقاع، ها هي شعوب حطّمت حاجز الخوف، تستعيد ثقتها بنفسها وبقدرتها على تقرير مصيرها بنفسها، واكتسبت زادا معنويا وخبرات نضالية ذات قدرات فعلية لا تقدّر.

مراحل الانتقال

افتتحت هذه التطورات وسواها مراحل انتقالية مركبة، متفاوتة بين بلد وآخر، معقدة المسارات، يدور فيها الصراع على مصير الانظمة الاستبدادية وطبيعة النخب السياسية التي سوف تخلفها. وابرز اوجه هذا الصراع المعارك الدائرة على الدساتير (راجع ملف هذا العدد) لتقرير بنية وآلية تشغيل الانظمة السياسية الجديدة وترجمة التوازن الجديد بين الحكام والمحكومين، وتعيين طبيعة العلاقات بين السلطات الثلاث، وخصوصا بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، وتحديد موقع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية من حقوق المواطنة.

وقد استدرجت الثورات اشكالا مختلفة من التدخلات الخارجية، من التدخل العسكري الاطلسي السافر في ليبيا والبحرين الى اشكال التدخل الاميركية ــ الاوروبية الاقل سفورا لاستيعاب العمليات الثورية وضبطها بناءً على المصالح الغربية واولوية «الامن والاستقرار» لدائرة النفط وانظمتها والقواعد العسكرية الاميركية وحدود إسرائيل ومسار الاقتصاديات النيوليبرالية. وابرز آليات الاستيعاب والضبط والسيطرة التي تجلّت الى الآن: الحفاظ على الامر الواقع في دائرة النفط ولو بالتدخل العسكري؛ تنحية رئيس الدولة لصالح نائبه مقدمة للسعي إلى انقاذ النظام في ثوابته واساساته؛ معالجة النزاعات بما هي نزاعات اثنية وجهوية ودينية؛ الدعوة الى تعددية سياسية وانتخابية وصحافية تسند الليبرالية الاقتصادية وتتعايش مع الركيزة العسكرية للانظمة؛ ايثار الجهاز التنفيذي على التشريعي؛ اخراج قوى الثورة الحية من الساحات والميادين ومن المعادلات السياسية.

بهذا المعنى، تشكل المراحل الانتقالية ميدانا جديدا من ميادين الصراع والتوازن بين قوى داخلية وبين هذه وقوى التدخل الخارجي.

ليس مستغربا ان تحوي العمليات الثورية مكونات متفاوتة ومتناقضة من حيث تمثيلها للقوى والمواقع الاجتماعية ورؤاها ومشاريعها ومصالحها. ويمكن التمثيل على ذلك بالثورة الايرانية التي اطاحت نظام شاه ايران العام ١٩٨٩ بواسطة مكوّنين متمايزين بل متناقضين. فمن جهة، جناح علماني مدني ديمقراطي يساري يتكوّن من تنظيمات ماركسية مارست الكفاح المسلح لسنوات وابرزها «فدائيي الشعب» و«مجاهدي الشعب»، ومن جهة اخرى، حركات إسلامية ناضلت

تحت رايات «ولاية الفقيه» بقيادة مدنيين او علماء دين شيعة، كانت ابرزها بقيادة الامام الخميني. مثلها، تنطوي العمليات الثورية المناهضة للاستبداد في العالم العربي على ائتلاف ديمقراطي قومي يساري يعمل من أجل بناء دولة مدنية ديمقراطية تنموية، من جهة، ومن جهة اخرى قوى اسلامية ذات ايديولوجية «ثقافوية» ــ تعرّف البشر التعريف الديني ــ وتعطي الاولوية للارتداد على بقايا التشريعات والقيم والمؤسسات العلمانية والمدنية في الدولة العربية الحديثة تحت شعار «الاسلام هو الحل» الذي تراوح اعلان النية في تطبيقه بين الدعوة إلى استعادة الخلافة وأسلمة الدولة والمجتمع او الاكتفاء بأسلمة الدولة.

واذا كان الائتلاف الثوري الضامن هاتين القوتين قد صمد في مرحلة اسقاط الحكام، فالواضح انه آخذ في الانفكاك باشكال ووتائر مختلفة بعد ان انتقل احد الجناحين الى قيادة المراحل الانتقالية التي يفترض الا تتجاوز أطولها السنتين. وتكمن اولى نقاط الاحتكاك بين الجناحين في مقاومة القوى الديمقراطية المدنية لمساعي الحركات الاسلامية تحويل التفويض الشعبي المؤقت الى تسليم ثابت بالسلطة.

واذا ما صدقت قراءة المؤشرات الراهنة، يمكن القول بجنوح متزايد للولايات المتحدة نحو البديل الاسلامي «الوسطي» الذي تمثله الاحزاب المتحدرة من «جماعة الاخوان المسلمين» ولو مطعّماً بحضور عسكري وازن يضمن «الامن والاستقرار».

مصر: حقل الاختبار

إن مجرد انتخاب محمد مرسي رئيسا لجمهورية مصر حال دون اكتمال الانقلاب الذي أعد له المجلس العسكري لايصال مرشحه احمد شفيق الى الرئاسة بعد حلّ مجلس الشعب ومصادرة صلاحيات رئيس الدولة. وسجّل مرسي بادرة بالغة الاهمية في انصياعه للدستور بعد نقض المحكمة الدستورية قراره بالغاء حلّ مجلس الشعب. والاهم ان الرئيس المنتخب وحزبه وجماهير الثورة مستمرون في معركة إلغاء «التعديل الدستوري المكمّل». بانتظار حصيلة هذه المعركة ومقدار المساومة الشاملة بين «الاخوان» والمجلس العسكري حول تقاسم السلطة، يمكن القاء نظرة على باقي مشروع الاسلام «الوسطي» من خلال «مشروع النهضة» الذي اصدره حزب «الحرية والعدالة» المصري حيث تورية شعار «الاسلام هو الحل» تحت تسمية بناء «الدولة المدنية».

سقط الرئيس مرسي في الامتحان الاول لدولته «المدنية» في دلالتها الزمنية عندما اعلن نيته تعيين قبطي وامرأة نائبين له، وتراجع امام اعضاء في حزبه والسلفيين الذين أثاروا عدم جواز خلافة مسيحي للرئيس المسلم في حال الوفاة.

اما «المدنية» في المجال الاقتصادي الاجتماعي، فتعبّر عن نفسها بنزعة شعبوية محافظة مختلطة بليبرالية اقتصادية. ونعني بالشعبوية مخاطبة كل فئة اجتماعية بـ«لغتها» وإغداق الوعود المتفاوتة والمتناقضة عليها. في خطاب الانتصار، توجه الرئيس المنتخب الى «مصر العميقة» بلغة الانتماء للاهل والعشيرة تثبيتاً لنزعة محافِظة اجتماعية متمحورة حول الاسرة. لكنه عند مخاطبته أهالي المدن، متعهدا بناء «الدولة المدنية»، كرر لغة «الاهل والعشيرة» إذ حصر مهمة «المجتمع المدني» بـ«دعم رسالة الاسرة وتوعية أفراد الاسرة بتحديات الواقع ومتطلبات المستقبل»، واعلن ضرورة ضبط حرية الاعلام في حدود «القيم المصرية الاصيلة». و«مجتمعه المدني» في الحالين مصروم الصلة بالمواطنة والأفراد الاحرار ينضوون طوعا في مؤسسات وطنية على حساب الانتماءات والولاءات الاسروية والجهوية والدينية والاثنية.

حقيقة الامر ان هذه الشعبوية، مدّعية «الوسطية»، أكثر تعبيرا عن مصالح «برجوازية مؤمنة»، ترتكز على قاعدة في الطبقة الوسطى المهنية وعلى جمهور شعبي لا يجوز الاستهانة بحجمه ووزنه. وهي قد نمت وترعرعت وحققت تراكمها الاولي في جُزُر القطاع الخاص التي أفلتت من هيمنة القطاع العام، ركيزة الانظمة الدولتية منذ الخمسينيات، وها هي الآن تتأهب للحلول محل كومبرادورية استئثارية استبدادية ظلت عاجزة عن التحرر من طابعها الدولتي رغم سعيها إلى تطعيم نفسها بتعديلات هيكلية نيوليبرالية.

لكن فيما الشعبوية المؤمنة تكثر من الوعود الاقتصادية والاجتماعية تضيّق الليبرالية فرص التنفيذ والتحقيق، فهي لا تملك من السياسات الاقتصادية ما يختلف كثيرا عن سياسات عهد مبارك، بما فيها الاستعانة بالاستثمارات الخارجية، تضاف اليها ما تيسّر من صناديق الاستثمار الاسلامية ومؤسسات الصدقة

والإحسان الاسلامية من زكاة واوقاف. اما شبهة التغيير الوحيدة في هذا المشروع فهي الدعوة الى «التحول من اقتصاد ريعي الى اقتصاد قيمة مضافة في اطار مجتمع المعرفة والانتاج»، ما يعني الانصياع لشروط «منظمة التجارة العالمية» من حيث الغاء الرسوم الجمركية واعتماد الضرائب غير المباشرة، وتبنّي مشروع «بناء مجتمع المعرفة» الذي تدعو إليه «تقارير التنمية البشرية العربية» ولم نعد نسمع به منذ اندلاع الثورات.

ويرد «المجتمع المدني» في دلالته الليبرالية الصرفة في تأكيد المشروع الاسلامي على «الاستقلال المالي للمجتمع المدني» تجاه الدولة وتحديده دورها في حدود إملاءات المؤسسات المالية الدولية الى حد تبني ترسيمة «تنمية الناتج المحلي الاجمالي» مقياسا للجدوى الاقتصادية على الرغم من اقرار المؤسستين الدوليتين، بعد ثورتي تونس ومصر، بأنه لا يسهم في خلق فرص عمل.

.. فلا ينبغي ان تفاجئنا الحدةُ التي بها صَرَف الكاتب محمد حسنين هيكل «مشروع النهضة» على أنه «كلام لا معنى له» جاء لـ«يستبدل شعار «الاسلام هو الحل» الذي فقد بريقه». ولا من داع لاستغراب تأييد «الايكونومست» البريطانية انتخاب مرسي للرئاسة. ولا عجب ان يرحّب البنك الدولي بفوز مرشح الاخوان المسلمين وتكرار استعداده لتمويل مشاريع اقتصادية مصرية.

السودان: البداية

تؤكد مطالع الانتفاضة الشعبية ضد نظام الاستبداد والفساد والحروب، الذي يتربع على رأسه عمر البشير منذ ٢٣ سنة، عمق التيارات الجوفية التي تعتمل في العالم العربي من المحيط الى الخليج، وعلى تماثل العوامل التي تطلق الثورات، نعني رفض قطاعات واسعة من الجماهير الشعبية والشباب لسياسات الفساد والتقشف والإفقار التي تحصل تحت رايات تحرير الاسواق والتعديلات الهيكلية وفرض انسحاب الدولة من اداور الخدمة والتوزيع الاجتماعيين.

يلوح خلف الازمة الاقتصادية في السودان عاملان. الاول، ترييع الاقتصادات السودانية الذي حوّل البلد الذي كان مؤهلاً ليضمن الامن الغذائي للعالم العربي برمته، الى مستورد للمواد الغذائية بمليارات الدولارات. والثاني، ارتدادات الانفصال الجنوبي. رفض عمر البشير استثمار الفترة الانتقالية التي وضعت حدا لحرب العشرين عاماً بين شمال وجنوب من اجل اقناع اكثرية الجنوبيين بالبقاء داخل الكيان السوداني. وأصرّ على الاستئثار بالشمال وعلى استصدار دستور جديد إسلامي «مئة بالمئة». وسهّل عملية الانفصال الجنوبية على امل ان ترفع الادارة الاميركية قرارات العزل والعقوبات بحقه لدوره في جرائم الحرب المرتكبة في دارفور. والحصيلة، فرّط البشير في وحدة السودان وخسر جراء الانفصال ثلثي عائدات السودان من النفط، وها هو يسعى إلى استعادة بعض ما خسره بفتح جبهتي حرب جديدتَين في جنوب كردفان والنيل الازرق.

لا يتعلّم ديكتاتور ممن سبقه. استصغر البشير معارضيه واتهمهم بالعمالة للخارج وهددهم بصيف «يشوي»، ولجأ الى الاعتقالات والقمع. لكن الحراك الذي انطلق من الجامعة، انتقل الى الاحياء الشعبية وطاول المهن الحرة، من صحافيين واطباء ومحامين، فبادروا الى الاحتجاج وتشكيل النقابات المستقلة. وجرّ الحراك احزاب «الاجماع الوطني» المعارِضة فتأهبت للمعركة اقلاً باعلان برنامجها لانتقال السلطة والتغيير.

السابقة اليمنية

يشهد اليمن تطبيق الصيغة الاكثر اكتمالا للانقلاب على الثورات، في طبعته الاميركية ــ الخليجية. يشرف على تنفيذها السفير الاميركي في صنعاء (راجع مقالة جمانة فرحات) بعد ان تم فرض الامر الواقع بواسطة البَيعة الرئاسية وتشكيل وزارة ائتلافية باسم أولوية «الحرب ضد الارهاب» والتلكؤ في تصفية الجيش من اقرباء علي عبدالله صالح والتأجيل المستمر للحوار الوطني مع قوى الاحتجاج الرئيسة: حركة الحوثية، الحراك الثوري في منطقة تعزّ، الحراك الجنوبي، وائتلافات الشباب.

ويهدد تطبيق تلك المبادرة، على النحو الذي تتم به، باعادة انتاج نظام علي عبدالله صالح من خلال التحالف بين حزب الرئيس المخلوع والحزب الاسلامي ــ القبائلي الابرز في «المعارضة»، «التجمع اليمني للاصلاح»، يسيطران معاً على مراكز القوة في القوات المسلحة والادارة وعلى الاكثرية في مجلس الشعب والحكومة. ولا يكتفي هؤلاء باقصاء احزاب المعارضة اليسارية والقومية والشباب عن الهيئة التحضيرية

لـ«الحوار الوطني»، بل يبذلون المساعي الحثيثة لإخراج قـوى الـثـورة الشبابية من الميادين، وتسليط الجهاديين الوهابيين، المدعومين مـن العربية السعودية، لقتال الحركة الحوثية في الشمال الغربي، فيما يتناوب جهاز الامـــن الـمـركـزي وميليشيات «الاصـــلاح» عـلـى إرتـكـاب المجازر في حق متظاهري الحراك الجنوبي السلمي في المحافظات الجنوبية.

دائرة النفط

الحقيقة البسيطة الـتـي تعلنها الـثـورات العربية منذ اندلاعها هي ان كل الانظمة العربية سائرة إما الى تغيير جذري وإما الى سقوط في هذا المخاض العظيم.

واهـمـةٌ انظمة الهدر والفساد والاسـتـبـداد في الجزيرة والخليج إن كانت تعتقد بأنها ستنجو بنفسها بالحماية الاميركية او الرشى النفطية او التبني التلفزيوني لثورات ضـد اخـــرى والـتـمـويـل الـكـثـيـف لـلاحـزاب الاسـلامـيـة والسلفية. العدوى فتاكة. وقد بدأ التململ الشعبي في ليبيا وتونس ومصر، فضلاً عن اليمن، ضد السعودة والقطرنة.

فيما يدخل عالم الـثـورات مرحلته الانتقالية، تشهد منطقة الجزيرة والخليج موجة جديدة من الاحتجاجات (راجـع مـقـالات عبد النبي العكري وروزي بشير وايمان نـاعـس) فـي الـسـعـوديـة والـبـحـريـن اضـافـة الـى اتـحـاد الامـــــارات حـيـث تتصاعد مـوجـات الاعـتـقـال والـقـمـع، وسـلـطـنـة عـمـان حـيـث يـجـري قـمـع مـواقـع الـتـواصـل الاجتماعي بتهمة «إعابة» السلطان. والحبل على الجرار.

العد العكسي في سورية

افتتح اغتيال الـقـادة العسكريين والامنيين الاربـعـة في مبنى الامـــن القومي بدمشق مرحلة جـديـدة فـي مسار الـثـورة السورية، فالخرق الـذي سمح بتنفيذ العملية تم في الحلقة الضيقة للنظام. غير أن الجديد هو الانقلاب السريع في حركة القوى العسكرية، الـذي واكـب العملية، مع انتقال الجيش الـسـوري الحر الـى المبادرة الهجومية بنقل القتال الـى قلب مدينتي دمشق وحلب وتوسيع دائـــرة عملياته وسيطرته فـي الاطـــراف على مـــدار ١٨٠ درجـة وانـطـلاق موجة جديدة من الانشقاقات العسكرية الواسعة عددا ونوعية.

هكذا فالخيار العسكري الـذي تشبث بـه النظام منذ مطلع الاحتجاجات الشعبية استولد العسكرة المتزايدة والمتصاعدة للمعارضة. وما من شك في ان التدخل العربي والاقليمي والدولي قد ضاعف من هذه الظاهرة. ومهما يكن من امـر حديث الحسم من الطرفين، فقد بـدأ العد العكسي للنظام فـي سـوريـة. لا يمكن استبعاد خوضه المغامرات العسكرية الوحشية الانتقامية، فقد تغرق سورية في مزيد من الاقتتال الاهلي لكنها لن تؤجل الاستحقاق.

غير أن انتقال مـبـادرة الـحـل الـى الـداخـل لـم تكتفِ بانهاء مهمة كوفي انــان، وانما فضحت الاستهتار الدموي الـذي به يعالج المجتمع الـدولـي الازمـة السورية. تكتفي الـولايـات المتحدة ومعها اوروبـــا واسـرائـيـل بالتفرّج على مشهد تفكيك اوصـــال سـوريـة واضعافها دولـة ومجتمعا وجيشا ومستقبلا، فيما تـخـوّض القيادة الـروسـيـة، ومعها الصين، فـي الـدم الـسـوري فـي سعيها إلـى فـرض الاعـتـراف بها دولـة عظمى وتحقيق التوازن مع الولايات المتحدة في العلاقات الدولية. غير أن النظام الـسـوري، الـذي اقلم ثم عـرّب وغـرّب ثم دوّل ازمته وجـاء بالدب الروسي الى كرمه، الـى متى سيبقى قـادرا على الافـلات من مخالبه؟ ومـا الذي يستبعد تخلي نظام المافيات الامنية الـروسـي عـن رأس النظام فـي مقابل تحسين موقعه فـي «الـتـوازن الـدولـي» المنشود مع اميركا وإنقاذ مواقعه في سورية ذاتها؟

الامـر الاكـيـد ان الشعب الـسـوري «عـارف طريقه» في الجمع بين المعارضة العسكرية والانـتـفـاضـات الشعبية السلمية. لكن الـدرس الكبير الـذي يتعيّن على المعارضة السورية ان تتعلّمه هو عدم الوقوع في فخ «الحل اليمني».

اخـيـرا، لـقـد أحـيـطـت الـثـورات الـعـربـيـة بـالاوهـام النموذجية وابـرزهـا ثلاثة: امكان القيام بالثورة دون فكر موجّه ومشروع مجتمعي (سمّي هذا وذاك «ايديولوجيا»)، والـظـن بـأن العفوية تعني الاستغناء عـن التنظيم، وان التغيير ممكن دون الاستيلاء على السلطة (راجـع لينين ـ جيجك في هذا العدد).

واقـع الحال ان القوى التي نجحت في مصادرة الثورة والـوصـول الـى الحكم في المرحلة القادمة متخمة بهذه الثلاثة: هي احزاب منظمة منضبطة ومترعة بالايديولوجيا.

مـن هـذه الحقيقة يبدأ الإعـــداد لخوض صراعات المرحلة الانتقالية. وليس صدفة ان الناشطين الشباب في مصر واليمن يتساءلون عن جـدوى الاستمرار في الاعتصام في الميادين والساحات، وان ابـرز تشكيل للشبيبة الثورية في مصر قد حـلّ نفسه. وهـذا يفتح بـاب الابتكار والخيال والمعرفة الذي آمل ان لا تغيب عنه صفحات «بدايات».◆

معركة الدساتير



شرعة حامورابي ١٧٧٢ ق.م.

معركة الدساتير بين العام والخاص

سليمان تقي الدين

مؤرخ وكاتب من لبنان. الأمين العام السابق لاتحاد الكتاب اللبنانيين.

ارتكزت الدساتير العربية التي أقرت بعد الاستقلال على تحديد لهوية الدولة، فانطوت على مزيج مركب من الانتماء إلى العروبة والإسلام والاشتراكية والبعد الافريقي أو الوحدوي، وتضمنت بعض المفاهيم الليبرالية المتعلقة بالحريات وحقوق الإنسان. كل الدساتير العربية اعتبرت أن هوية الدولة هوية عربية وأن كيانها جزء من الأمة العربية ولغتها الرسمية العربية، والبعض جعل من مهمة الدولة السعي إلى الوحدة والبعض الآخر إلى التعاون في إطار جامعة الدول العربية أو في إطار منظومة إقليمية كاتحاد دول الخليج أو المغرب أو التعاون الافريقي.

ونصت دساتير بعض الدول على هوية إسلامية للدولة (المغرب والسعودية) وعلى المرجعية الإسلامية للشرع الإسلامي في تنظيم الدولة (المغرب) وعلى القرآن نظامًا أساسيًا (السعودية)، بينما استخدمت معظم الدول الأخرى تعبير الشرع الإسلامي المصدر الأساسي للتشريع، أو أن الشرع الإسلامي هو أحد مصادر التشريع، أو أن دين الدولة هو الإسلام، أو أن دين رئيس الدولة هو الإسلام. وحده لبنان قبل اتفاق الطائف لم ينص دستوره على هوية للدولة ثم أكد مع الطائف أن لبنان عربي الهوية والانتماء (١٩٩٠).

السلطة التنفيذية هي قطب الرحى في الدساتير العربية

أما الدول التي سيطرت عليها الأحزاب والحركات القومية ذات الايديولوجية اليسارية فقد أكدت على التوجه الاشتراكي بأشكال مختلفة. اما أنها وصفت الدولة بالاشتراكية أو اعتبرت اقتصاد الدولة يهدف إلى بناء نظام اشتراكي أو هي اعتمدت صيغة الديمقراطية الشعبية وأشارت إلى التخطيط التنموي الاشتراكي أو جعلت من السلطة تحالفًا بين الفئات الشعبية من عمال وفلاحين ووضعت صيغة حزبية لتمثيل هذه القوى، كالاتحاد الاشتراكي العربي المصري أو البعث العربي الاشتراكي في سورية والعراق، أو الحزب الاشتراكي اليمني الجنوبي. في معظم الدساتير العربية، ربما باستثناء بعض الممالك والإمارات في الخليج، جرى الإقرار بالحريات العامة وحقوق الإنسان والحريات المدنية والسياسية بما فيها حق الاقتراع، لكن ذلك كله يخضع لقوانين تنظم هذه الحقوق وتسعى إلى تجويفها من جهة وتنشئ قيودًا سلطوية تلغيها في الممارسة العملية.

في الغالب الدساتير العربية نظمت السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية. لكن السلطة التشريعية لم تكن منوطة بالسلطة المنتخبة (على تعدد أشكال القيود على الانتخابات) بل اشتركت السلطة التنفيذية في ذلك (الملك، الأمير، الرئيس، رئيس الحكومة والحكومة).

السلطة التنفيذية هي قطب الرحى في الدساتير العربية الملكية والجمهورية الوراثية أو المنتخبة. ولم تنشأ أنظمة برلمانية في العالم العربي باستثناء لبنان، فهي جميعها رئاسية، ما يعزز سلطة الفرد على رأس تلك السلطة. وقد اعتمدت الأنظمة الانتخابية كلها (باستثناء لبنان) مبدأ تقييد شروط الترشيح وجعلت الانتخابات الرئاسية استفتاءً على مرشح السلطة. غير أن لبنان وزع المقاعد النيابية وفق حصص طائفية. ترتب على هوية الدولة ما يلي:

ــ العروبة: أنكرت العروبة على شعب الدولة، ما يتكوّن منه لجهة الجماعات الإثنية والدينية والمذهبية

غير العربية وغير الاسلامية: الأقباط، الأمازيغ، الأكراد، الأرمن، القبائل الوثنية، التركمان، الشركس، الآشوريون، السريان، الكلدان. هذه الأقليات لم تكن أقليات صغيرة في بعض الدول فكانت تشعر بمصادرة هويتها ودورها وثقافتها، وفي معظم الأحيان منعت من تطوير لغتها وتراثها وممارسة شعائرها.

ــ الإسلام: أنكرت الصفة الإسلامية دور المسيحيين وهو الدين الأهم قبل الاسلام، وكذلك اليهودية (العبرية) والصابئة والمجوسية. وفي معظم البنود الدستورية جرى تخصيص مذهب إسلامي بعينه، الحنفي أو المالكي أو الشافعي والحنبلي وأسقطت مذاهب إسلامية بالعشرات: الزيدية والإباضية والقرمطية والإسماعيلية والشيعية الجعفرية والعلوية والدرزية إلخ... وسمحت أحيانًا بقوانين الأحوال الشخصية ولم تسمح أحيانًا أخرى لزمن قريب بتنظيم الأحوال الشخصية لهذه المذاهب والفرق.

ــ الاشتراكية: انطوى مفهوم الاشتراكية في التجربة العربية على ملكية الدولة لوسائل الإنتاج: الأرض، المرافق العامة، الشركات الكبرى، الثروات الطبيعية وعلى إخضاع الاقتصاد للتخطيط والتجارة الخارجية لقيود واحتكار الدولة. وتم إلحاق المؤسسات النقابية، إذا وجدت، بالدولة ووضع الإدارة المدنية في خدمة التوجه السياسي.

في هذه السياسات إما أن ثروة البلاد خضعت لتصرّف العوائل الحاكمة في الأنظمة الملكية والوراثية العائلية، وإما أنها خضعت لتصرف الفئة السياسية والاجتماعية الحاكمة سواء أكانت مجموعة عسكرية أم حزبًا أم فريقًا مركبًا من عناصر عائلية وحزبية وجهوية. وتدريجًا خضعت ثروات البلاد لهذه النخب مكونة امتيازات وحرمانات إما لأسباب حزبية وسياسية وإما لأسباب طائفية أو عرقية فضلًا عن التمايزات الطبقية.

الدساتير التي أعلنت عن صفة الحاكم (الملك، الأمير، الأسرة، الحزب...) أقامت أنظمة سياسية مقيدة للحرية ولحقوق المواطنين المدنية في الوظيفة أو الحرية الاقتصادية وحرية العمل فضلًا عن الحريات السياسية.

ــ الحريات المدنية والأحوال الشخصية: نصت الدساتير جميعها على حرية الاعتقاد والضمير، وأكدت، حيث هناك تعددية في المجتمع، على كفالة ممارسة الشعائر الدينية بما لا يخالف النظام العام. لكنها نظمت قوانين الأحوال الشخصية إما على أساس مرجعية الشرع الإسلامي وفق المذهب الغالب (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي) أو هي أعطت للجماعات الدينية حق تنظيم احوالها الشخصية في إطار مذهبها، (الكنيسة القبطية، الموارنة، الأرثوذكس، الأرمن، إلخ) والمذاهب الإسلامية الأخرى. في اليمن الجنوبي جرى إقرار نظام أحوال شخصية مدني موحد وكذلك في تونس. باستثناء هاتين الدولتين خضعت الأحوال الشخصية لقوانين الطوائف، الأمر الذي خالف حقوق الإنسان.

لم تنشأ أنظمة برلمانية في العالم العربي باستثناء لبنان، فهي جميعها رئاسية ما يعزز سلطة الفرد على رأس تلك السلطة.

أما التشريعات المدنية الأخرى، فهي بدون قيود، جرى تنظيمها في استنساخ عن التشريعات الغربية لا سيّما قوانين التجارة والمصارف والملكية والعقود المدنية الأخرى كالعمل والنقل والسياحة، وكذلك تنظيمات المحاكم والقوانين الجزائية، إلا في الأنظمة التي جعلت الشريعة دستورها المباشر (السعودية) أو السودان أخيرًا الذي تبنّى تطبيق الشريعة دون أن يلغي بعض الإرث المدني السابق.

عودة الى معادلة «الاسلام واصول الحكم»

مع صعود الإسلام السياسي إلى صدارة المشهد العربي ينفتح النقاش مجددًا على معادلة «الإسلام وأصول الحكم» العنوان الذي اختاره المفكر المصري علي عبد الرازق في النقاش مع دعاة تجديد الخلافة في عام ١٩٢٥. كانت هذه المناظرة التاريخية قد شهدت حيوية في القرن التاسع عشر حين ظهرت حركات الإصلاح الديني مع رموز مثل جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، رفاعة الطهطاوي، خير الدين التونسي، عبد الرحمن الكواكبي، شكيب أرسلان، إلخ. تحولت هذه المناظرة إلى مشروع سياسي تأصّل فكريًا مع أبي يعلى المودودي والسيد قطب وحسن البنّا، وتأسست حركة «الأخوان المسلمين» عام ١٩٢٨. تصادمت هذه الحركة مع أفكار القومية العربية (الناصرية والبعث) بينما وجدت فضاءً أرحب لها في حركات مثل الوهابية والسنوسية والختمية والمهدية في السودان والأدريسية في ليبيا وهي حركات إسلام سياسي تتبع طرقًا خاصًا لقادتها. ومعظم هذه الفرق ذات طابع صوفي.

في ثمانينيات القرن الماضي عاد الإسلام السياسي الحركي إلى الظهور مع انحسار الفكر القومي واليساري وأزمة النظام الرسمي العربي، وظهر مفكرون جددٌ من دعاة التجديد والإصلاح مثل الغنوشي، الترابي، شحرور،



في سورية، خلافًا لمصر وتونس وليبيا واليمن، المسألة الأكثر حراجة هي الموقع الإقليمي للدولة وحساسيتها تجاه التناقضات المحيطة به.

هويدي، العوا، الأنصاري، وغيرهم... وكان لنجاح الثورة الإيرانية (شباط ١٩٧٩) بقيادة دينية شيعية المذهب الأثر الأكبر على تزخيم حركات الإسلام السياسي في المدى الشيعي والسني كذلك. لكن الظاهرة الجديرة بالاهتمام هي تصدي الفكر العلماني عمومًا واليساري خصوصًا لفكر الإسلام السياسي. فبعد هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ بدأت مراجعة شاملة لجميع نواحي الاجتماع السياسي العربي ولاسيّما الظاهرة الدينية. وقد نال الإسلام عمومًا نصيبه الوافر من البحث لدى كل مفكري الحداثة في ما إذا كان يشكّل عائقًا أمام التقدم الاجتماعي أم هو يقبل إشكال التكيّف الضروري مع الحداثة السياسية. ومن رموز تلك المناظرة، عبد الله العردي، هشام جعيط، محمد أركون، محمد عابد الجابري، برهان غليون، نصر حامد أبو زيد، أدونيس، صادق جلال العظم، عزيز العظمة، الياس مرقص، ياسين الحافظ، وغيرهم.

وعلى مستوى الفكر الإسلامي نفسه ظهرت حركة «فقه المشاركة» التي اتسعت نفوذًا حيث الدعوة إلى الملاءمة بين الفقه الإسلامي والنظام الديمقراطي. أخذت الأبحاث الاستشراقية نفسها تنظر الى الإسلام على أنه يستجيب للمسار الديمقراطي بعد أن سادت قناعة بأن في الإسلام ما يتناقض مع احتمالات قبول الثقافة السياسية المعاصرة وركيزتها الديمقراطية التي تقوم على السيادة الشعبية. خلال العقد الماضي اتسع المطلب الديمقراطي في العالم العربي.

تبنت العديد من الدول العربية صيغًا للبرلمانات ولمجالس الشورى. بعض هذه الدول يملك تجربة سابقة (الكويت، مصر، لبنان) وبعضها حديث العهد بالتعددية السياسية. لكن معظم البرلمانات كانت تقوم تحت أحكام دستورية وقانونية تحد بشكل واسع من حرية المشاركة (مصر، الجزائر، اليمن، العراق، سورية، الأردن)، إما من حيث الاعتراف بالأحزاب المستقلة وحصر دورها في تحالف سياسي (الجبهة الوطنية في العراق وسورية) وإما عبر سياسات الحرمان تجاه بعض التيارات السياسية والفكرية (مصر التي رفضت الترخيص لحزب سياسي ديني وكذلك سورية والقانون ٤٩ الذي لا يعترف بأية حقوق سياسية أو مدنية لجماعة الإخوان المسلمين).

بعد الوحدة اليمنية بين الشمال والجنوب، نشأ برلمان تعددي جرى اقتسامه بين ثلاثة أو أربعة تيارات وسيطرت عليه حركتا حزب المؤتمر الشعبي وحزب الإصلاح. أما مصر فبدأت تستعيد بعض الحريات السياسية أولًا من خلال المنابر في عهد الرئيس أنور السادات، ثم عبر الاعتراف بعدد من الأحزاب السياسية عهد الرئيس حسني مبارك، وعرفت تجربة برلمانية محدودة. أما في الجزائر فقد تم وقف العملية التعددية بعد فوز الإسلاميين (الجبهة الإسلامية للإنقاذ). وفي المغرب هناك تجربة حزبية تعددية لكنها ليست الجهة التي تتولّى السلطة التنفيذية، إلى حين انفتاح النظام على مشاركة أحزاب المعارضة في الحكومة. أما دول الخليج فقد أنشأت مجالس شورى معظمها معيّن وليست ذات صلاحيات فعالة تؤدي إلى نظام الفصل بين السلطات، وما تزال السلطة التنفيذية محصورة من عوائل الملوك والأمراء (المملكة السعودية، مملكة البحرين، الإمارات المتحدة والكويت وقطر).

الثورات والدساتير

خلال انتفاضات العامين ٢٠١١ و٢٠١٢ ظهر الجيش في هذه البلدان قوة رئيسية في احتمالات التغيير. في معظم هذه البلدان كانت الأحزاب ضعيفة تنظيمًا ونفوذًا. التيار السياسي الأبرز هو «الإسلاميون» الذين يستثمرون على الثقافة الشعبية الدينية. أعلنت القوى الأساسية الإسلامية أنها تريد بناء دولة غير دينية. قالت بعض هذه القوى بـ«الدولة المدنية» أو «الدولة الوطنية» (وثيقة الأزهر) واحترام الديمقراطية والتعددية. في معظم البلدان العربية يمثل «الإسلاميون» في حدود الثلاثين بالمئة من الجمهور لكنهم الطرف الأكثر فاعلية. يتصدرون النتائج الانتخابية ويسيطرون على المشهد السياسي. «الإسلاميون» تيارات عدّة، الليبرالية والسلفية والصوفية. يريد «الإسلاميون» أن تكون الشريعة الإسلامية المصدر الأساسي للتشريع. هذا الشعار لا يعني شيئًا واحدًا في كل الدول، خاصة تلك التي تتمتع بتعددية دينية ومذهبية وإثنية. وفي السابق كان هذا النص في معظم الدساتير العربية، أو بصورة «الإسلام أحد المصادر الأساسية للتشريع».

ليست البيئة الثقافية والسياسية واحدة في كل الدول العربية، ولا طبعًا مكونات المجتمعات السوسيولوجية.

في تونس توافر الاندماج الاجتماعي كما الانسجام الثقافي حيث لا تكوينات دينية أو مذهبية أو اثنية. وفي مصر هناك انسجام في البيئة الإسلامية لكن الجماعة

القبطية (المسيحية) جماعة وازنة.

في ليبيا البنية القبلية هي المحرك الأساسي للنزاعات. أما سورية فهي مجتمع تعدّدي متنوع المذاهب والاثنيات. في اليمن المذاهب أكثر قربًا وانسجامًا في ما بينها (الشافعي والزيدي)، ويتدخل العنصر القبلي ليقوّي البعد المذهبي. وتمثل مشكلة الجنوب الذي انضم إلى الشمال دون حصوله على حقوق متساوية إحدى المسائل الهامة في استقرار اليمن.

رغم كل هذا التكوين المتعدد هناك مستوى من الحداثة والمجتمع المدني في مصر وسورية وتونس، وهناك نسبة عالية من المتعلمين ومن القوى المدينية. عمليًا، الأنظمة والانتخابات والمؤسسات السياسية (الأحزاب) تحدد طبيعة الأنظمة. لا يعني الإسلام السياسي للجمهور الشيء نفسه في هذه الدول. الإخوان المسلمون في مصر جنحوا منذ زمن إلى الانفتاح وقويت فيهم الاتجاهات الليبرالية ومارسوا النشاط الديمقراطي في الانتخابات البرلمانية. أما تونس فزعيم حركة «النهضة» راشد الغنوشي مفكر إسلامي ليبرالي اجتهد لملاءَمة المشروع الإسلامي مع الدول الحديثة. الإخوان المسلمون في سورية خارج الحياة السياسية منذ ثلاثة عقود وينشطون في تنظيم سري وليست لديهم نخبة ثقافية بارزة كما في مصر وتونس. في مصر وسورية أحزاب يسارية (الشيوعيون) وقومية (الناصرية والبعث) وليبرالية (الوفد في مصر لا يقابله حزب ليبرالي سوري). تبدو الممارسة الديمقراطية أسهل في مصر وتونس بينما يشكل الواقع الطائفي صعوبة أكبر في سورية. حفل تاريخ سورية الحديث بالنزاعات الجهوية بين زعماء المدن الكبرى والحذر بين الجماعات الطائفية. اندلاع العنف في سورية يؤجّج النزاع الطائفي حيث السلطة محسوبة في خانة أقلية طائفية، والمعارضة الشعبية تتموضع في بيئة طائفية وازنة جدًا في النسيج الوطني.

ينصرف القول إلى أن دين الدولة هو الإسلام إلى هوية الدولة والنظام السياسي وسيادة الإسلام في تنظيمها.

ضعف الديمقراطية لدى كل الاتجاهات

لكن ثقافة المجموعات التي توصف بالأقليات هي ثقافة مدنية. إن هذه الجماعات اتخذت وما تزال هويات سياسية مدنية (البعث، الشيوعيون، الناصريون، والقوميون السوريون، والليبراليون).

في سورية، خلافًا لمصر وتونس وليبيا واليمن، المسألة الأكثر حراجة هي الموقع الإقليمي للدولة وحساسيتها تجاه التناقضات المحيطة به. تبدو سورية عقدة المشرق العربي وتصبح المداخلات الخارجية ونزاعات الدول عليها أكبر من أي مكان آخر. إضافة إلى طموحات الدول المجاورة (إسرائيل، إيران، تركيا) هناك التوترات الطائفية الممتدة من لبنان إلى العراق. معركة التغيير الديمقراطي لا تنفصل عن هذه التعقيدات الجيوسياسية والتوازنات الإقليمية. ومن المعروف أن الحروب الأهلية والصراعات الإقليمية ليست بيئة ملائمة للمسار الديمقراطي.

كلما ازداد عنف النزاعات تعاظمت معوقات التحول الديمقراطي. وفي سورية، منذ بداية الستينيات، صراع على هوية الدولة وعلى مركز الشريعة في الدستور. غالبًا ما عنى ذلك الطعن بشرعية سلطة البعث (العلمانية) والعائلة الحاكمة (العلوية).

يُجمع الباحثون على أن الإرث الليبرالي كان ضعيفًا وهامشيًا في خلفية نشوء الدول العربية الحديثة. يصف جاكوب لاندو في كتابه عن الحياة البرلمانية المصرية الأحزاب (قبل ١٩٥٢) بأنها «تجمعات رأي شكلية حول شخصيات سياسية» وقد برز ضعفها التنظيمي على نحو لافت. أما غسّان سلامة فقال بوجود «لحظة ليبرالية» أعقبت استقلال بلدان المشرق العربي ثم انتهت بسرعة على وقع الانقلابات العسكرية.

سيطر على الحياة السياسية العربية خلال مرحلة الاستقلال الفكر القومي الذي تأثر تدريجيًا بالفكر اليساري. لم تكن الديمقراطية هي القيمة الأساسية لهذا الفكر ولتلك القوى. بل إن هذه القوى نظرت إلى الديمقراطية كثقافة غربية مرتبطة بالاستعمار والإمبريالية. جنحت الدول العربية الحديثة الراديكالية وغير المحافظة إلى تبني أطروحات التحرر الوطني والوحدة القومية والاشتراكية. مثّل وجود «إسرائيل» مبررًا لهذه التوجهات كما مثّلت التحديات الغربية وصراعات الحرب الباردة تبريرًا خادعًا لتطوير آليات الدولة الأمنية في العالم العربي. ألغت هذه الأنظمة الحريات السياسية وخاصة بأنظمة الطوارئ وأحكمت قبضتها على الدولة والمجتمع وتبنت ايديولوجية مزيج من الاشتراكية والقومية والإسلامية. أدى فشل الأنظمة القومية في الداخل والخارج إلى صعود تيارات الإسلام السياسي باسم العدالة (عدالة النظام الإسلامي) والحرية (حرية المجتمعات من الاستبداد ومن الهيمنة الغربية).

لم تكن الديمقراطية هي القيمة الأساسية للفكر القومي. بل إن هذه القوى نظرت إلى الديمقراطية كثقافة غربية مرتبطة بالاستعمار والإمبريالية.

يرفض الإسلام السياسي المفاهيم الغربية لأنه يريد بناء نموذجه الثقافي الخاص. لكن هذا الرفض يتراجع تدريجيًا بقبول الإسلام السياسي الانخراط في اللعبة الديمقراطية والانتخابات البرلمانية، ومؤخرًا خاض السلفيون الانتخابات المصرية. يسوّغ قادة الحركات الإسلامية ذلك بأن الديمقراطية هي وسيلة من وسائل تعبير المجتمع عن إرادته. لا يصل الإسلام السياسي إلى فكرة «السيادة الشعبية» أي أن تكون السلطة للشعب وهو الذي ينظم حياته ودولته وفق احتياجاته المعاصرة، بل يعتبر ذلك وسيلة لتحقيق العدالة في الدولة الإسلامية. غير أن الإسلام السياسي العربي يحاول تأهيل مفهوم الدولة المدنية انسجامًا مع تعددية المجتمعات، ولا يعني الإسلاميون بـ«الدولة المدنية» حياد الدولة بين الأديان والاتجاهات الفكرية والسياسية، بل يقصدون أنها غير محكومة من المؤسسات الدينية أو رجال الدين. الدولة المدنية دولة يحكمها مسلمون وهي تحترم حقوق الجماعات الأخرى وفق شريعتها. يذهب بعض قيادات الحركات والأحزاب الإسلامية إلى «فقه المعاملات» (لتمييز ذلك عن فقه العبادات) ويقولون بإمكان إباحة بعض المعاملات الاجتماعية (أي إخضاعها للعقد المدني الوضعي). لكن لم يستقر الإسلاميون على مفهوم واحد للدولة بعد.

الإسلاميون ومعركة تعديل الدساتير العربية

ينص دستور الجمهورية التونسية الاول من حزيران/يونيو ١٩٥٩ على ما يلي: «تونس دولة حرة، مستقلة، ذات سيادة، الإسلام دينها، والعربية لغتها، والجمهورية نظامها. والجمهورية التونسية جزء من المغرب الكبير، والشعب التونسي صاحب السيادة يباشرها على الوجه الذي يضبطه هذا الدستور».

عندما نجحت الثورة التونسية في شباط/فبراير ٢٠١١ وأخذت على عاتقها تعديل الدستور التونسي، رأى راشد الغنوشي أن لا حاجة إلى تعديل هذه المواد (ف ١ و٢ و٣) من مقدمة الدستور التي تنص على أن الشعب التونسي مسلم. فالشعب التونسي شعب مسلم وكفى. ولا حاجة بالتالي إلى النص على ان دين الدولة هو الإسلام. اتجهت التعديلات إلى تنظيم السلطة السياسية وكيفية تداولها والصلاحيات في ما بينها. ومع ان رئيس الوزراء التونسي خرج داعيًا فور تعيينه إلى قيام الدولة الإسلامية وإعلان «الخلافة السادسة» لم يؤثر ذلك على الجو العام في الشراكة الوطنية، في الانتخابات وتوزيع أعضاء الحكومة والرئاسة.

في المغرب، تقوم السلطة تاريخيًا على شرعية دينية. فالملك هو أمير المؤمنين يحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية وفق المذهب المالكي. لم يحصل في المغرب جدل في هذه المعادلة لأن المعارضة المغربية اتجهت إلى تقوية سلطة الحكومة التنفيذية وتعزيز دور البرلمان والحريات العامة.

قام الملك بحركة إصلاحية عند توليه السلطة، ثم استجاب لبعض مطالب المعارضة أخيرًا ونص الدستور المغربي على الآتي: «تصدير: المملكة المغربية دولة ديمقراطية يسودها الحق والقانون.

مجتمع متضامن يتمتع فيه الجميع بالأمن والحرية والكرامة وتكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية ومقدمات العيش الكريم. المملكة المغربية دولة إسلامية موحدة بانصهار مكوناتها العربية، الإسلامية، الأمازيغية، الصحراوية الحسّانية، والغنية براوفدها الأندلسية والعبرية والمتوسطية...

يتضح أن الدستور المغربي يعتبر المغرب دولة إسلامية وليس الإسلام دين الدولة. أما السيادة فهي للشعب والمرجعية الإسلامية منوطة بالملك والمجلس الأعلى وفق «مقاصد الشريعة» أي يأخذ «بالمصالح المرسلة» والاجتهاد فيها. وينص الدستور المعدل على المكونات العرقية والدينية الأخرى (الأمازيغية، الصحراوية، واليهودية...).

في ليبيا أعلن رئيس المجلس الوطني الانتقالي مباشرة تطبيق الشريعة الإسلامية، لكننا لا نعرف بعد طبيعة المؤسسات التي ستنشأ ولا الدستور وأحكامه والمقصود العملي من تطبيق الشريعة، ففي دستور الجماهيرية الليبية في ٢ آذار/مارس ١٩٧٧ يرد «القرآن الكريم هو شريعة المجتمع في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية... والسلطة للشعب ولا سلطة لسواه». في اليمن العربي نص دستور ١٩٦٥ — وتكررت المقدمة لاحقًا في التعديلات ـ على أن اليمن دولة عربية إسلامية والشعب مصدر السلطات والإسلام دين الدولة والشريعة الرسلامية مصدر القوانين جميعًا. في المقابل، نص دستور جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في١١ اكتوبر ١٩٧٠ على أن الشعب اليمني جزء من الأمة

العربية ويمارس الشعب العامل كل السلطة السياسية (تحالف الطبقة العاملة والفلاحين والبرجوازية الصغيرة) ويقوم تنظيم الحزب القائد على أساس الاشتراكية العلمية. وفي دستور الجزائر ١٩ في حزيران ١٩٦٥ ان الجزائر جمهورية ديمقراطية شعبية اشتراكية والإسلام دين الدولة والسيادة للشعب.

مصر سورية

ينص دستور مصر (٢٣ يونيو ١٩٥٦) على الآتي: «مصر دولة عربية مستقلة... جمهورية ديمقراطية والشعب المصري جزء من الأمة العربية والسيادة للأمة والإسلام دين الدولة». عُدّل الدستور المصري غير مرّة لكنه حافظ على هذه الأسس والمنطلقات. وحين قامت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ طالب الإسلاميون بتضمين هوية الدولة عدّة أوصاف. منهم من قال مصر دولة إسلامية أو مدنية أو وطنية ومنهم من طالب باعتبار الإسلام دين الدولة والشريعة المصدر الوحيد للتشريع.

لكن المعارضة الديمقراطية العلمانية نفسها أوصت بما يلي:

ـ جمهورية مصر العربية دولة ديمقراطية

ـ الشعب المصري جزء من الأمة العربية

ـ الإسلام دين غالبية المصريين.. وتكفل الدولة حرية الاعتقاد بجميع المواطنين. (يحفظ هذا النص موقع الأقباط المسيحيين).

ـ المصادر الرئيسية للتشريع هي مبادئ الشريعة الاسلامية والمواثيق والاتفاقات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان.

ومعظم الجدل الدائر الآن هو حول المادة الثانية من الدستور المصري أي حول مركز الشريعة الإسلامية في هذا النظام، فهل الشريعة هي المصدر الرئيسي للتشريع، أم مبادئ الشريعة مصدر أساسي من مصادر التشريع؟ الإشكالية نفسها مطروحة في سورية التي نص دستورها (١٣ آذار/مارس ١٩٧٣) على أن «الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية واشتراكية... وهي جزء من الوطن العربي، والسيادة للشعب.. ودين رئيس الجمهورية الإسلام.. والفقه الإسلامي مصدر رئيسي للتشريع». وقد حافظ الدستور الجديد على هذه البنود (٢٠١٢).

ما الفوارق بين هذه النصوص الدستورية:

دولة إسلامية،

الإسلام دين الدولة أو دين الدولة الإسلام،

الإسلام هو المصدر الأساسي للتشريع،

الإسلام مصدر أساسي أو مصدر من مصادر التشريع،

الفقه الإسلامي مصدر للتشريع أو مبادئ الشريعة مصدر للتشريع؟

وهناك تعابير أخرى مختلفة..

ينصرف وصف الدولة المسماة إسلامية إلى هويتها التاريخية الحضارية، بينما ينصرف القول إلى أن دين الدولة هو الإسلام إلى هوية الدولة والنظام السياسي وسيادة الإسلام في تنظيمها.

وينصرف القول إن الإسلام مصدر من مصادر التشريع إلى الأخذ في الاعتبار دين غالبية الجمهور وأحواله الشخصية التي ترتبط بالشريعة الإسلامية. بينما مرجعية الشريعة تعني السلطة السائدة على التشريعات، أما الفقه فهو ينطوي على القبول بتعدد المذاهب والاجتهاد والمصالح المرسلة. ولقد اعتمد عبد الرزّاق السنهوري، الذي أعد معظم القوانين المدنية العربية في الأربعينيات، على أحكام المجلة العدلية العثمانية والفقه الإسلامي.

يصعب في ظل صعود الإسلام السياسي تنزيه الدولة عن الصفات أو إعلان حيادها المطلق، ما يعتبر في الثقافة الإسلاموية السائدة الآن علمنة للدولة والمجتمع. أي حياد الدولة المطلق وبالتالي حماية الدعوات العلمانية وممارستها. ويصعب أيضًا عدم ذكر مرجعية الشريعة كأحد المصادر الأساسية في ظل التوازن السياسي الحالي. هذه المعركة انفتحت حول الدساتير العربية في مراحل سابقة وحول تشريعات تتعلق بقوانين الموجبات والعقود ودائمًا في نطاق الأحوال الشخصية.

استطاعت مصر أن تطور نظامها المدني رغم الاستبداد السياسي. لعبت الثقافة التاريخية، ولا سيّما المؤسسات القضائية، دورًا مهمًا في الدفاع عن الحريات المدنية (مستمدة من الحقوق الطبيعية وتجسّدها القوانين الوضعية). كان لإنشاء المحكمة الدستورية أثر مميز في تعريف «النظام العام الوطني» ومدى حدود سيطرة الشريعة الإسلامية على القوانين في إطار احترام حرية جميع الفئات. ساهم التوازن السياسي في المجتمع في كبح جماح الإسلاميين مرارًا في استخدام السلطة للتضييق على حرية التعبير والتفكير والإبداع والبحث العلمي والأدبي. لم يمنع ذلك استجابة السلطة لبعض مطالب المرجعيات الدينية

لا يعني الإسلاميون بـ«الدولة المدنية» حياد الدولة بين الأديان والاتجاهات الفكرية والسياسية، بل يقصدون أنها غير محكومة من المؤسسات الدينية أو رجال الدين.



ينصرف القول إن الإسلام مصدر من مصادر التشريع إلى الأخذ في الاعتبار دين غالبية الجمهور وأحواله الشخصية التي ترتبط بالشريعة الإسلامية.

(الأزهر) لملاحقة مفكرين مثل الراحل نصر حامد أبو زيد أو الاعتداء على الروائي نجيب محفوظ أو طه حسين من قبل أو نوال السعداوي، وذلك من خلال ما يسمّى «نظام الحسبة في الإسلام» أي «النيابة العامة الإسلامية». وأخيرًا ملاحقة الممثل الفنان عادل إمام والحكم عليه بالسجن. أو من خلال تطبيق بعض أحكام الردة ومنع الزواج المختلط (المسلمة من مسيحي) (حادثة الفتاة التي لجأت إلى الكنيسة القبطية) والتضييق المتزايد على أجواء الحريات الشخصية في معظم البلدان العربية (ملاحقة فتاة سودانية لأنها اتخذت بنطال الجينز زيًّا لها، أو ملاحقة الفتاة اليمنية التي اتّهمت بالسفور. وبعض الإسلاميين يفرضون النقاب لا الحجاب فقط). باستثناء لبنان، لم تلتزم أي دولة عربية ميثاق حقوق الإنسان العالمي والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والعهود الأخرى لحماية المرأة من التمييز والطفل ومكافحة العنصرية والتعذيب (هذه القوانين المدنية الوضعية).

حاولت جامعة الدول العربية إقرار ميثاق حقوق الإنسان العربي، وقد أعد هذا الميثاق وفق الاستثناءات المرتبطة ببعض القيود الشرعية الدينية لكنه لم يصبح ملزمًا. واعترضت كل الدول العربية، بما فيها لبنان، على مواثيق حقوق المرأة والطفل في مؤتمر بيكين لأن الأحوال الشخصية التي تنظم الأسرة ذات مصدر ديني. في تجربة تونس واليمن الجنوبي سابقًا أمكن إقرار قانون موحد للأحوال الشخصية ألغى تعددية الزوجات وحدّد سن الزواج وخفض قيمة المهر الى حده الادنى ومنح المرأة حق الطلاق ونظم بعض شؤون الأسرة. لكن هذه القوانين الوضعية جرى إقرارها في بيئة تتمتّع بالانسجام الديني والمذهبي وتوافرت فيها ثقافة مدنية مؤثّرة. في لبنان الأكثر ارتباطًا بالثقافة الليبرالية، لم يستطع اللبنانيون إقرار قانون زواج مدني اختياري للأحوال الشخصية رغم وجود الحق الدستوري والحق القانوني في نظام الطوائف الذي أقر تحت الانتداب عام ١٩٣٦.

ورغم أن الإسلاميين غير السلفيين قدّموا تعهدات على مدنية الدولة وعلى كفالة الحريات عادوا يستخدمون سلطة الشريعة لتضمين الدساتير أحكاما تمييزية ملزمة بهدف التجييش الشعبي وبسبب خواء برنامجهم السياسي والاجتماعي من إجابات محدّدة على المشكلات الحقيقية المطروحة على الدول العربية. إلى ذلك، تتنافس بعض الاتجاهات الإسلامية في التشدد إزاء تضمين الدستور أحكامًا لإقامة الدولة الإسلامية، أي لتحويل الدولة سلطة في يد هذه الاتجاهات الدينية المتشددة. تفتح هذه المواجهة على مسألتين: الأولى، الإصلاح الديني في الإسلام الذي لم يسبق إنجازه بحيث لا تكون سلطة الدين واستخدامه مباحة لكل من يقيم نفسه مرجعية، وكذلك بحيث يتم الفصل بين ثقافة التديّن الشعبي وبين مصادرة الدين من قبل رجال الدين أنفسهم وهذا منتهى العمل السياسي الوضعي المدني أصلًا. الثانية هي إصلاح ثقافة المجتمع من خلال التمييز الواضح بين الإيمان الديني والممارسة السياسية واكتساب الثقافة المدنية والعلمية وتكريس حق الإنسان الطبيعي في التفكير الحر والاعتقاد والتعبير وضمان المساواة السياسية والمدنية بين المواطنين.

في معظم الدول العربية التي أقرت مرجعية الشرع الإسلامي بصفة أحد مصادر التشريع أو حتى المصدر الرئيسي، كان القضاء يشكّل الجهة التي تفسّر وتطبق القوانين ومدى حدود سلطة الشريعة. ففي مصر، لعب القضاء دورًا مهمًا في حماية حقوق الجماعات التي تلتزم تطبيق الشريعة لأنها ليست من رعايا الإسلام. في هذا الصدد هناك اجتهادات مصرية أكدت أنه «لا يجوز استبعاد تطبيق القانون الأجنبي (أو حتى قانون الجماعة غير الإسلامية) ما دامت هذه الأحكام لا تشكّل مخالفة للنظام العام أو الآداب العامة ولا تمس كيان الدولة أو مصلحة عامة أو مصلحة عامة أساسية للجماعة». وفي سياق آخر كانت المحاكم الإدارية والدستورية تميل إلى توسيع الحقوق المدنية (الوضعية) في وجه تقييدات الشريعة.

لكن المراجع الدينية في معظم البلدان العربية تتولى الفتوى (أو الفتية) في الإشكالات التي تستثير خلافًا. لذا تقوم المواجهة الأساسية في تنظيم مؤسسة القضاء وفي التشريعات القانونية الضامنة للحريات، لاسيّما قانون العقوبات والمحاكمات الجزائية وقوانين الإعلام وحريات التعبير والتفكير والضمير.

واقل ما يقال ان السجالات لا تزال في اولها.◆



حركة «٢٠ فبراير» المغربية: الشباب يثورون والإسلاميون يحكمون

محمد الخضيري

صحافي وكاتب من المغرب.

مرت حركة «٢٠ فبراير» بثلاث مراحل رئيسية. مرحلة التأسيس، ومرحلة «المواجهة» قبل أن تسيطر عليها «العدل والإحسان»، ومرحلة الضمور. في هذه الدراسة نحاول تقديم تركيب لأهم محطات الحراك الشعبي المغربي، والتأريخ لتفاعلاته ومكاسبه و«أزماته» واستشراف آفاقه المستقبلية الممكنة.

يوم ٢٠ فبراير/شباط ٢٠١١، أي بعد خمسة أيام من اندلاع الثورة المصرية، وأكثر من شهر على انتصار الثورة التونسية استجاب عشرات الآلاف من المغاربة لدعوة إلى الخروج إلى الشوارع أطلقها شباب مغاربة على موقع فايسبوك.

الحراك كان وليد سياق سياسي عربي انتصر فيه المواطنون لفكرة احتلال الشارع من أجل المطالبة بإصلاحات ولإسقاط الأنظمة السياسية. إذا كانت الحركات الشبابية في العالم العربي تبنت مبادئ ثورية «راديكالية» ورفعت شعار إسقاط النظام أولًا وأخيرًا كما حدث مع المصريين والتونسيين، فإنّ المحتجين المغاربة رفعوا مطلبًا أقل جذرية تمثل في المطالبة بالإبقاء على النظام الملكي، لكن مع إحداث تغييرات شاملة في تنظيم الحكم، على أساس أن يصبح النظام الملكي المغربي شبيها بالأنظمة الملكية الأوروبية التي يسود فيها الملك ولا يحكم. وبهذا كان سقف المطالب هو «ملكية برلمانية» يحافظ فيها الملك على موقعه «الرمزي» في الدولة. رفعت الحركة في أسابيعها الأولى، إلى جانب مطلبها الرئيس، العديد من المطالب، التي ارتأت أنّ تحقيقها سيخرج المغرب من الفساد السياسي و«الحقرة» (الاحتقار) وهيمنة لوبيات الفساد المقربة من «المخزن». تختزل المطالب الرئيسة في حراك شباب «٢٠ فبراير» عدّة مطالب اعتبروا أنّها مدخل الديمقراطية في المملكة: الملكية البرلمانية، إقالة الحكومة، مجلس تأسيسي يأتي بدستور جديد، حل البرلمان، إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، محاكمة مسؤولين سياسيين واقتصاديين وأمنيين، منهم أسماء مقربة من القصر؛ إضافة إلى مجموعة من المطالب الاقتصادية والاجتماعية.

ومن أهم الملامح في بداية الاحتجاج رفع مطلب «الشعب يريد إسقاط الاستبداد»، الذي ظل ضبابيا ولم يفهم منه حينها إن كان تمهيدا لمطلب إسقاط النظام، أم أنه كان مطلبا من أجل القطيعة مع ممارسة سياسية يتحكم فيها الملك بسلطة القرار الشاملة وفق القوانين والدستور.



من التخوين إلى الشارع...

قبيل الخروج إلى الشارع انطلقت حملة تخوين في بعض وسائل الإعلام الوطنية، منها وكالة الأنباء الحكومية وصحف «مقربة من النظام». وصفت الصحف أعضاء من «٢٠ فبراير» أطلقوا نداءات عبر الإنترنت قبل الخروج إلى الشارع، بالـ«مسيحيين»، و«عملاء البوليزاريو»، و«المثليين»... وهي كلها نعوت تؤثر في التعاطف مع دعوات الاحتجاج.

أطلقت أيضا حملة إعلامية تروج لإلغاء مسيرات «٢٠ فبراير» من طرف المعلنين عنها. قصاصة نشرتها «وكالة المغرب العربي للأنباء» قالت فيها: «إن رشيد عنتيد أحد مؤسسي صفحة «حركة حرية وديمقراطية الآن» (الداعية للخروج إلى الشارع يوم ٢٠ فبراير/شباط) أكد على «إلغاء الدعوة التي وجهتها حركتهم إلى التظاهر يوم غد الأحد ولقيت دعوته تجاوبا من قبل العديد من الشباب». في ما بعد، اكتشف أن عنتيد قبل تحت الضغوط والإغراءات بالإعلان عن إلغاء الاحتجاج. زملاؤه في مجموعة فايس بوك الذين أطلقوا الفكرة أكدوا أنهم يرفضون هذا المبدأ وأنهم يصرون على تنظيم الوقفات في مدن المملكة. هشام أحلا أحد مؤسسي الصفحة المذكورة، صرح على صفحته في الموقع الاجتماعي بأنه لم يستشر من طرف عنتيد و«لم يجر إخباره بمحتوى القرار». وأضاف: ما «وقع كان دون علمي كما أنه خطوة فردية لا تعبر عن قرارات الحركة. نعبّر الآن في هذه اللحظة التاريخية عن استغرابنا لما صدر عن رشيد ونقول له إن الأهداف التي سطرتها الحركة مند تأسيسها سنخرج من أجلها حتى تتحقق».

في الدار البيضاء خرج نحو ١٦ ألف مواطن يوم ٢٠ فبراير/شباط إلى «ساحة الحمَامْ» كما نظّمت عشرات الوقفات عبر المملكة، تعدى عدد المشاركين فيها نصف مليون شخص، حسب الحركة.

كان التاريخ إذا تاريخ ولادة الـ«٢٠ فبراير»، إلا أنه يوم حزين من تاريخ الحركة التي تعمدت بالدماء. السلطات وبدل مقابلة الاحتجاجات بالقمع الذي يجر عليها السخط الشعبي، كما حدث في مصر وتونس، استفادت من الدرس في البلدين، وقابلت الوقفات والمسيرات التي عرفها البلد بتكتيك جديد تمثل في «الحياد السلبي»، بينما تدخلت بعنف في المدن الصغرى المعروفة بمكانتها الرمزية كصفرو التي سبق أن عرفت انتفاضة. في مدينة صفرو سقط كريم الشايب ضحية عنف عناصر أمنية، ويوجد تسجيل فيديو يوثق للتدخل العنيف لقوى الأمن في حقه. في المقابل، عرفت مدن كمراكش والحسيمة وطنجة «انفلاتا أمنيا». خمسة من شباب الحركة في مدينة الحسيمة هم جعفر نبيل، القاضي عماد، بنقدور جواد، السالمي جمال، البوعزاوي سمير، ماتوا محروقين في وكالة بنكية. الرواية الأولى التي روجت لها السلطات الأمنية ووسائل الإعلام الحكومي كانت أنهم لصوص لا علاقة لهم بالاحتجاجات حاولوا سرقة البنك المحترق... لكن الوقائع توضحت في ما بعد. نشرت حركة «٢٠ فبراير» تسجيلا يظهر مشاركتهم في مسيرة يوم العشرين. لف الكثير من الغموض تفاصيل وفاتهم. اختفى تسجيل كاميرات مراقبة الوكالة البنكية، ولم يفرج إطلاقًا عن نتائج التحقيقات في الملف. مدينتا طنجة ومراكش عرفتا انفلاتا أمنيا، طيلة يومين بعد الحادث، إذ تم تكسير واجهات محال، وحدثت عمليات شغب، لكن الحركة نفت في مجمل بلاغاتها أن يكون المتورطون في الأحداث منتمين إليها أو مشاركين في مسيراتها. ويبدو أن «الحياد السلبي» للسلطات الأمنية في تأطير الاحتجاج آتى نتائجه، فكانت ضريبة الأعمال التخريبية على تطور الاحتجاج في المدينتين غالية، إذ تميزت نسب المشاركة بالمسيرات طيلة أشهر تلت الحادث بوصولها إلى الضعف. لكن الحركة في مدينة الدار البيضاء والرباط، عرفت نجاحا ثم ازدهارا. كل أسبوع كانت الحركة تنظم وقفة في مدن الدار البيضاء والرباط يرتفع عدد المشاركين فيها، قبل أن تقرر تنظيم مسيرات، خصوصا في الدار البيضاء يوم ٢٠ مارس/آذار ٢٠١١، وكانت المسيرة الأكبر في تاريخ الحركة في المدينة حيث وصل عدد المشاركين فيها إلى أكثر من ستين ألف شخص. جاءت مسيرة عشرين مارس/

مطلب «الشعب يريد إسقاط الاستبداد» ظل ضبابيا ولم يفهم منه إن كان تمهيدا لمطلب إسقاط النظام، أم مطلبا من أجل القطيعة مع ممارسة سياسية يتحكم فيها الملك بسلطة القرار الشاملة.



آذار ردًا على التدخل الأمني في مدينة الدار البيضاء يوم ١٣ مارس/آذار، الذي خلف عشرات الجرحى، واقتحمت خلاله قوات الأمن مقر «الحزب الاشتراكي الموحد»، أحد الداعمين للحركة وحيث كانت تجرى جمعيتها العامة.

خدعة «التعديل الدستوري»

أربك الخطاب الملكي المشهور بخطاب «٩ مارس»، حسابات حركة «٢٠ فبراير». وجدت الحركة نفسها أمام مجموعة من التنازلات الملكية، التي تحقق بعض مطالب الحركة. فخلال الخطاب أعلن الملك عن «تعديل» الدستور، وإقالة الحكومة والبرلمان، وإجراء انتخابات مبكرة. طريقة الإعلان عن هذه «الإصلاحات»، والترويج الإعلامي الكبير لها في وسائل الإعلام روجا لفكرة مفادها أن الملك استجاب لكل مطالب الحركة. ومباشرة بعد الخطاب، أعلن القصر عن خروجه من مشاريع اقتصادية وإعادة هيكلة الشركات الملكية.

طيلة حراك «٢٠ فبراير» اعتمدت السلطة في المغرب الإعلام لمواجهة الحراك الشعبي والشبابي. فهم النظام بسرعة أن نبرة التخوين لن تنفع في أي شيء، وتحولت وسائل الإعلام المغربية الحكومية من تلفزيون وإذاعات إلى أداة لـ«التطبيع» مع الحركة وجعلها ظاهرة احتجاجية مجتمعية تدخل خانة «الاعتيادية». هكذا عمد الإعلام الحكومي إلى «تحييد» الحركة وتحويلها من إمكانية ثورية/معارضة تطرح بديلا، وتهدد بنية النظام، ونمط وجوده ومنطقه الداخلي، إلى مجرد ظاهرة احتجاجية استجاب لها النظام الملكي، بل وكان سباقا عليها بمقترحاته التي تحلحل الأزمة السياسية بالبلد.

استقبلت المحطات التلفزيونية شبابا يمثلون «٢٠ فبراير» في برامج حوارية تبث على الهواء، ومنحتهم الحق في التعبير كما يريدون، كما استقبلت صحف مقربة من السلطة الشباب أنفسهم على صفحاتها، فانتقلت الصورة الرمزية «المعارضة» إلى صورة الحركة «الإصلاحية». التحول في الفضاء الذي يستوعب الشباب من الشارع إلى التلفزيون ووسائط اتصالهم من الفايس بوك إلى الشاشات وصفحات الجرائد، غَيَّر من وقع خطابهم ليصبح في خانة الاعتيادي. هكذا صرنا إزاء صورة يقدم فيها الشباب على أنهم إصلاحيون، ويحاربون — كما تحارب السلطة — الفساد السياسي والاقتصادي المتغلغل في البلد، بدل صورتهم كشباب يضعون مرتكزات السلطة محل تساؤل.

البروباغندا الإعلامية الرسمية سوقت لمقترحات الملك التي تخص التعديل الدستوري على أنها فتح سياسي جديد للمؤسسة الملكية، وتم إنزال قوي لكل وسائل الاتصال بما فيها التقليدية من «أعوان السلطة»، لأجل إقناع الناخبين بضرورة التصويت بـ«نعم» خلال الاستفتاء الدستوري. قبلها أعلن عن تأسيس لجنة «مراجعة الدستور» التي ترأسها القانوني عبد اللطيف المنوني، مقابل مطلب «المجلس التأسيسي». رفضت الحركة الجلوس إلى طاولة الحوار مع اللجنة (التي عين رئيسها بعد ذلك بأشهر مستشارًا للملك) وتقديم مقترحات لها كما دعت إلى مقاطعة الاستفتاء الدستوري، لكنها بالمقابل عجزت عن تطوير تصور واضح للنص الدستوري الذي تريده.

في الضفة الأخرى أي ضفة السلطة، التقى أعضاء اللجنة عشرات الفاعلين السياسيين والنقابيين المنضوين



فـي تنظيمات، ومنظمات أهلية، لإضـفـاء صفة «التوافق بين جميع مـكـونـات وشـرائـح البلد حــول الـنـص الجديد للدستور». تحققت «الـخـدعـة»، وفـي عملية تـزويـر كبيرة طـاولـت العديد مـن مكاتب الاقـتـراع، كما أوردت وسائل إعــلام ومنظمات حقوقية راقـبـت الانـتـخـابـات، صــوت ٩٨ في المئة من المقترعين بـ«نعم» على الدستور.

توسع رقعة الاحتجاج

الحركة بالمقابل عرفت امـتـدادا مستمرا في عـدة مدن. أعــداد المساهمين فـي مسيراتها بطنجة ومــدن الريف، ومــدن حـوض الفوسفاط تـكـاثـرت. وعـرفـت الـعـديـد من المدن والقرى وقفات ومسيرات واعتصامات.

مــدن حــوض الـفـوسـفـاط وجـــدت بـــدورهـــا توسعا فــي الــحــراك الاحـتـجـاجـي، وقـــادت هـــذه الاحـتـجـاجـات «٢٠ فـبـرايـر»، إلــى جـانـب المعطلين، وأبـنـاء متقاعدي الفوسفاط. خريبكة شهدت مواجهات عنيفة بين الأمــن والمتظاهرين، وأحرقت عـدة مؤسسات تابعة لـ«المكتب الشريف للفوسفاط» (الــذي يعدّ أكبر مُنْتَج وطني وتدبره الشركة الـمـذكـورة)، بينما لجأ ناشطون في «٢٠ فبراير» وجمعيات المعطلين بكل من اليوسفية وآسفي إلى منع الـقـطـارات الـتـي تنقل الفوسفاط مـن الـمـرور بالسكك، مقيمين الحواجز البشرية.

تـعـامـل الـسـلـطـات مــع الاحـتـجـاجـات اخـتـلـف من مـديـنـة إلـــى أخـــرى. راوح مـا بـيـن الـتـدخـل الأمــنــي في بعض الــمــدن والــســمــاح بتنظيم مـسـيـرات دون التدخل فـي حـق المحتجين. لكن التدخل الأمـنـي فـي عـدة مدن عـرف تـجـاوزات: في آسفي مثلا، وقعت حالتا وفــاة، أبرز ضحاياهما كـمـال عــمــاري، كونه أول شهيد (يــوم ٢٩ مــاي/ ايــار ٢٠١١) يسقط خـلال تظاهرة لـــ«٢٠ فبراير» على أيــدي الأمـــن. الـشـاب المنتمي إلــى جماعة العدل والإحــســان، و«٢٠ فــبــرايــر»، شــارك بمسيرة للحركة، في حي «كـاوكـي» بالمدينة، المعروف بتعبئة قوية للحراك فــي شــوارعــه. لكنه أحـيـط بعناصر مــن قـــوات التدخل الــســريــع، حسب شـبـاب الـحـركـة فــي الـمـديـنـة، وتعرض لضرب مبرح، فـارق على اثـره الحياة بعد أيـام، بينما يقول تقرير الطب الشرعي إن وفاته نتجت من اعتلال رئـوي. التدخل الأمـنـي فـي عـدة مـدن كـان عنيفا، كما اختطف أعـضـاء مـن الحركة وعــذب بعضهم قبل الإفــراج عنهم. غير أن هـذه التدخلات كانت جزئية، إذ تم تدبير الملف من طـرف السلطات الأمنية، بطريقة يجري فيها الابتعاد ما أمكن عن التدخل الأمني.

مـديـنـة الــربــاط بـالـمـقـابـل شـهـدت أكـبـر عـــدد من التدخلات الأمنية. ولما أراد ناشطون في الحركة تنظيم شكل مـن أشـكـال الاحـتـجـاجـات فيها، أطـلـق عليه «بيك نيك» (نــزهــة) أمـــام مقر جهاز الاسـتـخـبـارات «المديرية العامة لمراقبة التراب الوطني»، والــذي توجه له تهم من طـرف منظمات حقوقية دولية ووطنية بتعذيب معتقلين داخــل مـقـاره، حــدث تدخل أمني عنيف فـي حـق ناشطي الـربـاط، سبق تنظيم النزهة. شهدت مدينة الـربـاط أكبر عـدد من التدخلات الأمنية لثني «٢٠ فبراير» عن تنظيم مسيراتهم ووقـفـاتـهـم، وذلــك لحساسيتها بحكم أنها عاصمة المملكة.

بعد الإعــلان عن تعديل دستور المملكة في الخطاب الملكي لــ٩ مـــارس/ آذار، وتنصيب «اللجنة الاستشارية لـمـراجـعـة الــدســتــور» رفـضـت حـركـة «٢٠ فـبـرايـر» الـدخـول فـي أي حــوار مـع المؤسسات. واعتبرت الحركة



أن الإعلان عن اللجنة لا يستجيب لمطلب «المجلس التأسيسي». واستمرت في الاحتجاج. وحين أعلن عن التعديل الدستوري ساهمت للحركة في حملة مقاطعة الدستور التي دعت إليها إلى جانب أحزاب تحالف اليسار الديمقراطي («المؤتمر»، «الطليعة»، «اليسار الاشتراكي الموحد»)، و«النهج الديمقراطي».

ونظمت الحركة عدة حملات لدعوة المواطنين إلى الامتناع عن المشاركة في الاستفتاء الدستوري. إلا أنها لم تحقق ما كانت ترجوه. «٢٠ فبراير» دعت إلى مقاطعة الانتخابات التشريعية أيضا، ونظمت تجمعات ووزعت منشورات تدعو إلى المقاطعة.

أخطاء في التدبير

إذا كان النظام نجح في تدبير المرحلة، فقد كانت حركة «٢٠ فبراير» أمام أزمة داخلية تمثلت في كيفية اتخاذ قرارات. الطابع غير المنظم للحراك، وتعدد مصادر القرار أدخلاها في بعض الأحيان نفق الارتجال مع تعدد الأجندات داخلها، إذ لم تعد حراكا شبابيا رموزه من «المستقلين» كما في بداياتها، بل صارت الحركة أمام مستويين مختلفين من اتخاذ القرار.

على مستوى «المركز»: في مدينتي الرباط والدار البيضاء وجدت الحركة نفسها أمام مأزق إنزال الأحزاب السياسية. فقد عرفت العاصمة الرباط صراعات بين شباب مستقلين وآخرين ينحدرون من أحزاب وتنظيمات يسارية، أرادوا الاستحواذ على قرار الحركة، بينما في الدار البيضاء، عرفت لجان كالمالية واللوجستيك والشعارات سيطرة أحزاب سياسية معينة على مقرراتها.

وأصبحت الجموع العامة، التي يفترض أنها برلمان الحركة في الدار البيضاء، في الكثير من لحظاتها، مجرد جموع شكلية تشهد فرض قرارات سابقة اتخذت في اجتماعات سرية.

على مستوى التنسيق الوطني: تكرر الأمر. كذلك دفع اختلاف تمثيليات الحساسيات السياسية داخل كل موقع إلى اختلاف في الأشكال الاحتجاجية على المستوى الوطني وتباينها. الطابع غير المنظم للحركة على المستوى الوطني، وغياب التواصل بين المدن أدّيا إلى «إنهاك الحركة» ودخل بها إلى مرحلة من الاختلافات وتبادل الاتهامات بين مختلف مكوناتها وتقدير المرحلة بين مواقع تجزم بأن عليها التصعيد وأخرى تقول بالحفاظ على نمط معين من الاحتجاج. إسلاميو «العدل والإحسان» المنظمون على الصعيد الوطني والذين لا ينزلون إلى الشارع إلا بأمر قياداتهم، وأحزاب اليسار التي يختلف حضورها في المدن، ويختلف حجمها السياسي وحضورها أثروا في الحراك. اليسار كان له حضور قوي على مستوى القرارات، لكنه لم يكن بالحجم نفسه خلال التعبئة، خصوصا أننا هنا نتحدث عن أحزاب تعرضت للتضييق طيلة عقود، أصبحت معها أحزابا صغيرة لا يتعدى عدد ناشطيها والمتعاطفين معها عشرات الآلاف في بلاد تعداد سكانها أكثر من ثلاثين مليون شخص.

إنزال الأحزاب داخل الحركة، لم ينقل إليها فاعلية تنظيمية وقدرة على التعبئة كما حدث في تجارب دول أخرى، بقدر ما نقل إليها مشاكل الديمقراطية الداخلية الغائبة عن العديد من الأحزاب، من جانب والصراعات في ما بينها من جانب ثان. العديد من المتعاطفين مع الحركة، والناشطين فيها، انسحبوا بعد إحساسهم بأن حراك «٢٠ فبراير» سرق الشباب لصالح الأحزاب السياسية التقليدية التي يعدّونها جزءا من المشكلة.

معطى آخر ساهم في انحسار مد الحراك في الشارع: يتعلق الأمر باختيار تنظيم المسيرات الأسبوعية للحركة، وكانت تنظم أيام الآحاد، في الأحياء الشعبية خلافا للتوجه الذي كانت تسير به الحركة في الأول والمتمثل في تنظيم وقفات ومسيرات في مركز المدينة. الأحياء الشعبية صارت عائقا أمام



الحركة بدل منحها ألقًا، فهي ليست أرضا محايدة كما مركز المدينة، بل يسيطر عليها منتمون إلى أحزاب مقربة من السلطة، لهم ما يشبه العصابات الإجرامية. «بلطجية» الأعيان الحزبيين، اعتدوا على مسيرات «٢٠ فبراير» أكثر من مرة، وأعطوا مبررا للأمن بالتدخل لتفريق المتظاهرين بينما في الحقيقة كان تدخله لإنهاء مسيرات الحركة. هكذا كان قرار نقل الاحتجاجات إلى الأحياء الشعبية، والاعتقاد بأن هذا كفيل بأن يفجر مواجهات مع الأمن، والاتجاه بالاحتجاجات إلى أفق آخر خاطئ...

تقلص حجم المشاركين في الوقفات إذًا، وتغيرت التركيبة السوسيولوجية للمحتجين. ففي الحين الذي تميزت فيه الحركة خلالها أشهرها الستة الأولى بمشاركة مكثفة للطبقة المتوسطة، شهدت مشاركة تكتلات ذات مطالب اجتماعية بحتة كمشاكل السكن، وتوزيع الماء والكهرباء، والنقل إلخ. غاب السياسي المحض عن الحركة، وفقدت قدرتها على التعبئة بتبنيها التركيز على مطالب اجتماعية وفئوية وانتقالها إلى الأحياء الشعبية.

كذلك وجدت الحركة نفسها أمام أزمة في التعبئة وبناء التحالفات، فالتنظيمات التي يفترض أن تتحالف مع الحراك الاحتجاجي، تعيش في المغرب أزمة وجود حقيقية. الاتحادات الطلابية تعرف انشقاقا كبيرا وعدم قدرة على خلق وحدة طلابية وتنظيم طلابي قوي، بينما النقابات تعيش أزمة كبيرة وتشهد سيطرة ديناصورات نقابية تخنق الفعل النقابي، ولم تعمل على التحالف مع الحركة وإنزال مناضليها إلى الشارع. الطلاب والعمال كانوا ليشكلوا اختلافا جوهريا في الحركة.

سيطرة العدليين

انطلاقا من شهر ماي/أيار ٢٠١١ بدأت تترسخ هيمنة جماعة «العدل والإحسان» الإسلامية المحظورة على حركة «٢٠ فبراير». العدليون، الذين سايروا مد الحركة اقتداء بإخوان مصر، هيمنوا على العشرينيين بقفازات من مخمل، خصوصا في مدينة الدار البيضاء عبر ما أطلق عليه «النواة الصلبة»، وكانت تضم «العدل والإحسان» إلى جانب حساسيات سياسية أخرى من اليسار الجذري اتفقت مصالحهم مع الحركة واعتبروا أنها تخدم أجندتهم. النواة كانت تحسم في أماكن انعقاد مسيرات «٢٠ فبراير»، خلافا للمرحلة الأولى من الحركة والتي كانت قراراتها فيها تخرج عن الجموع العامة..

عمد الإعلام الحكومي إلى «تحييد» الحركة وتحويلها من إمكانية ثورية/معارضة تطرح بديلا، وتهدد بنية النظام إلى مجرد ظاهرة احتجاجية استجاب لها النظام الملكي.

وبعدما كانت «العدل والإحسان» تكتفي بالحضور بكثافة داخل مسيرات الحركة ووقفاتها، وشغل فضاءات خاصة تضم أنصارها ذكورا وإناثا، دون محاولة الهيمنة على طبيعة تنظيم الشكل الاحتجاجي... تحولت مع مَرِّ المسيرات إلى العنصر المهيمن على وقفات الحركة ومسيراتها. في إحدى مسيرات الحركة (يوم ٢٩ ماي/ايار ٢٠١١) وقع حدث دال: إذ حين أراد أحد ناشطي «٢٠ فبراير»، أخذ الميكروفون من أجل ترديد بعض الشعارات نزعه من يده أحد أعضاء «العدل والإحسان»، ورفض السماح له بالحديث، تحت تهديد ممارسة العنف عليه. وكانت هذه بداية تحول مواقف أتباع الشيخ عبد السلام ياسين، وتكتيكهم في تدبير الاختلاف مع مكونات الحركة الأخرى.

العدليون أصبحوا أكثر حضورا، وبعد ان انحنوا للعاصفة «الحداثية» في البداية، كشروا عن أنيابهم (أعلنوا في بيان لهم أنهم يطالبون بدورهم بـ«دولة مدنية» رغم عدم تعريفهم لما يقصدون بالمصطلح وإصرارهم على تعويم شرحهم له).

مع الوقت تسربوا في مختلف اللجان المشكلة لحركة «٢٠ فبراير» مثل لجنة الإعلام واللجنة اللوجستية التي تعتبر القلب النابض للحركة في مختلف المواقع. هذا التسرب تصطلح عليه جماعة الشيخ ياسين «بالتسرب اللطيف». أتباع الشيخ ياسين، وبعد أن كانوا ملتزمين في المحطات الاحتجاجية الأولى بالمطالب المرفوعة من طرف حركة «٢٠ فبراير» بدؤوا تدريجيا، بالموازاة مع إحكام قبضتهم على الحركة، في الانزياح عن الشعارات التي ترفعها والتعبير عن المواقف السياسية التقليدية للجماعة من النظام السياسي. كذلك تصارعوا داخل تنسيقيات مجموعة من المدن من أجل تحويل مطلب دستور ينص على ملكية برلمانية «إلى دستور شعبي ديمقراطي»، بما تحتمله هذه الجملة من إمكانية «إسقاط النظام».

بالمقابل، وجدت «العدل والإحسان» مقاومة في بعض المواقع، خصوصا بمدينة فاس، حيث كان ينشط طلبة جامعة ظهر المهراز المنضوون لتيار «النهج الديمقراطي القاعدي» (الماركسية) الذين واجهوا بحزم العدليين بل دخلوا في مواجهات معهم، وهو ما دفع



العدليين إلى تنظيم مسيرات خاصة بهم بعد مواجهات بينهم وبين التنظيم الطلابي.

حضور الجماعة أصبح أكثر بروزا في المواقع التي أصبحت تعرف راديكالية أكبر، ورفعت شعارات مختلفة عن الشعارات السابقة التي رفعتها الحركة في بداياتها. فمن «الشعب يريد إسقاط الاستبداد» أصبحت تتردد في ساحات المملكة شعارات «تقاد ولا خوي البلاد» (عليك أن تعتدل أو إرحل، في إشارة إلى ملك البلاد)، و«هذا المغرب وهذا ناسو والحاكم يفهم راسو» (هذا المغرب وهؤلاء ناسه وعلى الحاكم أن يفهم الرسالة).

بعد الانتخابات التشريعية في شهر نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١، التي جاءت نتيجة التعديل الدستوري وصعود حزب «العدالة والتنمية» الإسلامي إلى الحكم، تغير سلوك «العدل والإحسان» داخل «٢٠ فبراير»، فالجماعة فهمت أن «العدالة والتنمية» الذي كان من أشد المعادين للحركة، هو الذي جنى ثمار «الربيع المغربي» وهو يصل إلى أول حكومة لدى رئيسها صلاحيات موسعة نسبيا.

تغير سلوك «العدل والإحسان» بعض الأحيان بدا واضحا في حجم مشاركتها في الاحتجاجات، فأحيانا كانت تقوم بإنزال عددي، وتفرض شعاراتها ورموزها، وفي أحيان أخرى كانت تغيب عن المسيرات.

وتدهورت علاقة الحركة ببعض مكوناتها مع الوقت.. وقبل آخر مشاركة لها في الدار البيضاء، ترددت شائعات عن إمكانية مغادرتها لسفينة «٢٠ فبراير» وهو ما أقدمت عليه ليلة ١٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١١. وأكد بلاغ نشر على موقع الجماعة انسحابها، في حين برر الناطق الرسمي باسم الجماعة فتح الله أرسلان، بأن: «٢٠ فبراير، أصبحت بالنسبة إلينا مجالاً محصورا جدا وضيقا والتحرك فيه بات صعبًا». بعد ذلك بأسبوع، خرج الآلاف في مدينة الدار البيضاء.. وكأنهم يرسلون إلى «العدل والإحسان» رسالة بأن الحركة استرجعها «مؤسسوها».. لكن هذه الأعداد سرعان ما تقلصت وأصبحت المسيرات لا تستقطب إلا آلافًا تقل عن العشرة.

أفق ممكن...

تظل حركة «٢٠ فبراير»، رغم الأزمة الداخلية التي تعيشها، إمكانية لفعل احتجاجي أعمق وأشمل، فداخلها تشكلت صورة جديدة عن المغاربة الذين رفعوا سقف الاحتجاج والانتقاد للسلطة وتعبيراتها المختلفة عاليا. في «٢٠ فبراير» ظهر جيل جديد من المناضلين والناشطين، هو امتداد لسابقيهم داخل الأحزاب لكنه يختلف عنهم بصراحته وكسره الكثير من التابوهات التي تتعلق بـ«قداسة» النظام. من أبرز ما أطلقه حراك «٢٠ فبراير»، فكرة مفادها «أن الإجماع لا يوجد بالبلد». هكذا استطاعوا دفن فكرة روجت لها بروباغندا الدولة طيلة عقود من أن المغاربة متفقون حول شكل الحكم بالبلد. كان من نتائج حراك «٢٠ فبراير» أيضا إسقاط حكومة حزب الاستقلال ورئيسه عباس الفاسي، التي تعتبر من أضعف الحكومات في تاريخ المغرب المعاصر إن لم تكن أضعفها. كما أنها اكتسبت، تعديلا دستوريا ثمينا رغم أنه لم يحقق كل مطالبها، فقد استطاع أن يجر جزءا من البساط من تحت أقدام المؤسسة الملكية، وينقل بعض السلطات إلى رئاسة الحكومة، المنبثقة من البرلمان. وانتهى عصر «القداسة» ودفنت فكرة الفصل ١٩ التي رافقت جميع دساتير المغرب الحديث الذي يقول: «الملك مقدس ولا تنتهك حرمته».

كشفت الحركة أيضا عن أشكال تعبيرية فنية، رغم أنها ليست ناضجة بما فيه الكفاية، إلا أنها تساهم في خلق وعي مجتمعي جديد، ورؤية مواطن مستقبلي متحرر من عقد الآباء، كما حدث مع معاد بلغوات الملقب بـ(الحاقد)، مغني الراب الذي انتقد الملك بشكل لم يجرؤ عليه أحد، ويونس بلخديم، كاتب شعارات الحركة. أصوات كهذه، نبتت في التربة الشعبية المغربية وبمستوى تعليمي بسيط، لم يكن لها أن ترتفع ولا أن تسمع لو لم تأت داخل الصوت الأكبر الذي هو حركة «٢٠ فبراير»، لكنها تجد نفسها اليوم خلف القضبان بعد محاكمات بتهم واهية فبركتها السلطات من أجل إسكات أصواتها.

حققت «٢٠ فبراير» أيضا الإفراج عن المعتقلين السياسيين الستة في ملف مفبرك أطلق عليه «الخلية الإرهابية» لبلعيرج، وبعض معتقلي الرأي السلفيين، واستطاعت تحقيق زيادات طفيفة في الأجور، وتحريك متابعات للفاسدين سياسيا، رغم أن الكثير من الأسماء التي رفعت في المسيرات وطالب المحتجون برحيلها لا تزال هنا، مثل أحمد



منير الماجدي السكرتير الخاص للملك ومدبر ثروته، وفؤاد عالي الهمة، المتحكم في دواليب السياسة منذ تولي محمد السادس الحكم، والذي بدل إبعاده عينه الملك مستشارا له بعد خفوت الاحتجاجات.

إن «٢٠ فبراير» المغربية، هي بداية شكل جديد من أشكال النضال السلمي من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والقطع مع الفساد، ميزتها أنها وليدة شباب مغاربة كانوا لأشهر قليلة قبل الحراك الاحتجاجي يقاطعون السياسة ويعزفون عن المشاركة في الشأن العام. وإذا كان النظام نجح في «تحييدها» مؤقتا، فإن كل السياسات الأمنية والاجتماعية والسياسية والتضييق على الحريات، والاجــراءات الاقتصادية التي تتجه أكثر نحو إرضاء إملاءات المؤسسات المالية الدولية والاتحاد الأوروبـــي، لن تعمل إلا على إحياء الحركة، وإنتاج الأسباب نفسها التي دفعت إلى الخروج إلى الشارع. حينها سنرى «٢٠ فبراير» إما باسمها الحالي أو في شكل آخر أكثر تطورا. شكل من الطبيعي أن يستفيد من أخطاء سنة ونصف السنة من النضال، لبناء حراك شعبي أقوى، يحقق نتائج أهم.◆

الحركات الاحتجاجية والإصلاح الدستوري في البحرين

عبد النبي العكري

معارض بحريني من الجيل المخضرم. عضو مؤسس في «جمعية وعد». رئيس الجمعية البحرينية للشفافية.

في الرابع عشر من فبراير/شباط ٢٠١١، غداة الأحداث في تونس ومصر، دعت مجموعات من النشطاء البحرينيين الشباب إلى اعتصام في دوار اللؤلؤة بالمنامة. وما لبث هذا الحراك أن امتد فووجِه بالقمع من قبل النظام البحريني. كانت مطالب المحتجين في البداية متمحورة حول الإصلاح، لكن تصلب الملك في الاستجابة لها دفع الحراك نحو المزيد من التصلّب والراديكالية.

عشر سنوات من الانتظار

جاءت الدعوة إلى الانتفاضة الشعبية في البحرين يوم ١٤ فبراير/شباط ٢٠١١ في تاريخ ذي مغزى كبير. ففي اليوم نفسه قبل عشر سنوات، تم الاستفتاء على «ميثاق العمل الوطني»، الذي توافق عليه الملك (الأمير سابقًا) حمد بن عيسى آل خليفة والمعارضة بعد أزمة سياسية طويلة امتدت لربع قرن، وتعمقت خلال عقد التسعينيات. لكن الحكم سرعان ما انقلب على الوثيقة التي تعتبر الأساس لمشروع الإصلاح الدستوري بعد عام فقط، فأقدم في ذكرى الاستفتاء على إصدار دستور جديد تحولت «دولة» البحرين بموجبه إلى «مملكة» البحرين التي يرأسها الملك وقد أعطى لنفسه صلاحيات تشريعية وتنفيذية وقضائية وسياسية واسعة على حساب مجلس النواب والسلطة القضائية.

ويعدّ إصدار دستور العام ٢٠٠٢ انقلابًا صريحًا على ميثاق العمل الوطني وعلى إرادة شعب البحرين الذي وافق عليه بنسبة ٩٨٫٤٪ كمقدمة لاسترجاع دستور العام ١٩٧٣، وهو الدستور الذي كافح شعب البحرين طوال ربع قرن من أجل استرداده، بعد أن عُلّق العمل به في ٢٦ أغسطس ١٩٧٥.

نص الميثاق على تعديلين فقط هما: تغيير اسم دولة البحرين إلى مملكة البحرين وبالتالي تغيير لقب رأس الدولة من أمير إلى ملك؛ واستحداث مجلس شورى مُعيّن للاستشارة فقط بينما تبقى السلطتان التشريعية والرقابية بيد مجلس النواب المنتخب. وأعلن رئيس لجنة الميثاق، وزير العدل والأوقاف الشيخ عبد الله بن خالد الخليفة، أن الميثاق وثيقة استرشادية وأن الدستور هو المرجعية الأساسية.

كان واضحًا للمعارضة وللشعب أن الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة الذي تولى الحكم في ٦ آذار/مارس ١٩٩٩ كان يريد إضفاء الشرعية على حكمه، وتجديد شرعية حكم عائلة آل خليفة. وكانت المعارضة والشعب مستعدّين لذلك مقابل الالتزام بخطة الإصلاحات الدستورية. لكن الملك وضع المعارضة والشعب أمام الأمر الواقع، وباغت المعارضة الخارجة لتوها من العمل السري إلى العمل العلني، حيث سمح لها بالعمل بوصفها جمعيات لا أحزاب كما كانت تطالب. استغرق الأمر سنتين لكي تستعيد المعارضة تنظيم صفوفها في مؤتمر دستوري عقد أول دورة له في ١٤ فبراير /شباط ٢٠٠٤، واعلن تأسيس حركة معارضة واسعة تضم أحزابًا وشخصيات سياسية ومجتمعية تطالب بالإصلاح الدستوري، وبدستور عقدي، يكون مرجعية للإصلاح الشامل والجذري للنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة والمجتمع.

وأطلقت المعارضة عريضة شعبية في منتصف عام ٢٠٠٤ تطالب الملك بالاستجابة لمطلب الإصلاح الدستوري، وقع عليها نحو ٨٥ ألف مواطن. ونظمت العديد من الفعاليات مثل الندوات والتظاهرات

والاعتصامات لطرح مطالب الإصلاح الدستوري. لكن الملك رفض استقبال وفد يحملها ورفض الديوان الملكي تسلمها بالبريد المسجّل، واعتقلت قوات الأمن عددًا من جامعي التوقيعات على العريضة.

تبنت جميع أحزاب المعارضة، وهي الوفاق الوطني الإسلامي (وفاق)، جمعية العمل الوطني الديمقراطي (وعد)، جمعية المنبر الديمقراطي التقدمي (المنبر)، جمعية العمل الوطني الإسلامي (أمل)، التجمع القومي الديمقراطي (تجمع)، التجمع الوطني الديمقراطي (الديمقراطي)، جمعية الإخاء الوطني (إخاء) – في برامجها السياسية والانتخابية – مطلب وضع دستور عقدي للبلاد وإدخال الإصلاحات الدستورية والتشريعية والمؤسساتية في أجهزة الدولة، بحيث تتحول مملكة البحرين إلى مملكة دستورية ديمقراطية. وكان في لب هذه الإصلاحات الدستورية إعادة التوازن بين مختلف السلطات مع استقلالها وتعاونها، وأن يكون الملك رمز سيادة البلاد ووحدتها فقط.

«إذا كان سقفك السماء، وفراشك الأرض وجميع من يحيطون بك من الأصدقاء فأنت في دوار اللؤلؤة».

الملك ينقلب على الميثاق

بعد صدور دستور ٢٠٠٢، استند إليه الملك ليصدر ٥٦ مرسومًا ملكيًا، خلال الأشهر الثمانية الفاصلة بين إصدار الدستور في فبراير والانتخابات البرلمانية في أكتوبر. وبناء على تلك المراسيم تحول الملك الى حاكم مطلق الصلاحيات.

وقد تمّ من خلال هذه المراسيم هندسة شاملة للدولة، والتحكم بنظامها، بحيث يستحيل إدخال أي تعديلات دستورية أو إصدار دستور جديد أو إدخال تشريعات جوهرية أو تغييرات في بنية الدولة دون موافقة الملك. واحتكر الملك صلاحيات تعيين رئيس الوزراء والوزراء وكبار المسؤولين العسكريين والمدنيين والدبلوماسيين والقضاة وعزلهم. كذلك امتلك حق إصدار التشريعات والقوانين واللوائح في الفترات التي لا يكون فيها مجلسا السلطة التشريعية (مجلس النواب ومجلس الشورى) منعقدين. ويحتاج تعديل تشريعاته وقوانينه ولوائحه الى ثلثي أعضاء المجلسين في جلسة مشتركة (المجلس الوطني) برئاسة رئيس مجلس الشورى المعروف بولائه الشديد للملك. وللملك حق التصرف بجميع الأراضي الاميرية في المملكة. ولا تخضع ميزانيته لمناقشة وإقرار من قبل السلطة التشريعية، ومعظمها لا يدخل في الميزانية العامة للدولة.

وتستأثر الأسرة الحاكمة بالسلطة والثروة كأمر واقع، ويحتل أفرادها المناصب القيادية العسكرية والأمنية والمخابراتية والمدنية في الدولة، ويشكّلون نخبة الطبقة التجارية والشريك للعائلات التجارية والمشاريع التجارية والصناعية، ويتفوقون عليها في الملكيات العقارية، ويتمتعون بحصانة الأمر الواقع.

وهناك مواد في الدستور غير قابلة للتعديل بما في ذلك نظام المجلسين، في حين يحتاج أي تعديل دستوري إلى موافقة ثلثي أعضاء المجلسين في جلسة مشتركة، ويستطيع الملك رد أي قانون يقره المجلسان، ويحتاج إعادة إقراره إلى ثلثي أعضاء المجلس في جلسة مشتركة. أما السلطة التنفيذية، فلها الأولوية في تقديم مشاريع القوانين، كما أنها تعيد صياغة القوانين التي يتقدم بها أعضاء مجلس النواب في صورتها النهائية.

وقام الحكم بتقسيم مملكة البحرين انتخابيًا إلى أربعين دائرة، متفاوتة في عدد الناخبين تفاوتًا شديدًا بحيث مُنحت الدوائر ذات الولاء للحكم ثقلًا مرجّحًا. إن ستة عشر ألف ناخب في الدائرة الأولى يمثلهم نائب واحد، بينما يمثل ستة نواب العدد نفسه تقريبًا في المحافظة الجنوبية الموالية للحكم. إضافة إلى ذلك، استخدم الحكم أصوات منتسبي الجيش والأمن والاستخبارات والمجنّسين حديثًا لاعتبارات سياسية لإسقاط مرشحي المعارضة وضَمان أغلبية في مجلس النواب، فلم تتمكن المعارضة متمثلة بجمعية «الوفاق» من الحصول على أكثر من ثمانية عشر مقعدًا من أصل الأربعين مقعدًا التي تؤلف العدد الكلي لأعضاء مجلس النواب، رغم أنها حصلت على ٦٤٪ من مجموع أصوات الناخبين في انتخابات أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٠. ولم تحز بقية تنظيمات المعارضة على أي مقعد. غير أن صمام الأمان للحكم يبقى مجلس الشورى المُعيّن من أربعين عضوًا، ويتمتع بصلاحيات تشريعية مساوية لمجلس النواب، في حين يتمتع رئيسه برئاسة الجلسات المشتركة للمجلسين (المجلس الوطني) الذي تدار جلساته حسب نظام مجلس الشورى ويكون صوت الرئيس مرجّحًا إذا تساوت الأصوات.

وهكذا بات الأفق مغلقًا أمام أية إصلاحات دستورية من خلال مجلس النواب. وكما رفض الحكم الاستجابة إلى عريضة المعارضة المرخصة، رفض لاحقًا عريضة



احتكر الملك صلاحيات تعيين رئيس الوزراء والوزراء وكبار المسؤولين العسكريين والمدنيين والدبلوماسيين والقضاة وعزلهم... وله حق التصرف بجميع الأراضي الاميرية في المملكة.

شعبية أطلقتها حركة «حق للحريات والديمقراطية» غير المرخصة، وقّع عليها ما يزيد على مئة ألف مواطن خلال عام ٢٠٠٩، موجهة إلى الأمين العام للأمم المتحدة تطالب الأمم المتحدة بالاشراف على تنظيم النظام الدستوري في البحرين. تسلم العريضة ممثلٌ عن الأمين العام في نيويورك، لكن لم تتخذ المؤسسة الدولية أي خطوة بشأنها.

تياران في حركة «١٤ فبراير»

إن انسداد هذا الأفق هو أحد أسباب الإحباط من العملية السياسية، وقد أدى إلى تخلي العديد من الناشطين السياسيين عن التنظيمات السياسية المعارضة المرخصة والانخراط في تنظيمات معارضة غير مرخصة، وهي حركة «حق» بزعامة حسن مشيمع وحركة «الوفاء» بزعامة عبد الوهاب حسين وحركة «أحرار البحرين الإسلامية» وزعيمها الدكتور سعيد الشهابي المقيم في لندن، وكلها انشقاقات عن التنظيم الإسلامي الشيعي الأم «جمعية الوفاق الوطني الإسلامي» وزعيمها الشيخ علي سلمان.

في ظل أجواء الاحتقان التي كانت تعيشها البلاد وانسداد أفق العملية السياسية، جاء الإعصار المنطلق من تونس ليجتاح الوطن العربي عابرًا الحدود ومستنهضًا الجماهير العربية الساخطة. وسرعان ما وصل إلى البحرين، بداية فبراير/شباط عندما دعت مجموعة من الشباب عبر مواقع فايسبوك البحرينيين إلى تحرك احتجاجي يوم ١٤ فبراير/شباط ٢٠١١. وتجاوب مع الدعوة ما يزيد على ٧٠ ألف مواطن. وسرعان ما تحولت الحركة الاحتجاجية إلى حركة جماهيرية واسعة استطاعت أن تستقطب جميع القوى المعارضة المرخصة وغير المرخصة، والعديد من منظمات المجتمع المدني والشخصيات وعامة الجماهير المطالبة بالتغيير، فتدفق الى الشوارع والساحات عشرات من الآلاف ممن لم يسبق لهم أن شاركوا في العمل السياسي.

شارك الشباب والنساء على نطاق واسع في مختلف النشاطات الاحتجاجية، مثل التظاهر والاعتصام والندوات والمناظرات التي حفل بها «دوار اللؤلؤة» على امتداد شهر عاصف، وشاركوا ايضا في صياغة المواقف السياسية وتحديد الأهداف، وفي حضور اجتماعات قيادات المعارضة. وكان لهم دور كبير في التأثير على المفاوضات الجارية حينها بين المعارضة والسلطة ممثلة بولي العهد الشيخ سلمان بن حمد الخليفة.

وإنقسمت المعارضة البحرينية إلى تيارين: التيار المعارض المرخص والتيار المعارض غير المرخص. يشمل الأول الأحزاب والجمعيات الأهلية المرخصة، ويعمل في إطار القوانين السارية والمقيدة بشدة لحرية التنظيم والتجمع والتعبير. ويشمل الثاني عناصر سياسية وحقوقية منضوية في التنظيمات الثلاثة المذكورة اعلاه وفي عدد من المنظمات واللجان الحقوقية. وينتشر نفوذ هذا التيار بشكل خاص في أواسط الشباب وخصوصًا الشيعة منهم، في ظل الفقر والتهميش لمناطقهم والبطالة المرتفعة في أوساطهم، علمًا بأن الشيعة محرومون من الانضمام إلى الجيش والأمن والمخابرات، مع استثناءات في مناصب مدنية.

ازداد نفوذ هذا التيار الثاني ونشاطه مع الإحباط المتزايد من جدوى العملية السياسية وارتفاع المواجهات مع قوات الأمن. وجرت حملات اعتقالات واسعة ترافقت مع انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان بما في ذلك التعذيب والاعتقالات الجائرة التي طالت العشرات طوال الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١١، وكانت المفجِّر «لانتفاضة ١٤ فبراير ٢٠١١».

وفي الوقت الذي يلتقي فيه التياران في الكثير من المطالب والأهداف، فإن التيار المرخص يطالب بإصلاح النظام السياسي إصلاحًا شاملاً يهدف إلى إقامة نظام حكم ملكي دستوري ديمقراطي برلماني، بإصدار دستور عقدي من خلال مجلس تأسيسي منتخب كليًا استنادًا إلى مبدأ المواطنة المتساوية، وإدخال إصلاحات عميقة دستورية وتشريعية. وقد استخدمت الدولة جميع إمكاناتها لإضعاف هذه المعارضة المرخصة، سواء بشق هذه التنظيمات، أو اجتذاب قيادتها، أو التشهير بها في وسائط الإعلام العامة والخاصة التي تهيمن عليها الدولة، أو الهندسة المسبقة للانتخابات التي تمكّن الدولة من إسقاط من تشاء من مرشحي المعارضة لتبقى أقلية منها في البرلمان، بينما ليس لها أي ممثل في مجلس الشورى.

إن الذين أطلقوا حركة ١٤ فبراير هم بالدرجة الأولى الشباب في التيار الثاني، وبعض من ينتمون لتنظيمات الوفاق ووعد وأمل. ولقد طوروا وسائل التنظيم والتعبئة والحشد والدعوة إلى الاحتجاجات، على امتداد خمسة أعوام، باستخدام وسائل التواصل

تستأثر الأسرة الحاكمة بالسلطة والثروة كأمر واقع، ويحتل أفراد الأسرة الحاكمة المناصب القيادية في الدولة ويشكّلون نخبة الطبقة التجارية والشريك للعائلات التجارية والمشاريع الكبرى.

الاجتماعي من فايس بوك وتويتر ومجموعات الاتصال والمواقع على الإنترنت، وقد استخدمت بكثافة في إطلاق حركة «١٤ فبراير» وقيادتها.

وتطورت مطالب حركة «١٤ فبراير» مع تطور الحركة ذاتها وتفاعل الجمهور معها من خلال الحوارات. ويمكن القول إن البحرين لم تشهد في تاريخها الحديث ورشة نقاش وجدل مثل تلك التي شهدتها إثر انطلاق حركة «١٤ فبراير»، حيث كان «دوار اللؤلؤة» يعج بعشرات الآلاف من المواطنين، من مختلف مناطق البحرين وطبقاتها وفئاتها الاجتماعية واتجاهاتها السياسية، يشاركون في مناقشات وندوات وحوارات تخصصية تستمر الى ساعة متأخرة من الليل.

على امتداد تلك الفترة، والتي انتهت باقتحام قوات الحكومة المدعومة من قوات مجلس التعاون الخليجي نهائيًا لـــ«دوار اللؤلؤة» يوم ١٦ مارس/آذار، كانت تنظم مسيرات حاشدة في القرى والنواحي، انطلاقًا من الدوار أو باتجاهه. وسقط في المواجهات ما يقرب من ثلاثين شهيدًا والمئات من الجرحى. وتحت ضغط الشارع أطلق سراح قيادات حركة (حق) ونشطاء حقوقيين وآخرين حكم عليهم في العام ٢٠١٠ بدعوى «التآمر لإسقاط النظام».

مطالب وتصعيد

على وقع حركة «١٤ فبراير»، كانت المعارضة بشقيها تبلور مطالبها وتعقد اجتماعات ماراثونية بحضور ممثلي المجتمع المدني للاتفاق على قواسم مشتركة. وبلورت المعارضة المرخصة مطالبها، استجابة لمخاطبتها من قبل ولي العهد، فطرحت الآتي:

ـــ إقالة الوزارة الحالية والتي بقي رئيسها، رجل النظام القوي الشيخ خليفة بن سلمان الخليفة عم الملك اثنين وأربعين عامًا في الحكم.

ـ تشكيل حكومة وفاق وطني منتخبة.

ـــ انتخاب مجلس تأسيسي لوضع دستور جديد للبلاد على قاعدة صوت واحد للناخب الواحد، وجعل البحرين دائرة انتخابية واحدة.

ـــ التحقيق في قضايا القتل والانتهاكات الواسعة لحقوق الإنسان من خلال لجنة مستقلة.

ـــ التحقيق في قضايا الفساد ونهب الأموال والأراضي واعادتها للدولة.

ـ إطلاق سراح جميع المحكومين في قضايا سياسية وإطلاق الحريات العامة والاعتراف بالحق في التنظيم والتجمع والتظاهر والتعبير.

ـــ إيقاف الإعلام الرسمي التحريضي ضد الانتفاضة ووضعه تحت قيادة وطنية.

لكن إعلان هذه المطالب لم يرقَ للمعارضة غير المرخصة التي صعدت التحرّك باحتلالها الطريق السريع (شارع الملك فيصل) و«المرفأ المالي» ودعوتها إلى العصيان المدني، كما صعدت مطالبها باتجاه شعار إسقاط النظام. وهكذا وقعت المعارضة المرخصة بين مطرقة النظام وسندان الشارع.

في تلك الاثناء، كلف الملك حمد ولي عهده الشيخ سلمان بطرح مبادرة للحوار مع المعارضة للخروج من الأزمة. وقد تقدم بمبادرته بتاريخ ٢٠١١/٣/١٣ التي عرفت بمبادرة النقاط السبع وهي:

ـ حكومة تعبر عن الإرادة الوطنية.

ـ إعادة تقسيم الدوائر الانتخابية لتكون أكثر عدلًا.

ـــ تعديل صلاحيات مجلس النواب ليمتلك سلطات تشريعية ورقابية أوسع.

ـ التحقيق في قضايا الانتهاكات وتعويض المتضررين.

ـ التحقيق في قضايا الفساد واتخاذ إجراءات مناسبة.

ـــ ضمان سلامة المحتجين السلميين بما في ذلك المعتصمين في «دوار اللؤلؤة» بشرط عدم إعاقة الحركة المرورية.

ـ المصالحة الوطنية الشاملة.

بيد أن الدعوة للحوار استثنت قوى المعارضة غير المرخصة. وإزداد الموقف تعقيدًا عند مبادرة الاخيرة إلى طرح شعار «الجمهورية» والدعوة إلى استفتاء شعبي بإشراف الأمم المتحدة لاختيار النظام السياسي. وقد أدى ذلك إلى نتائج سلبية عديدة، منها تردد النظام في التعاطي مع مطالب المعارضة، وانحياز قوى سياسية ومجتمعية سنّية إلى النظام في مواجهة استحقاقات الإصلاح وتشكيلها «تجمع الوحدة الوطنية» المناوئ لحركة ١٤ فبراير. لكن أسوأ النتائج كان انحياز دول مجلس التعاون للنظام البحريني.

قبلت المعارضة التفاوض على أساس مبادرة ولي العهد لكنها طالبت بإيضاحات وبضمانات خليجية أو دولية للتنفيذ. غير أن المبادرة أجهضت باجتياح القوات السعودية البحرين، واجتياح قوات النظام دوار اللؤلؤة والاستيلاء عليه وعلى مجمّع السلمانية الطبي، الذي كان

يستقبل الضحايا المصابين، وتحول بدوره إلى مركز للحركة الاحتجاجية. وأعلنت الحكومة حالة الطوارئ مساء ١٤ مارس/آذار، وتم في ظلها تفويض القائد العام لقوة دفاع البحرين صلاحيات الحاكم العرفي. وشهدت البلاد حملة قمع لا سابق لها أطلق عليها بعضهم اسم «الغزو الثاني»، تمت بقيادة رئيس الوزراء، حيث جرى الانتقام من كل من ساهم في الاحتجاجات، ووقعت البلاد عمليا تحت احتلال قوات الجيش والأمن البحرينيين وقوات مجلس التعاون الخليجي، وترتب على ذلك مقتل العشرات بالرصاص أو تحت التعذيب، واعتقال الآلاف، وسَوق المئات إلى المحاكم العسكرية.

وثيقة المنامة

كان الحل العسكري الأمني محكومًا بالفشل، لأنه وبعد انتفاضة «١٤ فبراير» بات من المستحيل إخضاع الشعب الذي ذاق طعم الحرية، ولم يعد مستعدًا للخضوع للاستعباد مرة أخرى. لذلك ما إن رفعت حالة الطوارئ يوم ١٦ مارس/آذار ٢٠١١، حتى استعادت المعارضة المبادرة، وباشرت تنظيم صفوفها، وبدأت تحظى بدعم دولي، بعد ان انفضحت انتهاكات النظام الشاملة لحقوق الانسان وحملات الانتقام الواسعة النطاق التي شنّها بما فيها تسريح أكثر من أربعة آلاف مواطن بتهمة المساهمة في الاحتجاجات واستهدافه المواطنين الشيعة بنحو خاص.

في المقابل، وضعت المعارضة وثيقة جديدة بتاريخ ١٢ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١١ تحت شعار «الشعب يريد إصلاح النظام». عرف المشروع باسم «وثيقة المنامة»، أعادت المعارضة التأكيد على قبولها التفاوض بناء على مبادرة ولي العهد دون استثناء اي طرف. وكررت دعوتها إلى تلبية المطالب الخمسة الرئيسة: حكومة منتخبة تمثل الإرادة الشعبيّة؛ نظام انتخابي عادل؛ سلطة تشريعية من غرفة واحدة منتخبة بالكامل تنفرد بكامل الصلاحيات التشريعية والرقابية، سلطة قضائية مستقلة، وأمن للجميع عبر إشراك جميع مكونات المجتمع البحريني في تشكيل الأجهزة العسكرية والأمنية. وشددت على المعالجة الفورية لقضايا التجنيس السياسي، وإيقاف سياسة التمييز القبلي والطائفي والسياسي واستبدالها باعتماد مبادئ المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص على قاعدة المواطنة المتساوية، والتوافق على سياسة إعلامية وطنية.

إجهاض الحوار الوطني

استشعارًا من الحكم بضغط الشارع والضغوط الدولية المطالبة بحل تفاوضي لإدخال إصلاحات عميقة وجذرية وشاملة للنظام السياسي، طرح الملك مشروع «الحوار الوطني» ابتداءً من أول يونيو/حزيران وكلف الملك رئيس مجلس النواب بالدعوة إلي الحوار الوطني والإشراف عليه. وقام الرجل بتشكيل طاقم للحوار من الجهات الحكومية المعنية، مستبعدًا وزارتي الدفاع والداخلية وجهاز الأمن الوطني. وتمت دعوة الجمعيات السياسية ومنظمات المجتمع المدني وثلاثمئة شخصية للحوار. وتمثّلت المعارضة بست وثلاثين شخصية فقط. وفي ظل التشكيلة ذات الأغلبية الموالية للحكم لم يتم تحديد القضايا الجوهرية التي طرحتها المعارضة. ورفعت مئات التوصيات التي تشمل تغييرات تشريعية وانتخابية وبرلمانية ومؤسساتها، لكنها لم تمس جوهر النظام السياسي. وكلف الملك مجلس الوزراء ومجلس النواب والشورى بتنفيذ التوصيات. لكن الحوار انتهى كحفلة علاقات عامة، وعادت الأزمة إلى المربع الأول.

كررت المعارضة تمسكها بالإصلاحات الدستورية، كما طرحتها وثيقة المنامة. لكنها بلورت البعض منها إذ شددت على مشاركة غير استئثارية للأسرة الحاكمة في الحكومة. واوضحت ان شعار الملكية الدستورية يعني ان الملك يملك ولا يحكم، وهو رمز وحدة البلاد، وهو رأس السلطات لكنه ليس رئيسها. وذاته مصونة ما دام لا يتدخل في تسيير شؤون الحكم.

بيد أن إصرار الملك على الحفاظ على جميع مكاسبه السياسية والاقتصادية، ورفض النظام التنازل عن أي من امتيازاته أو امتيازات العائلة المالكة جعلا من المستحيل التقدم خطوة في هذا المجال. لكن ما هو أكثر خطورة هو أن سلوك النظام يدفع بالبحرينيين إلى رفض الإصلاح وتبني مطالب أكثر جذرية لتغيير النظام من اساساته.◆

ان شعار الملكية الدستورية يعني ان الملك يملك ولا يحكم، وهو رمز وحدة البلاد، وهو رأس السلطات ولكنه ليس رئيسها. وذاته مصونة ما دام لا يتدخل في تسيير شؤون الحكم.



الدستور المصري
بين منهج ومضمون

محمد العجاتي

باحث في العلوم السياسية، والمدير التنفيذي لمنتدى البدائل العربي للدراسات القاهرة، مصر.

بغض النظر عن الجدل حول تشكيل اللجنة التأسيسيّة لكتابة الدستور المصري بعد الانسحابات العديدة التي شهدتها، نتيجة لاعتراضات مجتمعية واسعة على تشكيل اللجنة من حيث تمثيلها لأطياف المجتمع المصري المتوقعة وتياراته السياسية المختلفة، إضافة إلى تشكيك العديد من المحللين في قدرات اللجنة وكفاءة غالبية أعضائها، فإن مصر باتت على أعتاب كتابة دستور جديد سواء من جانب اللجنة المختارة أو لجنة معدلة أو حتى لجنة جديدة يعاد تشكيلها.

وفي كل الحالات، هناك عدّة تحديات تواجه كتابة هذا الدستور في المرحلة الحالية. المجموعة الأولى من هذه التحديات تتعلق بمنهجية كتابة هذه الوثيقة الهامة، والمجموعة الأخرى ترتبط بمضمونها والقضايا الواجب التعامل معها في صياغتها.

التحديات على مستوى المنهج

كانت معظم المقالات والتحليلات التي تتحدث عن الدستور المصري بعد ثورة «٢٥ يناير» مليئة بآمال عن دستور جديد لمصر يعكس روح الثورة ويلبي تطلعات الشعب المصري، وفي طليعته القوى الثورية التي قادت الحراك المجتمعي في مصر لسنوات طوال حتى حققت حلمها في إسقاط النظام. قوى رفضت الاستمرار ولو مؤقتًا في العمل بدستور ١٩٧١، ودعت إلى كتابة دستور جديد للبلاد. لكن الجدل السائد الآن حول منهجية كتابة الدستور وكيفية القيام بذلك يطرح عددًا من الأسئلة: هل نحن نبحث عن دستور ثابت أم دستور متحرك؟ دستور مؤقت أم دستور دائم؟ دستور تقليدي أم دستور حديث؟

الذهنية المصرية بحكم الخبرة التاريخية، ومنذ الدستور الأول في مصر ١٨٨٢ تميل إلى فكرة الدستور الثابت والتي تقيّد بشدّة إمكانية التلاعب والتعديل، على عكس الوضعية البرازيلية التي مالت دائمًا نحو فكرة دستور قابل للتحرّك مع تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية في البلاد، إذ أجري تعديل في الدستور البرازيلي الحالي (١٩٨٨) ثماني مرات طالت نحو ٢٢ مادة من مواده. وهنا يدور الجدل في الحالة المصرية حول الظرف الحالي، والتخوّف من دور العسكر في كتابة الدستور وكذلك طبيعة الأغلبية البرلمانية أو هوية الرئيس القادم.

وفي هذا الإطار ظهرت فكرة جديدة هي فكرة دستور مؤقت يمتد في بعض الأطروحات من سنتين، باعتبارهما الفترة الكافية لإنجاز مهام المرحلة الانتقالية التي لم تنجز بعد، إلى اربع سنوات وهي عمر البرلمان الحالي، بحيث يتم الاستقرار على الغالبية الحالية أو تعديلها بعد فترة من النضج السياسي وصولا إلى عشر سنوات، اي «دستور لعقد من الزمان» تختبر خلاله الدستور الذي يكتب الآن ويعاد تقييمه بعد تجربة كافية. يصاحب ذلك فكرة مطروحة بشدة تتحدث عن تبني الأبواب الأربعة الأولى من الدستور السابق ١٩٧١ كما هي: من حيث شكل الدولة، والمقومات الاقتصادية والاجتماعية، والحريات والحقوق العامة، وسيادة القانون. غير أن تركز التعديلات على الأبواب المتعلقة بنظام الحكم (من الباب الخامس إلى السابع) والتي تتناول طبيعة النظام السياسي وصلاحيات السلطات المختلفة وصلاحيات رئيس الجمهورية. في المقابل تتمسك الكثير من قوى الثورة بحلمها في دستور جديد يبنى على مفاهيم لم



تكن بـارزة أو متبلورة حين كتابة دسـتـور ١٩٧١ مثل مـوضـوع البيئة والتنمية الـمـسـتـدامـة، ويـحـتـوي على عناصر تتعلق بحقوق الـمـرأة وحقوق الإنـسـان والحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

بعبارة اخـرى، إن الـحـوار عـن أسـلـوب وطـرق كتابة الـدسـتـور، ووجــوب أن يبنى عـلـى معطيات الثقافة الـسـيـاسـيـة والـتـاريـخ الـدسـتـوري عـمـومًـا دون خـــوض فـــي تـفـاصـيـل، يـجـرى الآن فـي مصر على أســاس تـفـاصـيـل دقـيـقـة تتعلق بالواقع القائم على الأرض والـمـعـرّض للتغيير الـسـريـع خـاصـة، فـي ظل حالة ثورية كالتي تعيشها المنطقة وهو ما يجعل حسمها مسألة صعبة سـوف تؤثر ولا شك على عمل لجنة كتابة الدستور. يبدو بسبب ذلـك أنّ العملية ستبدأ دون اتفاق مبدئي على الـمـبـادئ الحاكمة لكيفية كتابة الدستور والـهـدف من الدستور ذاتـه، وهـو ما من شأنه خلق حالة ارتـبـاك، وخـروج دسـتـور تقليدي هـو كناية عـن تعديلات على دساتير سابقة يفتقر لـروح العصر ولـلـقـدرة على الابتكار والإبداع.

ظهرت فكرة جديدة هي فكرة دستور مؤقت يمتد في بعض الأطروحات من سنتين، باعتبارهما الفترة الكافية لإنجاز مهام المرحلة الانتقالية، إلى اربع سنوات وهي عمر البرلمان الحالي.

أهم القضايا التي ستواجه كتابة الدستور

لا يتوقف الجدل عند حـدود شكل الدستور بل يمتد إلى المضمون. وأهـم القضايا المطروحة في هـذا الإطـار هي الآتية:

ــ هوية الدولة: يجري حاليًا بسبب التيارات الدينية الصاعدة بحكم ميراث النظام القمعي السابق اختصار مفهوم الهوية فـي الهوية الدينية دون غيرها، ويرتكز الـحـوار بناء على ذلـك على الـمـادة الثانية من الدستور التي تتحدث عـن أن الشريعة الإسـلامـيـة هـي المصدر الأسـاسـي للتشريع. وتـحـاول بعض الـقـوى أخـذنـا خطوة أبعد بتبديل كلمة «مبادئ» بكلمة «أحكام»، وهـو ما يثير الجدل حـول ماهية هـذه الأحـكـام ويضع القوى المدنية فـي مـوضـع الـدفـاع كـالـعـادة فتتمسك بالنص الحالي وتستبعد أطـروحـات تطويره ليوازي ما يـرد في الدستور السوداني (وهـي دولـة تصنّف نفسها على أنها إسلامية). علمًا أن الـنـص الـمـوازي للمادة الثانية مـن الدستور المصري جـاء أكثر عمقًا وتركيبًا ويوفر رحابة اوسـع من مفهوم الهوية الضيق.

ــ العلاقات المدنية ــ العسكرية: تُعَدّ هذه القضية على رأس أولـويـات الموضوعات المطروحة للحوار الآن حول الصلاحيات الـواسـعـة التي تتمتع بها الـقـوات المسلحة المصرية على المستويين السياسي والاقـتـصـادي. وغني عـن الـقـول أن مـحـاولات الانتقال إلى الدولة المدنية سـوف تحد فيها كـثـيـرًا من هـذه الـصـلاحـيـات. ويـجـري جـدل طـويـل حـول كيفية مناقشة الميزانيات الخاصة بـالـقـوات المسلحة، ومـدى شفافيتها، وهـو الأمـر الـذي يدفع المجلس العسكري إلـى الانتهاء من كتابة الدستور فـي أسـرع وقـت تسليمه للسلطة ليضمن الحفاظ على هــذه الـصـلاحـيـات دون انـتـقـاص. لا بـل ان المجلس العسكري يسعى الـى «دسـتـرة» هـذه الصلاحيات بحيث تصبح غير قابلة للمساس مستقبلًا، وهـو ما جعل العديد مـن الـقـوى السياسية تـرفـع شـعـار «لا لكتابة الدستور تحت حكم الـعـسـكـر». والـشـعـار لا يعكس فـي جوهره قضية مفهوم السيادة الشعبية وقـدرة الشعب على الرقابة على كافة مؤسسات الدولة.

ــ النظام السياسي: ويرتكز الجدل هنا على الخيار بين النظام الرئاسي والنظام البرلماني دون التطرق إلى كيف نـرى شكل المشاركة وطبيعة الديمقراطية التي نرغب فـي أن تـمـارس فـي مصر فـي المرحلة القادمة. وتطرح في هذا المجال نماذج من دول عديدة في العالم دون النظر لظروف وطبيعة النظم وارتباط شكل النظام ــ رئاسيا كان أو برلمانيا ــ بشكل المشاركة المجتمعية في البلدان المعنية. فجرى التوصل على نحو طبيعي إلى فكرة النظام شبه الرئاسي أو المختلط كما يسميه البعض.

ــ الأقليات الدينية: ينظر الى هذه القضية في هذه المرحلة على أنها طمأنة للأقليات في مصر والمجتمع الـدولـي. وسـوف يتم التعامل معها بالتالي بحرص كبير مـن جانب كافة الـقـوى السياسية. ولـكـن لـن تتطور هـذه الحقوق لتكتمل منظومة حقوق المواطنة، فلن يحمل الدستور تعسفًا في هذا المجال وسيحافظ على

الوضع الحالي بكل سلبياته، وهـو ما سيتم قبوله في هذه المرحلة.

ـ حقوق الـمـرأة: على عكس القضية السابقة، سوف نشهد هنا تراجعًا كبيرا من جانب مجتمع اختار أقل نسبة للنساء في البرلمان (٨ نساء منتخبات) وفـي برلمان بدأ مبكرًا رده على التشريعات التي حصلت عليها المرأة المصرية عبر نـضـال طويل بـوضـع هـذه الحقوق تحت لافـتـة «قـوانـيـن سـوزان مـبـارك»، أو بتعريضها لتهمة «المؤامرات الغربية» العاملة على هـدم الـدولـة المصرية، فـسـتـكـون حـقـوق الـمـرأة فـي ظـل الـوضـع الحالي في مصر الأكثر عرضة للتجاهل بل والانتقاص في الدستور.

ـــ الـحـقـوق الاقـتـصـاديـة والاجـتـمـاعـيـة: ان أحـد الأسـبـاب الرئيسية للثورة المصرية كـان حـالـة التراجع الشديد للحقوق الاقتصادية والاجتماعية في مصر. وقد ادت التعديلات التي أدخـلـت على دسـتـور الـعـام ٢٠٠٧ الـى حـذف كـل ما يتعلق بمفهوم الاشتراكية مـن دستور ١٩٧١. وهـو أمـر مفهوم لكنه لـم يعوض عنه بمفاهيم تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية، مما أفقد هذا الـدسـتـور عنصرا هاما مـن عناصر تـوازنـه. ورغـم أهمية هـذه القضية إلا أنـه يمكننا أن نـلاحـظ أنـهـا القضية المسكوت عنها فـي الـحـوارات حـول الـدسـتـور الجديد بل نلاحظ غيابها، اللهم إلا في بعض المحافل المغلقة. أي أنها القضية التي لـن تحصل على الـقـدر الكافي من الاهتمام في صياغة الدستور القادم.

كما نـرى في هـذه القضايا، يبدو المنطق في الـحـوار ـ على عكس تحديات المنهج ـــ قائمًا على تفضيل محدد يـجـري مـن خـلالـه تحديد شكل المجتمع الـمـصـري، وهو منطق معكوس فـي هـذه الحالة إذ يجب أن يأخذ مسارًا عكسيًا يـبـدأ مـن كيف نـرى المجتمع المصري بعد ثـورة «٢٥ يناير» وبالتالي معالجة هذه التحديات بناء على ذلك.

خلاصة

تبدأ الـحـوارات حـول الدستور في مصر من أسفل عندما يجب أن تبدأ مـن أعلى (فـي حالة المنهج)، بينما هي تـبـدأ مـن أعـلـى عندما يجب أن ترتكز على التفاصيل الـــواردة من أسفل (فـي حالة المضمون). ونتيجة لذلك، وفي ضوء ظـروف موضوعية تتعلق بغلبة تيار محدد على كتابة الدستور وقيود الوقت وطبيعة الحكم الحالي، فإننا فـي الأغـلـب سـوف نكون أمـام دسـتـور مصري مغرق في تقليديته، ومـؤقـت سـواء رغـب مـن سـوف يصوغونه في ذلـك أم لـم يـرغـبـوا. إذ أنـه مـع التطور السياسي قصير الـمـدى لاستكمال المرحلة الانتقالية بـأي شكل كـان، وتـفـجـر قـضـايـا مجتمعية بسبب تهميشها سـواء في الدستور أو في التشريعات الحالية فـي مـصـر، إضافة إلـى ضـغـوط سـتـأتـي من الـتـعـارض بـيـن الـدسـتـور الجديد واتفاقيات دولية بل وإقليمية تلتزم بها مصر، كل هذه العوامل ستجعل هذا الدستور عرضة لتغيير أو على الأقـل لتعديلات جـذريـة فـي القريب العاجل وهـذا ليس بالامر السلبي بالضرورة.◆

تُعدّ العلاقات المدنية ـ العسكرية على رأس أولويات الموضوعات المطروحة للحوار حول الصلاحيات الواسعة التي تتمتع بها القوات المسلحة المصرية على المستويين السياسي والاقتصادي.

المصادر:

١ ـ إبـراهـيـم الهضيبي، «الـمـواطـنـة فـي الـدسـتـور»، جريدة الشروق، ٩ مارس ٢٠١٢.
٢ ـ إبـراهـيـم الهضيبي، «مـعـركـة الأمـتـار الـجـديـدة»، جريدة الشروق، ٦ إبريل ٢٠١٢.
٣ ـ جـورج فهمي، «التحول الديمقراطي فـي مصر بين تحدي عسكرة السياسة وتسييس الـجـيـش»، منتدى البدائل العربي/روافد للنشر والتوزيع، فبراير ٢٠١٢.
٤ ـ ربـاب المهدي، «الـعـلاقـات المدنية العسكرية فـي مصر»، منتدى الـبـدائـل الـعـربـي/روافـد للنشر والـتـوزيـع، فبراير ٢٠١٢.
٥ ـ عمرو الشوبكي، أزمـة الجمعية التأسيسية للدستور ٧١ مخرجًا، المصري اليوم، ٣١ مارس ٢٠١٢.
٦ ـ كـلـوفـيـس هـنـريـك ديـسـوزا/مـحـمـد الـعـجـاتـي، «مـن الديمقراطية التمثيلية إلـى الديمقراطية التمثيلية»، منتدى الـبـدائـل الـعـربـي/روافـد للنشر والـتـوزيـع، مـارس ٢٠١٢.
٧ ـ معتز عبد الفتاح، «إعـداد الدستور ليس فقط صياغته»، جريدة الشروق، السبت ٣١ مارس ٢٠١٢.

المملكة السعودية:
ثوار من دون ثورة

روزي بشير

طالبة دكتوراه في قسم التاريخ في جامعة كولومبيا. من لبنان. محررة في مجلة «جدلية» الإلكترونية، وينشر المقال بالتعاون مع موقع «جدلية».

قد تكون الثورة المضادة الحالية، بشراستها عبر العالم العربي بأكلمه، بقيادة السعودية، أعنف داخل حدود المملكة نفسها. نشرت عناصر الأجهزة الأمنية بطريقة مكثفة في أنحاء البلاد، لإحباط اي تجمعات شعبية او احتجاجات. في السنة الماضية وحدها، لقي ثمانية سعوديين حتفهم على الأقل، بسبب المشاركة في احتجاجات شعبية. يضاف ذلك إلى عنف الشرطة ضد المدنيين العزّل الذي أدى الى جرح عدد من النساء والرجال. واعتقل المئات، بشكل غير قانوني، لمساندتهم النداءات من اجل الإصلاح والاحتجاج. لا يتعرض فقط من حاولوا النزول الى الشارع لهذا العنف والتخويف، بل منع العشرات من السفر، او وضعوا قيد الإقامة الجبرية، او منعوا من الكتابة في الصحافة السعودية لسبب بسيط هو انتقاد الوضع القائم. اجبر آخرون على توقيع تعهدات رسمية بعدم الاشتراك في أعمال من شأنها «تحدّي قوانين الدولة واعرافها». أغلقت العديد من المدونات، واعتقل مغردان (ناشطان على موقع تويتر) ويواجهان اليوم خطر الحكم بالإعدام. باختصار، تم تخويف الكثير من المواطنين ليصمتوا.

ما أسلفناه هو ما بدأ يظهر على السطح نتيجة لحملة الثورة المضادة داخل السعودية. ما يثقل ذلك هو التعتيم الإعلامي الذي نجحت الإمبراطورية الإعلامية السعودية في فرضه، في ما يتعلق بالتطوّرات المحلية. تمكنت المحطات من خطف، وتصميم، واعادة خلق الأحداث من صنعاء والمنامة، وصولاً الى دمشق ومسقط. وما يثير الريبة ايضًا، نجاح الميديا التي تسيطر عليها السعودية في اعاقة تدفق المعلومات حول الاحداث المحلية، داخل الدولة وخارجها. لقد تم حجب معظم المواقع الإلكترونية التي تنقل اخبارًا تنتقد العائلة الحاكمة السعودية والدعوات إلى تحدي الواقع. يتعلق الأمر اكثر بالمواقع العربية، وتلك التي تبث من داخل البلاد. اصبحت قوانين الإعلام اكثر صرامة، ويمكن ان يتعرض ناقل صورة او معلومات عن احتجاجات سعودية لعقوبة بالسجن قد تصل لعشر سنوات، وآلاف الدولارات كغرامة. لا يتساءل المرء بعدها عن سبب الانقطاع المعلوماتي بين الناس الذين يعيشون في السعودية، وليس فقط بين من هم خارجها. في اي وقت، يمكن ان يكون سكان المدن السعودية لا يعرفون ما يحصل على بعد بضعة كيلومترات منهم، فضلًا عما يحصل في المدن السعودية الأخرى.

القوانين الأكثر صرامة، التي تترافق مع التعتيم الإعلامي، تقف مقابل احتجاجات صغيرة، لكن مستمرة، عبر البلاد. كل اسبوع، يتجمع نساء ورجال سعوديون أمام الوزارات المختلفة ليطالبوا بأمور بسيطة، منها زيادة الأجور، التعيين في وظائف وعدوا بها، او تلقي رواتبهم في وقتها، وقبض المنح (المالية والعقارية) المستحقة منذ زمن. رغم انتظامها، يتم توصيف تلك الاحتجاجات على انها تتعلق بمسؤولين فتحوا ابوابهم لحل شكاوى الناس العاديين، وذلك حين تصل اخبار تلك الاحتجاجات الى الإعلام. امام وزارة الداخلية في الرياض، لم تتوقف الاحتجاجات المطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين، منذ عشرة أشهر (وهي كانت مصادفات اسبوعية منذ سنوات) بعد ان حازت على اهتمام



عال. حتى آذار ٢٠١٢، حين اعيد طرح قضية المعتقلين السياسيين، كان موضوع حقوق السجناء يعتبر مطالبات شيعية فقط، وهو ما يعني في خطاب الإعلام السعودي المذهبي انها قضية غير وطنية لا تستحق الانتباه.

لم تنحصر الاعمال الاحتجاجية بالوزارات الحكومية. اضـرب موظفو شركات ضخمة مثل «الخطوط الجوية السعودية» و«شركة الاتصالات السعودية» (إس تي سي) لأيام، واحيانًا لأسابيع، بسبب الفساد المنتشر وتدني شروط عمل الموظفين والممارسات التمييزية في العمل. في أحيان عدةّ، استطاع هؤلاء الموظفون اغلاق تقاطع شارع العليا المزدحم مقابل برج المملكة، بشكل مؤقت، قبل ان تفرقهم شرطة مكافحة الشغب. بداية آذار ٢٠١٢، بعد احتجاجات كبيرة من قبل طلاب جامعة الملك سعود في الرياض، تجمعت اكثر من ٥٠٠٠ امرأة في جامعة الملك خالد في أبها. عكس ادعاءات الإعلام والمسؤولين، التي كانت مذهبية ورافضة بأغلبها، كانت الطالبات تعبرن عن غضبهن من اجـراءات الفساد الإداري، والممارسات الجندرية التمييزية، والسياسات التي تتزايد قمعًا. سمح امن الجامعة للشرطة بدخول الحرم الجامعي لقمع التظاهرة. في النتيجة، قتلت طالبة، وعانت أخرى من اجهاض حملها، وجرحت أكثر من اربعين اخـرى. بسرعة، اعيدت صياغة الخبر في الإعلام المحلي ليصبح يتحدث عن تظاهر طالبات ضد انتشار القمامة في الجامعة! ويقول الخبر إنّ الطالبات اعتدين على موظفي الجامعة وخلال ذلك جرحن أنفسهن، وبعضهن. كما يحصل مع أحداث أخرى تتطلب تحقيقات داخل السعودية، تم تعيين لجنة للتحري حول المسألة، فيما اجبرت «المذنبات» على توقيع تعهد، والاعتذار عما فعلن.

وراء الأبـواب المغلقة، يتحدث السعوديون من كافة المشارب عن فساد النظام، والتناقض في مساندته اسقاط نظام بشار الأسد بعد ان قمع بنفسه متظاهرين في البحرين، وهي دولة مستبدة بشكل مشابه. لكن لا يفاجأ المرء بأنّ اعلى الأصوات التي انتقدت آل سعود والاحتجاجات التي اندلعت ضدهم كانت في القطيف، وما يحيط بها في المحافظة الشرقية. نادرًا ما يجري التحدث عن تلك الاحتجاجات في السعودية، فضلًا عن الاعتراف بها، حتى من قبل من يعتبرون داخل البلاد بأنهم يشاركون المحتجين القضية نفسها. في القطيف، تغيّر مشهد الثورة بشكل كبير منذ زيارتي الاخيرة في حزيران الماضي. على تقاطع شارع الرياض وطريق الملك عبد العزيز في القطيف، تم هدم مستديرة الثورة (وهي مكان انطلاق التظاهرات تقريبًا كل يوم جمعة). لكن بعض الآثار لا تزال ظاهرة على الأرض، وتبقى رمزيتها كتعبير عن التضامن والتحدي متجذرة في ذاكرة الناس.

في منطقة الشويكة، غرب ما كان يعرف بمستديرة الثورة، اعيدت تسمية طريق الملك عبد العزيز بـ«شارع الثورة»، حيث تقام احتجاجات اسبوعية. يوجد هناك صور الشبان السبعة الذين قتلوا على يد الأمن السعودي، وكذلك صور من تعرض لإطلاق النار وعاش. هناك، كل زاوية وركن مليئة بغرافيتي مناهض للنظام. اكثر المستهدفين هو ولي العهد (الـذي توفي في ١٦ حزيران ٢٠١٢) نايف بن عبد العزيز، وابن اخيه حاكم المنطقة الشرقية محمد بن فهد بن عبد العزيز، وملك البحرين حمد بن خليفة. قد يكون نايف ومحمد بن فهد الاميرين الاكثر كرهًا في المنطقة، او البلاد ككل. محمد بن فهد معروف بفساده المستشري والمعدي، وسرقته الملكيات الخاصة من السكان المحليين، وسرقة المليارات من خلال الاستيلاء على اراض عامة وإعادة بيعها للمستثمرين بأسعار باهظة. كما يعرف عنه تورطه في صفقات عقارية غير شرعية في مكة وغيرها من الاماكن، وتمييز العديد من العائلات السنية في المنطقة الشرقية على حساب الآخرين. من جهة أخرى، الخوف من نايف اكبر باعتبار انه مهندس القمع الدامي للانتفاضة الشيعية في الثمانينيات. النظام السعودي كله متورط في القمع التاريخي ذاك والثورة المضادة الحالية، ومن ضمنهم الملك عبد الله، لكن يعتبر نايف الرأس المدبر. بوصفه وزيرًا للداخلية هو مسؤول ايضًا عن الاعتقال غير الشرعي للسجناء السياسيين، ومنهم من اعتقل منذ سنوات من دون تهمة او محاكمة



عادلة. كذلك، هو متورط في صفقات عقارية مثيرة للشك، وأخيرًا في صفقة تتعلق بالقسم الأخير من كورنيش الدمام في المحافظة الشرقية.

في الأشهر الأخيرة، تركزت التظاهرات في المحافظة الشرقية في العوامية، والقطيف القديمة، وسيهات، وتاروت. يعطي المتظاهرون دومًا معلومات خاطئة عن توقيت ومكان التجمعات، وغالبًا ما ينتقلون من مكان لآخر من اجل تضليل الشرطة. الوجود الأمني المكثف في القطيف أيام الجمعة يتعارض مع غيابه شبه التام باقي ايام الأسبوع، مع بضعة استثناءات مثل ما حصل في العوامية في ٢٢ آذار ٢٠١٢. يوم الخميس ذاك، كان الوضع عاديًا ولم يكن هناك اية دورية أمنية. لكن بعض المخبرين قاموا بعمل الشرطة القذر. فقد كان الناشط الشاب محمد صالح الزنادي، وهو أحد المطلوبين الثلاثة والعشرين المتهمين بتنظيم التظاهرات، كان يتمشى بشكل عادي في شارع البلدة الرئيسي. كان يبدو سعيدًا. بعد ساعات، اعلن انه تم اطلاق النار عليه من قبل القوات الأمنية اثناء قيامه بقص شعره في صالون للحلاقة في الشارع نفسه. استطاع الزنادي الهروب بعد اصابته بثلاث رصاصات، لكن القي القبض عليه بعد ساعات من قبل قوات الامن الداخلي. كانت المظاهر الامنية كثيفة خلال نهاية الأسبوع ذاك، مع سماع اصوات الرصاص من وقت لآخر لإخافة المتظاهرين المحتملين. لم يستطع سكان القطيف النزول الى الشارع وقتها بأعداد كبيرة، لكنهم دعوا إلى تظاهرة كبيرة في ٦ نيسان ٢٠١٢ واستمروا في احتجاجاتهم الأسبوعية.

القيادة السياسية والدينية التقليدية في القطيف محتارة حول الطريقة التي تتصرف بها بعد سقوط دماء بريئة في المنطقة. جميعهم يعارضون استخدام النظام للعنف ولأساليب التخويف القمعية. لكن بعضهم لا يرون اي فوائد في استمرار التظاهرات الشعبية، خصوصًا تلك التي تدعو لسقوط وموت آل سعود. الشيخ حسن الصفار، وهو احد اكثر رجال الدين والقادة السياسيين المحترمين في المنطقة، لم يتحدث ضد عنف الشرطة حتى منتصف شباط ٢٠١٢، بعد ان اطلقت القوات الامنية النار على العديد من شبان القطيف. أدان النظام للجوئه الى القوة وفشله في اطلاق تحقيق جدي في اعمال القتل. قاد الشيخ الصفار، وهو أحد أهم رجال المعارضة، الانتفاضة في الثمانينيات من القطيف، ولاحقًا من منفاه في دمشق. عاد هو وباقي المعارضين الشيعة في المنافي في التسعينيات بعد وعد الملك فهد بتخفيف القيود على شيعة المملكة. منذ ذلك الوقت، عمل من داخل النظام لتحسين وضع سكان القطيف، وتأمين المزيد من الحقوق للشيعة. لعقود، كان احد ابرز حلفاء النظام في المنطقة. لكنه اصبح هدفًا دائمًا لهجمات الإعلام المحلي المذهبية والساخرة، منذ ادان عنف النظام علنًا. بالنسبة للعديد من سكان القطيف، حتى من انتقد وعارض الشيخ لعمله مع النظام، هو يشكل الامل الاخير للشيعة للوصول الى حل سلمي.



ليس كل سكان القطيف ممن ينتقدون النظام يساندون المحتجين او ما يرونه اساليب تحيل الى المواجهة من قبل المعارضة. العديد من سكان المنطقة، كما غيرهم من العرب، يفضلون حلًا سلميًا للأزمة الحالية والعدالة المفقودة. مع شبح عنف النظام في الثمانينيات الحائم في عقولهم، هم يخافون من فقدان احبائهم ومستقبلهم. لكن موقف النظام العنيد ضد اي تغيير لا يبشر حتى من يهدفون العمل من داخل النظام مهما وصل اليه من فساد. رغم دروس الانتفاضات العربية، تصر العائلة الحاكمة على تقديم نفسها كطرف لا يقهر، وترفض تحميل اي شخص المسؤولية عن انتهاكات حقوق الإنسان المرتكبة العام الماضي. حتى من هم خارج القطيف ممن صدقوا حزمة الإصلاح الجذابة التي طرحها الملك عبد الله، اصبحوا يعتقدون بعقم وعود فارغة مماثلة. لكن النظام يعرف انه يملك كل الأسباب ليشعر بالقوة. فالحياة، تصبح طبيعية بشكل غريب على بعد ١٥ دقيقة من القطيف الثورية. في الدمام والخبر، المدن الرئيسية الأخرى في المحافظة الشرقية، تبدو القطيف واخبارها بعيدة جدًا. كذلك تبدو اي اعمال احتجاجية اخرى مهمة، نظرًا للقمع السعودي، لكنها لا تشجع النظام السعودي ولو قليلًا على تنفيذ اي من مناشدات مواطنيه. في الحقيقة، النظام يستفيد من تلك الانقسامات المناطقية، بالإضافة الى الخلافات المذهبية والايديولوجية، والطبقية، والسياسية، لمنع اي حالة من التضامن الوطني.

اصبح المواطنون الذين يتحملون الصعاب في المملكة

يعرفون اكثر فأكثر ان اعضاء الأسرة الحاكمة لا ينوون ابدًا مشاركة السلطة، او تطبيق ابسط انواع الإصلاح السياسي، او الاجتماعي او الاقتصادي. لكن القمع الذي لا يميّز، والقبضة الحديدية بحق كل المطالبات بالتغيير او الإصلاح او الثورة، بدأت بالارتداد ضد النظام. السعوديون الذين ينشطون او يدينون الوضع القائم، والظلم، واحتكار آل سعود السلطة، بدأوا يعترفون بضرورة مساندة الناشطين الآخرين في البلاد. يصح هذا المثال تحديدًا على من يطالبون بمحاكمة عادلة او الافراج عن المعتقلين السياسيين المتواجدين في السجون منذ سنوات وعقود. لقد ادركوا ان القوة تأتي من العدد والتعاون الوطني ضد النظام النفطي لآل سعود، الذي يعتمد على القمع والعنف واستراتيجيات «فرّق تسد» كي يستمر. مثال على تحالف عابر للمناطق والمذاهب، مساندة اهالي القطيف لتظاهرة السادس من حزيران ٢٠١٢ في الرياض المطالبة بالافراج عن المعتقلين السياسيين. مظاهر مساندة آخرى تبدو على مواقع التواصل الاجتماعي لكن اكثر من ذلك في الاجتماعات والمحادثات المغلقة. مشاعر المساندة، التي لم ترتق بعد لتصبح شبكات، مهما كانت بدائية الآن، تهدد بشكل جدي النظام وتفضح كونه يرتكب اخطاء كبيرة. مناصرو النظام السعودي يرفضون الاعتراف باي احتمال لتلك التهديدات. غالبًا ما يعتبرون لجوء السعوديين الى انتقاد النظام على مواقع التواصل الاجتماعي بأنه يبرهن عن استعداد النظام للاصلاح. ربما حان الوقت لهم، ولنا، للتوقف عن اعتبار النظام سلطة لا تخطئ كما هو يظن، والبدء بتقبله ككيان هش كما هو فعلًا. كيان لا يملك، في هذا التقاطع الزمني، اي خيار سوى التعامل مع اشكال المقاومة والانتقاد المتزايدة والمتعددة الموجهة ضده.◆



اليمن: ثورة تحوّلت إلى أزمة

جمانة فرحات

صحافية وناشطة. لبنان.

احتاج اليمنيون إلى قرابة عام من الاحتجاجات ومئات الشهداء وتدخل إقليمي ودولي قبل أن يقتنع الرئيس السابق علي عبد الله صالح بأن بقاءه في الحكم أمر لم يعد ممكنًا. وبالرغم من ابتعاده عن سدة الرئاسة، بعد توقيعه على المبادرة الخليجية، إلا أن صالح لم يتوار نهائيًا عن المشهد السياسي في البلاد. وبعدما نجح طوال سنوات حكمه، بمساعدة من أقاربه، في إحكام قبضته على مؤسسات البلاد، خلّف وراءه تركة ثقيلة تعوق مسيرة خلفه عبد ربه منصور هادي الذي تتجه الأنظار إليه لمعرفة ما اذا كان سينجح في اطلاق الحوار الوطني.

صحيح أن هادي انتخب في الحادي والعشرين من شهر شباط/ فبراير الماضي رئيسًا جديدًا للبلاد، إلّا أن امساكه بزمام الأمور بما يمكّنه من ان يصير الحاكم الفعلي تحول دونه عقبات عديدة، يدركها هادي، مثلما يدرك أنه ليس سوى لاعب من بين لاعبين كثر قد يكون هو أقلهم نفوذًا وتأثيرًا في الحياة السياسية في الوقت الراهن، نتيجةً لتاريخه السياسي من جهة ولتركيبة الحكم في البلاد من جهة ثانية.

عندما اختار الرئيس اليمني السابق، علي عبد الله صالح، في العام ١٩٩٤ عبد ربه منصور هادي، المنحدر من محافظة أبين الجنوبية، نائبًا له، لم يكن يهدف لأكثر من منح المنصب للشخصية الأضعف من بين الوجوه الجنوبية التي بقيت في معسكره بعد حرب طاحنة بين الشمال والجنوب أعادت فرض الوحدة بالقوة. في حينه، كان هادي يمثّل، من وجهة نظر صالح، الرجل الأصلح لتعيينه في منصب نائب الرئيس؛ فلا نفوذ قويًا يجعل هادي يشكل أي منافسة لصالح في الحكم، ولا قبيلة رئيسية تدعم النائب ليجد أمامها «الراقص على



رؤوس الثعابين» نفسه مضطرًا لمراعاتها، في بلدٍ تعد القبلية لاعبًا فاعلًا في حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبالفعل، لم يُسمع عن هادي، طوال ١٧ عامًا خلال توليه منصب النائب، أداؤه دورًا مركزيًا في الدولة، قبل أن تأتي الاحتجاجات لتجعله في صدارة المشهد السياسي اليمني. أمام تزايد الاحتجاجات وتعثر فرص التسويات السياسية، أدركت السعودية والولايات المتحدة أن بقاء صالح في الحكم أمر غير ممكن، لذلك كان لا بد من البحث عن مخرج ملائم يحفظ النظام من جهة ويحدث تغييرًا يهدئ من حالة الاحتجاجات العارمة التي عمت البلاد، والتي فاقمها صالح بقمعه الدموي لها. حينها برز هادي للمرة الثانية في دور الرجل المناسب، ووقع الاختيار عليه لادارة المرحلة الانتقالية. أوكلت إليه، بموجب المبادرة الخليجية، رئاسة البلاد بنحو توافقي لعامين. ومنذ شباط/ فبراير الماضي، يسعى هادي رويدًا رويدًا إلى فرض صلاحياته، كمن يسير في حقل من الألغام محاولًا قدر الإمكان عدم استفزاز خصومه سواء داخل حزب المؤتمر الشعبي الذي ينتمي إليه أو خارجه.

أولى الاشارات التي صدرت عنه كانت قبل يوم واحد من مراسم التسلم والتسليم، التي أقيمت في القصر

الرئاسي في صنعاء. يومها خرج معسكر انصار الرئيس اليمني السابق، علي عبد الله صالح، محاولاً اظهار أن الأخير قد حقق مراده وعاد إلى اليمن ليقوم بتنصيب خلفه كما سبق أن وعد. لكن هادي اختار معارضة صالح للمرة الأولى قائلًا إن الحفل سيقام لتوديع الرئيس السابق، بعدما تم تنصيب الرئيس في مجلس النواب بتفويض شعبي.

التفويض الشعبي نفسه، استند إليه هادي، لتوجيه انتقادات لسلفه محملًا إياه المسؤولية عن الأوضاع التي آلت إليها البلاد، ومتعهدًا تحسينها. إلّا أن محاولات هادي اطلاق عجلة حل المشكلات اليمنية لا تزال تصطدم بأكثر من عائق، وهو المدرك لوجود أطراف مستفيدة في الشمال كما في الجنوب، ترى أن فشله يصب في صالحها.

داخل حزب المؤتمر الشعبي، الذي ينتمي إليه، يدرك هادي أن الحزب منقسم إلى تيارين. الأول لا يزال يحتفظ بولائه للرئيس السابق، ولم يألُ جهدًا في انتقاد هادي وعرقلة أي خطوة يقدم عليها. في المقابل، ينادي التيار الأكثر اعتدالًا في الحزب، الذي كان حاكمًا طوال السنوات السابقة، بضرورة ابتعاد صالح عن رئاسة الحزب ودعم الرئيس الجديد، افساحًا في المجال أمامه لادارة ملفات البلاد حفاظًا على احد أهم المنجزات التي نجح صالح في تحقيقها للحزب، فعلى عكس البلدان العربية التي شهدت تغييرات في تركيبتها السلطوية طوال العام الماضي، نجح صالح في حفظ دور حزبه في الحياة السياسية، وتجنيبه التعرض للحل على غرار ما حدث في مصر أو تونس. ولذلك يعارض هذا الفريق توجهات التيار المقرب من صالح، والذي يشترط لتنازل الرئيس اليمني السابق تعيين نجله أحمد في مكانه.

نجح صالح في حفظ دور حزبه في الحياة السياسية وتجنيبه التعرّض للحل على غرار ما حدث في مصر أو تونس.

عقدة القيادات العسكرية

وفي موازاة العراقيل داخل حزب المؤتمر الشعبي، لا يزال هادي يفتقر بنحو رئيسي إلى تكوين ولاءات داخل الجيش، ما يجعل من نجاح عملية هيكلة المؤسسة العسكرية والأمنية خطوةً في غاية الأهمية له، اذ إن الرئيس السابق، وعلى مدى سنوات حكمه التي امتدت لأكثر من ٣٣ عامًا نجح في تحويل المؤسسة العسكرية والأمنية إلى مؤسسة عائلية، جاعلاً من المناصب العليا في الدولة حكرًا على أقاربه خوفًا من أي انقلاب قد يخطط له البعض.

ولذلك، لم يتأخر هادي، مستفيدًا من الغضب الشعبي الموجه ضد أقارب صالح، في اجراء مناقلات عسكرية، أطاح بموجبها شقيق نجل صالح، العميد طارق محمد عبد الله صالح من قيادة اللواء الثالث حرس جمهوري إلى جانب الاخ غير الشقيق لصالح، محمد صالح الأحمر، من قيادة القوات الجوية.

ومثّل التمرد الذي قاده طارق ومحمد صالح، وامتد لأسابيع، مؤشرات واضحة على المعركة التي ستنشأ في حال وصول الدور إلى نجل صالح، أحمد الذي يتولى قيادة الحرس الجمهوري، والى قائد أركان قوات الأمن المركزي العميد يحيى محمد صالح، وخصوصًا أن معسكر صالح يعدّ أن اقصاءه عن المناصب الأساسية في الدولة لا يصب إلا في مصلحة كل من قائد الفرقة أولى مدرع اللواء المنشق علي محسن الأحمر، وباقي أفراد أسرة آل الأحمر التي نجحت في الاستفادة من الاحتجاجات والحفاظ على مكانتها بالرغم من أنها كانت جزءًا رئيسيًا من نظام صالح تشاركه تقاسم السلطة وثرواتها.

لكن الفشل في مهمة اعادة هيكلة المؤسسة العسكرية والأمنية بمثابة خط أحمر من غير المقبول السماح بحدوثه، إذ من شأنه القضاء على أي محاولة مستقبلية لهادي لأداء دوره في ادارة المرحلة الانتقالية. وهو ما ظهر بوضوح من خلال الانتقادات التي ارتفعت عندما اقترب المبعوث الأممي الخاص إلى اليمن، جمال بن عمر، من رفع الراية البيضاء واعلان استسلامه إزاء ألاعيب الرئيس اليمني السابق وأقاربه في مقاومة أي محاولة للتخفيف من قبضتهم المحكمة على المؤسسة الأمنية والعسكرية. وذهب شباب الثورة إلى القول إن شكوى بن عمر، الملقب بـ«ناطق باسم السعودية ومصالحها»، ليست سوى ثمار ما صنعته أيديه بالتواطؤ مع السعودية والولايات المتحدة، اللتين خاضتا هجومًا مضادًا في مواجهة الحركة الاحتجاجية التي عمت البلاد طوال العام الماضي أفضى في النهاية إلى اقرار المبادرة الخليجية وتحويل الثورة اليمنية إلى مجرد أزمة.

الحركة الحوثية والحراك الجنوبي امام الحوار الوطني

وتوقف منتقدو بن عمر عند عدد من المكاسب، التي نجح صالح في تحقيقها برضى السعودية وأميركا على يد المبعوث الأممي، وفي مقدمتها الحصانة التي منحت لصالح واقاربه وأعوانه من الارتكابات طوال ٣٣ عامًا، ضاربين عرض الحائط بالثورة ودماء القتلى الذين سقطوا.

بعد توقيع المبادرة الخليجية تحوّلت الساحات إلى ورقة ضغط تمسك بها المعارضة، وهو ما جعل أنظار المؤمنين بضرورة إستمرار الثورة تتجه إلى محافظة تعزّ علّها تكون المنقذ من هذه المسألة.

مكسب اضافي يتحدث عنه المعتصمون يتمثل في نجاح صالح في الحفاظ على قرار الخروج والعودة إلى اليمن متى ما أراد. وهو ما جعله يظن أنه قادر إلى ما لا نهاية على ممارسة لعبته المفضلة بالرقص على رؤوس الثعابين وتحدي قرارات المناقلات العسكرية، التي يسعى هادي إلى وضع حد لها للتفرغ لعملية اطلاق الحوار الوطني، الذي سيكون مفصليًا في تحديد مستقبل اليمن.

فالقضية الجنوبية، حيث يتصاعد مطلب فك الارتباط، إلى جانب ملف صعدة وكيفية اشراك شباب الثورة، تعدّ من أبرز المواضيع الشائكة التي سيتناولها الحوار في حال تهيئة الأجواء الملائمة لانعقاده. ولعل اقناع الحوثيين والشباب بالمشاركة في الحوار قد يكون أسهل من اقناع الأطراف الجنوبية.

جماعة «أنصار الله» بزعامة عبد الملك الحوثي، حددت رؤيتها لما اعتبرته حوارًا صحيحًا في العاشر من شهر أيار/ مايو من هذا العام. وأهم ما جاء فيها أن تكون الثورة وأهدافها مرجعية للحوار، أن يتناول الحوار كافة القضايا الوطنية بلا استثناء. كذلك ينادي الحوثيون بأن لا يكون على الحوار أي وصاية أجنبية أو محلية دون الاعتراض على رعاية الأمم المتحدة له. ويشترط الحوثيون أن تحدد الأطراف الداعية إلى الحوار موقفها مما تقوم به أميركا وبعض الدول الأخرى من انتهاكات متواصلة لسيادة اليمن برًا وبحرًا وجوًا. كذلك يطالبون بأن تتخذ القرارات بالتوافق ويكون الحوار علنيًا وبمشاركة جميع الأطراف.

وطالبت جماعة الحوثي ايضا من القوى المتورطة بالحرب على الجنوب وعلى المحافظات الشمالية بالاعتراف بخطأ الحرب وعدالة قضيتيهما، فضلاً عن اعتزال رموز النظام المتورطين في القتل، وفي ذلك اشارة واضحة إلى اللواء المنشق علي محسن الأحمر الذي أصر في خطاباته طوال الأشهر الماضية على تقديم اعتذار عام لليمنيين عن فترة حكمه إلى جانب صالح، دون أن يقدم اي بادرة خاصة تجاه الحوثيين الذين يرون فيه خصمًا قاد في مواجهتهم ستة حروب.

أما في جنوب اليمن، فالأزمة أكثر تعقيدًا. بعد اعادة الرئيس اليمني السابق، علي عبد الله صالح، فرض الوحدة بالدم في العام ١٩٩٤، تراكمت مظالم الجنوبيين إلى أن انفجرت في منتصف عام ٢٠٠٧ من خلال الحراك السلمي الذي تحول من مجرد تجمع لموظفين، وتحديدًا عسكريين يطالبون باستعادة حقوقهم، إلى حركة سياسية تنادي بايجاد حل عادل للقضية الجنوبية. تصاعد عمل الحراك الجنوبي، ودفع القيادات الجنوبية، التي كان طرفًا في الوحدة وتحديدًا نائب الرئيس اليمني السابق علي سالم البيض، إلى الخروج عن صمته الذي استمر منذ العام ١٩٩٤ وحتى ٢٠٠٩. كذلك عاد كل من الرئيس السابق علي ناصر ورئيس الوزراء السابق أبو بكر حيدر العطاس إلى الواجهة، لتكون النتيجة تشظي الحراك الجنوبي وتحوله من حركة موحدة إلى تيارات يمكن وضعها ضمن فئتين. الأولى ترى في الخيار الفيدرالي، ولو المؤقت، حلاً مناسبًا للقضية الجنوبية، فيما تصر الثانية على مطلب فك الارتباط او الانفصال تحت شعار استعادة دولة الجنوب. لكن يضع الطرفان شروطًا للمشاركة في الحوار، والشرط الأكثر تشددًا يتمثل في أن يكون الحوار بين الشمال والجنوب، وليس بين النظام من جهة واطراف يمنية شمالية وجنوبية من جهةٍ ثانية، ليكون قبول الحوار، وإن بشروط، هو الأمر الوحيد الذي بات يمكن اعتباره قاسمًا مشتركًا بين مختلف تيارات الحراك. أما امكانية انضمام التيارات الجنوبية للحوار الوطني فمرتبطة بتحقيق هذا الشرط، وهو أمر مستبعد على الأقل في المرحلة الراهنة، وخصوصًا في ظل وجود أطراف شمالية ترفض مثل هذا الشرط، وترى أن الحل الأنسب يتمثل في مشاركة تيارات الحراك في الحوار الوطني وطرح جميع الخيارات على الطاولة، بما في ذلك الانفصال أو حق تقرير المصير ومحاولة اقناع الأطراف الأخرى بتبني هذه المطالب.

شباب الثورة: ثورة مسروقة

أما شباب الساحات، الذين حركوا المياه الراكدة في السياسة اليمنية ونجحوا في اطلاق حركتهم الاحتجاجية بعيدًا عن الأحزاب السياسية، فأصبح صوتهم، بعد عام ونصف العام تقريبًا من اندلاع حركتهم الاحتجاجية، الأكثر خفوتًا وتحديدًا منذ توقيع المبادرة الخليجية بين حزب المؤتمر الشعبي وحلفائه واحزاب اللقاء المشترك. وفيما تجري نقاشات جدية بين الحكومة اليمنية وممثلين عن الشباب لاقناعهم بالمشاركة في الحوار الوطني، فإن نقاشًا موازيًا بين الشباب أنفسهم حول جدوى بقاء الساحات من عدمه بعد التحولات التي طرأت على أدائها طوال الأشهر الماضية. وإلى جانب السيطرة الحزبية على الساحات

وتحديدًا من قبل حزب التجمع اليمني للإصلاح الذي يمسك باللجان التنظيمية والتمويل، فإن الضغط الشعبي الذي كانت تشكله الساحات مع انطلاق الاحتجاجات تراجع بعد توقيع المبادرة الخليجية. ورغم كل الانحرافات التي أصابت المسار الثوري، لم تثبت الساحات جدواها في تصحيح مسارها بل اقتصر دورها منذ توقيع المبادرة على التحول إلى ورقة ضغط تمسك بها المعارضة، وهو ما جعل أنظار المؤمنين بضرورة استمرار الثورة تتجه إلى محافظة تعز، علّها تكون المنقذ من هذه الحالة.

بعدما غرقت ساحة التغيير في صنعاء تحت سيطرة شبه كاملة لحزب التجمع اليمني للاصلاح والفرقة أولى مدرع، وتراجعت حماسة أبناء المناطق الجنوبية للاستمرار في المشاركة في الاحتجاجات على خلفية توقيع المبادرة الخليجية وتهميشها للقضية الجنوبية، رأى البعض أن تعز قد تنجح في تغيير المعادلة، نظرًا للدور الذي أدّته المدينة في اندلاع التحركات الاحتجاجية.

فإلى جانب كونها أكبر المحافظات اليمنية من حيث التعداد السكاني، تشتهر تعز بمدنيتها وابتعادها عن السيطرة القبلية التقليدية، فضلًا عن استقلالية قرارها عن العاصمة صنعاء، بفعل تركيبتها الاجتماعية المنفتحة ونشاطها الاقتصادي المتنوع. وهو ما أمكن تلمسه خلال الاحتجاجات من خلال كون غالبية المبادرات والأفكار التي صيغت لمواجهة نظام صالح انطلقت من تعز لا من صنعاء. الأمر الذي أرق النظام منذ اندلاع الاحتجاجات ودفعه خلال الأشهر الأولى لممارسة مختلف أنواع الحيل عله يتمكن من جر تعز إلى الحرب وجعل السلاح لغة الاحتجاج عوضًا عن الهتافات. لكن وعي أبناء المدينة أفشل هذه المحاولات دون أن ينسحب نجاحهم على القدرة على اجهاض المبادرة الخليجية أو تلبية التوقعات التي كانت تعوّل عليهم لإعادة الزخم الثوري. وعلى الأثر، تحولت الساحات عمومًا إلى مجرد أمكنة اعتصامات وخيم يتجمع فيها الشباب لمناقشة الأوضاع السياسية دون امتلاكهم القدرة على اتخاذ اي مبادرات أو خطوات قادرة على فرض تحقيق أي مطلب، بما في ذلك محاسبة أفراد النظام. وهو ما جعل الشباب يقرون ضمنيًا أن ثورتهم قد سرقت وحورت إلى أزمة، وأنهم باتوا عاجزين عن اعادتها إلى مسارها الصحيح، لينتظروا، شأنهم شأن العديد من الفاعلين السياسيين، الحوار الوطني وليس فقط امكانية نجاحه أو فشله، بل النجاح في عقده.

فمنذ أشهر، باتت معضلة الأوضاع الأمنية المتردية تفرض نفسها على اليمن ومستقبله نتيجة توسع نفوذ الجماعات المسلحة المتشددة سواء «أنصار الشريعة» أو «تنظيم القاعدة في جزيرة العرب». وشكل الانفجار الانتحاري الذي هزّ ميدان السبعين في الواحد والعشرين من شهر أيار/ مايو نقطة تحول في الارتباك الذي طالما طبع علاقة الاسلاميين المسلحين بالنظام اليمني، بعدما استشعروا جدية السلطات اليمنية هذه المرة في محاربتهم. وهو توجه مرتبط بالضغوط الغربية، وتحديدًا الأميركية، بعدما بات اليمن يمثّل من وجهة نظر واشنطن «تهديدًا للأمن القومي للولايات المتحدة الأميركية» على اعتبار أن جميع الهجمات التي خطط لتنفيذها ضد الولايات المتحدة تم الاعداد لها من قبل «تنظيم القاعدة في جزيرة العرب».

ويهدد نجاح الجماعات الإسلامية المتشددة في توسيع رقعة سيطرتها على المناطق اليمنية، ونقل المعارك من الجنوب إلى العاصمة اليمنية، بجعل مستقبل البلاد، وليس الحوار، في مهب الريح فقط.◆



النفط وتجارة السلاح:
حكاية حب خليجية ـ غربية

مايكل كلير

خبير في الطاقة، استاذ دراسات السلام والأمن العالمي في جامعة هامبشاير الأميركية.

أود أن اتطرق الى الدور المحتمل للشفافية في الإضاءة على جانب من تجارة الأسلحة ينبغي الانتباه له: العلاقة التفاعلية بين نقل الأسلحة واستغلال الموارد الطبيعية. أعتقد أنّه يوجد علاقة حميمة وتكافلية بين هاتين الظاهرتين، مع مساهمة كل منهما في نمو الأخرى ــ بالترافق مع نتائج خطيرة وغير مرغوبة. ينطبق ذلك على طرفي المعادلة: فمن جهة يؤدي السعي وراء المواد الخام إلى زيادة بيع الأسلحة، مع تهديد إضافي للسلم والامن الدوليين؛ وفي الجهة الأخرى، يؤدي السعي وراء السلاح إلى استنزاف متسارع للموارد، مع ما يرافق ذلك من ضرر على البيئة، والأهداف التنموية، والأمن الإنساني. يتطلب هذا الطرح وقتًا لتطويره، لكن دعوني، على الأقل، اتطرق الى بعض النقاط الأساسية.

الدول العربية المنتجة للنفط اكبر مشتر للاسلحة

بداية، دعونا نبدأ بما هو واضح: خلال الأربعين سنة الماضية، كانت الدول المنتجة للنفط في الشرق الأوسط أبرز مشتري الأسلحة التقليدية. وفق تقرير صدر أخيرًا عن «وحدة الأبحاث في الكونغرس» التابعة لمكتبة الكونغرس الأميركي، مثّلت دول الشرق الأوسط اكثر من نصف الأفرقاء (٥١ في المئة) الذين تعاقدوا مع العالم الصناعي بين ٢٠٠٧ و٢٠١٠ على شراء اسلحة. خلال تلك الفترة، كانت المملكة العربية السعودية ــ أكبر مصدر للنفط في العالم ــ اكبر مستورد للأسلحة في العالم أيضًا، وقد أنفقت ٢٨.٩ مليار دولار أميركي على عقود أسلحة جديدة، ما يشكل حوالي ١٦ في المئة من إجمالي قيمة الصفقات مع العالم الصناعي. الإمارات العربية المتحدة والعراق، كانتا من ضمن الأكثر شراء للأسلحة في الفترة نفسها، مع ١٥.١ مليارًا و٧.٤ مليارات على التوالي، صرفت على طلبات جديدة[1]. كذلك دخلت كل من الجزائر، وايران، والكويت، وليبيا، وعمان، وقطر في اتفاقات على مبالغ كبيرة ايضًا لشراء أسلحة جديدة في السنوات القليلة الماضية[2].

يقول خبراء تجارة الأسلحة التقليدية تعليقًا على حقيقة كون دول النفط الشرق أوسطية السوق الأبرز للأسلحة المستوردة، إنّ الموضوع يتعلق بثروة تلك الدول الكبيرة، ورغبة الدول المستوردة للنفط في كسب ود أكبر مزوديها بالطاقة. كذلك يمكن اعتبار الخلافات والانقسامات الموجودة في المنطقة منذ



١ المرجع نفسه، الجدول ١٢، ص ٤٥.

٢ المرجع نفسه، الجدول ١١، ص ٤٣ ــ ٤٤.

٣ للمزيد من المعلومات يرجى الاطلاع على جيرالد ستاينبرغ The Middle East and the Persian Gulf: an Israeli Perspective وعبد المنعم سعيد The Middle East and The Persian Gulf: an Arab Perspective في كتاب اندرو جي. بيار Cascade of Arms, Washington DC, Brookings University Press, 1997، ص ٢٢٧ ــ ٢٥٢، و٢٥٣ ــ ٢٨٣، على التوالي.

زمن، أحد أسباب سعي الدول الشرق اوسطية وراء الأسلحة الحديثة[٣]. لكن البحث الدقيق يتوصل الى علاقة اقرب واكثر حميمية بين تداول الأسلحة وانتاج النفط، يترابط فيها الاثنان مباشرة. تطورت تلك العلاقة بداية في السبعينيات، خلال ولاية الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون. بعد زيادة اسعار النفط الخام بأربعة أضعاف، كما أعلنت منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك)، اصبح الرئيس نيكسون ومستشاروه قلقين من الأثر الاقتصادي المعاكس للزيادة الكبيرة في خروج الدولارات الأميركية من البلاد لشراء النفط المستورد. لذلك، أسس نيكسون لمجموعة عمل ما بين وكالات أميركية عدّة، يترأسها نائب وزير الدفاع وليم بي. كليمنز جونيور، لتحفيز الصادرات الأميركية لدول «أوبك»، وخصوصًا الأسلحة[٤]. قال كليمنز وقتها، خلال شهادة له أمام الكونغرس، إنّ اي تباطؤ في تصدير الأسلحة الأميركية لتلك الدول «يقلل من احتمال مساهمة البيع... في تعزيز أمن العالم الحر وميزان المدفوعات الأميركي»[٥]. بسبب ذلك، أشرف نيكسون على زيادة كبيرة في بيع الأسلحة الأميركية لإيران والسعودية. في ذلك الوقت، كانت الحكومة الفرنسية ايضًا قلقة بنحو مماثل حيال تبعات مسألة ميزان المدفوعات، مع تزايد استيراد النفط ذي الكلفة العالية، فسعت إلى زيادة بيع الأسلحة لإيران والسعودية[٦].

دول الشرق الأوسط النفطية هي المتلقّي الأول للأسلحة لأنّ الدول الكبرى المستوردة للنفط ترغب في استعادة قسم من المال الذي تنفقه على واردات النفط.

التلازم بين النفط وأمنه وتجارة الاسلحة

لكن لم يكن ذلك الدافع الوحيد لزيادة مبيع الأسلحة لأهم الدول المنتجة للنفط. كان الرئيس نيكسون أيضًا قلقًا بشأن الخطر الذي يتهدد أمن النفط اثناء نقله من منطقة الخليج، خصوصًا بعد رحيل القوات العسكرية البريطانية في ١٩٧٢. بعد المراجعة المكثفة لخيارات الولايات المتحدة الاستراتيجية في الخليج، اعتمد نيكسون استراتيجية عرفت باسم «الاستراتيجية البديلة» او «عقيدة نيكسون»، التي بموجبها ستسلح الولايات المتحدة حليفيها الأبرز في المنطقة ــ إيران والسعودية ــ وبالتالي تسمح لهما بأن يكونا «الشرطة الإقليمية» التي ترعى المصالح الأميركية النفطية. وكما قال نائب مساعد وزير الدفاع جيمس إتش. نويس آنذاك «الاستنتاج الأبرز (للمراجعة) كان أنّ الولايات المتحدة لن تتولى دور الحامي الذي كانت تتولاه بريطانيا في منطقة الخليج، إذ إنّ مسؤولية السلام والاستقرار يجب أن تتولاها بشكل أساسي دول المنطقة. استنادًا إلى «عقيدة نيكسون»، نحن مستعدون لمساعدة دول الخليج لكن ننتظر منها تحمل المسؤولية الرئيسية في قضية الدفاع الخاص بها، والتعاون في ما بينهم لتأمين السلام والاستقرار الإقليميين»[٧].

العرض القاضي بـ«مساعدة» دول الخليج، عنى وقتها تأمين أسلحة وخدمات عسكرية لها، بنحو غير مسبوق. في الأساس، كانت إيران أبرز متلقّ لتلك المساعدة، هي التي كان يحكمها الشاه، المدعوم من الغرب. فيما كانت اتفاقات بيع الأسلحة الأميركية الى ايران قد بلغت بين ١٩٥٠ و١٩٧٠ حوالي ٤٤ مليون دولار سنويًا، ارتفعت إلى ١٩،٩ مليار دولار خلال السنوات الثماني التالية، او ما يعادل ٢،٥ مليار دولار سنويًا[٨]. بعد سقوط الشاه، وصعود النظام المعادي للغرب في طهران، سعت الولايات المتحدة لتعزيز القدرة العسكرية لحلفائها في المنطقة، وخصوصًا السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة[٩]. مذّاك، أصبحت السعودية المتلقي الأبرز للسلاح الأميركي، مما ساعدها على أن تكون اول زبون عالمي للأسلحة.

أدّت الولايات المتحدة، مع الوقت، دورًا عسكريًا اكثر مباشرة في الخليج، لكنها لا تزال تعتمد على صفقات الأسلحة لتعزيز القدرات العسكرية لشركائها الأمنيين في مواجهة إيران والتأكد من امن تدفق نفط الخليج. يبدو ذلك جليًا، مثلًا، في القرار الأميركي الأخير بمنح السعودية ما يوازي الستين مليار دولار من الأسلحة المتقدمة ــ وهي اكبر صفقة تسليح لدولة واحدة حتى الآن. حين أعلن عن الاتفاق، في ٢٠١٠، قال مساعد وزيرة الخارجية أندرو جاي. شابيرو إنّ (الصفقة)

٤ انظر، اندرو جي. بيار The Global Politics of Arms Sales, Princeton, NJ, Princeton University Press, 1982، ص ٢٤.

٥ الكونغرس الأميركي، مجلس النواب، لجنة العلاقات الخارجية، قانون التنمية والتعاون المشترك لعام ١٩٧٣، جلسات الاستماع، الكونغرس الثالث والتسعين، الجلسة الاولى، ١٠٧٣، ص ١١٠.

٦ بيار، المصدر ذاته، ص ٢٤.

٧ الكونغرس الأميركي، مجلس النواب، لجنة العلاقات الخارجية، اللجنة الفرعية، جلسات استماع، الكونغرس الثالث والتسعين، الجلسة الأولى، ١٩٧٣، ص ٣٩.

٨ وزارة الدفاع الأميركية Foreign Military Sales, Foreign Military Construction Sales, and Military Assistance Facts، طبعة ١٩٧٨، واشنطن دي. سي. الارقام كلها في الدولار الأميركي.

٩ للمزيد يمكن الاطلاع على كتاب كلير American Arms Supermarket، ص ١٢٧ ــ ١٦٢.

«ستكون رسالة شديدة اللهجة لدول المنطقة تفيد بأننا ملتزمون بأمن شركائنا الرئيسيين في الخليج العربي والشرق الأوسط. كذلك، ستعزز الصفقة قدرة السعودية على دحر التهديدات على حدودها والدفاع عن نفسها في وجه تلك التهديدات، وتلك التي تستهدف بنية نفطها التحتية، التي هي أساسية لمصالحنا»[١٠].

بالتالي، فإني اعتقد انّ حقيقة كون دول الشرق الأوسط النفطية هي المتلقي الأول للأسلحة التقليدية تعود، في جزء كبير منها، إلى رغبة الدول الكبرى المستوردة للنفط في استعادة قسم من المال الذي تنفقه على واردات النفط، ومن أجل التأكد من أمن نقل النفط عالميًا. كان الامر كذلك لفترة طويلة، ويستمر حتى اليوم على المنوال ذاته.

مع تزايد الطلب على النفط وانخفاض الاحتياطي منه سعت الدول المستوردة إلى تثبيت علاقات حميمة مع قادة الدول المنتجة.

في الفترة الأخيرة، أضيف سبب جديد إلى تلك السابقة، من اجل الدفع قدمًا بصفقات الأسلحة الى الشرق الأوسط (وغيرها من المناطق المنتجة للنفط): هو الجهود المبذولة من ابرز الدول المستوردة للنفط من لتثبيت علاقات مميّزة مع ابرز الدول المنتجة للنفط وغيره من موارد الطاقة. مع تزايد الطلب على النفط وغيره من مصادر الطاقة بشكل كبير، وانخفاض الاحتياطي منه، سعت ابرز الدول المستوردة للنفط، وعلى رأسها الولايات المتحدة، والصين، واهم القوى الأوروبية، إلى تثبيت علاقات حميمة مع قادة الدول المنتجة للنفط — من أجل تأمين عقود طويلة الأجل لتدفق النفط و/ أو تأمين الفرص أمام شركاتها النفطية الكبرى للمشاركة في انتاج النفط.

بالطبع، حافظت الولايات المتحدة لفترة طويلة على علاقات عسكرية وثيقة مع دول الخليج، وأخيرًا، خلال إدارتي كلينتون وبوش الابن، سعت إلى تعزيز تلك الروابط مع دول بحر قزوين المستقلة حديثًا، والدول المنتجة للنفط في شرق أفريقيا. الصين، من جهتها، سعت إلى مثل تلك العلاقات مع أنغولا والسودان وإيران وكزاخستان وفنزويلا، واخذت تنافس واشنطن على النفوذ في دول الخليج الأخرى. وتسعى دول أوروبا الكبرى احيانًا إلى علاقات مماثلة مع مستعمراتها السابقة، خصوصًا في أفريقيا. خلال تطوير علاقات مشابهة، تستخدم الدول المستوردة للنفط كل الوسائل المتوافرة، من الاعتراف الدبلوماسي، والزيارات الرسمية، والتعاون التعليمي والعلمي، والمساعدات والقروض التنموية، وعقد صفقات الأسلحة بنحو متزايد. مع وجود كل تلك المغريات، ليس من المستغرب أن يرحّب قادة الدول المنتجة للنفط بالانفتاح التنافسي، وان يسعوا إلى مضاعفة ارباحهم، ومن ضمن ذلك تأمين حرية الوصول الى أسلحة متقدمة ومعدات عسكرية في العديد من الحالات[١١].

ان تنافس الدول المستوردة للنفط في عقد اتفاقات مماثلة، يؤدي، من وجهة نظري، إلى وضع يمنح الدول المصدرة للنفط القدرة على الوصول الى اكثر الأسلحة المتوفرة تطورا. مع سعي الولايات المتحدة، والصين والدول الأوروبية إلى كسب ود قادة تلك الدول، ليس مفاجئًا قدرتهم على الحصول على اسلحة غالية الثمن وتقنيات اكثر تعقيدًا على مر السنين. أعتقد أنّ تلك الدينامية عامل اساسي في ارتفاع مستويات نقل الأسلحة للشرق الأوسط وافريقيا. فبناءً على ارقام «وحدة الأبحاث في الكونغرس»، ارتفعت طلبات الأسلحة التقليدية من قبل دول الشرق الأوسط من ١١٤،٤ مليار دولار إلى ١٤٠،٦ مليار دولار في الفترة الممتدة بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٦، بزيادة قدرها ٢٣ في المئة. كذلك ارتفعت قيمة الصفقات التي وقعتها الدول الافريقية خلال المدة نفسها من ثلاثة مليارات دولار إلى ٤،٢ مليارات، أي بزيادة قدرها ٤٠ في المئة. خلال هذه الفترة، كانت ابرز الدول المصدرة للسلاح هي الأكثر استيرادًا للنفط، أي: الولايات المتحدة الأميركية والمملكة المتحدة وفرنسا والمانيا والصين[١٢].

افريقيا: الاسلحة مقابل صفقات النفط

تثير الزيادة في مبيع الأسلحة الى افريقيا الانتباه. رغم انّ حجم الأسلحة الموّردة الى افريقيا اقل بكثير من تلك الخاصة بآسيا والشرق الأوسط (في القيمة المالية)، فإنّها تتضمن الكثير من اسلحة المشاة، السلاح الأفضل للحروب الاهلية — وهي انواع الحروب الأكثر انتشارًا في القارة.

وفيما يمكن اعتبار مسألة تجارة السلاح مع افريقيا ذات ابعاد معقدة، يمكن ملاحظة علاقة واضحة بين

١٠ وزارة الخارجية الأميركية Briefing on Pending Major Arms Sale، واشنطن دي. سي، ٢٠ تشرين الأول ٢٠١٢، ويمكن الاطلاع على الملف على الموقع الإلكتروني: www.state.gov (تم سحب الملف في ١٤ تشرين الأول ٢٠١١).

١١ للمزيد يمكن الاطلاع على كتاب مايكل تي. كلير Rising Powers, Shrinking Planet, New York: Metropolitan Books, 2008، الفصول ٥ و٨.

١٢ Grimmett, Conventional Arms Transfers to Developing Nations, 2003-2010، الجدول رقم ٦، ص ٣٦.



السعي وراء النفط (والموارد الطبيعية الأخرى) وتسليم الأسلحة. فعلى سبيل المثال، تلقت نيجيريا اسلحة من الولايات المتحدة والصين، وهما دولتان تسعيان إلى زيادة وارداتهما النفطية إلى هذا البلد. ولا يمكن التغاضي عن حقيقة زيادة تسليم الأسلحة لنيجيريا بعد اتفاق الرئيسين اولوسغون اوباسانجو النيجيري ونظيره الصيني هو جينتاو على زيادة التعاون في المجال النفطي[١٣]. بنحو مماثل، زادت الولايات المتحدة مساعداتها العسكرية لنيجيريا بعد تزايد اعتمادها على النفط النيجيري. وبما أنّ «نيجيريا خامس اكبر مصدّر لواردات اميركا النفطية»، وبسبب ان عدم الاستقرار في دلتا النيجر يمثل خطرًا على امن منشآت النفط النيجيرية، أعلنت وزارة الخارجية الأميركية عن خطط لتعزيز قدرات محاربة التمرد لدى الجيش النيجيري، خصوصًا في «منطقة استخراج النفط في دلتا النيجر الحساسة»[١٤]. كذلك عززت كل من الولايات المتحدة والصين مساعداتها العسكرية لدول نفطية أخرى في المنطقة، واحيانًا عبر التنافس بينهما على موقع الحظوة لدى الدول الصديقة للطرفين (نيجيريا)، او السعي الى اتفاق احادي (كما في علاقات الصين مع النظام في الخرطوم)[١٥]. يمكن ملاحظة نمط مماثل، على ما اعتقد، في حوض بحر قزوين، حيث تسعى كل القوى الكبرى إلى السيطرة على انتاج الطاقة ونقلها.

اذًا، تشكل المنافسة بين أبرز مستوردي النفط عاملًا آخر مهمًا في تجارة الأسلحة التقليدية.

السلاح البحري للتسابق على النفط

لقد تحدثت، حتى الآن، بشكل عام عن المحفزات التي تدفع الدول المصدرة للسلاح إلى الدخول في صفقات لبيع الاسلحة، لكن من الأهمية بمكان التوقف عند محفزات الدول المستوردة للسلاح. كما هناك علاقة جيدة بين السعي وراء النفط وسائر الموارد الطبيعية الأخرى من قبل الدول المصدرة للسلاح، كذلك اعتقد أنّ ثمّة علاقة مماثلة بين الموارد والسعي وراء الأسلحة من قبل الدول المصدرة للموارد. العديد من متلقي الأسلحة التقليدية هم دول منتجة للموارد الطبيعية تواجه مخاطرًا من دول مجاورة او من مجموعات معارضة في الداخل، بطريقة او باخرى، لتأمين حدودها و/او قمع التمردات والحركات الانفصالية داخل الحدود، يسعى قادة تلك الدول إلى الحصول على اسلحة حديثة من كل الانواع، على عكس قادة دول العالم الصناعي المعرضة للخطر. لكن في البيئة التي تناولتها، بالاضافة الى تنافس الدول المستوردة للموارد بعضها ضد بعض على النفوذ على الدول المصدرة للموارد، تعرض كل منها على الزبائن أعدادًا كبيرة من الاسلحة ويجري تطوير أسلحة تزيد على تلك التي تعرض على الدول غير المنتجة للموارد الأولية.

العلاقة بين الاستحواذ على الأسلحة وانتاج الموارد الأولية واضح ايضًا في الجهود الاخيرة لبعض الدول النامية لتعزيز قدراتها البحرية، خصوصًا تلك التي تريد استغلال بحرها الإقليمي الغني بالموارد الطبيعية. العديد من تلك الدول، مثل الصين وفييتنام وماليزيا وتايلاند واندونيسيا والفيليبين متورطة في صراع مستمر حول ملكية نفط بحري وحقول غاز طبيعي في بحر الصين الجنوبي. وهو خلاف أدى في مرات عدّة إلى اشتباكات بين البوارج الحربية للدول المختلفة المتورطة في ذلك النزاع[١٦]. وقد برز خلاف مماثل حيال حقل نفطي تحت البحر مقابل بورنيو تدّعي كل من اندونيسيا وماليزيا ملكيته. ونتيجة لتلك الخلافات البحرية، وغيرها المتعلقة بموارد طبيعية، حدّثت العديد من تلك الدول قواتها البحرية، وبشكل أساسي من خلال شراء البوارج البحرية المستوردة. تقول «وحدة الأبحاث في الكونغرس» انه بين الاعوام ٢٠٠٣ و٢٠٠٧، حصلت دول شرق وجنوب شرق آسيا مجتمعة على ٢٦ بارجة حربية كبيرة، ١٣٣ سفينة صغيرة، ١٤ غواصة، كلفت القسم الكبير من مبلغ

١٣ للمزيد عن هذا الموضوع يمكن قراءة كتاب كلير Rising Powers, Shrinking Planet, p. 168 - 169, 214.

١٤ وزارة الخارجية الأميركية، فذلكة الموازنة الاميركية للعمليات الخارجية، العام المالي ٢٠٠٧، ص ٣٠٧.

١٥ في موضوع الصفقات العسكرية بين الصين وافريقيا قراءة تقرير «امنستي انترناشونال» الصادر في ٦ حزيران ٢٠٠٦ People's Republic of Angola: Sustaining Conflict and Human Rights Abuses Accelerates The Flow of Arms. يمكن ايجاد التقرير على موقع المنظمة الإلكتروني www.amnesty.org للمزيد مراجعة كتاب كلير Rising Powers, Shrinking Planet, ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

١٦ للمزيد من المعلومات يمكن مطالعة South China Sea، تحليل صادر عن مديرية معلومات الطاقة في وزارة الطاقة الأميركية، آذار ٢٠٠٨، على الموقع: www.eia.doe.gov الجدول رقم ١، المواجهات العسكرية في بحر الصين الجنوبي منذ ١٩٧٠.

٧٢ مليار دولار الذي انفقته تلك الدول في تلك الفترة على استيراد الأسلحة[١٧].

من هذه الأمثلة وغيرها، يبدو واضحًا بشكل لا لبس فيه، وجود علاقة قوية وتكافلية بين السعي وراء الموارد من قبل اهم الدول المستوردة للموارد الطبيعية، والسعي وراء الأسلحة من قبل أهم الدول المنتجة لتلك الموارد. وكما قلت في بداية مداخلتي، فإنّ هذه العلاقة ينتج منها العديد من الأمور المختلفة، فحين تؤمن الاسلحة للدول المنتجة للنفط، للأسباب التي ذكرتها، فإنّ ابرز بائعي الأسلحة يصرون على أنّهم يسعون فقط إلى الحفاظ على الاستقرار الاقليمي، وأنّ اعمالهم لن تؤدي الى العسكرة او تعزيز السباق الى التسلح. لكن نتائج نقل الأسلحة هي احيانًا غير متوقعة وخطرة. حين كانت ايران المتلقي الأبرز للأسلحة الأميركية، على سبيل المثال، انخرطت في عدد من الممارسات العسكرية العدائية، واستولت على جزر متنازع عليها في الخليج، وأرسلت جنودًا الى سلطنة عمان. كذلك، عندما قرر صدام حسين اجتياح ايران في العام ١٩٨٠ والكويت في العام ١٩٩٠، تأثر برأيي، بكونه نجح في الحصول على ترسانة كبيرة من الأسلحة المستوردة لقواته المسلحة التي كانت تتزايد عديدًا. كذلك اعتقد انّ توافر الأسلحة الحديثة في السوق الدولية يساهم في الجو المتوتر في بحر الصين الجنوبي، وفي مناطق بحرية أخرى غنية بالموارد، حيث يعتمد المتنافسون على استعراض القوة العسكرية لتعزيز ادعاءاتهم.

تستخدم الدول المستوردة للنفط كل الوسائل المتوفرة من الاعتراف الدبلوماسي والتعاون التعليمي والعلمي إلى صفقات الأسلحة.

كذلك يمكن أن يكون لنقل الاسلحة تأثير على التطورات الاجتماعية والاقتصادية داخل تلك الدول. فرغم أنّ الدول المنتجة للموارد الطبيعية، بنحو عام، هي في وضع افضل لدفع المال لقاء شراء الأسلحة المستوردة من الدول الاخرى، فإنها تعاني احيانا من اجل تسديد كل الدفعات المستحقة عليها مقابل تلك الاسلحة الثمينة. هذه مسألة تزداد اهميتها حين تتراجع اسعار النفط او السلع الاخرى، كما يحصل دوريًا. في تلك الاوقات قد تضطر الدول التي طلبت أسلحة مستوردة غالية الى زيادة انتاجها من النفط والموارد الطبيعية، مما قد يلحق الضرر بالبيئة او بقدرة تلك الدول المستقبلية على الانتاج، او يوجب نقل الأموال من برامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية، مما قد يزعج الشعب ويسبب التذمر[١٨]. بالاضافة الى ذلك، فإنّ الأسلحة التي من المفترض ان تؤمن الدفاع ضد العدو الخارجي غالبًا ما تستعمل في الصراعات الداخلية، ضد اقليات عرقية او مجموعات منشقة تسعى إلى زيادة حقوقها السياسية. رأينا ذلك في الفترة الأخيرة في ليبيا وسورية حيث الأسلحة المتطورة – واغلبها مستورد – استخدمت ضد المدنيين غير المسلحين.

يؤدي ذلك الى الاعتقاد بأنّه يجب ان نخصص المزيد من الانتباه لتلك العلاقات المعقدة والمهمة. قد توجد اسباب قانونية في ميثاق الأمم المتحدة، تتيح بيع وشراء الأسلحة التقليدية. لكني اعتقد انّ تلك الأهداف تم تشويهها بسبب السعي وراء الموارد الطبيعية من قبل الدول المصدرة للأسلحة، مع نتائج خطرة محتملة قد تقوّض ذلك الميثاق. انّه لأمر اساسي بالتالي، ان نفهم تلك التقاطعات بنحو افضل، وافضل طريقة لتنمية ذلك الفهم والترويج له هي زيادة الشفافية في تجارة الأسلحة.◆

١٧ Grimmett, Conventional Arms Transfers to Developing Nations, ٢٠٠٣-٢٠١٠، الجداول ١٧ و٢٦، ص ٥١ و٦٥.

١٨ لمزيد من المعلومات الاطلاع على Steinberg, The Middle East and The Persian Gulf, ص ٢٣٢ – ٢٣٤، و٢٣٧ – ٢٤٠.



الثورات بشبابها

هي دي الثورة!

رشا العزب

صحافيّة وناشطة في اللجان الشعبيّة، مصر.

أنا إسمي رشا العزب، أنا صحفيه وبشتغل في السياسه من سنة ٢٠٠٠ وعمري ٢٩ سنه.

في تمانيه وتسعين كنت أنا في ثانويه عامه وكان في حرب أمريكا على العراق وأنا كنت طالبة ثانوي، فقررنا نعمل مظاهره داخل المدرسه ووزعنا منشورات وعملنا علم أمريكا وحرقناه. وبعد كده أنا تأبض عليا في المدرسه ودي تبأى أول مره يتثبض عليا في حياتي، ودخلوني الكنتين وكنت مبسوطه طبعًا. وبعد كده دخلت الجامعه وكانت بداية الانتفاضه الفلسطينيه وطبعًا كانت دي أول مظاهرات تحصل في مصر من التمانينات. في ٢٠٠٣ نزلت من البيت، أصحابي تجمعوا عندي، ونزلنا مع بعض وركبنا المترو، وبئينا بننزل في كل عربية مترو نقول فيها إن إحنا رايحين التحرير. كل محطه بنغير عربيه وبنقول نفس الكلام وكل محطه بنغير العربيه بنقول نفس الكلام لحد ما نزلنا التحرير. وكان عشرين مارس ودا كان أول احتلال للتحرير من السبعينات.

كان في شوية حاجات بتتعمل حوالي, التحضير لكيان موحد، يضم كل الناس اللي طلعت من الشغل بتاع الانتفاضه وضرب العراق، فكان الكلام على فكرة «كفايه». كان التعامل أول اجتماع «كفايه» كان في «جمعية الصعيد» كان في رمضان اعتقد. أنا حضرتو، ناس كتير كتير اتفقت على ان يبأى في كيان موحد يضم الناس دي ويشتغل على الأوضاع الداخليه ودي كانت أول مره الناس تتكلم على مصر. إبتدت مظاهرات «كفايه» في ٢٠٠٥ بعد المظاهره الاولى التي نشأت في ٢٠٠٤، كانت بتتكلم بشكل واضح

خلال تظاهرة في ميدان التحرير في ٣٠ يناير ٢٠١١ (منى سيف، فليكر).



وصريح «لا للتمديد. لا للتوريث» ... بشكل قاطع. «كفايه» كانت حركه فيها ميزه رئيسية جدًا، انها كانت حركه واسعه وفي نفس الوقت مفيهاش المركزيه وقويه عشان ما كانش في فالحقيقه قيادات.

وكان كمان في حركه في المحافظات واسعه حوالي, مشاكل الاصلاح الزراعي، ودي كانت لافته جدًا في الفتره دي. في الفتره دي كان في تلات قرى عملوا انتفاضات شبه كامله ضد عودة الاقطاع اللي تحالف مره اخرى مع الشرطه علشان يسرق أرض الفلاحين اللي داروا المصلحه الزراعيه من الخمسينات. «الستوري» (القصه) الرئيسيه اللي كانت رمز للمرحله دي هي «سيرندو» في (محافظة) «البحيره». «سيرندو» في «البحيره» كانت انتفاضه ضخمه جدًا جدًا ضد الاقطاع ونزلت الشرطه قبضت على كل الناس وبقية الرجاله هربوا. إحنا رحنا المدينه، قصدي القريه، بلا رجال، كل الي كان باقي منا ستات. لما الشرطه جات مره تانيه علشان تقبض على الناس اللي في القريه ما لئتش رجّاله فراحت قابضه على الستات، وقبضت على عدد كبير من الستات ومنهم «مركبي». «مركبي» إتقال كتير عن تعذيبها في قسم الشرطه وانها علّقت من ضفايرها وماتت واتدفنت بالسر باليل كمان! فالحادثه دي كانت حادثه ضخمه جدًا جدًا جدًا اشتغلنا عليها بكل ما نملك من قوى.

كنت ماشية بقول للناس في الشارع «بن علي هرب»! يعني أول رئيس عربي يهرب بعد ثورة شعبية في بلدو، فالناس بتبُصلّي كده، ببلاهة شديدة جدًا.

بعد السجن مش زي قبله

السجن كان عالم مختلف تمامًا عن الحاجات الي بنشوفها في الأفلام والتلفزيون وفالحقيقه السجن حاله خاصه، حاله انسانيه خاصه جدًا واعتقد اننا يمكن بأرّخ لتجربتي السياسيه قبل وبعد السجن، لأن قبل السجن كانت الامور شويه فيها أحلام وفيها تجاوز لفكرة العقبات اللي ممكن تحصلك وانت في السجن. أنا ما كنتش خايفه من السجن ليه؟ كنت قلقانه من الممكن يحصل في السجن، بس احنا تعاملنا معامله خاصه في الحقيقه، مش من ادارة السجن، من الساجنات... الساجنات كانوا مستقدعينا جدًا، ففي واحده ضحت لنا بالبكيه بتعتها، فنيمتنا أنا وأسماء على سرير ونيّمت ندى على سرير وظبّطنا الحال وكان في حالة كده إحتضان من العنبر مش طبيعيه. الفكره انو في أول اسبوع كان في أول محوّله لسجينه جنائيه للاعتصام، طلعت فوق مبنى المستشفى وقالت أنا لو ما تعالجت كويس في المستشفى، لأن المستشفى ما كانت مستشفى، كانت يعني ساخنه يعني زي القسم يعني، كانت الدكتوره بتجري ورا المرضى والله العظيم.

انا حبدأ شويه من قبل ٢٥ يناير من ٢٠ يعني، يوم ١٤ يناير، يوم ما بن علي هرب، كنت أنا في الشارع مشتريه حاجات انا وصحابي وأنا ماعرفتش الخبر. حدّ من صحابي كلمني وقللي الخبر فمكنتش مسدئه وكنت ماشيه بقول للناس في الشارع «بن علي هرب! يعني أول رئيس عربي يهرب بعد ثوره شعبيه في بلدو!» فالناس بتبُصلّي كده، ببلاهه شديده جدًا يعني. فواحد بسألني «مين بن علي؟» فأنا بَقُلّو، فراح قايل: «بس دا الي عندنا عمرو ما حيمشي يعني.» كان في خطاب مبارك التاني اللي هو [يوم] التلات إلهو إللي قسّم الناس. وفي ناس شافت انو الراجل عمل اللي عليه وكده كويس أوي وبعد كده لازم يروح. وانا كنت شايفه انو لو روّحنا حيدبحنا، فلازم نكمل... لازم نكمل لحد ما مبارك يمشي والنظام يسقط يعني مش بس مبارك يمشي يعني. بالليل في ناس كتير مشيت من الميدان، اللي هو [يوم] التلات. دا في ناس من صحابنا كمان مشيوا. في بعض الكتاب المثقفين والمنظرين مشيوا. المجلس العسكري بيحارب الثوره من أول يوم، وفشل... هي دي الفكره بس يعني، الفكره انو كان بيحارب جاهدًا... جاهدًا انو يقضي على الثوره دي بأكتر من طريقه، بالاعتقالات وانو ياخد ناس ويعذبها والتعذيب كان بشع جدًا على فكره أثناء ١٨ يوم كمان. فتره ٩ مارس اعتقد انوا عمل نقطة تحول في نشاط المجموعات السياسيه ثم كمان عمل تحول في مواجهة الناس للحقيقه الصادمه انو المؤسسه العسكريه في مصر هي بتعبّر عن مبارك

وهي استكمال واضح لحكم مبارك وانو تم التخلص من حكم مبارك بحكم هو كان عقبه لبقاء المؤسسه العسكريه الفاسده ولبقاء العسكر في الحكم.

يعني إيه سلمية؟

اللي حصلي اني اتخدت واتضربت وودّونا للمنطقه العسكريه وشفت بعيني التعزيب الي بيتعمل وانا نفسي إتضربت وبنات اتضربوا وتم الاعتداء عليا وانا داخله المتحف وتم ربطي، بس ده كله تفاصيل لا تُذكر بالمقارنه مع الذي حصل لبقية الشباب جوه. ولولا انو احنا بس اجتهدنا وعملنا الفِديوهات ونشرناها ونزّلنا وحاجات ومش عارفه ايه وعملنا اجتماع واسع لكل الناس المهتمه باللي حصل وأساسًا كتير ناس جات وأسسنا لا للمحاكمات العسكريه للمدنيين الي هي حركه المجموعه الي إشتغلت على انتهاكات العسكر طول فترة الثوره وبصراحه المجموعه ساهمت بشكل ضخم جدًا وانضم اليها عدد كبير جدًا من المتطوعين، ساهمت في تحريك احداث السنه كلها في رأيي وساهمت كمان في كشف معلومات كانت الناس محتاجه تعرفها.

يعني ايه سلميه؟ يعني لما تتضرب بالرصاص وانت ترد بالطوب، وبيقولو عليك ان انت بلطجي. وسلميه يعني لما تتدهس بالمدرعات بالجيش وتطلع تضرب حد من اللي بيقتلوك وقتلوا اخواتك وبيتهموك إن انت الي بتضرب؟ سلميه يعني لما تتصاوب بالرصاص في عينك فتضرب بالمولوتوف وبيقولوا عليك برضو انو انت بلطجي وان دي مش اخلاق الثوره؟ قللي ايه هي اخلاق الثوره؟ اللي هي عامله ازاي دي؟ أخلاق الثوره يعني ان الناس وصلت، الناس فاكره انو الثوره ميدان التحرير وده مش صحيح. كل الناس اللي بتتكلم انو اعتصام ١٨ يوم هو الي وّقع حسني مبارك مش صحيح على فكره. مش صحيح. الناس وصلت الميدان ازاي؟ هو دا السؤال اللي المفروض يتسأل. الناس وصلت ميدان التحرير بعد معارك في الشارع إستمرت تمنيه واربعين ساعه متواصل والمظاهرات دي بتيجي على الميدان، الميدان ماكنش عمرو حيتفتح لو الأحياء ما قررتش انها تعمل معركتها في الحي. الكلام دا كلو ما طلعش الا مع مواجهتنا للعسكر، بعد ما واجهنا العسكر وده في مسج [رسالة] مهمه: انو عايزك طول الوقت تتضرب وتروح تنام زي ما كان بيحصل ايام مبارك. ما هو إحنا عشنا في تلاتين سنه سلميه على فكره. انك ترد على القتل والعنف بعنف حتى لو عنف أقل منو بكتير يعني حتى مش عنف بيساوي عنف الدوله، عنف الدوله المنظم إجرام.

الناس وصلت الميدان ازاي؟ هو دا السؤال اللي المفروض يتسأل. الناس وصلت ميدان التحرير بعد معارك في الشارع إستمرت تمنيه واربعين ساعه.

لا أملك من المهارات اللي تخليني اعمل حاجه عنيفه، يعني انا أكتر حاجه بعملها كنت بعملها في حياتي هو انّنا كنت بضرب طوب في [موقعة] الجمل او [شارع] محمد محمود ولا اي حاجه وأنا ده حقي وحفضل متمسكه بيه لحد اخر لحظه وأي مؤسسه في الدوله ظالمه بتسحق الناس وبتهينهم وتذلّهم وتعذبهم هي مؤسسه تستحق الحرق بلا نقاش.

العيله مقسومه زي اي عيله في مصر، أسره عاديه متوسطه، أبويه راجل مش متعلم ما بيعرفش يقرا ولا يكتب وأمي كذلك. أنا أمي تقدر تميز شكل اسمي لأنها حافظه شكل اسمي من الجرايد. الوعي صراحه ملوش علاقه خالص بأديه معاك شهاده عليا، بدليل انو اللي خربوها هم كلهم معاهم شهادات عليا يعني. وفكره كمان يوم ما جا [ابوي] السجن زارني هو وماما كان عظيم جدًا وكان أداؤه رائع جدًا. أمي كانت بتعيط [تبكي] طبعًا بس أبويا كان أداؤه رائع في الحقيقه، ولما أنا عيّطت كان شايف انو ليه انا عيّطت أساسًا، انّو انا اللي بعملوا دا صح وانو اللي بعملوا ده حاجه مهمه جدًا ولازم أبقى متماسكه. أبويه مع الاسف ما شفش الثوره، مالحقش الثوره يعني، أعتقد كان حيبقى فارق معاه جدا موضوع الثوره.

نموذج «سمبو»

انبهار العالم بثورة مصر انبهار مفتعل وليه أهداف سياسيه أخرى يعني. أحنا عملنا حاجه عظيمه لكن المبالغه فيها ده ضرّها لأن أقنع الناس وأدى لهم تصوّر انو خلاص خلصت، فالناس بأ تروح البيت وده مش صحيح والعالم كلو تأملوا ده عشان المعنى ده يوصل. لكن أنا شايفه



انو العالم من مصلحتو انو ميكونش في ثوره جذريه. العالم من مصلحتو يكون في حاجات ظريفه كده شكلها ثورات. والعالم من مصلحتو انو مايبقاش في حركه اجتماعيه واسعه بتطالب بالحقوق، قلبها العداله الاجتماعيه مش الحريه ونقطه. يعني طول الوقت والناس بتقولك الناس دي خرجت علشان الحريه. لأ الناس دي خرجت علشان مش معاها تاكل! والأكل ما جا لحد دلوقتي ومش حييجي لأن النظام في مصر من مصلحتو إنو يبقى في إفقار المهمشه أكتر بالدليل انو الـ١٢ الف معتقل اللي إحنا ما بنعرفش عنهم حاجه اللي في السجون دلوقتي كلها طبقات شعبيه. «الاكتِفِستْ» [لهم] دور مهم يعني انا انو الدور اللي لعبوه وأنا منهم ونحنا عملنا ما يسمى بإعلام الثوره، بنكتب، بنقول، بنصوّر، بنوثّق، ولكن مش كلنا بنبقى واقفين في المعارك في اول صف. دي حقيقه موضوعيه يعني، ومش مطلوب انو كلنا نبقى واقفين في الصف الأولاني ولكن الفَرْق الصوره النمطيه اللي عايزين يصدروها للميديا وللاعلام وللتسويق الدولي يعني والاكتفست اللي بيحرك العالم وراء الـ«كي بورد»، مفيش إعلام بيتحرك وراء «الكي بورد» أساسًا يعني، يعني مفيش ثوره قامت علشان «تويتر» أو علشان «فيس بوك» فالحقيقه يعني، الثوره بتقوم لما الناس بتنزل وتقاوم وتموت وتضحي بحاجات مهمه جدًا في حياتها، النموذج اللي عايز يصدرو الغرب ويصدرو الميديا العالميه انو النموذج بتاع [وائل] غُنِيم على سبيل المثال هو النموذج للثوره في مصر، لأ... ده النموذج الاصلاحي في مصر. ده نموذج الشخص الي حيرضى بكل حلول وباي حلول طالما هي مش حلول جذريه أساسًا. لأنو هو أصلًا شايف انو الثوره آخرها بالنسبالو مظاهره. لكن الثوره مش مظاهره في الحقيقه، الثوره عمل جماهيري، منظّم، قاعدي، الناس بتخرج بتجيب حقها بإديها وبترجع.. يا اما ما بترجعش، وعلشان كده احنا شايفين انو نموذج «سمبو» يللي محبوس بقضية إنو شايل سلاح انو هو خطف سلاح، الي كنا بنأضرب بيه يوم ٢٨ يونيو، يعني واحد خطف سلاح من ايد قاتل بيتحاسب انو شال سلاح من ايد قاتل، «سمبو» عشان من «الشرفيه» وسمبو علشان من بيئه فقيره، مابقاش رمز للثوره دي رغم انو انا شايفه انو بلد اكتر من نص سكانو تحت خط الفقر لازم يكون «الهِيرو» بتاعو واحد فقير زي «سامبو»، في الاخر...

خالد سعيد؟ الاتنين اصحاب حق، الاتنين أصحاب الثوره، ولكن التعمّد في انو ده يبقى رمز الثوره المصريه وانو «سامبو» يبقى مجرم وبلطجي هو ده الموضوع. رمز الثوره المصريه في الحقيقه هو «سامبو» والي زيو كتير جدًا جدًا جدًا اللي احنا ما نعرفهمش.◆

مفيش ثوره قامت علشان «تويتر» أو علشان «فيس بوك» فالحقيقه يعني، الثوره بتقوم لما الناس بتنزل وتقاوم وتموت وتضحّي.

شهادة من غزة: احتلالات

أسماء الغول

صحافيّة وكاتبة.
غزة، فلسطين.

شعرت اليوم كمن يمشي بحركة بطيئة عبر التاريخ وأنا أشاهد سير موكب أكفان رفات الشهداء من خلف زجاج المقهى البارد، تسبقهم أسماؤهم المقدسة بعدما كانوا أرقامًا في الأرض الغريبة. شعرت بأني اعيش لحظات تاريخية بانتصارها وحتى حزنها، بعد الإعلان في اليوم ذاته عن وفاة أول أسير مضرب عن الطعام، زهير لبادة، إثر اصابته بالعمى والفشل الكلوي.

جيلنا كله يعيش ليشهد طزاجة اللحظة وانفجارها منذ أن خطّت شرارة الغضب في تونس واقعًا لم يحلم أجدادنا وآباؤنا يومًا بأنه سوف يحدث. لست أدري هل هذا من حسن حظنا أم سوئه؟ رجعت إلى كرسي المقهى وأنا أفكر: هل حرّكنا فعلا التاريخ وكنا وقود التغيير، أم أن الأنظمة الحاسمة في ظلمها هي بطبيعة الحال خالقة ثورات حاسمة في موقفها؟

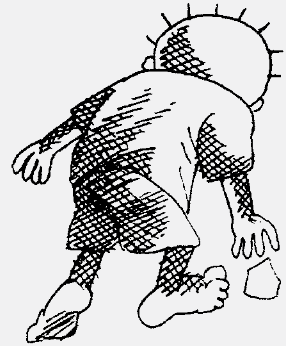
في إدمان الازمات

فتحت الحاسوب فطالعني بيان صحافي جديد لشركة الكهرباء في قطاع غزة تعلن فيه أنها ستقلص ساعات عملها. أصلا لا يأتي التيار الكهربائي سوى ثماني ساعات يوميا، وامتحانات الثانوية العامة «التوجيهي» تدق الأبواب!

غالبية الناس في الشارع لا تصدق أن هناك أزمة بقدر ما انها صناعة للأزمة. أهالي القطاع لا يثقون في الحكومة ويعتبرون أن الحصار ليس نقصا في الدواء أو الغذاء، بل غلاء معيشة واحتكار التجار للسلع المتوفرة من كل الأصناف، سواء التي ترد عبر الأنفاق المحفورة تحت الحدود بين القطاع ومصر أو عبر المنافذ المشتركة مع إسرائيل.

العائلات هنا اعتادت على الأزمات بل أدمنتها. ولم تعد أخبار مفرحة كالمصالحة تثير عندها أكثر من رد فعل ساخر خاصة ما يتعلق بعمل لجنة الانتخابات من جديد في غزة. فمن يصدق أنه سيتخلص من حماس ـ «لازمة غزة» ـ وفتح ـ «لازمة الضفة» ـ ومباريات الثأر بين الواحدة والاخرى؟ لا يصدق الشعب أنه سيرى خاتمةَ مسلسل حلقاته أطول من المسلسل الأميركي «الجريء والجميلة» بتفاصيله المملة والمكررة والمحزنة وخلود أبطاله الذين لا يموتون.

حين تسافر خارج غزة ترى الناس يتحدثون عن الهالة المحيطة بحركة المقاومة الإسلامية «حماس» كأنها لا تزال تلك المقاومة المقدسة، ولا يعرفون ماذا فعل الكرسي بالبطون والهمم. وفي المقابل يبقى الرئيس الفلسطيني أبو مازن «العميل الأبدي للأميركان». إنه «ستيريو تايب» غزة والضفة في الخارج. لكننا في الداخل نعرف أن الحالة تجاوزته منذ زمن. فالمقاومة التي لم تعد كذلك تعيش على أمجاد الماضي، وبحجة انها مستهدفة من الاحتلال تعتقل وتظلم كي تحافظ على هيبتها من كل جاسوس، قد يكون في نظرها الليبرالي



أو اليساري أو المنتمي لفتح أو الموالي للسلفية أو أحد شباب الفايس بوك المستقلين، وهذا بالضرورة يموله «الغرب» ليثور عليها!

هنا أتذكر كيف نزلت أخبار الربيع العربي كالكابوس على حكومة غزة. فحين اعتقلوا شبانا وفتيات مستقلين وكنت بينهم في ٣١ يناير/كانون الثاني ٢٠١١ خلال تواجدنا في اعتصام لدعم ثورة مصر قال لنا الضابط: «افرضوا ان مبارك لم يسقط والثورة فشلت، فهل تريدون منه إغلاق المنفذ الوحيد بين غزة والعالم؟». وإعتقلنا مجددا وضربنا في ١٥ مارس/آذار ٢٠١١ حين رفعنا شعارا لا يثير غضب أحد يقول «الشعب يريد إنهاء الانقسام»، فلو كنا رفعنا «إسقاط النظام» لوجدنا اتهامات التخوين والتساوق مع الاحتلال الذي يسعى لتقويض حكومتي الضفة وغزة.

غير أن هذا الشعار المعتدل لم ينقذنا من التهم والاعتقالات والملاحقة والتشويه، فضلًا عن سعي حكومتي الضفة وغزة إلى ركوب الموجة في بادئ تصاعد الاحتجاجات ليقولوا «نحن من نريد إنهاء الانقسام». فاحتلت حركة فتح منابر الشباب في الضفة بالأعلام الصفراء والهتافات، وفي غزة احتلت حركة حماس منابرنا ورفعت أعلامها الخضراء. وحين تعب الطرفان غادرٌ كل إلى حال سبيله، وبقينا نحن في الميدان نقول: «سحقًا للاحتلالات المركبة»! ولم تمض إلا بضع ساعات رفعنا فيها علم فلسطين لنجدهم يهاجموننا بالهراوات الغليظة وأخرى كهربائية، عدا أن عددا منهم كان يحمل السلاح الأبيض. وبعد أقل من شهرين ذهبنا للمشاركة في اعتصام نساند فيه ثورة سورية، لكننا لم نستطع حتى الوصول إلى ساحة الجندي المجهول في غزة، وتخبطنا ونحن نركض في الأزقة، فكيف لنا نحن الشباب أن نصدق ابتسامات خالد مشعل ومحمود عباس. كنت أقول إن غزة المتمردة لا يستطيع دكتاتور حكمها أكثر من عشر سنوات. هكذا يقول التاريخ منذ حَكَمَتها الملكة هيلانة. لكن مع اليأس الذي نعانيه وقد صرنا دمى محشوة يعبث بها الساسة، لم يعد للتغيير فارق معنا، إلى درجة أن انتخابات مصر أصبحت تعني لنا أكثر من مصالحة حماس وفتح.

رأسمالية وحصار وأزمات كهرباء ودواء

غزة ليست قفراء وليست فقيرة أو مدمرة. انها على العكس جميلة رغم محاولة تغيير شكلها بعمليات غسل الأموال التي تأتي من تحت الأرض من خلال بناء المولات الضخمة والمراكز التجارية والمشاريع الاستهلاكية التي لا حاجة للمواطن اليها — او المضاربة على العقارات والأراضي التي رفعوا أسعارها إلى حد صادم. فالشقة التي كانت بنحو ٣٠ ألف دولار قبل أربعة أعوام أصبحت الآن بتسعين ألفا، فكيف لحكومة رسالتها الإعلامية الوحيدة تبيان أزمات الحصار والكهرباء والدواء للخارج أن تتزوج بالنظام الرأسمالي بكل وحشيته وتؤسس لطبقية



في مجتمع لا يزيد أفراده على مليون ٧٠٠ ألف نسمة؟

هل هي طبقية الأنفاق؟ ففي الوقت الذي تختار فيه أوروبا «الغنية» اليسار للتعبير عنها نرى أن عالمنا العربي «الفقير» لا يرى سوى الحل باليمين الرأسمالي والاجتماعي والديني المتشدد. فاليسار عندنا هو الطرف الأضعف الذي يركز في دأبه على البحث عن فرصه الخاصة، واليسار في أوروبا ينمو ويبحث عن حلول لمشاكل مجتمع بأكمله.

كل التجارب الديمقراطية والانتخابات النزيهة الشفافة التي بدأت في غزة والضفة عام ٢٠٠٦ والآن في مصر العام ٢٠١٢ وفي تونس العام الماضي تنتهي بحكم الإسلاميين. هل هي بالفعل قصة نجاح متفردة للإخوان المسلمين كي يستحقوا الفوز بالسلطة؟ أم أن الشعوب العربية تمارس الديمقراطية إجرائيا فقط والأغلبية هي أغلبية العاطفة والتفكير الديني، التي ترى الحل مع الشيخ الذي يخيّرها بين جنة انتخابه ونار انتخاب غيره؟ وبالطبع هذا الشيخ يصل إلى أفقر القرى وأكثرها تهميشًا بزيته ولحمه وطحينه ولافتاته وخطابه الإسلاموي، في حين يبقى اليساري في نخبويته محتفظًا بأوهام أنه يمتلك قلوب الشعب، وهو لا يفعل غير أن يروج للإسلامي بانتقاده له.

بين غزة ومصر: هل من طريق ثالث؟

إذا كان الشعب يدور في دائرة مغلقة ويغادر بإرادته من فساد سلطة «فتح» إلى حضن «حماس» وها هو الآن يرجع إلى لزوجة «فتح» ويهجر الإسلاميين كما فعل المصريون، حين أبقوا أقوى خياراتهم بين العسكري أحمد شفيق الذي يمثل النظام الذي ثاروا عليه وبين محمد مرسي الذي يمثل التيار الثائر، ويصبح السؤال المطروح ماذا يمكن أن يكون خيار الطريق الثالث: اليسار أم الشباب المستقل أم الليبرالية الإسلامية؟ أرى أنها كلها هي الخيارات الأضعف في ظل الحزبية وسلطتها التي تشتري الجماهير بأبخس الاثمان. لذلك كان وسيبقى صعود حمدين صباحي ومن قبله عبد المنعم أبو الفتوح الطريق الثالث المُشتهى والمحلوم به، ولن يُرى أبدًا هُداه في من يصدق وعود من يحمل ناصيتي المال والدين في يد واحدة.

ضجة أخرى خارج النافذة، ذهبت لأستطلع علّني ألتقط صورة جديدة كي أنشرها على «تويتر»، وأكون شاهدة جديدة على التاريخ الذي حضرت فيه الانتفاضات والانقسامات بين الضفة وغزة والحرب على القطاع ومن ثم أسلَمَتْه واندلاع الثورات العربية وسقوط الزعماء وإضراب الأسرى عن الطعام وعودة الرفات. لكني وجدتها ضجة «الفدعوس»، وهي فرقة ترتدي الزي الشعبي وتمسك الطبول متقدمة سيارة مليئة بالزهور لعروسَين. تنفست الصعداء لأني أخيرًا رأيت غزة تعيش حدثًا طبيعيًا يتكرر في عشرات الأماكن، وعدت إلى طاولتي في المقهى البارد!◆



«عشيرتي»: سؤال في الحب

سحر مندور

روائية وصحافية، مصر/لبنان. آخر اعمالها «٣٢» (٢٠١٠).

يخرج الرئيس الإسلامي على شعبٍ انتخبه على مضض بخطابٍ أول يشحنه عاطفيًا لينهض باللحظة المصرية، من انقسامها الحاد حول اسمين إلى برزخٍ من الفرح الوجداني يتجلّى في أفقه اسمٌ واحد، يحمله رئيسٌ «قلبه كبير».

يخرج الرئيس الإسلامي على شعبه الذي انتخبه، لا حبًا بالنهج الإسلامي بل إمعانًا في رفض الماضي وقهره العسكري، لينهل من فن الخطابة، الصيغة الأشدّ عاطفية والقاضية بذكر اسم كل محافظةٍ مصرية، وكل مهنةٍ مصرية، من دون النظر إلى ورقة الخطاب. كأنه بذلك يوزّع «زيت» حبّه العميق و«طحينه» الصادق على الجميع، وهو بذلك ينشر أيضًا سلطته على الجميع.. هذا «الجميع» الذي استثنى منه، بنحو لافت، المثقفين والفنانين والصحافيين، أي صنّاع الرأي العام.

مَن يحتاج إلى صنّاع للرأي العام، يمتثلون لأفكارهم الخاصة، عندما تكون الدولة بحاجة إلى اتحاد تام، يلغي الفوارق، يهمّش النقد بغير أدوات المنع، ويعلي من شأن الحماسة؟ الحماسة.. تلك التي يتميّز بها المصري «طيب القلب»، حسبما تقول الأسطورة الشعبية.

يخرج الرئيس الإسلامي على الناس، ليستبدل اسم «المواطن» باسم «الأهل» و«العشيرة»، ويلصق بهما مزيدًا من الودّ بملكية حرف «الياء» في ختامهما، «أهلي» و«عشيرتي»، فيضطر المواطن إلى حشر نفسه بينهما، وهو لم يكن بحاجة إلى المزيد من الأهل والروابط القبلية، بل إلى الكثير من الطمأنة إلى استعادة المواطنة.

وبينما الرئيس يبالغ في إغداق المعاني التملّكية العاطفية على شعبه، وهي معانٍ خارجة عن سياق الوظيفة الرئاسية، بادر بعض المعنيين بالرأي العام إلى إشهار النفور من «السكّر الزائد» على ريق الانتخابات الحديثة الولادة.. فكل ما يزيد عن حدّه يشي إما بعكسه، أو بنوايا تتخفّى وراءه. وعندما يكون «السكّر» إسلاميًا، فلا مفر من التوجّس من «المرّ» الذي يغلّفه، لتهضمه معدة الشعب.

تحدّث الرئيس وكأنه يغنّي مع عبد الحليم حافظ: «يا حبايبي يا أهلي يا جيراني، أنا عايز آخدكو في أحضاني».

ابتسم وهو يذكر «سوّاقي التوك توك»، ليُفهِم من لم يفهم بعد أنه «واحد من الناس». ابتسم وكأنه يذكر أفرادًا يمتلكون من البساطة ما ينفي عنهم أحقية الإشارة إليهم في خطابٍ لرئيس، إلا هو.. علمًا أن السائقين في مصر يطحنون في عرباتهم كافة الأفكار، ويعيدون إنتاجها كلامًا محبّبًا، تنتقل عدواه من راكبٍ إلى آخر، وربما يتغيّر تبعًا لشكل الراكب، وهواه، فيضحون الأشدّ اضطلاعًا على الرأي العام في بلدٍ حرص رئيسه على تجاهل مهن صنّاع الرأي فيه، في خطابه الغرامي الأول.



لقد خرج الرئيس الإسلامي على شعبه، ولم يطمئنه إلى مدنية الدولة.
ومَن يريد أن يسمع كلامًا واضحًا أو برنامجًا مفصّلًا في لحظة «الوصال» الوجداني الأولى؟!
اصبروا عليه.. فهو كان يمارس الحب، لا السياسة، في خطابه الرئاسي الأول.

من موقع الضحية
الى موقع المواطِنة

انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي، صباح اليوم الذي تلى أمسية الخطاب إياه، أخبارٌ تفيد بتعرّض المحتفلين في الشوارع للناس المختلفين عنهم في الشكل، بالعنف وبعبارات من نوع: «بكرا مُرسي هيحجّبك». عبارات تتوعّد بطمس الجميع في بوتقة الشكل الواحد، أي الرأي الواحد. فالرئيس «اللي بيشبهنا» سوف يجعل الناس جميعًا «يشبهوننا». كأنه الانتقام من الفقر والجهل والتعب، يوجّه ضد الأقل فقرًا وجهلًا وتعبًا. لكنه ليس كذلك تمامًا، إذ لم تسجّل حوادث كثيرة من هذا النوع، ولربما انتشر الخبر بفعل الخوف المسبق من مستقبلٍ يحكمه إسلامي.

الحال انه وردت أخبارٌ مضادة تفيد بأن المتعرّضين للناس هم من عناصر «أمن الدولة» المدسوسين، هدفهم تشويه صورة الرئيس الجديد، وإشاعة الفوضى، لإعاقة مسيرة الاتحاد الوطني والنهضة. قد يكون ذلك صحيحًا، وقد لا يكون. لكن الخشية تكمن في ما يشي به ذلك، بغض النظر عن صدقيته، فتلك افتراضات تشي بضعف القدرة على احتمال سهام النقد في أول أيام شهر العسل الرئاسي، ما أنتج رغبة بالدفاع عن اللحظة من أجل حماية الأمل.. علمًا بأن حمايته قد تؤدي إلى نحره، خاصةً عندما تصبح التجاوزات مؤامرة، لا مشكلة تتطلب طرحًا ومعالجة.

في الأيام القليلة التي سبقت إعلان اسم الرئيس، انتشرت في مصر الإلكترونية رسالة وجهتها بالفيديو مواطنةٌ شابة، عبر موقع جريدة «المصري اليوم»، تخبر فيها عن كيفية تصدّيها لمتحرّشٍ في الشارع. مسّها بيده من فوق دراجته النارية، فوجدت نفسها فجأة أمام خيارين، اختارت ثانيهما بسرعة الضوء: إما أن تسكت وتكتم غضبها وتمضي مقهورة في طريقها كما جرت معها العادة، أو أن تبادر إلى كسر العادة فتلاحقه وتمسك به وتسلّمه إلى الشرطة، حيث يحرّر الضابط المختص محضرًا بحقه.

في الأيام القليلة التي سبقت إعلان اسم الرئيس، انتشرت في مصر الإلكترونية رسالة وجهتها بالفيديو مواطنةٌ شابة، تخبر فيها عن كيفية تصدّيها لمتحرّشٍ في الشارع.

كان الطقس يومها شديد الحرارة، لدرجةٍ قلّ معها الأوكسيجين. والحادثة لم تكن أولى من نوعها، ليأتي التمرّد عليها ردّ فعل انفعاليًّا. ومع ذلك، فقد استخدمت الفتاة مخزونها من الأوكسيجين، وقررت التمرّد على السائد، والانتقال من موقع الضحية إلى موقع المواطنة. تقول بأن عينيها دمعتا في قسم الشرطة، وهي ترى الشاب يدخله مكبّل اليدين. تقول إنها رأت مواقع القوة تتبدّل، بينها وبينه: رأسها مرفوع، بينما انكسرت عيناه على الأرض.

انتشر الفيديو على نطاق واسع، على صفحات المواطنين الإلكترونيين، المصريين والعرب، حتى نشرت الصحيفة في اليوم التالي مقالًا تتوقف فيه عند مدى إيجابية استقبال هذه الصورة بين الناس. وهي صورةٌ لا تأتي من عشيرة بل من مواطنة. صورةٌ لا تحمي الأمل، بل تصنعه.

فعلٌ يرعى الامل

أن تموضع نفسك في المعارضة قبل إعلان اسم الرئيس، هو فعلٌ يرعى الأمل. أن تموضع نفسك في معارضة تيارين سياسيين شديدي التجذّر في الوجدان المصري، الدِين والجيش، الأول يصنع الهوية الفردية والثاني يصنع الهوية الوطنية، هو فعلٌ يستلزم كامل الجهد، ويؤسس الأمل.

وهو شعور عام ساد مصر، حتى لحظاتٍ سبقت إعلان اسم الرئيس.

وهو شعورٌ عام ساد مصر، حتى لحظاتٍ سبقت الخطاب الأول، والقرارات الأولى التي تلته.

تلك القرارات الشعبوية دامعة العينين التي حصدت إطراء الكثيرين لكونها إذ تشي برئيس «يشبهنا»، تشابهًا مصنوعًا وضحلًا لا يرفع ظلمًا ولا ينتج عدالة، ولا يسعى إلا إلى منح الخطاب صدقيةً، انما تقول بأن الخطاب ليس كلامًا فحسب، وإنما هو أفعالٌ. وفي ذلك ما يذكّر بشعار حملة غريمه الفريق أحمد شفيق الانتخابية، «أفعال وليس أقوال»، فنفّذها بلا إشهار الرئيس الإسلامي.

وليس من الغريب أن يتفق شفيق ومرسي على تلك الناحية، إذ إن الرئيس المصري يسعى دائمًا إلى بناء علاقة قائمة على المودّة الشخصية، مع شعبه. مثال سريع على ذلك يقدّمه حسني مبارك الذي اختتم صفاته المتجدّدة بـ«أبو الشباب». فقد جعلت أسطورة «الشعب الطيب القلب»، من خطاب الرئاسة، إن أتى باللين أو بالشدّة، ديباجةً تشهر الحرص الأبوي على شعبٍ سيمنح رئيسه الطاعة تمامًا كما يمنحها الابن لأبيه.

حصد الرئيس، على مرّ العهود العسكرية الثلاثة، تلك الطاعة من المصريين. وما أن تحوّل حسني مبارك من عسكري ملتزم بالطاعة ويطلبها من الناس، إلى أب يريد لابنه أن يرث الحكم من بعده، بتناقض تام مع المبادئ العسكرية، حتى عمّ التمرّد عليه عموم البلاد، واندلعت ثورة يناير. وفي ذكراها الأولى، حوّل الشعب الثورة من «ضد مبارك، أب وابن»، إلى ثورة ضد العسكر، لكون «مصر دولة مش معسكر». فقد برهن مبارك على إمكانية فساد السلطة العسكرية، وخروجها عن مبدأ طاعة الوطن، فلتسقط إذًا طاعتها، ولتسقط معها السلطة العسكرية كلها.

اليوم، يستعدّ الإسلام السياسي لحصد تلك الطاعة، بالودّ طبعًا، وأيضًا. وهي أيديولوجيا تروّج بدورها لمبدأ الطاعة، باسم الإله، لا باسم جيش الوطن. والإله محبوب من المصريين، كما من الجيش. وحتى يثبت فساد الحاكمين باسم الدين، هل سيحصد الإسلام السياسي طاعة المصريين اليوم؟

ما يظهر من جبل الجليد حتى الساعة هو انقسام أساسه الأمل، بين مَن يرعاه بالحبّ، ومَن يحميه بالنقد. فترى الناس يلوم بعضهم بعضًا على سرعة التفاعل مع قرارات ظاهرية، وتجد الناس يلومون أنفسهم على سرعة النقد قبل تفعيل الوعد بالأفعال.

ما يظهر من جبل الجليد حتى الساعة هو انقسام أساسه الأمل، بين مَن يرعاه بالحبّ ومن يحميه بالنقد.

ولربما يحتاج الرئيس اليوم إلى شحذ عواطف من حوله، لتوحيد صفوف شعب انقسم جذريًا حوله. لكن الحرص دائما واجب، عندما تتجاور السلطة مع العاطفة. خاصةً في ظل وصول رئيس بعقيدة دينية إلى الحكم. وفي المقابل، فإن وصول شخص بعقيدة دينية إلى سدّة الحكم سيضع الناس في مواجهة صريحة مع نظرتهم إلى الحريات العامة، بعدما همّشتها في ما مضى درجة الإيمان الديني المرتفعة شعبيًا.

أما اليوم فهي مسألة هوية دولة. فلم يكن عبثيًا الإعلان عن «مليونية ستيلا إلى القصر الرئاسي» (ستيلا هي البيرة المصرية) مباشرةً بعد إعلان نتيجة الانتخابات، فانقسم الصحافيون والناس تجاهها إلى فريقين: واحدٌ يدين المطالبة بحرية شرب البيرة في بلد ينوء بحمل مصائبه الكثيرة، وآخرٌ يخشى انحسار ما تبقى من الحريات الشخصية، وهو يستعد لدخول عصر جديد يسكنه شبح الإسلام السياسي.

لقد خرج نقاش تلك الحريات في مصر، فعليًا، من الهامش المخنوق إلى صلب الصورة، بمجرّد وصول الإسلام السياسي إلى الحكم. وفي سرعة طرح المواضيع الشائكة على طاولة البحث، ما يبقي القلب مطمئنًا، نسبيًا، إلى اليوميات المصرية، فمهما استفحل الأمر، ومهما احتدّت شمس الظهيرة، ستجد فتاةً تركض خلف رجال «عشيرتي» في الشارع، لتقودهم، مرةً جديدة، من أعناقهم إلى حريتها.◆

من يصنع الثورة في القطيف؟

إيمان ناعس

متخرجة في علم الاجتماع. معلّمة وكاتبة وناقدة. القطيف، المملكة العربية السعودية. ينشر بالتعاون مع موقع «جدلية».

عندما تقترب من أحد منافذ محافظة القطيف تشعر بشيء مختلف، ليس لأن ملامح الواحة الخضراء تلوح في الأفق، بل لأن نقطة تفتيش من نوع خاص في استقبالك. طابور من سيارات المواطنين ينتظر، وسيارات أمن متنوعة الأحجام والأشكال، وسلاح من الوزنين المتوسط والخفيف مشهور في وجه القادمين. لن يخطئ إحساسك حين تميّز أن حالة المواطنين مستقرة ولا يشعرون بأي قلق، فقد اعتاد أهالي المنطقة الشرقية، لاسيما في محافظة القطيف، تلك المشاهد وذلك التعامل وتحديدًا بعد خروج عدد من المواطنين في تظاهرات تجوب الشوارع وتطالب بشيء من الحرية والحقوق في مارس/آذار ٢٠١١. قد تنفذ من نقطة التفتيش بمجرد نظرة مرتابة من رجل أمن عابس، ولكن لن تكون تلك آخر محطة تقف فيها أمام رجل بزيّ عسكري يسيّرك بإيماءة من يده فيها الكثير من الازدراء والاحتقار. وقد تنتاب أحدهم رغبة مزاجية يطالبك فيها بإبراز هويتك أو يوقفك ويقوم بتفتيش كامل السيارة متذرعًا بعبارة تعلو أغلب سيارات الأمن: «أمنكم هدفنا وتعاونكم مطلبنا».

حين تدخل محافظة القطيف تلفت نظرك كثرة سيارات الأمن وحركتها السريعة والمريبة التي تبث الرعب والخوف، وكأن أمرًا ما قد حدث أو سيحدث. وعندما تتأمل لا تجد ما يستدعي كل ذلك الاستنفار، فسرعان ما تستنتج أن تلك الحركات المثيرة لا تعدو كونها شكلا أمنيا ومحاولة لإثبات حضور في وسط شوارع وأزقة محافظة القطيف وقراها.

الاستبداد يصنع الثورة والثوار

الشعوب لا تصنع الثورة إنما الاستبداد هو الذي يُخرج الثوار كما يخرج المارد من قمقمه. الحرمان هو الذي يؤسس للثورة والقهر هو الذي يصنع الثوار. وبالنسبة إلى النظام المستبد فإنّ القبضة الحديدية هي التي تعيد العبيد المارقين إلى أوكارهم. أما بالنسبة إلى الشعوب التي تهمها كرامتها فإنّ آلة الترهيب هي ما يكشف الحقيقة التي كانت تتوارى خلف ملمّعات إرهاب الدولة ومحسّناته.

قد تبدو لك القطيف هادئة ولكنها في الحقيقة تعيش الحراك الحقيقي. في دواخلها احتقان وغضب خفي إزاء ردة الفعل الرسمية التي واجه بها النظام أهالي المنطقة حين حاولوا أن يستفيدوا من أجواء الربيع العربي بأن رفعوا أصواتهم في الشوارع، وطالبوا بشيء من الحرية وشيء من الحقوق المنسيّة. رصاص ودماء وجرحى وشهداء وشباب كالزهور خلف القضبان بالعشرات. الجروح ألمّت بالناس وخلّفت الحزن والأسى في قلوب الجميع.

الآن، الحياة بشكلها الطبيعي، والناس يسيرون دون أن يعيروا لتظاهرة رجال الأمن العسكرية

في مركز المدينة وضواحيها أي اعتبار. وهـم في ما بينهم يتساءلون عن جـدوى ممارسات رجال الأمـن تلك في قتل إرادة الشعب وثني عزيمته عن مواصلة الحـراك. بـات الناس يشعرون اليوم أكثر من أي وقـت مضى بـأن الكلمة قد تجرح السيف وتكسر شوكته، وأنّ الموقف والصمود قد يسلبان السلطان المستبدّ سلطانه، وإن كان يملك ترسانة عسكرية لا قِبَل لشعب أعزل بها.

تلك هـي صـورة الـشـارع والحالة الأمنية القلقة التي يفتعلها النظام وتعايش معها أهالي المنطقة. لكن تلك ليست هي الصورة كلها وفـي العمق أشياء أخـرى. فقد تغيّرت حـال الناس مع الخوف من إسماع آذان الـجـدران إلـى البوح والإعــلان، وبـاتـوا يـرددون مسائل حقوقية ويتحدثون عن واجبات الدولة تجاه المواطنين وشرعية الحكم، ويشعرون بـأنّ الكرامة هي أحـد أهـم أركـان العيش بل هي أهم من الماء والخبز.

كثير مـن رجـال المنبر وأربــاب الفكر بـاتـوا يـقـارعـون صـوت الـرصـاص الـمـدوي فـي سماء المحافظة الـوادعـة بقوة الكلمة وبحقيقة ما يجب أن تكون عليه الـدولـة المدنية، وكيف يجب أن تصان حقوق المواطنين. والكثير منهم بـات يندّد بشكل مباشر أو غير مباشر، في السرّ أو فـي العلن، بإهانة المواطنين ويـرفـض بـأن تـداس كـرامـة الـنـاس أو أن تمس إنسانيتهم بـالأذى. ويتساءل كثير من المثقفيين والمفكرين عما حصدته المنطقة خلال الثمانين عامًا الماضية، كيف كانت وكيف أصبحت. بـات الجميع يشعر بـأنّ الخيرات التي كانت تزخر بها هـذه المنطقة الغنية قد سلبت من فوقهم ومـن تحت أرجلهم، ولا أرض لهم يطأونها تعود ملكيتها لهم بعدما كانوا يعيشون في ثراها وتحت سمائها بكل كفاف وراحــة. بلاد الخير التي كانت سلة الغذاء في جزيرة العرب وأعانت بخيراتها القانع والمعتّر مــرارًا عبر القرون الماضية، تسلب وتجرّد وتنتهك، دون أن يعود إلى أهلها شيء من خيراتها! ومـاذا بعد التظاهرات والمطالبات العلنية في الشارع؟ تتهم وتهان وتحارب إعلاميًا وعسكريًا سرًا وجهرًا.

لقد تنبه الناس كبيرهم وصغيرهم لكل حق مهدور من حقوقهم، والـثـورة اليوم ليست كلها في الـشـارع كما قد يظن من يحكم على الأمــور بظواهرها. فأولئك الذين يرفعون أصواتهم في التظاهرات أسبوعيًا محافظين على ديمومة الحراك المطلبي ليسوا وحدهم. فلم يعد الشارع هو محور الـحـراك وساحته الأخـيـرة، ولـم تعد تلك الكتابات والـرسـومـات الـجـداريـة المناهضة لرموز الـدولـة وحـدهـا مؤشر الـحـراك. لقد أثـار هتاف الـشـارع والـدمـاء التي سالت على أرض القطيف حركة فكرية شاملة أيقظت كافة الشعب ورفعت من ثقته بنفسه وجـدّدت قوته ورغبته في أن يكون كأي شعب يملك حرية الكلمة والمطلب.

لقد أثار هتاف الشارع والدماء التي سالت على أرض القطيف حركة فكرية شاملة أيقظت كافة الشعب ورفعت من ثقته بنفسه وجدّدت قوته ورغبته في أن يكون كأي شعب يملك حرية الكلمة والمطلب.

في قصة الدم وشفرة السيف

جولة بسيطة في أزقـة الانترنت تكشف مـدى ما أحدثه حـراك شباب المنطقة الشرقية من آثـار. لقد تـجـاوزت الـثـورة معناها التقليدي ومـداهـا الجغرافي لتؤثر على العقول وتحدث ثـورة فكرية جديدة، ينتشي بها قاطنُ شبه الجزيرة في أقصى الجنوب. ولا نبالغ إن قلنا إن الحراك رفع سقف المطالب لـدى كافة المفكرين والمنظرين في الشرقية وخارجها، ولـم يقتصر تأثيره على منظّري التغيير بل شمل الكتّاب ومنظري الجهات الرسمية والذين يعملون على تبرير ما تقوم به السلطة على الدوام.

أهالي المنطقة الشرقية الذين عـرف عنهم على مـدى العصور والأزمــان حبهم للعيش بأمان وبُعدهم عن الاعـتـداء والتخريب وعيشهم كأسرة واحــدة، قد ثـاروا اليوم ضد خوفهم فأسقطوا الرهبة من نفوسهم. لم يكن ينوي أهالي المنطقة أن يسيروا في درب الـثـورة، أرادوا فقط أن يجنوا شيئًا يسيرًا من حقوقهم في ظل الأجــواء التي أتـت بها ريـاح التغيير القادمة من الشمال

الأفريقي. لكن القتل والتنكيل والإهانة حفزت في وجدانهم العزة والكرامة وعززت رغبتهم الحقيقية في عودة الحق كاملاً غير منقوص. ورجال الأمن الذين تراهم يجوبون الأزقة دون سبب إنما يبحثون عن هذا الفكر ليقتنصوه ويجهزوا عليه.

لم نسمع قط في تاريخ البشرية أن فكرًا قد اغتيل بالنار والحديد. لكننا سمعنا كثيرًا أن الدم قد انتصر مرارًا على شفرة السيف التي لا تفصل إلا الأجساد. رجال الأمن مستمرون في تنكيلهم يخطفون تارة ويهينون تارة أخرى. والشعب يهمس في داخله قائلًا: وماذا بعد؟ بعضهم يقول لو أن النظام تنازل عن شيء من كبريائه واستجاب لبعض مطالب الناس بشيء بسيط كإخراج السجناء المنسيين، والذين ظلوا في السجون بدون محاكمة، لانتهى كل شيء ولعلا شأن الحاكم في نظرهم. ولكن يبدو أن سوء ظن الدولة في شعبها جعلها تسيء التصرف ولا تتعامل بالحكمة المناسبة.

عاشت القطيف، حاضرة الساحل الشرقي في جزيرة العرب، المدنية لآلاف السنين، وأهلها ككُريات الدم البيضاء تعمل بالفطرة على لملمة بعضها بدون إيعاز أو توجيه من احد. وعلى الرغم من أنّ مواطنيها قد حُرِموا من أن ينشئوا الأحزاب والنقابات والجمعيات السياسية، إلا أن ذلك لم يغيّر من طبيعتهم الأصيلة وهي توحيد الصفوف ولملمة الشتات وخصوصًا في الأزمات. وقد وجدوا أنفسهم فجأة في أزمة إذ إن سوء تصرف الجهات الرسمية مع الحراك وضعهم في طريق ذات الشوكة بدون ميعاد. ويكفي أن تقترب منهم قليلًا لتعلم أنهم قد قبلوا التحدي، ولن تخطئ أذنك حين تسمعهم يهمهمون في ما بينهم قائلين: «نصف ثورة هلاك أمة».◆

يكفي أن تقترب منهم قليلًا لتعلم أنهم قد قبلوا التحدي، ولن تخطئ أذنك حين تسمعهم يهمهمون في ما بينهم قائلين: «نصف ثورة هلاك أمة».



حملة «إسقاط النظام الطائفي في لبنان»

تقييم التجربة

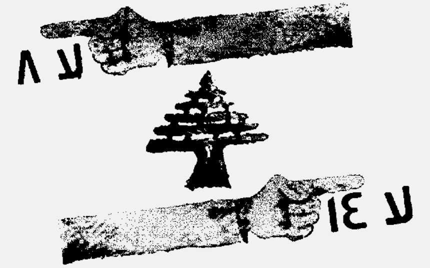
باسل صالح

أستاذ جامعي وناشط سياسي.

تداعت في ٢٧ شباط ٢٠١١ مجموعات شبابية إلى لقاء في أحد شوارع بيروت (الشياح ــ عين الرمانة)، حيث كان خط التماس بين منطقتين شهدتا أشد معارك الحرب الأهلية ضراوةً. لم يكن اختيار الشارع عبثًا، بل جاء ليعبّر عن موقف رافض للحرب الأهلية التي كانت، ولا تزال، إحدى النتائج المباشرة للمنظومة الطائفية القائمة في لبنان منذ ما قبل تشكيله الكيان الذي يشبه الـ«دولة».

في تعريف النظام وشعار الحراك

تتابع عدد غفير من مثقفي لبنان في محاولة تحليل نظام هذه «الدولة» تاريخيًا، لكن كل تلك المحاولات لم ترتقِ إلى قدرة النظام على شرذمة التعدد الطائفي ورصف بعضه في وجه بعض، مباشرةً ومن دون سابق إنذار، بل بسهولة مبالغ فيها معظم الأحيان. فالنظام استطاع أن يوحّد «الشعوب» اللبنانية خلف زعماء لبنان الطائفيين، واستطاع أن يضعهم بعضهم مقابل بعض، من دون هدف يسعون إليه إلا تذكية الزعامة وتقويتها، من أجل مواجهة خصم ما في مكان مقابل... مكان يقال إنه حيّز وجود زعيم الطائفة الأخرى.



غير أنه، وقبل التداعي، كانت قد دارت بعض النقاشات «المتشنجة» التي حاولت تحليل هذا النظام، لتصل إلى اللامكان... لتصل إلى تحديد شكل النظام من دون ماهيته الاقتصادية الاجتماعية، وتحديد قواه الطائفية التي تمسك زمام المبادرة، قبل أن يفقه شعبها خريطة الطريق.

وبعد أخذ وردّ، توصّل المجتمعون إلى تحديد الشكل الطائفي لممارسة النظام، فارتقوا إلى التوافق على جعله نقطة الارتكاز، وما أن تُمس حتى يسقط دفعة واحدة. إذ إنّ الممارسة الطائفية للنظام هي التي تمنع لبنان من التحوُّل إلى دولة عادلة. دولة القانون، دولة يتساوى فيها الشعب بالحقوق والواجبات من دون أية زيادات، وتكون السلطة فيها ممثلةً له ولمصالحه، ويكون هو مصدرها.



تنادوا وصوّبوا على النظام الطائفي... ومشوا، حددوا عدوهم ونزلوا إلى الشارع لرجمه بحجارة المواطنة. حددوا عدوهم بوصفه علاقات متينة بين زعماء لا وجود لهم، فما كان من هؤلاء إلا أن ركبوا الموجة، وتمددوا على أكتافها، وحاولوا استغلالها في حراكهم الطائفي عبر تسجيل النقاط على خصومهم، وتعويم أنفسهم بوصفهم طامحين إلى البناء لا إلى التحطيم. في مقابل ذلك، أصرّ البعض على إضافة مصطلح «الزعماء» إلى الشعار بعد أيام عدّة، فتحول من

«اسقاط النظام الطائفي» إلى «اسقاط النظام الطائفي ورمـوزه»، في سبيل حماية وصيانة المطلب والـهـدف والـشـعـار، ومـن أجـل تصويب المواجهة وأخـذهـا إلـى المكان الـمـراد مـن دون السماح بخطفها إلى موقعة طائفية جديدة.



الاختلاف الـ«علماني» حول بعض المعارك الطائفية الجلية، والسكوت عنها، ساهما في تحويل صبغة الحراك إلى ما يشبه وجهًا ملطّفًا لقوى آذار، بكل ما للكلمة من معنى.

الموقف من الدستور اللبناني

فـي سياق الأخـذ والــرد، والنقاشات المستعصية أحـيـانًـا، حـاولـت مجموعة ناشطين التصويب على الدستور، لأن من عدّله هم مجموعة أمـراء الحرب أنفسهم. فهم من أعلن الحرب، ومـن أحصى عدد القتلى، ومـن وقّـع وانتصر وكسب من حـرب أهلية دامـت ١٦ سنة قبل أن تلقي أوزارهــا بعد اتفاق على دستور يأخذ البلاد من الحالة الطائفية إلـى ما يشبه دولـة المواطنة. هكذا انبثقت المادة ٩٥ من الدستور، لتعلن إلغاء الطائفية السياسية في زمـن أنهكت فيه قـوى النظام القائم عبر نفي أو اغتيال أو استبعاد أو محاكمة زعمائه، أو ما يُجمع العديد على تسميته «اليمين المسيحي اللبناني».

بـدا اتـفـاق الطائف وثيقة إعــلان إنتصار «الاســلام السياسي» (الـيـســاري) على «المارونية السياسية» (اليمينية)، ومـا كـان من مطلب «اسقاط الطائفية السياسية» إلا تكريس هـذا الانتصار على «الـدولـة»، والتأكيد على صياغة طائفية جديدة، تظهر كاصلاح سياسي نحو المواطنة شكلًا، لتتحول تكريسًا لمنظومة تـورث «السنّية السياسية» صلاحيات رئيس الجمهورية «الـمـارونـي»، وتحوّل إعـادة التموضع الديمغرافي لصالح المسلمين إلـى نقطة ارتكاز تهدف إلـى السيطرة على مقدرات البلد من خلالها، أقله من ناحية التمثيل السياسي.

ازدادت المسألة تمويهًا عبر إصــلاح تــوازى مـع السابق، فكانت مــادة إنـشـاء مجلس شيوخ يمثّل الطوائف وينظر في القضايا المصيرية، ومنها قانون الأحــوال الشخصية. ذلـك لم يكن إلا ضربًا للمساواة بين أفــراد الشعب، إذ تنقسم تلك القوانين إلــى ١٨ قانونًا، يسير الفرد طائفيًا بناءً على واحـد منها، مما يميّز بين حقوق المسلمين والمسيحيين. وكـأن توحيد أحكام الـزواج والإرث بين الطوائف المختلفة، لا يعني إلا مسًا بـالأمـور المصيرية، وبالدولة، لا بل بلبنان على امتداد مساحته.

ولأن مـحـاولات الإصــلاح التي تأتت عـن مـعـارك طائفية، خصوصًا الـحـرب الأهلية بين عامي ١٩٧٥ و٢٠٠٨، لـم تكن ســوى تسوية تستبدل هيمنة طائفية بهيمنة طائفية أخـــرى، ولأن التغيير لم يكن ليتم من دون المسّ بمواد مختلفة من الدستور، منها ما أُقـرّ أو عُـدّل منذ الدستور الأول وصــولًا إلــى اتـفـاق الـطـائـف، بـدأت الحركة دعـوة إلـى اسـقـاط الـنـظـام، لكن الاخـتـلاف الـ «علماني» حـول بعض المعارك الطائفية الجلية، والسكوت عنها، ساهم في تحويل صبغة الحراك إلى ما يشبه وجهًا ملطّفًا لقوى آذار، بكل ما للكلمة من معنى، منها أخيرًا، معركة السابع من أيار وما تلاها وسبقها، والتي أعلنت الانتقال المذهبي للسلطة، من «السنية السياسية» إلى «الشيعية السياسية» من دون أية مواربة.

الإصلاح مقابل التغيير

لم يعجب البعض طـرح التغيير الـثـوري مقابل الاصــلاح التدريجي، إذ كـان هـؤلاء، على ما يبدو، يسعون إلى تحسين بعض شروطهم، وهذا ما يمكن استنتاجه لدى توقفهم عند:

أولًا: طـرح الــزواج المدني (الاختياري) بما يعنيه من ضـرب لمبدأ المساواة نهائيًا، وإبــراء ذمة الزعماء المقسّمين. مع ما رافقه من محاولة استبعاد مصطلح «العلمانية» عن الحراك، وما يهدف إليه من خفض سقف الشعار، وفتح الباب أمام معظم أطـراف النظام للتلطي خلفه، وما يعنيه أيضًا، من ضرب للمساواة على أساس جندري، أو على مستوى الأحوال الشخصية.

ثانيًا: إصرار البعض على الدخول في معركة مطلبية، واختزالها بقانون انتخابي جديد (نسبي وخارج القيد الطائفي)، من دون أن يفقه أن ارتباط الأمر بالمادة ٩٥ لم يكن يعني إلا هيمنة الأكثرية المسلمة، وفي أقل الأحوال، إعادة توزيع السلطة القائمة، مع امكانية الخرق بعدد لا يتعدى أصابع اليد الواحدة على كل لبنان. أي أنه أمر يعدو أن يكون تشريعًا للقائم على أعلى المستويات، ليؤمِّن تمثيل البعض من هنا وهناك، فيدخلون إلى السلطة ويتحولون إلى عدد غير مؤثِّر في بازارات الطوائف وزعاماتها (مثل تجربة النائب نجاح واكيم).

الإصلاح لا يكون إصلاحًا إلا إذا انصبّ سعيه إلى المواطنية، وأبرز شروطها هي:

ـ المساواة بين المواطنين، عبر التساوي في الحقوق والواجبات (منها الأحوال الشخصية، والتي يجب أن تكون موحدة تساوي بين الجميع، وليست اختيارية، فالقانون لا يكون اختياريًا وإلا لكانت نتائجه ضربًا للمساواة).

ـ التوافق على عقد اجتماعي جديد بين اللبنانيين.

لذلك، كان لزامًا أولًا، طرح إعادة تأسيس السلطة، أو تقويض الدولة الطائفية من أجل بناء الدولة الحديثة بمؤسساتها وتشريعاتها. وثانيًا، كسر حلقة المجموعات الطائفية بغية إقامة مجتمع واحد هو اللبناني، لا مجتمعات طائفية بديلة.

من الناحية الاقتصادية، تبلورت المعركة على أهداف محددة هي:

ـ الانتقال من الاقتصاد الريعي المتحالف مع الاقطاع، إلى الاقتصاد الذي يحفّز القطاعات المنتجة، وإن كانت صغيرة، وحمايتها من الشركات الكبرى العابرة للقارات.

ـ الشروع في عملية بناء مصانع على امتداد الأراضي اللبنانية، تعالج أزمة البطالة، وتعيد التوازن إلى الاقتصاد الحقيقي في مقابل القطاعات الخدماتية الوهمية غير المنتجة، والتي ترتبط بالظروف السياسية والأمنية مباشرةً. وهذا التبديل تقويض لارتباط الطوائف بالخارج، وربطها بلبنان ومصالحه ومصالح شعبه على حساب كل آخر.

فكم من اللبنانيين تفاءلوا بحزب ما خيرًا، وما لبث أن أصبح هذا التفاؤل مأساة واقعية استحالت إلى طرح طائفي أو مذهبي، أو إلى اللعب السياسي كما بقية الأطراف، فانتقل المشروع الاصلاحي إلى مشروع هيمنة، وتحوّل المصلح إلى فاسد؟ وكم من مشروع كان الشعب اللبناني قد أمل فيه خيرًا، فوجد أنه حقّ يراد به باطل، فتكرّس الانقسام الطائفي وبقي؟ فضلا عن ذلك، لا تُخفى كمية المشاريع الاصلاحية والتغييرية التي تم العمل عليها شهورًا وسنوات، وبقيت قابعة في الأدراج من دون أن تتحول إلى مشروع سياسي أو مؤسسي فعلي في لبنان؟ فالذهنية القائمة هي المشكلة التي يجب معالجتها عبر ممارسة جديدة تختلف بالضرورة عن الممارسة السائدة، وتقوم على المواجهة الشعبية لا النيابية.

في كل هذا لم يكن للسير في عملية اسقاط الدستور أو تعديل عدد كبير من مواده أيّ صدىً أو قوة دافعة، مع ما يمثله من تأسيس لمحاولة خلق حركة شعبية ضاغطة من أجل القيام بتغيير كامل متكامل لا ترتبط أموره ببعض المطالب الجزئية فحسب، بل تتعداها إلى حركة اعتراض شاملة تنظر إلى الفقر والسياسات الضريبية غير العادلة، ومسألة العدالة الاجتماعية، والقوانين المدنية للأحوال الشخصية، وفكّ الارتباط بالخارج، ومحاسبة المسؤولين عن كل ما وصلنا إليه من أزمات لا تزال تطلّ برأسها بين الحين والآخر. فمن أجل تعديل الدستور، أو السير بهذا المطلب دفعة واحدة، كان من الضروري خلق حركة شعبية ضاغطة تسقط النظام بدايةً، وتؤسس مجلسًا انتقاليًا يضع دستورًا جديدًا يوافق عليه اللبنانيون. ويعود ذلك لسبب رئيس هو أن مسألة تعديل مادة من مواد الدستور، تتطلّب موافقة ثلثي المجلس النيابي، وقرارًا حكوميًا، وعددًا كبيرًا من الأمور التي تشكّل

كم من اللبنانيين تفاءلوا بحزب ما خيرًا، وما لبث أن أصبح هذا التفاؤل مأساة واقعية استحالت إلى طرح طائفي أو مذهبي، أو إلى اللعب السياسي كما بقية الأطراف، فانتقل المشروع الاصلاحي إلى مشروع هيمنة، وتحوّل المصلح إلى فاسد؟



عائقًا فعليًا لا يمكن تخطيه، فيبقى النظام القائم، من دون تعديل دستوري وتغيير سياسي إلا عبر حرب أهلية جديدة، تنقل لبنان من ممارسة طائفية للنظام إلى ممارسة طائفية أخرى مشابهة.

تحويل خط سير التظاهرات

ارتكزت فكرة ضرب مشروع بناء حركة شعبية ضاغطة أو السعي في سبيلها، وأكثر من أي وقت مضى في الحركة، على محاولة تحوير خط سير التظاهرات. فبعد أن كانت الأولى في منطقة شعبية هي طريق صيدا القديمة «الشياح ــ عين الرمانة»، والثانية في المنطقة الشعبية في برج حمود تجاه «مؤسسة كهرباء لبنان»، كانت الثالثة في منطقة الأشرفية تجاه وزارة الداخلية، وشارك فيها أكثر من ٢٥ ألف متظاهر.

أُخذ القرار بضرب الحراك، عبر ايجاد كتلة بشرية «حزبية» تصوّت على تحويل خط سير التظاهر من مناطق شعبية تحاكي مطالب الناس في مناطقهم، إلى مجلس النواب الذي يشكّل:

ــ أولًا: خط سير يعتمده الحزب الشيوعي اللبناني لتظاهراته منذ أكثر من عشر سنوات.

ــ ثانيًا: خط سير يمر نصفه (على أقل تقدير) بمناطق غير شعبية، ليصل نهايةً، وفي يوم الأحد، إلى وسط المدينة وأبنيتها الفارغة، لأنها مكاتب تعطّل في مثل هذا اليوم، فيتحول شعار «يللي واقف عالبلكون نزال نحن شعبك هون» إلى شعار فارغ، لأن أحدًا لا يقف على «البلكون». ومن هنا لن يسمع أحد هذا الشعار، وغيره الكثير، إلا بعض الأحجار المتراصة على شكل بناء. يضاف إلى ذلك ان النواب والوزراء غير موجودين في مكاتبهم، بل يتربعون في منازلهم الطائفية بامتياز، في مناطق متوزعة على ١٠٤٥٢ كلم مربع.

لذلك، عندما بدأت تثمر التظاهرات عبر خلق رأي عام متعاطف، وحركة شعبية ضاغطة، اتخذ قرار المواجهة بفرط الحراك، وتفريغه من مضمونه. فالخطاب السياسي الضامن لم يكن متبلورًا، وأسقط بعد حوالي الشهرين من العمل اليومي من أجل صياغة ورقة مبادئ سياسية تحمي الحراك وتطرح العلمانية، وتسمي قوى ١٤ و٨ آذار بالاسم، لتشغل حيّزًا حقيقيًا مواجهًا لهم. فتم تطيير الورقة على أيدي البعض، على الرغم من أنها صيغت بمشاركة الجميع، وتم ضرب أية امكانية لخطاب سياسي واضح ومباشر ضد النظام وحرّاسه. ومن هنا تمت المساهمة في ضرب الحراك وتفريغه من الحراك نفسه، لا بل تجييره لصالح النظام عبر إظهاره قويًا متماسكًا، بعدما منحته الحركة جرعة قوة إضافية بسبب تشتتها.

فرطت سبحة التظاهرات؛ فنزل العدد من ٢٥ ألف مشارك إلى بضعة آلاف، وتحوّل الخطاب الشعبي الجامع إلى خطاب مفرّق، يسقط على الناس إسقاطًا فيدعوهم إلى أماكن يعرفون تمامًا أنها لن تؤدي إلى شيء. تحوّل الحراك من أرض الواقع إلى أرض المهاترات السياسية، إلى مجلس لا عمل له إلا الشحن الطائفي والكلام الاستفزازي والتفريقي والطائفي والسباب والشتم، وتحديد ساعة الصفر في معارك طائفية فئوية جديدة.

بدأ التشاحن حول الموقف من القضايا الأساسية ــ الوهمية التي ينقسم البلد بناءً عليها: المحكمة والسلاح. وبدأت القوى الدائرة في فلك ٨ آذار (القومي والشيوعي وحركة الشعب)، وإن أنكرت ذلك، تفرض المعركة وكأنها مواجهة للسياسات الحريرية الاقتصادية فقط، وكأن الباقين لا حول لهم ولا قوة، وكأن من يعزز النظام الطائفي ليس طبقة سياسية كاملة متكاملة، بل «الحريري» في شخصه، وكأن لا علاقة لقوى ٨ آذار بكل ما يحدث، لا بل النظر إلى هذه القوى بوصفها تحمي المواطنين وكأنها تريد بناء الدولة.







من أجل تعديل الدستور كان من الضروري خلق حركة شعبية ضاغطة تسقط النظام بدايةً، وتؤسس مجلسًا انتقاليًا يضع دستورًا جديدًا يوافق عليه اللبنانيون وإلا فالحل هو حرب جديدة.

مسامير في نعش الحركة

في الجهة المقابلة، دخلت القوى الطائفية أيضًا، في لعبة تقويض الحراك، خصوصًا تلك التي تدعو إلى «الإصلاح والتغيير». فبعد أن كان «التيار الوطني الحر» من الداعين إلى العلمنة، تراجع إلى خطاب فئوي يطالب بحقوق المسيحيين، معتبرًا أن المسلمين ينالون حقوقهم كافةً، ناسيًا أن الأزمات المتتالية تطال جميع الطوائف اللبنانية، لا الطائفة المسيحية فقط.

ما زاد الأزمة، أن التيار نفسه كان قد حارب التظاهرات بوصفها حركة مشبوهة تريد هيمنة «الإسلام» على الدولة، علمًا أنه يتحالف مع أطراف هي الأقوى على الصعيد اللبناني، وهي أطراف إسلامية بامتياز (حزب الله وحركة أمل)، يتخلى لها يوميًا عن حقوق المسيحيين، لا بل يسير في معركة سياسية تساهم في سيطرتها على لبنان بأكمله.

كل هذا الكلام السياسي دخل في صلب الحركة الفتية، الحركة التي ساهم الإعلام بدوره، بضربها، بدءًا باستضافة الاعلامي «مارسيل غانم» مجموعة ناشطين يتحدثون عن الحراك من خارجه، والتزم ناشطة فقط من لائحة تضم حوالي ١٢ اسمًا والمقدمة له رسميًا. هكذا أتى من جهة مقابلة، بأناس يمارسون السياسة ويدخلون في صلب المنظومة الطائفية، أناس يمارسون السلطة منذ ما قبل الحرب الأهلية، ليحاسبوا الحركة وكأنها حزب يمارس السلطة منذ الأزل. فطرح أمورًا وحاسب الناشطين على مشاريع غير مطلوبة من الحراك أساسًا، واستلذ بإقامة السبق الصحافي على حساب أي تغيير ممكن، وانسجم مع ممارسة اللعبة الطائفية المقيتة للسلطة التي يغذيها الإعلام الطائفي اللبناني، ومارس دوره في تعرية أية عملية تغييرية.

لم تقف الأمور عند هذا الحد، فإضافة إلى الحلقة المسيئة من برنامج «كلام الناس»، حاول «تلفزيون الجديد» أخذ الأمور إلى منحى آخر، فبدأ بتحوير شعار التظاهرات، محولًا إياها من «اسقاط النظام الطائفي» إلى «إلغاء الطائفية السياسية». والشعار الأخير، كما هو معروف، طرح للرئيس نبيه بري، مع ما يعنيه من محاولة تجيير التظاهرات إلى مساومات وبازارات سياسية. وكان دلو شاشة تلفزيون «الوطني الحر» مموهًا كذلك، فحاولت مقدمة برنامج «فكر مرتين» شيرلي المر، وعبر شتى الطرق، تعويم التيار الذي تقف على شاشته، فاصلةً بين النظام الطائفي والفساد، ومحاولة انتزاع صك براءة من أحد المدعوين يتمثل بدعوة التيار إلى الحركة. وكأن المقدمة نسيت أن الفساد هو في غياب المحاسبة، وأن محاسبة أي فرد في لبنان ستتحول حتمًا إلى محاسبة للطائفة التي يمثلها في دولة المحاصصة، مع ما لذلك من تأثير نهائي على الإدارة وتكريس للفساد والترهُّل والارتكابات.

إضافة إلى كل ما سبق، لم يكن لشاشة «ان بي ان» المحسوبة على الرئيس بري إلا الدور السابق إلى ضرب التحرك، فمارست ما مارسه الآخرون، وغطّت الحراك ببرنامج يُدعى «الغاء الطائفية السياسية» حاول تشويه شعار «اسقاط النظام الطائفي». فالأخير هو أكثر من مجرد الغاء الطائفية على المستوى السياسي التمثيلي، بل هو الغاء للمنظومة الطائفية بأكملها؛ التربوية والإعلامية والإدارية وأحوال النفوس... الخ.

ساهم كل هذا في ضرب التحرك، عبر صبغه طائفيًا، كل هذا والحراك يتحمّل ضربة تلو أخرى. نحن نتحمّل مسؤولية عدم إقامة تنظيم متين وصلب، لا تخرقه الأجهزة الأمنية والحزبية الكثيرة، إذ سعينا إلى اسقاط النظام من دون تنظيم متماسك، لا بل كانت ثغرة عدم وجود قيادة، وعدم وجود مجموعة متحدثة باسم الحراك تراقب الإعلام وتتدخل حينما يجب، مزيلةً الالتباس الذي يبنيه المتحدثون باسمنا من ناحية، وناشرةً كافة التحركات وداعيةً إليها من ناحية أخرى، إلا الضربة القاضية.





لذلك كله، يمكن القول إن الأسباب التي قضت على الحراك تتمحور حول عدم إظهار موقف سياسي صريح بدايةً، وعدم القدرة على تنظيم الأمور وفق هيكلية متينة لاحقًا، إضافة إلى مجموعة النجوم التي حاولت التسلق على ظهر الحركة، وعلى مجهود الآخرين، مما أدى إلى إختلال التوازن، وسقوط الحركة يوميًا، حتى وصلت إلى تظاهرة تضم حوالي ٥٠٠ ناشط. بالتالي، وصلنا إلى نقطة اللاعودة التي ألزمت الناشطين الانفصال، وتشكيل مجموعات صغيرة تعمل وحدها، تنفّذ ما تراه مناسبًا، وتدعو إلى تظاهرات وتحركات جزئية. فمنهم من تعلّم الدرس ولجأ إلى خطاب سياسي متماسك وتنظيمي متين، ويحاول يوميًا إقامة تحركات شعبية بسقف مرتفع. ومنهم من اعتبر أن الأزمة لا يمكن معالجتها إلا بالتوعية على بعض الأمور، وإن كانت بطريقة فوقية لا ترى إلى الواقع وتنطلق منه، معتبرةً أن الناس لا تعرف حقوقها، وأنها ما أن تعلمها سوف تقوم للمطالبة بها. وبقيت أخيرًا مجموعة حزبية صغيرة تجتمع باسم «حركة اسقاط النظام الطائفي» من دون أي تحرك.

هذه الأحزاب، وبعد أن انهزمت مشاريعها كافة سابقًا، لم تقم بأي نقد ذاتي، بل أعادت الكرّة، فهيمنت على الحراك بخطاب ملتبس يعوّم أحد الأحزاب الطائفية باسم المقاومة، تحت تبرير أنها على تناقض ثانوي آني معه، متناسيةً أن مواجهة الطرح الطائفي لا يكون بمعايير مزدوجة، وكأن التحالف مع طرف طائفي، وإن بالمواربة، يخدم مصلحة مشروع بناء الدولة الجامعة!◆





جولة بين أنقاض مملكة الخوف: سورية الثورة بخير

إرنست خوري

صحافيّ وناشط.

يبدو مشروع السفر من بيروت إلى دمشق براً هذه الأيام، أشبه بضرب من الجنون بالنسبة إلى اللبنانيين. تبقى النصائح متشابهة: ثمن الانسان بات أقلّ من بخس في سورية. محاولة تقصّي الحقائق صحافيًا وعلى الأرض مشوبة بمخاطر كبيرة. لا أحد يمكنه توقُّع ما قد يحصل معك عند أحد الحواجز الأمنية المنتشرة كالفطريات منذ أشهر حتى داخل دمشق، وبينها وبين مدن ريف دمشق وباقي المحافظات طبعًا.

كل شيء يبدو هادئًا عند جديدة يابوس، النقطة السورية من الحدود مع البقاع اللبناني. الثورة لم تصل إلى هنا إذًا. تجتاز طريق المنطقة الفاصلة بين البلدين بقليل من الصعوبة بسبب الثلوج المتراكمة في أواخر شهر شباط، لتبدأ لافتات شركة الهاتف المحمول «سيرياتيل» (التي يملك معظم أسهمها الديناصور المالي رامي مخلوف) بالظهور في كلّ مكان. الشركة التي طاولتها عقوبات الاتحاد الأوروبي، على اعتبار أنها أحد المصادر المالية التي تموّل الماكينة الأمنية للنظام السوري وأجهزته وميليشياته، ضاعفت عدد لوحاتها الاعلانية وكأنها تقول: «سيرياتيل» تتحدّى العالم. فجأةً، تدخل إلى سورية ــ الأزمة: حاجز أمني عند مدخل دمشق لم يكن موجودًا عند زيارتك الأخيرة قبل عام. مسلّحون بزيّ زيتي وأذقان مشذّبة يدقّقون بالهويات والوجوه، ويُكثرون من الأسئلة. تتذكّر حواجز ميليشيات الحرب الأهلية اللبنانية. تتفادى إظهار



بطاقتك الصحافية، إذ إن الكشف عن هويتك المهنية سيتسبب في طرح الكثير من الاستفسارات والاتـصـالات والتدقيق. تتذكّر أن جميع الجيوش العربية تفرض على جنودها حلاقة أذقانهم يوميًا، فيأتيك الـجـواب مـن السائق الـسـوري: إنـه حاجز لأحـد الأجـهـزة الأمنية الــ١٧، التي تضمّ نحو مئة ألف من نخبة المقاتلين ورجـال الأمـن والاستخبارات، الذين يعتبرون الحاكمين الفعليين للبلاد المدعومين بــالآلاف مـن المخبرين المدنيين، بعكس الجيش النظامي بجنوده وضباطه البالغ عددهم النصف مليون جندي. تصل إلـى قلب دمشق، لتبدأ بملاحظة أن المظاهر الجديدة عديدة: منطقة «سـوق الهال» في العاصمة مظلمة تمامًا. لا كهرباء في أحـد أفقر أحياء دمشق، حالها كحال عـدد كبير من المدن السورية التي تصل فترة انقطاع الكهرباء فيها إلـى ١٥ ساعة يوميًا، هـذا من دون الكلام عن المدن والمناطق التي تشهد مـعـارك، حيث لا كهرباء ولا مـاء ولا شبكة هاتف أرضـي أو محمول منذ أشهر أحيانًا. مع انقطاع الكهرباء، تشعر بأنك لست بعيدًا عن لبنان فعلًا. مهمة العثور على متجر لشراء خط هاتف سـوري صعب مساء يـوم الجمعة، إلا في حـيّ القشلة، أحـد الأحياء ذات التواجد السكاني المسيحي الكثيف نسبيًا. هناك، يطول الانتظار عند صاحب المتجر لتفتح صفحة الانترنت بهدف تعبئة الـخـط. يبرر البائع المسيحي، وفوقه دزّيـنـة من صـور الرئيس الأسـد الابــن، بـطء الانترنت بكوننا في يـوم الجمعة. ومـا العلاقة؟ تسأله بسذاجة، فيأتيك الجواب بضحكة خبيثة: تعرف، إنـه البرد! يحتاج الأمـر إلـى مساعدة من صديق سـوري لتفهم أن المقصود من هذه النكتة السمجة هو أنّ النظام السوري يلغي أيـام الجمعة خدمة الانترنت السريع الــ G3 للتخفيف مـن التواصل والتنسيق بين المعارضين والمتظاهرين على شبكات التواصل الاجتماعي والهواتف «الذكية».

في حي «باب توما»، ذي الاكثرية المسيحية، تجد دمشق التي تعرفها؛ الكهرباء لا تنقطع هنا أكثر من ساعتين يوميًا. زحمة كبيرة في السوق رغم أنها العاشرة ليلًا. المطاعم مزدحمة...

في حمى «الرمرمة»

تتّجه إلـى عاصمة السهر والمطاعم في دمشق، إلـى حي «بـاب تـومـا»، ذي الاكثرية المسيحية. هناك، تجد دمشق التي تعرفها؛ الكهرباء لا تنقطع هنا أكثر من ساعتين يوميًا. زحمة كبيرة في السوق رغـم أنها العاشرة ليلًا. المطاعم مزدحمة... وكيفما تلفّتّ، تجد الشعارات الدينية وفوقها وتحتها صـور آل الأسـد وشـعـارات «سورية بخير». تستفسر من أصدقاء شيوعيين لتفهم أنّ الأمـور «ليست بخير» هنا منذ انطلاق الـثـورة في ١٥ آذار ٢٠١١، إذ إن الطائفة المسيحية في سورية، التي تشكّل نحو عشرة في المئة من السكان، «محسوبة عمومًا على النظام»، شأنها شـأن باقي الأقليات الطائفية، الـدرزيـة والعلوية والاسماعيلية. يشرحون لـك أن جـزءًا كبيرًا مـن الأقليات قـرر تصديق روايـة النظام عن أن مصيره سيكون مشابهًا لمصير مسيحيّي الـعـراق بعد الاحتلال الأميركي في حال سقط نظام «البعث» الذي يدّعي أنه يحميهم من خطر الأصولية الاسلامية.

الغلاء أول ما يلفت انتباهك في السوق، حيث الليرة السورية تدنّت قيمتها الشرائية بنسبة مئة فـي المئة خـلال أشـهـر: قبل عـام، كـان الــدولار الأميركي الـواحـد يـسـاوي خمسين ليرة سـوريـة، أما اليوم فبات يصرف بمئة. أصـلًا، لم تكن سورية تنتظر موجة الغلاء الحالية لتخسر سمعتها بأنها «أمّ الفقير»، لأنّ عهد «الانفتاح» الاقتصادي النيوليبرالي الـذي افتتحه الأسـد الابـن منذ تسلّم الحكم، والخصخصة على طريقة «الـرمـرمـة» مثلما يسمّيها السوريون نسبة إلـى رامـي مخلوف، لم تخلّفا سوى المزيد من التهميش والإفقار والاستغلال. عاشت «الاشتراكية على الطريقة السورية»!

اليوم، يمارس التجّار هوايتهم المفضّلة في الاحتكار، مستفيدين من غـضّ نظر أجهزة الدولة عن كل شـيء إلا ما هو أمني ــ سياسي. من هنا، تلاحظ بسهولة، عند تنقُّلك بين مناطق «ريف دمـشـق»، موجة البناء غير القانوني المشيَّد من دون رخصة، إضافة إلـى كثرة مخالفات السير وانتشار الباعة الجوّالين على عربات كانت ممنوعة قبل اندلاع الثورة.

صباح في الصالحية
ودماء في كفرسوسا

صباحٌ أوّل في وسط دمشق، تبدو الأوضاع أكثر من جيّدة في حيّ «الصالحية» الراقي. الجولة الاستكشافية ضرورية مع صديق معارِض وناشط في إطار «تنسيقية دمشق»، وهي فرع العاصمة من تجمُّع يضمّ ناشطي المعارضة السلمية في دمشق، ويقومون بكلّ ما له علاقة بالثورة، من تظاهرات وتغطية إعلامية تصويرًا للتظاهرات وتوثيقًا للاعتقالات وعدد قتلاها، وتأمين التواصل وبثّ المعلومات على شبكة الانترنت ومواقع «فايسبوك» و«يوتيوب» و«تويتر»، وتحديد أمكنة وتوقيت التظاهر بسرية مطلقة، ونقل الصحافيين الأجانب إلى أماكن الحدث، وإقامة المستشفيات الميدانية، وجمع التبرعات، وتأمين أكياس الدم لمدينة حمص. باختصار، إنهم الثورة. معظمهم من متخرّجي ومتخرجات الجامعات ومن ابناء وبنات الطبقات الوسطى والفقيرة وأحيانًا من البرجوازيات الحديثة. تنتقل مع رفيقك إلى منزل في حيّ المزّة، أحد أرقى أحياء العاصمة، الذي يضمّ والحي المجاور له، كفرسوسة، معظم مقار السفارات والمراكز الأمنية ومنازل كبار الضبّاط والوزراء. حتى أنّ البعض يسمّيه «غرفة نوم النظام». وكان حيّ المزّة قد شهد، في ١٨ شباط الماضي، أخطر تطوُّر للثورة السورية بالنسبة إلى النظام، عندما تظاهر نحو ٣٠ ألف معارض فيه أثناء تشييع ثلاثة شبان قتلوا في احتجاجات يوم الجمعة السابق.

وفيما كان الأصدقاء يشيرون إلى المكان الذي جرت فيه تظاهرة المزة الشهيرة، على بعد أمتار من السفارة الايرانية، يصل اتصال عن سقوط خمسة شهداء في حي كفرسوسة، بينما «المزة»، الملاصقة لكفرسوسة، تعيش حياةً طبيعية جدًا. هكذا، فإنّ زائر دمشق هذه الأيام إذا أراد البحث والتدقيق، يجد مظهرًا مختلفًا تمامًا لهذه المدينة التي تشهد، يوميًا، تظاهرات واعتقالات، خصوصًا في حيّ الميدان، أحد أكبر الأحياء الشعبية فيها، وفي برزة وكفرسوسة والمزّة. هذا دون الحديث طبعا عن التظاهرات والاحتجاجات وأحيانًا المعارك العسكرية اليومية في العديد من مناطق ريف دمشق، كدوما وحرستا والقابون وقدسيا وداريا والغوطة. لكن لماذا لا يعرف كثر بما يحصل بعيدًا عنهم مئات الأمتار أحيانًا؟ يأتيك الجواب من الشباب الذين يتولون تنظيم كل تفاصيل هذه الثورة: إنّ أكبر «إنجاز» أمني نجح فيه النظام على صعيد حجب ما يحصل في دمشق وريفها، هو أنه تمكن من عزل المناطق والأحياء بعضها عن بعض بمختلف الوسائل، لكي لا يشعر أحد بالحراك المعارض الجاري في المنطقة التي تجاور مكان سكنه أو عمله أو تواجده، بينما تكون المنطقة مشتعلة قتلًا واعتقالات وملاحقات. فور رصد أي تحرك معارض في أي مكان، يقوم عشرات بل مئات من عناصر الأمن بإقفال مداخل ومخارج الشوارع المؤدية إلى المكان، والقطع الفوري للتيار الكهربائي وخدمة الانترنت وتغطية الهاتف، بحيث يصبح المكان المقصود من المتظاهرين معزولًا تمامًا. بهذه الطريقة، لا يعرف المحيط، حتى القريب، بما حصل إلا بعد ساعات من حصوله، بعد أن يكون قد هرب مَن هرب، وعادت الاتصالات إلى الحي، وعُرف عدد المعتقلين والقتلى والجرحى.

على امتداد الشارع الخالي من عناصر الأمن المسلحين، مئات الأشخاص، هم مزيج من المتظاهرين والمخبرين وعناصر الأمن المدنيين. المتظاهرون ينتظرون معلومات من زملائهم حول التوقيت الأنسب لتنطلق التظاهرة.

تجربة في التظاهر

ظل هذا الكلام نظريًا إلى حين قررتُ، يوم الثلاثاء ٢٨ شباط الماضي، خوض المغامرة مع عدد من الناشطين في محاولة الخروج في تظاهرة في حيّ الميدان، بوسط دمشق، لفهم كيف تجري الأمور عمليًا، تلك التي نعتبرها أحيانًا مهمة سهلة من وراء شاشة التلفزيون. مناسبة التظاهرة تشييع أحد القتلى الخمسة الذين سقطوا في كفرسوسة. كان من المفترض أن ينطلق التشييع من أمام مسجد كفرسوسة، لكنه تعذّر لعدة أسباب.

أولًا، بما أنّ معظم التظاهرات المعارضة تخرج على شكل تشييع، لتتحوّل إلى تظاهرة من بعد، فإنّ عناصر الأمن يفعلون كل شيء لمنع حصول التشييع. يخطفون جثث الضحايا ويصطحبون عددًا محدودًا من ذويهم إلى المسجد بعيدًا عن الأضواء لتقام الصلاة المقتضبة عليه، وبعدها يرغمونهم على دفنه سريعًا. هكذا فذوو الشهداء يحاولون فعل المستحيل للمحافظة على الجثامين ليتمكنوا من تشييعها علنًا.

ثانيًا، تعذّر تشييع أي جثة في ذلك اليوم، فلم يمكن إخراج التشييع الرمزي ليتحول من ثم إلى تظاهرة معارضة تنطلق من كفرسوسة. أحكمت عناصر الامن إقفال المنطقة منذ الفجر، فتمّ نقل التظاهرة سريعًا إلى حيّ الميدان، أحد «قلاع» المعارضة. إلى الميدان إذًا. نركب أول سيارة تاكسي، فيخبرنا السائق السبعيني، المؤيد جدًا للنظام خوفًا أو اقتناعًا، كيف أنّ إيران قرّرت دعم حليفتها سورية... كهربائيًا. كيف ذلك؟ نسأل الرجل ببراءة مصطنعة، فيأتي الجواب على شكل سيناريو جهنّمي مضحك: قررت إيران تسليم سورية كميات من أصابع... اليورانيوم. «أصابع»؟ نسأل، فيجزم مؤكدًا أنها أصابع تولّد الطاقة الكهربائية. لا يعرف الرجل كيف يحصل ذلك، «قد يكون بوضع الأصبع مع زرّ الحائط لتكون كافية لتوليد الكهرباء ٢٤ ساعة من دون انقطاع!». كلام يذكّرك فجأة بمشهد رأيته في أحد شوارع أكبر مدن محافظة ريف دمشق، دوما، وهي من قلاع المعارضة ايضا. كتب معارضون على حائط «يسقط بائع الجولان»، و«يسقط قاتل الأطفال»، فجاء الموالون وكتبوا قبل العبارة كلمة «لن»، لتصبح العبارة «لن يسقط قاتل الأطفال» و«لن يسقط بائع الجولان»!

يبلغني الناشطون بأن لا مشكلة في وضعي على الحواجز الأمنية كوني «مسيحيًا»، بالتالي سيفترض رجال الأمن أنني موال للنظام، مثلما هي حال الجزء الأكبر من مسيحيّي سورية، وقسم ليس قليلًا من مسيحيّي لبنان.

كيف التميز بين المخبر والمناضل؟

هكذا، مَن يُكثر في ركوب سيارات التاكسي عليه أن يدرك أنّ أحاديث بعضهم مليئة بالغرائب والبساطة والأمن، لذلك على الراكب عدم المجاهرة بسرعة بمواقفه وقناعاته، والتزام جانب الحيطة والحذر. أكثر من ذلك، فإنّ الناشطين يضطرون أحيانًا إلى تبديل سيارات التاكسي أكثر من مرة، أو النزول من السيارة قبل الوصول إلى مقصدهم، حين يشكّون بأن السائق يتعاون مع الأمن.

نصل إلى أحد المداخل الضيقة والقديمة جدًا للشارع الكبير في الميدان، فنفاجأ بعدد من الباصات (سعة ٢٤ راكبا للواحدة) تابعة للأمن، مماثلة لتلك التي تظهر في التسجيلات المصوّرة التي يرسلها الناشطون السوريون للقنوات التلفزيونية. فيها يرمى المعتقلون لنقلهم إلى المقار الأمنية للتعذيب والتحقيق. الباصات مركونة في وسط مدخل الحي وبقربها عشرات العناصر من الأمنيين والجيش والمخبرين. ندخل الشارع من مدخل فرعي آخر لم يضبطه الأمن بعد، لنصل الى قلب المنطقة التي يجدر أن تحصل فيها التظاهرة. ساعتها، ينتابك شعور ممزوج بجميع أنواع المشاعر: ريبة وحذر وتوتر وترقّب وخوف وحماسة. على امتداد الشارع الخالي من عناصر الأمن المسلحين، مئات الأشخاص، أكثرهم رجال وشباب، واقفين عابسين، في مجموعات من ثلاثة أو اربعة افراد. يتهامسون بصوت خافت جدًا. لا أحد تقريبًا يتحدث عبر هاتفه. هكذا هم، واقفون فقط كأنهم ينتظرون شيئًا ما. أستسفرُ بصوت خافت من أصدقائي الناشطين، فيشرحون أن هؤلاء هم مزيج من المتظاهرين والمخبرين وعناصر الأمن المدنيين. كلّ طرف ينتظر الآخر. المتظاهرون ينتظرون معلومات من زملائهم حول التوقيت الأنسب لتنطلق التظاهرة بواسطة شخص ما يقفز ويصرخ «اللهُ أكبر» و«الشهيد حبيب الله» و«لشعب يريد إسقط النظام» و«سورية بدها حرية». او يكيل الشتائم ضد الرئيسين الأسد، الأب والابن. لكن هذا الـ«أحد» لن يصرخ إلا عندما تصبح الظروف مناسبة، أي عندما تصل

معلومات تؤكد عـدّة معطيات ضرورية، ومنها اولا أن عدد المتظاهرين المحتملين بات أكبر من المخبرين الـذيـن ينتظرون خـروج التظاهرة لحفظ الهيئات والـوجـوه ولإعـطـاء الاشـارة لدخول رجـال الأمــن لـيـؤدّوا «عملهم». وثانيا، أنّ مخارج الـشـارع الـذي يفترض أن يستضيف التظاهرة آمنة، بمعنى أنّ الهرب ممكن إذا تدخّل الأمــن. نواصل الجري ببطء بانتظار اللحظة المناسبة. الوجوه كلها قلق وترقُّب.

كيف تميّزون المخبرين من المتظاهرين؟ تأتي الاجابة المحيّرة: بسبب من خبرتنا، بتنا قادرين على تمييزهم من خـلال النظرات والملبس والنظرات. باختصار، إنها لغة العيون والخوف التي لا يعرفها سـوى مَـن بـات خبيرًا في التظاهر والتعامل مع نظام أمني منذ اربعين عامًا. خـلال سيرنا، أسمع همسات «الله محيّي الشباب». يطمئنّ الزملاء إلـى أن المتفوّه بهذه «الكلمة السرية» هو متظاهر مثلهم، وينتظر معهم اللحظة المناسبة. وخـلال سيرنا أيضًا، يقترح أحـد الأصـدقـاء التمويه بالدخول إلى مطعم للفراريج لإيهام المخبرين بأننا هنا لمجرد تناول الطعام. في الداخل، يطمئنّ صاحب المطعم فورًا إلى أنّنا «لسنا أمن».

نخرج ونجتاز الـشـارع، لكن التظاهرة لن تنطلق لأن المعلومات الــواردة ليست جيدة بعد، لا من حيث عـدد الناشطين ولا من جهة وضـع مخارج الحي. عندها، يتعذّر إعـادة اجتياز الشارع، لأن الأنـظـار سـوف تتركّز علينا حينها. ننتقل إلـى حـيّ مـوازٍ مـن أحـيـاء «الـمـيـدان» أيـضًـا، فنجد وضعًا مشابهًا. الجميع ينتظر الجميع. أقـل من ثـلاث ساعات على هـذه الحال من دون تغيير. حينها، يصبح واجـبًـا علينا مـغـادرة المنطقة والتخلي عن مشروع التظاهر، خصوصًا مع وصول دفعة جـديـدة مـن سـيـارات الأمــن رباعية الـدفـع والـبـاصـات الكبيرة التي صادفناها عند مدخل الحيّ الرئيسي. نغادر وفـي قلب الأصـدقـاء حسرة ممزوجة باطمئنان إلـى أنّ التظاهرة ستخرج في النهاية، لكن أحـدًا لا يعرف متى. تنتهي المغامرة ونعود أدراجـنـا إلـى «معقل» الـثـوار في إحــدى الشقق المخصَّصة للعمل الاعـلامـي حيث إجــراء المونتاج على التسجيلات المصورة للتظاهرات ورصـد الاعـتـداءات عليها ووضـع تعليقات قصيرة على الشريط تمهيدًا لإرسـالـه إلى القنوات التلفزيونية. بعد نحو خمس ساعات من مغادرتنا حي «الـمـيـدان»، يصل الخبر السعيد بالنسبة إلى الناشطين المتجمعين: خرجت التظاهرة بمئات المشاركين «الفدائيين» بعد ساعات من المحاولات، اعتقل منهم من اعتقل وهـرب من هـرب، لكن من دون سقوط شهداء هذه المرة. جلسة تنتهي بإجماع الحاضرين على أنّ شعبًا مستعدًّا لأن يحاول خـلال ثماني ساعات الخروج بتظاهرة، يستحيل أن يخسر.



الى «الزبداني المحتلّة»

حين يكون أمامكَ خمسة أيام فقط لتقضيها في سورية ـ الثورة، تكون بحاجة إلى أن تستفيد من كل لحظة. تبدأ المخطّطات للخروج من دمشق: إلى أين الذهاب في اليوم التالي؟ التوجُّه إلى «عاصمة الثورة»، أي حمص قبل اقتحامها من الجيش النظامي (وهي أكبر المحافظات السورية، تبلغ مساحتها ٤٢ ألف كيلومتر مربع ويزيد عدد سكانها على مليوني نسمة) عبر الاحتيال على الحواجز الأمنية هو الحلم بالنسبة إلى أي صحافي. لكنه قد يتحول إلى كارثة، إذ إن مصيرك قد يحدّده خطف أو اعتقال أو مجرد رصاصة طائشة أو هادفة، لا فرق، هذا إذا افترضنا أنك تمكنتَ من الوصول إلى هناك بمساعدة عناصر من «الجيش السوري الحر» وأصدقاء معارضين. لا يزال يمكن الوصول إلى أحياء بابا عمرو (قبل دخول الجيش إليه في ٢٠ شباط الماضي) والبيّاضة والخالدية والقصير. لكنك هناك، ستكون «مشروع شهيد»، أو على الأقل مشروع معتقل لدى الأجهزة الأمنية، وما أهون الموت أحيانًا برصاصة أو قذيفة أمام الاعتقال لدى هذه الأجهزة!

إلى أين إذًا؟ مدن ريف دمشق تبدو الخيار الأفضل: الزبداني وحرستا ودوما وداريا جميعها معاقل للثورة، رغم أن جميعها «سقطت» في يد الجيش والأمن، بعضها بعد معارك شرسة جدًا لكنها غير متكافئة، مثلما حصل في الزبداني (المحاذية للحدود اللبنانية).

تبدأ التحضيرات للرحلة المفترض أن تحصل في اليوم التالي إلى الزبداني، أي السبت ٢٥ شباط. عليك أن تنسى أمر محاولة الاستفادة من الدعوة الموجهة إليك من وزارة الاعلام السورية لتغطية الاستفتاء المقرّر الأحد ٢٦ شباط على الدستور الجديد في دمشق: ممنوع التجوّل إلا بمرافقة مندوب من الوزارة، حتى في محافظة ريف دمشق. وترخيص تجوّل الصحافيين يبقى بيد هذا المندوب وحده، وهو الذي يعني معظم الأحيان، أنّ ثمة رقيبًا عليك وعلى حركتك. وصلت الرسالة: عليكَ أن تغامر على مسؤوليتك وأن تخفي صفتك الصحافية على الحواجز إذا كنتَ تريد أن تعرف شيئًا في سورية غير ذلك الذي يفيدك به الإعلام الرسمي المضحك في انعدام مهنيته.

تتّجه برفقة صديق إلى شقة سكنية في وسط دمشق يلتقي فيها ناشطون شبّان وشابات يشاركون منذ اليوم الاول للثورة في كل تفاصيل نشاطاتها، السلمية منها واللوجستية الإعلامية والعسكرية. ستكون الرحلة مع خمسة أشخاص، صحافية يونانية خبيرة في تغطية الحروب، أربعة ناشطين سوريين، ثلاثة منهم من الزبداني نفسها، وقد غادروها منذ سيطر عليها الجيش النظامي نهائيًا في ١٠ شباط الماضي بعد قصف مدفعي عنيف بكل أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة لأكثر من أسبوع مع منشقّين عن الجيش وسكان من الزبداني حملوا السلاح.

وللزبداني حساسية كبيرة بالنسبة إلى النظام السوري، فهي: أولًا مدينة (نحو ٣٥ ألف نسمة) حدودية مع لبنان، وعدم السيطرة عليها يفتح مجالًا لتشريع الحدود أمام السلاح والعتاد من الجار المنقسم بين مؤيد ومعارض لنظام الرئيس بشار الأسد، وخصوصًا أن الزبداني تملك تاريخًا حافلًا من حيث إنها «تعيش على التهريب».

ثانيًا، كانت الزبداني من المدن السبّاقة الى طرد أجهزة الأمن وإعلان العصيان المدني الشامل، كونها من المدن المعارضة للنظام بغالبية كبيرة من سكانها.

ثالثًا، إن ترْك الزبداني بيد الثوار كان سيؤدي إلى تشجيع مدن أخرى للاقتداء بها وإعلان نفسها «مدنًا محرّرة»، خصوصًا أن الزبداني كانت من أولى المدن التي شهدت تظاهرات في سورية.

في الشقة الدمشقية الصغيرة، تبدأ التحضيرات: بطاقة هوية سورية مزورة للصحافية اليونانية التي أُلبست منديلا شرعيا للتمويه، ذلك أنّ دخولها كصحافية ممنوع طبعًا، وحجة أنها تنوي التوجه إلى المدينة كسائحة ستبدو أكثر من نكتة، فلا سياحة اليوم في «الزبداني المحتلة»، بل

وبشيء من عزة النفس، يستعيد أبو محمد الروح حين يدلّك من شرفة منزله كيف «اصطاد» رجال «الجيش الحر» دبابة للجيش النظامي هنا، وفرقة من أجهزة الأمن كانت تحاول التسلُّل هناك.



ساحة حرب انتهت قبل أيـام، وجيش ينتشر فيها بدباباته وآلاف الجنود في طرقاتها، والمئات من رجـال الأمـن الذين لا يـزالـون ينفّذون مداهمات واعتقالات ليلًا ونـهـارًا بحثًا عن مطلوبين وعقابًا للسكان. أمـا بالنسبة لـي، فكان الأمـر مفاجئًا: يبلغني الناشطون بـأن لا مشكلة في وضعي على الحواجز الأمنية كوني «مسيحيًا»، بالتالي سيفترض رجـال الأمـن أنني مـوال للنظام، مثلما هي حال الجزء الأكبر من مسيحيّي سورية، وقسم ليس قليلًا من مسيحيّي لبنان. هكذا، عـدتُ، رغمًا عني، إلى حضن الطائفة فتى مدلّلًا لدى الحواجز الأمنية بمجرد ما يوحيه الاسم من هوية طائفية.

فجأة، تتعقّد الحكاية عندما تتلقّى إحـدى السوريات في الشقة اتـصـالًا يؤكد لها أن اسمها ورفيقتها مـوجـودان على حواجز الزبداني كمطلوبتَين على خلفية نشاطهما الميداني المعارض. يتعرقل الـمـشـروع، فنقرّر، صديقي الـسـوري وأنـا الافـتـراق عـن المجموعة الأخـرى والتوجه إلى الزبداني في اليوم التالي وحدنا، أي الأحـد ٢٦ شباط. أصـلًا، قد يكون التواجد في الزبداني، في يوم الاستفتاء (الشكلي) على الدستور الجديد، أمـرا مثيرًا بذاته، وهي التي شهدت قبل أيـام فقط إحدى أشرس المعارك العسكرية.

عند التاسعة من صباح الأحـد، كل شـيء جاهز للتوجه نحو السومرية (محطة نقل الركاب البرية الأساسية في دمشق) إلـى الزبداني. الكاميرا الصغيرة مخبّأة جيدًا في الثياب. أصـلًا، فهمتُ مسبقًا أنني لن أتمكّن من استخدامها في الزبداني، كـون الصورة هي أكثر ما يرعب النظام الـسـوري. حتى الدفتر والقلم مخبّآن، ففي كل بـاص يحتمل أن يكون أحـد الـركـاب رجـل أمـن مدنيًا متخفّيًا. ينطلق الباص بتعرفته الرمزية (٤٠ ليرة سورية) لنقلك نحو خمسين كيلومترًا غربي دمشق إلى الزبداني.

على الطريق، ظاهرة جديدة أيضًا لم تكن مـوجـودة قبل عـام: مقار الأجـهـزة الأمنية ومساكن ضباط الجيش والأمــن ومـنـازل المسؤولين والمقار الدبلوماسية الحليفة لدمشق، محاطة بسور إسمنتي يـذكّـرك بصور جـدار الفصل العنصري في الأراضـي الفلسطينية المحتلة. أيضًا المربعات الأمنية تعيدك سريعًا إلى صورة الوضع الأمني في لبنان.

تتشابه المشاهد على الطريق. تدلّك لوحات الطرقات إلـى الزبداني وبـلـودان وسرغايا ومضايا، وهي جميعها بلدات جميلة معروفة بكونها مصيفًا مفضّلًا للسياح العرب. تشعر بأن المغامرة تقترب خصوصًا عندما يطلب السائق هويات الـركـاب، او بتعبيره، «هـويـات النساء قبل الـرجـال»، ليعطيها دفعة واحــدة لعناصر الحواجز الأمنية. تحاول استباق الوضع الـذي ستجده في الزبداني. هل يشبه الضاحية الشرقية لبيروت عندما دخلتها الـقـوات الـسـوريـة فـي تشرين الأول ١٩٩٠؟ ينعطف الـبـاص يمينًا، فتجد أول حاجز أمـنـي. العبوس على وجــوه الجميع يليق بالظرف. جميع الركاب من الزبداني، باستثناء صديقي الـسـوري وأنـا. مقابَلة أولـى وسريعة للهويات مع الـوجـوه والأسماء قبل أن يتوقف الجندي عندي. جـواز سفر فلسطيني صـادر عن الجمهورية اللبنانية! يجد عنصر الأمـن في الاسـم ما يريحه. يصعد العنصر الأمني إلـى الـبـاص. نظرة سريعة لكن قلقة ويدعنا نمرّ. أربعة حواجز مماثلة يستغرق عبور كل واحـد منها نحو عشر دقائق على الطريق العام قبل دخول المدينة. وعلى هـذه الطريق التي يبلغ طولها نحو ثلاثة كيلومترات، آثـار المعارك لا تـزال ظاهرة. المحال التجارية على حافّتي الطريق مهجورة بعدما أصابها الـرصـاص والقذائف. النفايات مكومة منذ فترة طويلة. تشعر بالفعل أن الحرب مرت من هنا في الأمس، وليس قبل أسبوعين.

المشهد العام في الزبداني أقرب إلى فيلم سينمائي. نصف المحال التجارية تفتح أبوابها، ويكاد جميع سكانها يقفون في الشوارع وعيونهم محصورة بعيون عناصر الجيش والأمن. مقدار التحدّي مخيف.

لا ماء، لا كهرباء، لا مازوت،
لا غاز ولا تغطية للهاتف المحمول

دقائق ونصبح في ساحة الزبداني. تبدو أصغر بكثير ممّا تظهره عدسات الكاميرات التي سجّلت تظاهرات واحتفالات المعارضين للنظام قبل دخـول الجيش إليها و«تطهيرها». لا مكان للتشدد



الديني في الزبداني، بدليل الشجرة العملاقة التي زيّنها الثوار بمناسبة أعياد الميلاد. هي شجرة أول ما فعله الجيش عند دخول الزبداني، كان قطعها. رغم ذلك، ظلّ قسم كبير من أبناء الحارة الأرثوذوكسية معاديًا للثورة على اعتبار أنّ «الاسلام سيقضي علينا». أشهُر عديدة عاشتها الزبداني «محرّرة» قبل اجتياحها في شباط الماضي. طيلة أشهر وأسابيع، عاشت احتفالات موثّقة بالصوت والصورة، أُعلن خلالها عن تشكيل ما يشبه الإدارة الذاتية لتسيير شؤون أهل المدينة.

ننزل عند ساحة العارة لنفهم لماذا بات أهل المدينة يسمّونها «الزبداني المحتلة»: آلاف الجنود منتشرون في الطرقات وبين الأزقّة. الدبابات وناقلات الجند والشاحنات العسكرية السوفياتية المتهالكة تملأ المكان. عشرة أمتار تفصل تجمّعًا للجنود ولعناصر الأمن عن تجمّع آخر. لكنّ جولة طويلة في المدينة على الأقدام لا تكشف أثرًا لدمار مدينة أخبرك أهلها أنها تلقّت تسعة آلاف قذيفة مدفعية في غضون ما يقارب الأسبوع. أكبر خطيئة قد يرتكبها «الغريب» في حق المدينة في مثل تلك الظروف، هي محاولة الاستفسار عن منزل أحد سكان البلدة أعطانا ابنه في دمشق عنوانه لنقصده، ولا مجال للوصول إليه إلا بالاستفسار، بما أنه لا تغطية لشبكة الهاتف المحمول منذ شهر ونصف. يصعب أن تلقى إجابة من أحد، سيظنون أنك «من الأمن». و«الأمن» أيضًا سيتوقع أنك من الثوار تسأل عن أحدهم لايصال رسالة أو مساعدة. لذلك، عليك أن تبدأ سؤالك بما يشبه القسَم بأنك لستَ رجل استخبارات ولا «شبّيحًا» ينوي التسبب بالأذى لأبو محمد. بصعوبة، يدلّنا أحد الشيوخ إلى منزل أبو محمد. نصل أخيرًا بعد إحصاء عشرات دبابات الجيش المنتشرة في كل أرجاء البلدة، وآثار دبابتين محروقتين للجيش النظامي إحداهما على طريق سرغايا. وبعد تردُّد قصير، يثق أبو محمد بأننا لسنا من «الأمن» بل مجرد صحافي وناشط نحاول رصد أحوال مدينته عن قرب، علمًا أن مضيفنا عرف من أبناء البلدة أننا نسأل عن عنوان منزله قبل أن نصل. ملامح وجه الرجل السبعيني تشير إلى إرهاقه، وهو الذي لم يفارق بلدته لحظة منذ بدأت الثورة، ومنذ بدأ القصف على مدينته. والرجل، شأنه شأن جميع سكان الزبداني، يعيش منذ نحو شهرين بلا ماء ولا كهرباء ولا مازوت ولا غاز ولا تغطية لشبكة الهاتف المحمول، في ظل ما يسميه أهل البلدة «نظام عقوبات بحق الزبداني بسبب مقاومتها». واليوم الذي وصلنا فيه إلى الزبداني في ٢٦ شباط، كان اليوم الأول لدخول اللحوم إلى البلدة، ليكون «الاحتفال» على شكل طبخة ملوخيّة في منزل أبو محمد.

في غرفة الجلوس، كانت الحرارة تدنو من درجة الصفر، كونه لا وجود للكهرباء ولا للمازوت للتدفئة. ورغم تعبه الظاهر، لا يكلّ أبو محمد، ومعه زوجته، عن سرد كيف أمضيا أكثر من أسبوع لا يفعلان سوى إحصاء أصوات القذائف التي تسقط من دبابات جيش بلادهما، ومحاولة تأمين الطعام للمستشفيات الميدانية لمعالجة المصابين. يشرح مضيفنا، بشيء من التفصيل، كيف أنّ الجميع حملوا السلاح ضد النظام وأجهزته الأمنية، بعدما أمعن اعتقالاً وقتلًا حتى بات المئات من أبناء البلدة قابعين في سجونه، وبعدما سقط أكثر من مئة قتيل على أيدي قوات حفظ النظام. لكنه، وبشيء من عزة النفس، يستعيد الروح حين يدلّك من شرفة منزله كيف «اصطاد» رجال «الجيش الحر» دبابة للجيش النظامي هنا، وفرقة من أجهزة الأمن كانت تحاول التسلُّل هناك. تشعر بالفخر في عيونه وهو يخبرك أنّ قتلى الجيش كانوا أكثر عددًا من قتلى «الجيش الحر». تسأل أبو محمد فلا تفاجأ حين يخبرك بأن المدارس مقفلة في المدينة منذ ثلاثة أشهر والموظفين لا يتجهون إلى أعمالهم. يروي بحسرة كيف أنه رافق عناصر الأمن وهم يدهمون المنازل الفارغة من أهلها بحجة البحث عن مطلوبين، وكيف نُهبَت تلك المنازل بالكامل على أيدي رجال الأمن. يزوّدنا أبو محمد بخريطة شفهية لنتمكن من رؤية الدمار في الحي الغربي من المدينة. نترجّل ونسير نحو اربعة كيلومترات. ومع اقترابنا من الحيّ الغربي المهدَّم الذي يمنع الجيش الاقتراب منه حتى، نلاحظ اربعة مبانٍ على الأقل وقد أصابتها القذائف، إضافة إلى ألواح الزجاج المحطم في أرجاء منازل البلدة وآثار الرصاص على الجدران في كل مكان.

ناشطون: صنّعنا ألغامًا بدائية بمواد أولية لإعاقة دخول دبابات الجيش. كنا نشتري الذخيرة من... عناصر الجيش النظامي بمئة ليرة سورية (نحو دولار وربع الدولار) للطلقة الواحدة.

صبي ودبابة وسيجارة

المشهد العام في الزبداني أقرب إلى فيلم سينمائي. نصف المحال التجارية تفتح أبوابها، ويكاد جميع سكانها يقفون في الشوارع وعيونهم محصورة بعيون عناصر الجيش والأمن. مقدار التحدّي مخيف. يومًا كاملًا قضيناه في الزبداني، ولم نلحظ مواطنًا يتحدّث إلى جندي أو عنصر أمن. الجنود وعناصر الأمن لا ينظرون أيضًا في عيون المواطنين المصطفّين على جوانب الطرقات. يسيّر الجيش بنحو مستمر، دوريات عسكرية، من ضمنها دبابات، في أزقة المدينة. وفي كل مرة تستعدّ الدبابات للانطلاق في دوريتها الاستعراضية، تفاجأ بتجمهُر الأطفال والنساء والشيوخ حول المكان الذي تنطلق منه. ينبّهني صديقي الى ضرورة التوقف لأنّ «شيئًا ما سيحصل الآن». كان أبو محمد قد أخبرنا أصلًا أنه في الأيام الأولى لاقتحام الجيش البلدة، كانت تظاهرة عفوية تنظَّم ضد النظام في كل مرة تتحرك فيها الدبابات من مكانها لتسيير دورية. وللحؤول دون مواصلة تظاهرات التحدّي تلك، ثبّت الجيش نقاطًا عسكرية مكان الدبابات التي تنطلق في دوريتها. ونحن نتفرّج على هذا المشهد وغبار الدبابات يكاد يخنقنا، ظهر طفل كأنه خارج من أحد أفلام سينما واقع الحروب؛ فتى لا تتجاوز سنه العشر سنوات، وبيده سيجارة مشتعلة. ينتظر أول دبابة لتنطلق ببطء. يصفّر للجندي المدجَّج بكل أنواع السلاح علّها تهدّئ من توتره وخوفه على ظهر الدبابة. وما أن ينظر الجندي إلى الفتى، حتى يرميه الأخير بالسيجارة. يبقى الطفل واقفًا مكانه محدِّقًا بعيني هدفه. تحدٍّ ورجولة مبكرة جدًا من جهة، ورعب ينتاب الجنود على ظهر الدبابة من جهة أخرى.

في الجولة الراجلة، تلاحظ قلة وجود فئة عمرية كاملة في المدينة، وهي فئة الشباب والرجال الذين هرب كل من حمل منهم السلاح إلى دمشق والجبال البيضاء المحيطة بالزبداني. الوضع النفسي والعصبي الصعب لعناصر الجيش النظامي وأفراد الأمن، يكاد يثير شفقة أهل الزبداني حتى. وبحسب مضيفنا الآخر في البلدة، الرجل الخمسيني أحمد، لا يجرؤ الجنود على المبيت ليلًا في المقار الأمنية والمنازل المهجورة خوفًا من هجوم مباغت عليهم، فيقضون ليلهم في صقيع الطرقات مع درجات تدنو من الصفر، وهم يقطعون أشجار التفاح والإجاص لإشعالها للتدفئة.

لا يجرؤ الجنود على المبيت ليلًا في المقار الأمنية والمنازل المهجورة خوفًا من هجوم مباغت عليهم، فيقضون ليلهم في صقيع الطرقات.

ذاك الأحد كان موعد الاستفتاء على الدستور الجديد ــ القديم. ولأنه يصعب على النظام إنزال ناخبين كثُر في الزبداني للمشاركة في الاستحقاق الفارغ من أي مضمون، فقد أتى بناخبين في باصات من المدينة المجاورة للزبداني، بلودان، التي يُنظَر إليها على أنها موالية للنظام.

ينتهي اليوم الطويل في الزبداني مع هبوط الليل، وهنا تبدأ معاناة الاياب بالباص. سبعة حواجز في طريق العودة تتشدّد اكثر من حواجز الوصول إلى الزبداني. نفهم الأسباب لاحقًا. يرجح أن مقاتلين لا يزالون مختبئين في البلدة، ويخشى هروبهم منها. نصل إلى دمشق ليلًا، ونتجه مباشرةً إلى منزل أبناء أبو محمد في العاصمة، بعدما خبّؤوا سلاحهم «في مكان آمن لن يصل الجيش إليه أبدًا». هناك تبدأ الأخبار العسكرية التي لا تنتهي: هكذا صنّعنا ألغامًا بدائية بمواد أولية لإعاقة دخول دبابات الجيش. هكذا كنا نشتري الذخيرة من... عناصر الجيش النظامي بمئة ليرة سورية (نحو دولار وربع الدولار) للطلقة الواحدة من رصاص الكلاشنيكوف. هكذا قاتلنا باللحم الحي والعالم يتفرّج على عذاباتنا... الأهم أنهم يختمون بـ«لن يتمكن الجيش من البقاء طويلًا في الزبداني في بيئة معادية له. في النهاية سينسحب، وسنعود مع الجيش الحرّ لنحرر مدينتنا... تمهيدًا لتحرير سورية».◆

كتبت في شباط ٢٠١٢ قبل التطورات الحالية في سورية

الجنوب يتحدّى العولمة

سمير امين

مفكر اقتصادي ماركسي مصري، يدير منتدى العالم الثالث منذ ١٩٨٠، المقالة نشرت على الانترنت في نسخة إنكليزية في ٥ نيسان ٢٠١٢، على موقع «بامبازوكا نيوز».

يكشف الوضع الحالي تراجُع المراكز القديمة المأزومة (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان)، في مقابل الاندفاع الجارف للنمو في الدول الصاعدة (الصين ودول أخرى). هناك ثلاثة احتمالات:

+ أن تصل الأزمة إلى الدول الصاعدة، وأن يؤدي ذلك إلى إعاقة تطوُّر هذه الدول بنحو جدّي؛

+ ان تواصل هذه الدول نموّها، مما سيؤدي إلى إعادة إحياء الرأسمالية، بشكل متمحور حول آسيا وأميركا الجنوبية بنحو خاص؛

+ أن تؤدي التنمية في الدول الصاعدة إلى تفكيك العولمة بصورتها الحالية، وأن ينتج من ذلك ولادة عالم متعدِّد المراكز حقًّا، تجتمع هذه الدول في إطاره وتواجه وتتقدّم من أجل بدائل ديمقراطية وشعبية وعمليات ارتدادات عنفية.

تشدّد أكثر الأطروحات رواجًا على أنّ الانتصارات الماضية للنضالات المعادية للامبريالية، قد مهّدت الطريق ليس للاشتراكية، بل لصعود متجدِّد للرأسمالية. الحجّة الرئيسية لنقدي لهذه النظرة تنبع من اكتشاف أنّ النموذج الرأسمالي التاريخي، الذي يُعتَبَر حاليًا على أنّه النموذج الحصري، تم إرساؤه منذ البدء على أسس إنتاج وإعادة إنتاج الاستقطاب العالمي. تلك الميزة هي بنفسها ناتجة من الطرد المكثَّف للفلاحين من أرضهم التي قام عليها التوسُّع الرأسمالي. كان هذا النموذج مستدامًا فقط بفضل صمّام الأمان للهجرة المكثَّفة التي أتاحتها الأميركيّتان. إنّ إعادة إنتاج النموذج نفسه اليوم أمر مستحيل بشكل حازم بالنسبة إلى دول الأطراف، حيث يعيش نحو ٨٠ في المئة من سكان العالم، نصفهم في الأرياف. ثمة حاجة إلى خمس أو ست قارات بحجم أميركا «للحاق بالركب عن طريق التقليد». واللحاق وهمٌ، فالسير في هذا الاتجاه سيؤدي حصرًا إلى حائط مسدود. لهذا السبب أقول إنّ النضالات المعادية للامبريالية هي نضالات محتملة ضد الرأسمالية، فإن كنتَ عاجزًا عن «اللحاق»، عليكَ «القيام بشيء آخر». بالطبع، إنّ التحوُّل بمعنى الرؤى بعيدة المدى لـ«التنمية» لدى الدول الصاعدة، أمر «حتمي» في جميع الحالات. إنّه أمر ضروري وممكن. والنجاح الحالي للدول الصاعدة من حيث النمو المتصاعد داخل النظام الرأسمالي المعولَم، وبوسائل رأسمالية، يعزّز الوهم الذي يفيد بأنّ اللحاق أمر ممكن. هو الوهم نفسه الذي رافق تجارب الموجة الأولى لـ«صحوة الجنوب» في القرن العشرين، رغم أنّه تم التعاطي مع هذه التجارب على أنّها «لحاق بركب الطريق الاشتراكية».

الثالوث الامبريالي الجماعي

اليوم، يستنفر الثالوث الامبريالي الجماعي (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان) أسلحته الاقتصادية والمالية والعسكرية لإدامة هيمنته على العالم. ولا بدّ للدول الصاعدة التي تضع استراتيجيات للقضاء على امتيازات هذا الثالوث (السيطرة على التكنولوجيا والوصول الحصري إلى الموارد الطبيعية العالمية، والسيطرة العسكرية على الكرة الأرضية) أن تصل إلى مرحلة خوض الصراع ضده. ومن شأن هذا الصراع أن يساعد على تبديد أي وهم حول قدرة تلك الدول على «التقدُّم ضمن النظام»، فيعطي القوى الشعبية الديمقراطية إمكانية التأثير على مسار الأحداث للتقدم في الطريق الطويل نحو الاشتراكية. حتى اللحظة، وجدت الدول

مجتمعات الجنوب مجهزة اليوم بوسائل القضاء على أدوات سيطرة المراكز الامبريالية، وهي قادرة على التنمية الذاتية دون الوقوع في التبعية. ويمتلك السكان مهارات تكنولوجية تسمح لهم باستخدام التكنولوجيا لفائدتهم.

الصاعدة أنّ نموّها تسارع في إطار العولمة الرأسمالية عن طريق إجراءات رأسمالية. ولو تمّ توجيه هذه الدول لمواصلة هذا المسار، بإعطاء الأولوية للصادرات، لأصابت الأزمة الاقتصادية التي ضربت المراكز القديمة هذه الدول الصاعدة بأضرار جدية.

إنّ الصراع بين دول المركز وبلدان الأطراف مُعطى من معطيات اول نظام في تاريخ الانتشار الرأسمالي. لهذا السبب، على نضال شعوب الجنوب من أجل تحرُّرها أن يسائل الرأسمالية نفسها. بالنسبة إلى الامبريالية، الريع، المرتبط بهدف توسع الرأسمالية والذي يهيمن عليه الثالوث الامبريالي تاريخيًا، لا يشكل مصدرًا رئيسًا لأرباح الاحتكار المطلق لرأس المال فحسب، بل إنّه يحدّد أيضًا إعادة إنتاج المجتمع ككلّ. لذلك، ليس صدفةً أنّ الجنوب لا يزال «منطقة العواصف» وموطن الانتفاضات المتكررة التي تحمل احتمالات الفاعلية. من الواضح أنّ الطبقات الحاكمة لما يُسمّى الجنوب «الناشئ» قد اختارت استراتيجيةً، ليست سلبية وخاضعة للقوى المهيمنة على النظام العالمي، ولا هي معارضة على نحو سافر، إنّها استراتيجيا تدخلات نشطة تبني عليها هذه الدول الآمال بتسريع تنميتها. أكثر من ذلك، باتت مجتمعات الجنوب مجهزة اليوم بوسائل تسمح لها بالقضاء على أدوات سيطرة المراكز الامبريالية. تلك المجتمعات قادرة على التطوُّر تلقائيًا، من دون الوقوع في التبعية. إنّ السكان يمتلكون مهارات تكنولوجية تسمح لهم باستخدام التكنولوجيا لفائدتهم. ومن خلال استعادة السيطرة على مواردهم الطبيعية، يمكنهم إرغام الشمال على اعتماد نمط أقلّ ضررًا من الاستهلاك. والى هذا، فبمستطاعهم الخروج من العولمة المالية. وهم أصلاً يخوضون تحديًا لاحتكار سلاح الدمار الشامل الذي تريد الولايات المتحدة أن تحصره بنفسها. ثم إنّه يمكنهم تنمية التجارة بين دول الجنوب على صعد السلع والخدمات ورأس المال والتكنولوجيا. أكثر من أي وقت مضى، بات فكّ الارتباط هو الأمر اليومي. وإنّه لأمر ممكن. هل ستقوم هذه المجتمعات بذلك؟ ومن سيقوم بذلك؟ الطبقات الحاكمة حاليًا أم الطبقات الشعبية التي تتسلم السلطة؟

على الأرجح، سيتحقق فك الارتباط في البداية عن طريق أنظمة انتقالية ذات طابع وطني/شعبي.

بين عامي ١٥٠٠ و١٩٠٠، كان «الغربيون» هم من وفّروا بمفردهم بُنى العالم الجديد للرأسمالية التاريخية. بالطبع، قاومت شعوب الأطراف التي تعرضت للغزو، لكنّها بقيت مهزومة كليًا، ومُرغمة على التكيّف مع وضعها كشعوب خاضعة. لقد فتح القرن العشرون ــ مع «صحوة شعوب الأطراف» ــ فصلًا جديدًا من التاريخ: الثورة الايرانية في ١٩٠٧، والثورة المكسيكية (١٩١٠ــــ١٩٢٠) وثورة الصين (١٩١١)، والثورة الصينية الرائدة في ١٩٤٩؛ العام ١٩٠٥ في «نصف الطرف» للأمة الروسية، ثورتها الرائدة في ١٩١٧؛ النهضة العربية ــ الاسلامية؛ تأسيس «حركة تركيا الفتاة»؛ الثورة المصرية في ١٩١٩ وتأسيس «حزب المؤتمر الهندي»، الخ. جميعها كانت ترجمة لهذا التاريخ الجديد. لقد احتشدت شعوب الأطراف تحت راية الاشتراكية (روسيا والصين وفيتنام وكوبا)، أو تحت شعارات التحرر الوطني المترابط بدرجات متفاوتة عن طريق تنفيذ إصلاحات تقدمية اجتماعية.

أعلنت حكومات وشعوب آسيا وأفريقيا في باندونغ في ١٩٥٥ عزمها على إعادة بناء النظام العالمي على أساس الاعتراف بحقوقها كأمم كانت لا تزال مسحوقة حتى تلك اللحظة. هذا «الحق بالتنمية» كان أساس عولمة ذلك العصر، فُرضت خلاله على الامبريالية بنية متعدِّدة الأقطاب متفاوَض حولها، أرغمتها على التكيّف مع تلك المقتضيات الجديدة. والتطوّر الصناعي الذي تم إرساؤه خلال حقبة باندونغ لم يتبع المنطق الامبريالي، بل فرضته انتصارات شعوب الجنوب.

تلك الصحوة الأولى لشعوب الأطراف أُنهكَت لأسباب عديدة ومتشابكة تتعلّق بحدودها وتناقضاتها الذاتية، وبنجاح الامبريالية التي تمكنت من ابتداع طرق جديدة للسيطرة على النظام العالمي وتعزيز إحكامها على الاختراعات التكنولوجية والقدرة على الوصول إلى الموارد العالمية والسيطرة على النظام المالي العالمي والاتصالات والمعلومات وأسلحة الدمار الشامل. لكنّ لحظة انتصار الثالوث الامبريالي الجماعي للولايات المتحدة وأوروبا والصين كانت قصيرة، إذ فُتحت حقبة جديدة من الفوضى والحروب والثورات. في هذا السياق، كانت موجة ثانية من صحوات أمم الأطراف قد بدأت بالفعل، وهي تمنع اليوم الثالوث الامبريالي الجماعي من إبقاء وضعية

سيطرتها، إلا من خلال وسائل السيطرة العسكرية على الكرة الأرضية.

التوسع الرأسمالي ومسألة الارض

إنّ تاريخ التوسع العالمي للرأسمالية التاريخية هو ذلك المرتبط بالتراكم المموّل أساسًا عبر انتزاع ممتلكات شعوب الأطراف لصالح شعوب المراكز. بدأ هذا التاريخ عبر غزو الأميركيتين، أعقبته تجارة العبيد والاستعمار. ولم يطل سلب للشعوبَ الريفية وانتزاع ملكياتها فحسب — وكانت تشكل غالبية السكان في الماضي — دمّر أيضًا القدرة على الانتاج الصناعي (الصناعات التحويلية والحرف اليدوية) للمناطق بأكملها، وهي التي كانت يومًا ما أكثر ازدهارًا من أوروبا نفسها، في الصين والهند وغيرهما.

الطريق الرأسمالي المسدود يعبّر عن نفسه بوضوح في مسألة الأرض

ترتكز أسس صيرورة التنمية الرأسمالية التاريخية على الملكية الخاصة للأرض الزراعية، وإخضاع الانتاج الزراعي لمتطلبات «السوق». وانطلاقًا من ذلك، تقوم هذه الأسس على الطرد التدريجي والمتسارِع للفلاحين لصالح عدد صغير من أصحاب المزارع الرأسماليين ممن لم يعودوا مزارعين، تتراوح نسبتهم الى السكان بين ٥ و١٠ في المئة، لكنّهم رغم ذلك كانوا قادرين على إنتاج ما يكفي لإطعام جميع شعوب الدول المعنية، بل استطاعوا تصدير جزء مهم من فائض إنتاجهم. كان سلوك طريق الرأسمالية ممكنًا فقط لأنّ الأوروبيين تمتعوا بصمّام أمان هائل يتجسّد في خيار الهجرة إلى الأميركيّتين. اليوم، لم يعد صمّام الأمان هذا موجودًا ببساطة بالنسبة إلى شعوب الأطراف. إضافة إلى ذلك، سيكون التصنيع الحديث قادرًا على امتصاص أقلية صغيرة فقط من السكان الريفيين المعنيين، لأنّه، بالمقارنة مع صناعات القرن التاسع عشر، يؤدي تطوّر الصناعات التكنولوجية إلى تضاؤل القوة العاملة التي توظّفها، وهو شرط ضروري لفاعليتها. لا يستطيع المسار الرأسمالي إنتاج شيء هنا سوى ما ينتجه «كوكب مدن الصفيح»، ويعيد إنتاجه بواسطة يد عاملة شديدة الرخص. في أوروبا وأميركا الشمالية واليابان، خلق طريق التطور الرأسمالي المترابط مع منفذ الهجرة — التي تصبّ في خدمة الامبريالية في نهاية المطاف — الظروف لقيام تسوية اجتماعية بين رأس المال والعمل (وهو ما يمكن ملاحظته تحديدًا مع نشوء دولة الرعاية في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية). لا يمكن العثور اليوم على شروط تسوية مماثلة في دول الأطراف. بإمكان هذا التطور الرأسمالي أن يلقى قاعدته الاجتماعية فقط بين أوساط الطبقات الوسطى الجديدة، التي أصبحت المستفيد الحصري من هذا النمو.

من دون شكّ، لا تسمح لنا الصورة المهيمِنة للواقع بتخيُّل القدرة على مساءلة النظام الرأسمالي العالمي فورًا. إنّ الطبقات الحاكمة في الجنوب وافقت بنحو كبير، وهي مهزومة، على لعب دورها كفئة كومبرادورية تابِعة. وقد انخرطت الشعوب الفاقدة لأي ملجأ في الصراع من



أجل البقاء اليومي قيد الحياة، وهي غالبًا ما تبدو كأنّها راضية بمصيرها، والأسوأ أنّها تبدو قابلة بتغذية نفسها بالأوهام التي تغذيها بها الطبقات الحاكمة.

صعود الصين: هل يشكّل تحدّيًا للنظام الامبريالي؟

للصين مكانة مميزة جدًا في قلب ما يُسمّى «الدول الصاعدة»، ليس بسبب حجمها فحسب، إنما أيضًا بسبب نجاح عملية التصنيع العميقة فيها وأسلوبها المميز والفعال في الرد على المسألة الزراعية، وكلاهما تحقق بفضل الثورة الاشتراكية والنظرية الماوية. إنّ العلاقة القائمة بين سلطة جهاز الحزب (الذي لا يزال يدّعي «الشيوعية») والقطاع الخاص الذي يرتكز على «الطبقات الوسطى»، المستفيدة الرئيسية من التنمية، إضافة إلى الطبقات الرأسمالية، من جهة، وبين الطبقات الشعبية (عمال وفلاحون) من جهة ثانية، لهي علاقة فريدة من نوعها. إن تحوُّل تلك العلاقة، بمعناه السلبي (أي ذلك التي يتعلق بإعادة البناء الرأسمالي) أو بمعناه الايجابي (الذي يُعرّف كنوع من «التسوية الاجتماعية» المناسبة للطبقات الشعبية) لا يزال مادةً تجاذب بين اتجاهات متباينة محتملة. إنّ الخيار بين أشكال من الديمقراطية المترابطة مع التقدم الاجتماعي من جهة، أو بين الأشكال «التقليدية» للتحويل الديمقراطي، التي قد تأمل الطبقات الوسطى منها خيرًا (لكن حتى ذلك ليس أكيدًا)، يقع في قلب التحدّي الذي تواجهه القوى الاجتماعية اليمينية واليسارية معًا.

يدّعي الخطاب المهيمن أنّ إرث التخلف قد تفوّقت عليه قارة آسيوية تواصل «لحاقها» من خلال الانخراط في قلب النظام الرأسمالي، لا عبر القطع معه. وتعزز المظاهر تلك النظرة إلى المستقبل. قد نكون هنا بصدد رأسمالية تخسر بهذه الطريقة طابعها الامبريالي، على الأقل في شرق آسيا وأميركا الجنوبية. وقد تكون النتيجة المستقبلية لهذا التطور عالمًا متعدِّد الأقطاب، منظّمًا حول اربع مناطق على الأقل: الولايات المتحدة وأوروبا واليابان والصين، أو حول سبع مناطق إذا أضفنا روسيا والهند والبرازيل.

أجد أنّ التحليل الذي تستند اليه المحاججة ناقص. أولًا، لأنّ التوقعات لا تأخذ بعين الاعتبار السياسات التي تخطط واشنطن لاعتمادها من اجل

أكثر من أي وقت مضى، بات فكّ الارتباط هو الأمر اليومي. وإنه لأمر ممكن. هل ستقوم هذه المجتمعات بذلك؟ ومن سيقوم بذلك؟ الطبقات الحاكمة حاليًا، أم الطبقات الشعبية التي تتسلم السلطة؟

إنزال الخسارة بالمشروع الصيني. في الحقيقة، إنّ الوجود العسكري الدائم للولايات المتحدة في غرب آسيا هو تهديد عسكري موجَّه أساسًا ضد الصين. بالاضافة إلى ذلك، لا تزال أوروبا تفشل في تصوُّر نفسها في وضع قطيعة مع الحلف الأطلسي، وهو الذي يضعها في مرتبة أدنى من الولايات المتحدة. وللسبب نفسه وأسباب خاصة أخرى، لا تزال اليابان في حالة مراعاة تجاه حاميها في الجهة المقابلة من المحيط الهادئ. إضافة إلى ذلك، لا تزال أمجاد الثالوث الامبريالي الجماعي بعيدة عن الانتهاء.

ثانيًا، إنّ قياس نسب النمو الاقتصادي على اعتبارها وحدها مقياسًا للنجاح الاقتصادي، واستخدام هذه النسب لتعميمها على سنوات مقبلة، أمر مغلوط ويحمل شكوكًا في صحّته. إنّ الاستمرار الممكن للنمو في آسيا يعتمد على عوامل داخلية وخارجية عديدة تتفاعل بطرق مختلفة وتعتمد من جهة على التحديث الاجتماعي للنماذج الاستراتيجية التي اختارتها الطبقات الحاكمة المحلية، وعلى ردود الفعل الخارجية من جهة ثانية. فما يتعدى السعي وراء النمو المتواصل من وجهة نظر التوازن البيئي للكرة الأرضية، يتبلور الصراع مع دول المثلث الامبريالي، التي لا تزال حتى الآن المستفيد الحصري من جميع موارد الكرة الأرضية، بسبب هذا الواقع حصرًا.

ينسب الخطاب المهيمن نجاح الصين في حقبة بعد الماوية، إلى فضائل السوق والانفتاح على العالم حصرًا. مع ذلك، فالصين اختبرت خلال العقود الثلاثة للماوية (١٩٥٠ ـــ ١٩٨٠) نسب نموّ استثنائية بحجم ضعف ما عرفته الهند أو أي قوة رئيسية أخرى في العالم الثالث. وفي جميع الأحوال، كان الأداء خلال العقدَين الأخيرَين من القرن الماضي أروع من اي وقت مضى. ولم تكن تلك الانجازات لتتحقق من دون الأسس الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي أُرسَيت خلال الحقبة الماضية.

لكنّ أنّ الثالوث الامبريالي يتأسّس على طرق جديدة مذكورة أعلاه بدلًا من احتكار الصناعة كما كانت الحال سابقًا. وتُستخدَم الامتيازات الجديدة للمراكز الامبريالية لتعميق الاستقطاب في العالم، لا للتخفيف من حدّته. بهذا المعنى، فإنّ توصيف تلك الدول على أنّها «دول صاعدة» مهزلة ايديولوجية؛ إنّها دول، بعيدًا عن «اللحاق بالركب»،

كان سلوك طريق الرأسمالية ممكنًا فقط لأن الأوروبيين تمتّعوا بصمّام أمان هائل، يتجسّد في خيار الهجرة إلى الأميركيّتين. اليوم، لم يعد صمّام الأمان هذا موجودًا ببساطة بالنسبة إلى شعوب الأطراف.

تبني الرأسمالية الطرفية المستقبلية. والصين ليست استثناءً؛ لقد أصبحت بالفعل مصنع مقاولات فرعية لمصلحة رأس مال المراكز الامبريالية واستهلاكها.

«السوق الاشتراكية»: خطوة نحو الانتقال الاشتراكي أم طريق مختصرة نحو الرأسمالية؟

اختارت الطبقة الصينية الحاكمة مسار الرأسمالية و«السوق الاشتراكية» كطريق مختصرة للإدخال التدريجي للبنى والمؤسسات الأساسية للرأسمالية، مع التقليل من آلام ومطبّات الانتقال نحو الرأسمالية. فأيّ احتمالات تقدّم هذه الوجهة لحاضر الصين؟ انها تقدّم التحالفات بين سلطات الدولة والطبقة الجديدة لرأسماليّي القطاع الخاص العريض، وتقدّم إثراء مزارعي الارياف من خلال الفرص التي توفرها لهم الأسواق الحضَرية وتقدّم التسوع المطرد الطبقات الوسطى. لكنّ هذه الكتلة المهيمنة تستثني الغالبية العظمى من العمال والفلاحين. أي أنّ مقارنة مع التحالفات التاريخية التي اقامتها بعض البرجوازيات الأوروبية مع الحركة الفلاحية (ضد الطبقة العاملة) مقارنة مصطنَعة هنا، والامر ذاته ينسحب على التسوية التاريخية بين رأس المال والعمل المرتبط بالحالة الديمقراطية الاجتماعية.

إنّ نموذج التطوُّر الرأسمالي الساري المفعول، مبنيّ على إعطاء الأولوية للصادرات التي يقوم عليها تطعيم نموّ الاستهلاك لدى الطبقات الوسطى. هذا هو بامتياز نموذج التراكم الطرفي. إنّ تتبُّع هذا المسار يعني ما نحن شهود عليه: استغلالاً بربريًا للعمال، يذكّر بأوضاع القرن التاسع عشر، وكارثة بيئية. وفي ما يشبه نقيض ذلك، فإنّ نموذجًا حقيقيًا من التنمية يقوم بالضرورة على إعطاء الأولوية لتوسيع السوق المحلية لمصلحة الطبقات العاملة، مدعَّمًا بتنمية إنتاج السلع الرأسمالية. يتواجه هذان المساران داخل الصراعات السياسية والاجتماعية في الصين. كما يسبّب ضعف الكتلة المهيمنة الموالية للرأسمالية في ذلك البلد مشكلة صعبة تتلخص بالإدارة السياسية للنظام.

حداثة صينية بلا عقدة هوية

«الصين دولة فقيرة حيث يمكن رؤية بعض الفقراء فحسب». تُطعِم الصين ٢٢ في المئة من سكان العالم، رغم أنّها تمتلك فقط ٦ في المئة من أراضي الكرة الأرضية الصالحة للزراعة. هنا تكمن الأعجوبة الحقيقية. إنّ عزو المصدر الأساسي لتلك الأعجوبة، إلى تاريخ الحضارة الصينية العريق أمر غير سليم، لأنّه رغم حقيقة امتلاك الصين تطورًا تكنولوجيًا أكثر تقدمًا من كل باقي البقاع الشاسعة للعالم الى حين قيام الثورة الصناعية في الصين، إلا أنّ وضعها تدهور لقرن ونصف القرن، وهو ما تجسّد بمشهد الفقر على النطاق الواسع مقارنةً مع نسبته في الدول الطرفية المدمَّرة بفعل التوسع الامبريالي، كالهند وغيرها. تدين الصين باسترداد عافيتها لثورتها. أودّ أن أضع البرازيل، وهي «دولة ثريّة حيث لا ترى إلا فقراء»، في خانة السلسلة الأخرى من الأوضاع التي يتسبب فيها التوسع الرأسمالي العالمي.

لقد أدخلت الثورة الصينية الحداثة إلى النظام الاجتماعي للبلاد. مجتمع الصين هو بالفعل وحقًا مجتمع حديث، وهو ما يمكن رؤيته في جميع أشكال سلوك مواطنيها. أقصد بمصطلح حداثة، ذلك الشرح التاريخي والثقافي الذي يعتبر الشعب بموجبه مسؤولاً عن تاريخه. تشرح هذه الحداثة لماذا لا تجد في الصين حالة العصبيات شبه الثقافية التي ابتلي فيها الناس في أماكن أخرى، كالدول الاسلامية مثلاً، والهندوسية في الهند، وفي جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا. يعيش الصينيون حاضرهم، ولا يغذّون أنفسهم بمثل هذا النوع من الحنين لماضٍ أسطوري أُعيد تركيبه ليميّز روح العصر الخاص بهم. لا يعاني الصينيون من «عقدة هوية». إنّ الحداثة التي تعيش الصين فيها هي ثروة أساسية لمستقبلها. الثورة والغوص في الحداثة حولتا الشعب الصيني أكثر من أيّ شعب آخر من شعوب العالم الثالث اليوم. إنّ الطبقات الشعبية في الصين تتميّز بالثقة بالنفس؛ وهم يدركون كيف يقاتلون ويعرفون أنّ للنضالات نتيجة في النهاية. أصبحت المساواة قيمة مركزية للايديولوجيا المشتركة. قتال الشعب الصيني في النضالات الاجتماعية، مميّز، وهو ما يسري على قتاليّة العمال الصينيين في النضالات الاجتماعية. تدرك السلطات هذا الأمر، وهي تعمل بشكل متزامن على القمع وتفادي بلورة جبهات نضال تتخطى الأفق المحلية (من خلال منع التنظيم المستقل للطبقات العمالية) وتخفف من المخاطر من خلال فنّ «الحوار» والتحكُّم.

ولكن لا يـزال مستقبل الصين غير مضمون. المعركة من أجل الاشتراكية في هـذا الصدد لم تنتصر بعد، لكنّها لم تخسر أيـضًا. بـرأيـي، ومثلما حـاولـتُ أن أوضحه أعـلاه، لن تنتهي هـذه المعركة بخسارة حتى يأتي اليوم الذي يعلن فـيـه الـنـظـام الصيني رفـضـه حـق ملكية الأرض لجميع الـفـلاحـيـن. إلـى ذلـك الـحـيـن، يمكن للنضالات السياسية والاجتماعية أن تؤثّر على مسيرة التطوُّر. توجِّه الطبقة السياسية الحاكمة جهودها للسيطرة على هذه الـنـضـالات مـن خـلال تثبيت ديكتاتوريتها البيروقراطية حـصـرًا. كما أنّ أجـــزاء مـن هــذه الطبقة تـرى ضـرورة إنـهـاء صعود هـذه البرجوازية بالطرق نفسها. لم تقرِّر البرجوازية والطبقات الوسطى ككلّ بعد أن تحارب من أجل ديمقراطية «على النمط الأميركي». باستثناء قلّة من الايديولوجيّين، توافق هـذه الطبقات بسهولة على نمط تسلُّطي «على الطريقة الآسـيـويـة»، على اعتبار أنّ ذلك يتيح انـتـشـار شهواتهم الاسـتـهـلاكـيـة. تـحـارب الطبقات الشعبية على أرضـيـة الـدفـاع عـن حقوقها الاقتصادية والاجـتـمـاعـيـة. فـهـل ستتمكن مـن تـوحـيـد نـضـالاتـهـا، وابتكار أشـكـال تنظيمية مناسبة، وإنـتـاج مقاربة بديلة ايجابية وتعريف مضامين ووسائل ديمقراطيةٍ قـادرة على خدمة هذه المقاربة؟

الخيار البديل الوحيد الـقـادر على ضـمـان استقرار تطور الـبـلاد، يقوم حـصـرًا على إعـطـاء الأولـويـة لتوسيع الـسـوق الـمـحـلـيـة، عـلـى أسـس الـعـلاقـات الاجتماعية الـمـقـررة بحيث تـخـفّـف مـن انـعـدام الـمـسـاواة على المستويَين الاجتماعي والاقـلـيـمـي، وبالتالي العلاقات الخارجة عن تلك المنطقية منها، من أجـل تحقيق هذه الأولوية المساواتية.

حركة التحرر الوطني ابتليت بفشل واحد فقط هو رغبتها في جعل المسلمين ينخرطون في تأسيس الأمة الهندية الجديدة. هنا، تمكّن البريطانيون من هزيمة البرنامج الهندي الوطني وفرض خلق دولتين اصطناعيتين هما باكستان وبنغلادش.

الهند... قوة عظمى؟

تُصنَّف الهند في خانة الـدول الأســرع صـعـودًا في القرن الواحد والعشرين، وهـي التي تجاوز عـدد سكانها المليار نسمة، مع نمو اقتصادي أفضل من المعدل العالمي.

تنبع أسـبـاب شكوكي حيال هــذه الـدولـة مـن الأهمية الحاسمة لـواقـع أنّ استقلال الهند لـم يتناول التحدّيات الرئيسية للتحويل الـجـذري للبنى الـمـوروثـة التي كوّنها الاستعمار الـرأسـمـالـي. لقد حــوّل الاستعمار البريطاني بنحو أسـاسـي الهند إلـى بلد زراعــي رأسمالي تـابِـع. لهذه الـغـايـة، أنـشـأ البريطانيون، بشكل منهجي، أشـكـالًا من الملكية الـخـاصّـة لـلأراضــي الـزراعـيـة استبعدت غالبية الفلاحين. وجـد غالبية الفلاحين أنـه تـمّ تحويلهم إلى فقراء محرومين عمليًا من أراضيهم. إنّ الثمن الـذي دُفع مقابل السير في هـذه «المقاربة الرأسمالية» في التنمية الزراعية، كـان عبارة عن ظـروف الإفـقـار المدقع مستبعدة التصديق التي تعيش فيها غالبية الشعب الـهـنـدي. كما أنّ الهند المستقلة خفضت وعودها المقطوعة للفلاحين، بحيث أصبحت هــذه الأخـيـرة أشـبـه بـإصـلاح زراعـــي بلا تأثير حقيقي. لقد ترجم هـذا الخيار نفسه بنحو كامل من خـلال «الـثـورة الخضراء» التي عـززت من وضعية الطبقات الحاكمة المهيمنة. ولـكـن فـي ولايـتـي البنغال الغربية وكـيـرالا، ذهــب الشيوعيون أبـعـد قليلًا ـــ بـقـدر مـا كان الدستور الهندي يسمح ــ في تحقيق نتائج ايجابية على الصعد الاجتماعية والاقـتـصـاديـة التي لـم تكن هامشية، أضف أنّ الدعم الشعبي لأنصار الاصلاحات قد تعزّز.

فـي الهند، ازدادت الـعـوائـق الـمـوروثـة الـتـي شكّلها الاستعمار أمـام التطوُّر سـوءًا بسبب ثبات نظام النبذ. تؤلّف «المراتب الدونية» (المعروفة اليوم بـ«الداليت») والسكان القبليون في الهند ربـع سكان البلاد (نحو ٢٥٠ مليون شـخـص). هــؤلاء مـحـرومـون مـن جميع الحقوق، خـصـوصًـا مـن حـق ملكية الأرض، وهــم مجموعة من «أنـصـاف العبيد» وعـبـارة عن ملكية جماعية «للآخرين». يـعـزّز استمرار هـذا الـوضـع الأفـكـار والتصرفات الرجعية لـ«الآخـريـن»، ويفيد في ممارسة السلطة من قبل الأقلية التي تتمتع بـالامـتـيـازات، ولفائدتها الحصرية، وهــو ما يساهم فـي إبـطـال مفعول أي حركة احتجاجية مـن قبل الغالبية المستغَلّة، العالقة بين الأقلية المستغِلّة وشعوب «الداليت» المقموعة.

في الهند المستقلة، طبّقت الحكومات المتعاقبة لحزب المؤتمر برنامجًا وطنيًا كـان نموذجيًا فـي حينه، بتأثير انـتـصـارات حـركـات التحرر الوطنية فـي آسيا وأفريقيا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومنذ البداية، نفذت الـقـوة الاستعمارية سياسة منهجية لإحـبـاط تحويل الهند الـى قـوة صناعية ــ وكـانـت متقدمة فيه هـذا المجال آنـذاك ـــ وذلـك لمصلحة بريطانيا التي كانت فـي طـور التصنيع. أَعـطـت الهند المستقلّة الأولـويـة القصوى لتصنيع البلاد. هذا المسار، المصمَّم بمنهجية عالية، على الأقـل في الفترة الأولـى لتنفيذ برامج نهرو، ربـط العاصمة الهندية الصناعية الـخـاصـة بـشـركـات الـقـطـاع الـعـام، بـهـدف سـدّ الـفـجـوة في

لقد أدخلت الثورة الصينية الحداثة إلى النظام الاجتماعي للبلاد. مجتمع الصين هو بالفعل وحقًا مجتمع حديث، أقصد بمصطلح حداثة، ذلك الشرح التاريخي والثقافي الذي يعتبر الشعب بموجبه مسؤولًا عن تاريخه.

النظام الانتاجي الموروث عن الاستعمار، من خلال تسريع النمو الاقتصادي وتعزيز الصناعات الرئيسية.

هذه الاختلافات بين النموذج الهندي الوطني، وذلك الذي اعتُمد في الصين الشيوعية، تظهر في الفوارق الواضحة من حيث النتائج بين البلدين. ظلّت نسب نمو الانتاج الصناعي والزراعي في الهند بعيدة جدًا عن تلك المسجَّلة في الصين. أكثر من ذلك، فيما كان النمو في الصين يترافق مع تطور لافت في مستويات معيشة الطبقات الشعبية، فإنّ ذلك لم يحصل في الهند حيث أفاد النمو الطبقات الوسطى حصرًا (التي كانت أقلية، ورغم ذلك فإنّ توسُّعها تسارع إلى درجة وصلت معه نسبتها الى مجموع السكان خلال ٣٠ عامًا الى ما بين ٥ و١٥ في المئة). ظلّ فقر الطبقات الشعبية هو المهيمن من دون تغيير، بل إنّه ازداد سوءًا قليلًا.

بخلاف الصين، الهند بلد متعدِّد القوميات، والاستعمار البريطاني سعى إلى فرض قوته تحديدًا من خلال اللعب على تنوُّع الشعوب (والولايات) في الهند. بالنسبة إلى أصول حركة التحرر الوطني نلقى نجاحًا لا نظير له في أي مكان آخر في العالم الاستعماري. تمكّنت هذه الحركة حاليًا من توحيد الأمم العشر الرئيسية جاعلةً البلد «أمةً» واحدة. كل ذلك بغض النظر عن صفات هذه الأمة (واسمها «بهارات» في اللغة الهندية، من هنا مفهوم الـ«بهاراتفا» الذي يمكن ترجمته «تهنيد»)، «القابلة للمساءلة» من وجهة نظر «علمية». كانت الهند حقًا أمة منذ ذلك الحين، وهو واقع ملزم لجميع مكوناتها. والى يومنا هذا، لا يزال الشعور بالانتماء معًا يسمو على الخصائص المحلية (كاللغة من بين خصائص أخرى). إنّ حركة التحرر الوطني ابتليت في هذا الشأن بفشل واحد فقط، هو رغبتها بجعل المسلمين ينخرطون في تأسيس الأمة الهندية الجديدة. هنا، تمكّن البريطانيون من هزيمة البرنامج الهندي الوطني وفرض خلق دولتين اصطناعيتين هما باكستان وبنغلادش. ولا يزال الواقع يذكّر بأنّ المسلمين الذين ظلّوا في الهند (١٥ في المئة من مجمل سكان البلاد) حتى ولو بدوا أحيانًا كأنّهم «يطرحون مشكلة» (مشكلة يستغلها الطرف الهندوسي القومي الثقافي، حتى عندما لا يثيرون الموضوع)، فإنّهم في الواقع مندمجون بشكل صحيح في جميع أشكال الحياة الاجتماعية والسياسية. إنّ الدولة الهندية العلمانية، التي فشلت حتى الموجة الهندوسية القومية الثقافية في وضعها موضع شك، هي مصدر هذا النجاح.

لا شك أنّه يمكن للمرء أن يصنّف هذا التقييم بأنّه ايجابي على نطاق واسع. إنّ قمع مطالب «السيخ» (التي أودت بحياة إنديرا غاندي) بالاضافة إلى مستنقع كشمير، يُظهران محدودية قدرة النظام في إدارة «المسألة الوطنية» بشكل صحيح (حتى وإن كانوا يصنفونها بشكل مختلف). لكن يبقى صحيحًا أنّه بالنظر إلى جميع الأمم العظيمة للشمال «الهندو ـ آري» والجنوب «الدرافيدي»، ظلت سلطات العاصمة نيودلهي قادرة على إيجاد صيغ ووصفات لإدارة الازمات على نحو صحيح، ومن ثمّ إبقاء الوحدة الفدرالية (التي هي في الواقع مركزية أكثر بكثير مما ينص عليه الدستور) واقعًا صلبًا.

تكشف تجربة الهند الحديث عن السموّ الخارج عن أي مساءلة للديمقراطية، وعن عبثية الحجج الداعمة للإدارة التسلطية التي غالبًا ما يدّعي البعض أنّها أكثر فاعلية. يبقى ذلك صحيحًا رغم المحدوديات الجلية والمحتوى الطبقي للديمقراطية البرجوازية بشكل عام، وواقعها في التجربة الهندية. ويُحتسَب للرصيد الايجابي لحركة التحرر الوطني (حزب المؤتمر والشيوعيين) أنّ هذا الخيار كان على الأرجح الطريقة الفعالة الوحيدة لإدارة المصالح الاجتماعية والاقليمية المتعدّدة (حتى وإن كانت محصورة بمصالح الطبقات التي تتمتع بالامتيازات) وللظفر بالدعم الشعبي لجعل برنامج الأقلية كتلة مهيمنة.

إنّ تآكل البرنامج الوطني الشعبوي كان أمرًا حتميًا في الهند مثلما هو الوضع في أي مكان آخر بسبب قيوده والتناقضات الكامنة فيه. وقد أدّى هذا العامِل ونزع الشرعية عن السلطة المترافق معه، إلى إتاحة صعود هجمة القوى الظلامية التي تجسّدها حركة «الهندوتفا»، التي تعني إعطاء الأولوية للانتماء إلى الديانة الهندوسية التي يتم تعريفها بما هي «الهوية الحقيقية» لشعوب الهند، بشكل مناقض لمفهوم «البهارتفا» التي تحيل إلى الأمة. بالطبع، لا تطرح الحركة الهندوسية (بشكلها القومي المتطرف) التحدّي للشرعية الاستعمارية التي تتعلق بملكية الأرض أو لاحترام هرمية نظام النبذ والتراتب الطبقي بنحو خاص. في هذا الصدد، تخدم الأوهام الظلامية بنحو مثالي مصالح القوى الكومبرادورية والامبريالية. إنّ «الخصوصيات» التي يتم فيها تعبئة

ولا يزال الواقع يذكّر بأن المسلمين الذين ظلّوا في الهند (١٥ في المئة من مجمل سكان البلاد) حتى ولو بدوا أحيانًا كأنهم «يطرحون مشكلة» فإنهم في الواقع مندمجون بنحو صحيح في جميع أشكال الحياة الاجتماعية والسياسية.

خطابها شبه القومي وحتى شبه المعادي للامبريالية، تافهة كليًا. إنّها تغذّي التجديد لممارسة النزعة العصبية الجمعية (وهي هنا موجهة ضد الاسلام والمسلمين)، وهي العصبية التي استخدمتها القوة الاستعمارية في عهدها لإحباط التطلعات التي كانت تعمل لبناء حركة تحرر وطني علمانية وديمقراطية وحديثة.

بجميع الأحوال، ترافق هذا التراجُع مع تجذير متجدِّد للنضالات الاجتماعية. ويمكن ملاحظة أدلّة على ذلك في هجمات المجموعات الشيوعية الهندية، وفي الدخول المفاجئ لفئة «الداليت» في الحياة السياسية والنضال الاجتماعي. كذلك يمكن العثور على أدلّة إضافية تتجسد بالالتزام المعلَن من جميع الطبقات الوسطى بالديمقراطية وحتى بالعلمانية. ويفسّر ذلك لماذا لم يكن انهيار الجزء الأكبر من الشرعية التي تكاد تكون حصرية لحزب «المؤتمر»، كافيًا لتقديم «نصر ناجز» لليمين. ويفرض بناء بديل تقدُّمي اجتماعي بالضرورة إعطاء أجوبة مناسبة لأربع مجموعات من التحديات.

التحدّي الأول: إيجاد حل جذري لمشكلة الفلاحين الهنود، يكون مبنيًا على الاعتراف بحق جميع الفلاحين بالوصول إلى أرضهم وامتلاكها في ظل أفضل شروط المساواة. وهذا بدوره يعني إلغاء النظام الطبقي ــ الطائفي والايديولوجيا التي تضفي الشرعية عليه. بعبارات أخرى، على الهند السير قدمًا نحو ثورة راديكاليتها شبيهة براديكالية الثورة الصينية.

التحدّي الثاني: خلق جبهة عمالية موحَّدة تضمّ فئات من الطبقات العمالية المستقرة نسبيًا وتلك غير المستقرة. هذا التحدّي مشترك لجميع بلدان العالم الحديث، وتحديدًا دول أطراف النظام التي تتميّز بالآثار المدمِّرة للإفقار الجديد (البطالة المكثفة وفقدان الأمان الوظيفي وارتفاع منسوب الظروف البائسة «غير الرسمية»).

التحدّي الثالث: الحفاظ على وحدة شبه القارة الهندية، وتجديد أشكال التعاون بين مختلف الشعوب بحيث يتمّ تأسيس الأمة الهندية على أسس ديمقراطية محصَّنة. كل ذلك بهدف هزم استراتيجيات الامبريالية التي تسعى، مثلما هي الحال دائمًا، وأبعد من خياراتها التكتيكية، إلى تحقيق هدفها بفرط عقد «الدول العظيمة» القادرة أكثر من الدول متناهية الصغر على الصمود في وجه الاعتداءات الامبريالية.

التحدّي الرابع: توجيه الخيارات السياسية الدولية إلى القضية المركزية التي تتجسد بإعادة بناء «جبهة شعوب الجنوب» (تضامن شعوب آسيا وأفريقيا أولًا وقبل أي شيء آخر)، في ظل ظروف لم تعد طبعًا مشابهة لتلك التي كانت سائدة عشية تأسيس حركة عدم الانحياز في «زمن باندونغ» (١٩٥٥ ــ ١٩٧٩)، وإعطاء الأولوية القصوى لهدف عرقلة البرنامج الأميركي بالسيطرة العسكرية على الكرة الأرضية، وإحباط المناورات السياسية التي تقوم بها واشنطن الهادفة إلى تفادي أي تقارُب جدّي بين الهند والصين وروسيا.

إنّ القوى السياسية والاجتماعية التي تمنع الهند من التحرُّك باتجاه تحقيق الأهداف المذكورة أعلاه، لا يمكن الاستهانة بها. تشكّل هذه القوى «كتلة مهيمنة» تمثّل خِمس السكان ــ تتعدى البرجوازيات الصناعية الكبرى والتجارية والمالية، وكبار ملّاكي الأرض، لتشمل السواد الأعظم من الفلاحين الميسورين والطبقات الوسطى، والمراتب العليا من البيروقراطية والفئات التكنوقراطية. هؤلاء الهنود البالغ عددهم ٢٠٠ مليون، هم المستفيدون الحصريون من البرنامج الوطني المطبَّق الى يومنا هذا. لا شكّ أنه في الزمن الحالي للانتصار النيوليبرالي، سوف تنهار هذه الكتلة تحت تأثير أسباب عديدة، منها نهاية الحراك الاجتماعي التصاعدي للطبقات الوسطى ــ الدنيا المهدَّدة بخسارة أمانها



الوظيفي وبالإفقار حتى إن لم يكن بالفقر الصريح. تتيح هذه الوضعية لليسار فرصة تطوير تكتيكاته، لكي يضعف، إن استطاع، تماسُك هذه القوى الرجعية عمومًا، ومقاربتها الكومبرادورية تحديدًا، وهي محرِّك الهيمنة الامبريالية المعولَمة. ورغم ذلك، توفّر هذه الوضعية أيضًا الفرص لليمين الهندوسي في حال فشل اليسار في تحقيق المهمة.

بالتالي، فإنّ الأقلية التي تؤلّف هذه الكتلة، باتت في وضع يستبعد إعادة استنساخ الهند على قاعدة التسوية التاريخية القائمة على رأس المال/العمل، وهي التسوية التي نشأت على أساسها الاشتراكية الديمقراطية للدول الغربية المتطوّرة. إنّ إدارة التماسُك ما بين الكتلة المهيمنة من خلال الديمقراطية السياسية، مثلما هو حاصل في الهند، لا يقلّل من شأن بُعدها الطبقي الرجعي. على العكس من ذلك، فذلك هو الطريق الأكثر فاعلية من أجل إرساء الديمقراطية السياسية. هذه الكتلة المهيمنة «مندمجة» بشكل فعلي وحقيقي في منطق العولمة الرأسمالية المسيطرة، وحتى الآن، لم تحاول أي من القوى السياسية العديدة أن تتحدّاها. من هنا، فإنّ أسباب ذلك واضحة بما أن «المشروع الوطني الهندي» لا يزال ضعيفًا وسريع العطب وعاجزًا عن إيصال هدفه الخاص المعلَن: تحويل الهند إلى «قوة رأسمالية حديثة وكبيرة».

تؤدّي مكامن الضعف تلك إلى السلوك الانتهازي المتكرّر للطبقة السياسية الهندية، يتم تبريره غالبًا بشكل مختصر بحجج «الواقعية السياسية». وتظهر الطبقة السياسية الهندية حتى الآن عاجزة عن مقاربة وتطبيق الهجوم المضاد الضروري، وذلك بفعل مواجهتها من قبل المشروع الأميركي للسيطرة (العسكرية) الكلية على الكرة الأرضية، وبسبب تماسُك المثلث الامبريالي الجماعي (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان)، رغم غضب بعض شركائه. ويترتب على ذلك إنشاء جبهة تضم الهند وروسيا والصين، وجميع هذه الدول مهدَّدة بدرجات متساوية بمخاطر الكومبرادور الناتج من توسع الامبريالية الجماعية الجديدة. ولا يقدّر حكام الهند هذه المقاربة بالشكل الصحيح، ويسري هذا الأمر حتى على هؤلاء المرتبطين بالبرامج الحكومية الأكثر إصرارًا على تقويض اليمين الهندوسي الكومبرادوري. يواصل هؤلاء إعطاء الأولوية لـ«نزاعاتهم» مع الصين، التي يُنظَر إليها على أنّها خصم عسكري محتمَل ومنافس مالي خطير في أسواق الرأسمالية المعولَمة. حتى أنّ هؤلاء يؤمنون بأنّهم قد يكونون قادرين على «استخدام» تقارُب ممكن مع الولايات المتحدة من أجل التحوُّل إلى حليفها الأساسي في آسيا.

الهند وروسيا والصين مهدَّدة بدرجات متساوية بمخاطر الكومبرادور الناتج من توسع الامبريالية الجماعية الجديدة.

البديل: نحو موجة جديدة من مبادرات الجنوب المستقلّة

على المصطلحات التي يجب أن يُحلَّل التحدّي على أساسها، أن تأخذ بعين الاعتبار ثلاث وجهات للواقع: الشعوب والأمم والدول.

يمكن بناء جبهة قيادية مكوَّنة من طبقات متعددة مهيمَن عليها ومستغَلّة، هي جبهة بديلة لتلك التي تسمح بإعادة إنتاج نظام الهيمنة الامبريالية الرأسمالية، الذي يطبَّق عن طريق الجبهة الكومبرادورية المهيمنة والدولة المكرَّسة لخدمتها.

نشير بمصطلح «الأمم» إلى واقع أنّ الهيمنة الامبريالية تلغي كرامة «الأمم» التي شكّلها تاريخ مجتمعات الأطراف. إنها تدمّر بنحو منهجي المكوّنات التي تعطي الأمم أصالتها، لصالح «تغريب» مبتذَل. هكذا يصبح تحرير الشعوب مرتبطًا بالأمم التي يكوّنونها. يجب أن يُفهَم شعار «الأمم تريد التحرير» بمعنى متمِّم لنضال الشعوب وليس بمعنى مواجِه له. التحرير المطروح لا يتعلّق بإعادة ترميم الماضي – اي وهْم العودة إلى الجذور القومية الثقافية – بل باختراع المستقبل انطلاقًا من التحوُّل الجذري للإرث التاريخي بدلا من استيراد مصطنَع لـ«حداثة» مزوَّرة.

تقوم مرجعية الدولة على أسس الحاجة إلى الاعتراف باستقلالية قوّتها في علاقاتها مع الجبهة المهيمنة التي تؤسس عليها شرعيتها، حتى ولو كانت هذه الجبهة شعبية ووطنية. ليس لأنّه يجب حماية التقدم الشعبي والوطني من الاعتداء الدائم للامبريالية التي لا تزال مهيمنة على العالم فحسب، لكن ايضًا – وربما تحديدًا – لأنّ «إنجاز التقدم في إطار المرحلة الانتقالية الطويلة» يفرض «تطوير القوى المنتجة»، للاضطلاع بما تُحرَم دول الأطراف من فعله على يد الامبريالية: ان تشكل محورًا لإرث الاستقطاب العالمي غير المنفصل عن التوسع الكوني للرأسمالية التاريخية. ليس المشروع مرادفًا لـ«اللحاق» عبر تقليد نماذج المراكز الرأسمالية.

بعض البلدان «الصاعدة» وغيرها، شأنها شأن شعوبها، تحارب ضد التكتيكات التي يستخدمها الثالوث الامبريالي الجماعي لتأبيد حكمه.

اللحاق بركب الرأسمالية مستحيل، إضافة إلى أنّه غير مرغوب به. يحتاج هذا المشروع إلى مقاربة مختلفة لثنائي «التحديث ــ التصنيع» على أساس المشاركة الفعالة للطبقات الشعبية كشرط للتمكّن من تطبيقه، ولتحقيق الفائدة الفورية لهذه الطبقات في كل مرحلة من مراحل التقدُّم.

«الدول تريد الاستقلال». يجب فهم هذا الشعار على أنّه يحمل هدفين: الاستقلال (الشكل الأقصى للحكم الذاتي) مع احترام الطبقات العاملة والاستقلال عن ضغوط النظام الرأسمالي العالمي. البرجوازية (أو على نطاق أوسع الطبقة الحاكمة في المناصب القيادية للدولة، التي يأخذها طموحها دائمًا الى طريق التطور البرجوازي) دائمًا ما تكون قومية وكومبرادورية. إن سمحت لها الظروف بتوسيع درجة استقلالها إزاء الامبريالية المهيمنة، فهي تختار طريق «المصالح القومية». لكن إن لم تسمح لها الظروف بذلك، فإنها تختار طريق الخضوع «الكومبرادوري» لما تمليه الامبريالية. لا تزال «الطبقة الجديدة الحاكمة» (أو «المجموعة القيادية») في وضع طموح في هذا المشروع، حتى حين تكون مدعومة من كتلة شعبية، وذلك بسبب الميل «البرجوازي» الذي يحرّكها على الأقل جزئيًا.

إنّ الربط الصحيح لهذه الحالات الثلاث للواقع، يحدِّد نجاح التطور على الطريق الطويل للتحرير. من الممكن تعزيز تطوُّر الشعب أكثر، وتحرير الأمة وإنجاز قوة الدولة. وإذا، بعكس هذا السيناريو، سُمح للتناقض الموجود بين الارادة الشعبية والدولة بالنمو، فقد تُحبَط الانجازات المطروحة. ذلك أنّ لا الشعب ولا الأمة ولا دول الأطراف يملك مكانةً مريحة داخل النظام الامبريالي، بما أن «الجنوب» هو «منطقة العواصف» للانتفاضات والثورات الدائمة. كما أنّ التاريخ الحديث هو أساسًا ذلك الذي صنعته الثورات والمبادرات المستقلة لشعوب الجنوب وأممه ودوله (بمعنى استقلالها عن الاتجاهات المهيمنة من خلال النظام الرأسمالي الامبريالي القائم). تلك المبادرات ــ رغم محدودياتها وتناقضاتها ــ هي التي صاغت التحوُّلات الأكثر جذرية في العالم المعاصِر، أكثر بكثير من تقدم القوى المنتجة والتصحيحات الاجتماعية السهلة نسبيًا التي رافقت مراكز النظام.

إنّ الانحدار الطويل للرأسمالية/الامبريالية البالية، والانتقال الطويل نحو الاشتراكية، يشكّلان قطبين متناقضين للتحدّي. الانحدار نفسه لا ينتج تقدُّمًا على الطريق نحو الاشتراكية؛ على العكس من ذلك، فإنّ منطق الأجوبة التي يقدّمها رأس المال لهذا التحدّي، يؤدي إلى الانزلاق في منحدر البربرية، أي نحو «نظام تمييز عنصري على صعيد عالمي». رغم ذلك، يخلق هذا الانحدار بنحو متزامن شروط الالتزام بسلوك الطريق نحو الانتقال الطويل إلى الاشتراكية.

كيف يتشابك هذان التاريخان المحتملان؟ «العالم الآخر» الجاري بناؤه ذو حدّين دائمًا؛ هو يحمل في داخله الأسوأ والأفضل، وكلاهما ممكنان (ليس هناك قوانين للتاريخ قبل أن تقع الأحداث). لقد وُضعَت موضع التنفيذ موجة أولى من مبادرات شعوب وأمم ودول الأطراف في القرن العشرين حتى عام ١٩٨٠. ونحن نشهد حاليًا موجة ثانية من هذه المبادرات. بعض البلدان «الصاعدة» وغيرها، شأنها شأن شعوبها، تحارب ضد التكتيكات التي يستخدمها الثالوث الامبريالي الجماعي لتأبيد حكمه. لقد أُحبط التدخل العسكري لواشنطن وحلفائها التابعين في حلف شمالي الأطلسي. النظام المالي المعولَم ينهار، والنظم الاقليمية المستقلة ذاتيًا تأخذ مكان النظام المالي المعولَم. كما أنّ الاحتكارات التكنولوجية لأقطاب الاحتكار تعرَّضت للانتكاس. واستعادة السيطرة على الموارد الطبيعية موضوعة على جدول الأعمال. التنظيمات الشعبية القاعدية وأحزاب اليسار الجذري انتصرت بالفعل في بعض الحالات على المشاريع النيوليبرالية، أو أنّها على الطريق المؤدية إلى هذا الانتصار. هذه المبادرات، المعادية للامبريالية أساسًا وجوهريًا، تحمل طاقةً تسمح لها بالانطلاق في الطريق الطويل نحو الانتقال إلى الاشتراكية.◆

قصة الرأسمالية الفاشلة في اليونان: الخروج من اليورو هو الحل

ديما شريف

صحافية وناشطة لبنانية.

في كتابه الصادر في ١٨٥٨، المعنون «اليونان المعاصرة»، يتحدث المؤرخ الفرنسي ريموند أبو، في ما يتناوله، عن الاقتصاد اليوناني والمالية العامة السيئة جدًا. يقول أبو: «اليونان هي المثال الوحيد المعروف عن بلد في حالة افلاس دائم منذ يوم انشائه... كل الموازنات خاسرة... الحكومات أنفقت كل الموارد من دون اي نتيجة تذكر للبلاد...».

لم يكن أبو يبالغ. إذ شهدت اليونان أزمات ناتجة من القروض في ١٨٢٦، و١٨٤٣، و١٨٦٠، و١٨٩٣. أربع أزمات مالية في اقل من قرن، وكرّت السبحة في القرن التالي، لكن الأزمات السياسية لم تترك لأحد المجال للتفكير في الوضع الاقتصادي. وإذا اردنا ألا نتناول القرن التاسع عشر، يكفي ان نعرف انّ الملكية ألغيت واعيدت في القرن العشرين، اربع مرات، في غضون خمسين سنة فقط. وبعد آخر إلغاء للملكية، في ١٩٧٣، حصل انقلاب ديميتريوس ايونيديس في اثينا، الذي تلاه انقلاب قبرص المدعوم يونانيًا، وتقسيمها، وعودة الوضع المتوتر مع تركيا.

حين اتخذ قرار الانضمام الى الاتحاد الاوروبي في ١٩٨٠ (او ما كان يعرف وقتها بالمجموعة الأوروبية)، كان مشروع الاتحاد لا يزال في بداياته، من دون تصوّر واضح، وانشغل اليونانيون بالصراع الدائم مع تركيا، واضيف اليه توتر مع مقدونيا المستقلة حديثًا في بداية التسعينيات (التوتر لا يزال قائمًا، وأدّى الى تصويت أثينا بـ«لا» على دخول سكوبي الاتحاد الاوروبي في ٢٠٠٨. ويعترض اليونانيون على اسم الدولة مقدونيا، الذي يرون أنّه يحيل الى التاريخ اليوناني ويعني طمعًا في محافظة مقدونيا اليونانية).

في نهاية التسعينيات، اصبح الاتحاد الاوروبي واقعًا بالنسبة إلى أثينا مع اقتراب العد العكسي للدخول في «منطقة اليورو»، وما يعنيه ذلك من التخلي عن عمله وطنية عمرها حوالي ١٧٠. وبالفعل، في الأول من كانون الثاني ٢٠٠١، تم التخلي عن الدراخما المعتمدة منذ ١٨٣٢، وبات اليونانيون يستطيعون ان يعيشوا نعيم العملة الموحدة.

كان ذلك التاريخ هو بداية المتاعب اليونانية، الداخلية والخارجية المالية تحديدًا، اذ على المستوى السياسي والدبلوماسي شهدت تلك الفترة تحسنًا كبيرًا خصوصًا في العلاقة مع تركيا، وأُنهي عدد كبير من الملفات العالقة بين الطرفين، ولم يبقَ سوى مسألة الجزر المتنازع عليها في بحر ايجه، وممتلكات الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في تركيا.

لم يكتشف اليونانيون أنّهم «لا يستحقون» الدخول في منطقة اليورو إلّا بعد سنوات عدة على حصول ذلك، عندما ظهرت الى السطح كل عمليات الفساد والكذب التي قامت بها الحكومات المتعاقبة منذ منتصف التسعينيات لاقناع دول الاتحاد أنّ معاييرهم تنطبق على اليونان.

لكن لنعد الى بداية الانضمام للمجموعة الاوروبية. مباشرة بعد توقيع المعاهدة في ١٩٧٩، نجح الحزب الاشتراكي «باسوك» في الانتخابات التشريعية ليتسلم السلطة، وهو الذي كان قد بنى حملته الانتخابية على رفض الانضمام الى المجموعة، وبرنامج الحزب الاجتماعي آنذاك لم يكن يناسب «منظمة التعاون الاوروبية». لم تبقَ الأمور عند هذا الحد، كان النقاش في البلاد يقوم على كيفية المواءمة بين الهوية السياسية والاقتصادية والثقافية للدولة باعتبارها اوروبية غربية،

الدخول في منطقة اليورو عنى بداية المتاعب المالية الداخلية والخارجية لأثينا، مقابل تحسن كبير في العلاقات الدبلوماسية مع العدو التاريخي تركيا.

وموقعها وتقاليدها كدولة اوروبية شرقية. يحيل بعض الباحثين اليونانيين السبب في ذلك الانقسام إلى أنّ الدوافع وراء الانضمام الى المجموعة كانت سياسية لا اقتصادية، فقد اعتبرت القيادة السياسة التي تسلمت زمام البلاد بعد ١٩٧٤ أنّه لا يمكن الحفاظ على الديمقراطية البرلمانية الوليدة من دون دعم اوروبي (يمكن مراجعة أبحاث الاستاذ في جامعة أثينا مايكل تسينيسيزيليس في هذا المجال).

حين ورث الاشتراكيون الدولة، بدأت المشاكل مع المجموعة الاوروبية، لكن بحلول ١٩٨٦، اندمج هؤلاء في المجموعة وتوّج ذلك بتوقيعهم على «المعاهدة الاوروبية الوحيدة» SEA، وهي مراجعة لاتفاقية روما المؤسِّسة للاتحاد، ويعدّها بعض الاقتصاديين المشروع الأكثر ليبرالية في تاريخ الاتحاد الأوروبي. وبحلول ١٩٨٩ وانهيار المعسكر الشرقي، كان الحزب الاشتراكي قد عدّل الكثير من القوانين الداخلية اليونانية لتتناسب مع الاتحاد الاوروبي، وتخلّى عن كل خطاباته الاشتراكية المعادية للامبريالية التي لم تظهر سوى مع مقدونيا وتقسيم يوغوسلافيا وحرب الخليج، واختفت تمامًا من اي نقاش اقتصادي او اجتماعي. هكذا إذًا دُجنت السياسة اليونانية لتصبح بيد اليمين الأوروبي ويسار الوسط الأوروبي الذي كان يريد الوصول الى الاتحاد والعملة الموحدة بأي طريق ممكنة، ولو على حساب الخصوصيات الوطنية.

خسر الاشتراكيون انتخابات ١٩٩٠، وعادوا الى الحكم في ١٩٩٤، وبدأوا يُعدّون البلاد للدخول في منطقة اليورو والعملة الموحدة.

في الأول من كانون الثاني ٢٠٠١، حين دخلت اليونان «منطقة اليورو» بعد سنتين على انشائها، اعتبرت الحكومة الاشتراكية الحدث «تاريخيًا»، سينقل اليونان الى قلب اوروبا، وحاولت اقناع الناس انّ ذلك سيؤدي الى البحبوحة الاقتصادية والازدهار. لم يعرف اليونانيون ما فعلته الحكومة الاشتراكية من غش قبل عام ٢٠٠٠ للدخول في اليورو، الا بعد خروجها من الحكم في ٢٠٠٤. فبعد ٨ اشهر على خسارة جورج باباندريو الانتخابات، كشف النقاب عن فضيحة التلاعب بأرقام الموازنات منذ ١٩٩٨، وجعل عجز الموازنة تحت الثلاثة في المئة المسموح بها أوروبيًا. تلاعب استمر حتى ٢٠٠٤، موعد اقامة الالعاب الاولمبية، التي ساهمت في القضاء سريعًا على مالية الدولة. ومع ٧ مليارات ديون من هذه الالعاب وحدها، بدأت حكومة «نيا ديموكراتيا» (حزب اليمين)، اليمينية التي نجحت في انتخابات ربيع ٢٠٠٤ التشريعية، بتطبيق اجراءات تقشف في آذار ٢٠٠٥، فرُفعَت الضرائب على التبغ والكحول، والضريبة على القيمة المضافة الى ١٩ في المئة. اي رُفعت الضرائب التي تطال المواطنين الفقراء ومن الطبقة المتوسطة مباشرة، ولا تمس بالاغنياء. لم توافق النقابات على تلك الاجراءات، وبدأت الاعتصامات والاضرابات والتظاهرات التحذيرية بداية، لدفع الحكومة إلى التراجع عن قراراتها. لكن القرارات والقوانين التي تراعي اوروبا اولًا توالت مع البرلمان والحكومة واستمرت معها التظاهرات المنددة بإنهاء التعاقد مدى الحياة في القطاع العام. ولم تهدأ التظاهرات منذ ذلك الوقت، اذ



الدوافع وراء الانضمام الى اوروبا كانت سياسية لا اقتصادية، إذ رأت القيادة السياسة التي تسلّمت زمام البلاد بعد ١٩٧٤ أنّه لا يمكن الحفاظ على الديمقراطية الوليدة من دون دعم اوروبي.

لم تتوقف الحكومات المتعاقبة عن جعل الحياة اصعب على اليونانيين العاديين. نـزل اليونانيون الـى الشارع بشكل متكرر، واتـخـذت الامـور منحى عنفيًا فـي احيان عـدةّ، فاستطاع المتظاهرون الـوصـول الـى مبنى البرلمان واشـعـال حـريـق صغير فـيـه، الـعـام الـمـاضـي. وشـهـدت المصارف والـشـركـات المالية تكسير واجهاتها، مـن قبل المتظاهرين المعارضين للرأسمالية.

وبالطبع، تـأثـرت الـيـونـان كغيرها مـن دول اوروبــا، وربـمـا أكـثـر، بـالأزمـة المالية العالمية (أيـلـول ٢٠٠٨)، وكـان وقعها أشـد عليها لأنها كانت تعاني منذ سنوات من صعوبات مالية داخلية وخارجية. مع عـودة «باسوك» (الاشتراكيين) الـى الحكم فـي ٢٠٠٩، كـان الـديـن العام قـد ارتـفـع مـن ١٦٨ مـلـيـار يــورو الــى ٢٦٢ مـلـيـارًا في اربـع سنوات فقط. وانتخب جـورج باباندريو على اساس خفض الـديـن الـعـام. لكن الـوضـع اصـبـح اسـوأ، وزادت مديونية الـدولـة للقطاع الـخـاص الـيـونـانـي والـمـصـارف الاوروبـــيـــة، ليضطر الــى الاســتــقــالــة فـي نـهـايـة ٢٠١١، فـخـلـفـه نــائــب رئــيــس الــمــصــرف الــمــركــزي لـوكـاس بـابـاديـمـوس، الــذي اشـرفـت حكومته عـلـى انتخابات تشريعية مرتين في شهرين، في ايار وحزيران ٢٠١٢.

الانضمام الى اوروبا أساس المشكلة

خـلال سـنـواتـهـا الـثـلاثـيـن بصفتها عـضـوًا فـي الاتـحـاد الاوروبـي، عانت اليونان من الأمـرّيـن: معاملة باقي الدول لها كـدولـة عالمثالثية، والإغــداق عليها دومًـا بالنصائح الأبوية التي تدّعي معرفة مصلحة البلاد اكثر من سكانها؛ وتـراجـع فـي مستوى النشاط الاقـتـصـادي الـداخـلـي. فقد فعلت السياسات النيوليبرالية للاتحاد فعلها وساهمت بإيصال اليونان الى ما هي عليه اليوم، إذ إن رفع الرسوم الجمركية عـن بـضـائـع الاتـحـاد داخــلــه، وإلــغــاء بعض السياسات الحمائية لقطاعات اقتصادية معينة، ادّيـا الـى تـراجـع عـدد المصانع والمحترفات الصغيرة، لصالح البضائع المستوردة الأرخـص ثمنًا، مـن ألمانيا وفرنسا. ورغـم المليارات التي اغدقت على اثينا في هـذه الفترة، لتحسين الـوضـع الاقـتـصـادي والـتـنـافـسـيـة والانـدمـاج كليًا في الاتـحـاد، إلا ان الوضع لم يتحسن. فقد عمدت الحكومات اليونانية المتعاقبة، واغلبها اشتراكية، الى تحويل هـذه المساعدات الـى القطاعات التي تخدمها انتخابيًا، عبر عقود باهظة الثمن مع شركات خاصة، لبناء مجمعات سكنية او حكومية (حـدث ذلـك خصوصًا في الفترة قبل ٢٠٠٤ خـلال بناء المنشآت الأولمبية). وتم توظيف عشرات الآلاف من المحازبين في تلك الفترة في الادارات العامة او المؤسسات ذات المنفعة العامة، من دون اي حاجة لهم. وكلما اتـى استحقاق ديـن جديد (من تلك الـمـسـاعـدات) كـانـت الحكومات تلجأ الـى القطاع الـخـاص للاستدانة على سـنـدات خزينة، كـي تدفع فوائد الـقـروض الاوروبـيـة، وهـكـذا دوالـيـك. ولـم يستفد فعليًا مـن التقديمات الـتـي تمنحها العضوية فـي الاتـحـاد الا الاغـنـيـاء الـذيـن يملكون الاراضــي الشاسعة، إذ استغلوا الاعـفـاءات الضريبية لـشـراء سـيـارات مسجلة على انّها خاصة لـلـزراعـة. واستعملت الحكومات ايضًا الكثير من الامـوال للتسليح للتماشي مـع متطلبات العضوية فـي حلف شمالي الاطلسي.

حزَم الإنقاذ عمقت الأزمة

امـوال الاتحاد المقدمة لم تكن كلها هبات، بل مساعدات فـي مـعـظـم الاحـيـان عـلـى شـكـل قـروض مـن مـصـارف الاتـحـاد، اضـيـفـت الـى الـقـروض الـتـي لـجـأت إليها الـحـكـومـات منذ ٢٠٠٠ داخـلـيًـا، لخفض عجز موازنتها وتأمين ما يكفي للألعاب الأولمبية، ودفـع رواتـب موظفي القطاع الـعـام. ولـجـأت الحكومة الاشتراكية فـي ٢٠٠٢، بعد عـام على دخـولـهـا الـيـورو الـى مـصـرف «غـولـدمـان سـاكـس» الــذي مـولـهـا بقيمة مـلـيـار يـــورو، مـقـابـل ١٠ مليارات يورو من القروض.

ولـم تصبح الأزمـــة واقـعًـا بنظر اوروبـــا والسلطة اليونانية الحاكمة إلا فـي ٢٠٠٩، حين لـم يعد بإمكان الحكومة في اثينا اخفاء عجز في الموازنة سيبلغ ١٢,٩ في المئة (أربـع مـرات العجز المسموح به اوروبـيًـا، اي ٣ في المئة). في العام التالي، بدأ تطبيق اجـراءات التقشف، وحـذرت الحكومة من امكانية تخلفها عن سـداد ديونها التي تراكمت منذ الـدخـول الـى الاتـحـاد، فضخّ الاتحاد وصـنـدوق النقد الـدولـي ١١٠ مـلـيـارات يـورو، لكن لم ينته الـعـام الا وكـانـت الـديـون قد اصبحت تتخطى ٥٨٣ مليار يـورو، ٢٠٦ مـلـيـارات منها للقطاع الـخـاص، من مـصـارف ومـؤسـسـات مـالـيـة، مما أدى الـى حـزمـة انقاذ جـديـدة فـي آذار ٢٠١٢، سـيـكـون ثمنها، حـيـن تصل، الـمـزيـد مـن التقشف لتطبقه الحكومة الـجـديـدة (نيا ديموكراتيا، بـاسـوك، اليسار الديموقراطي) بكل امتنان،

مع ما يعنيه ذلك من خفض للانفاق الحكومي وزيادة للضرائب وموجات الصرف الجماعي.

ويمكن القول بأنّ «المساعدات» المتكررة التي يقدمها الاتحاد ساهمت بتعميق الأزمة، إذ كانت نسبة الدين العام الى الناتج المحلي في ٢٠٠٩ (مع بدء ضخ حزم المساعدات) ١٢٩ في المئة، ووصلت اليوم الى ١٧٠ في المئة، ويتوقع ان تصبح ١٩٨ في المئة، في نهاية العام الجاري. واذا راجعنا ارقام مديرية الاحصاءات في الاتحاد الاوروبي، «يوروستات»، نجد انّ هذه النسبة كانت ٩٤ في المئة منذ عشرة سنوات، اي انها تضاعفت تقريبًا، فقد اقرضت اليونان ١١٠ مليارات يورو في الحزمة الأولى، في ايار ٢٠١٠، وفي الثانية ١٠٠ مليار يورو، من جانب الاتحاد الاوروبي وصندوق النقد الدولي، الى جانب ٣٧ مليار يورو من قبل المصارف الاوروبية الخاصة وشركات التأمين، تدفع في ٢٠١٤.

الدين العام ارتفع من ١٦٨ مليار يورو الى ٢٦٢ مليارًا في اربع سنوات فقط، بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٩، خصوصًا مع وجود ٧ مليارات يورو لم تدفع، وهي من نفقات ألعاب ٢٠٠٤ الأولمبية.

الأرقام تتكلم

كيف تُرجم ذلك في الأرقام؟ يمكننا ان نرى كيف تغيّرت حياة اليونانيين والوضع الاقتصادي منذ اعتماد العملة الموحدة، عبر متابعة التغيير الحاصل على مؤشرات الفقر والبطالة. عشية الدخول الى منطقة اليورو كانت نسبة البطالة في اليونان ١٠,٥ في المئة، وهي نسبة مقبولة نظرًا الى أنّ الدولة لم تكن يومًا في مصاف الدول الصناعية الكبرى. في آذار ٢٠١٢، وصلت نسبة البطالة الى ٢١,٩ في المئة، أي حوالي ضعف النسبة قبل ١١ سنة. وهي زادت ٤ في المئة في سنة واحدة فقط، ومن المتوقع ان تصل الى ٢٥ في المئة قبل نهاية العام الجاري (يمكن مراجعة موقع يوروستات للمزيد من الارقام، http://epp.eurostat.ec.europa.eu) غير أن بعض المحللين والباحثين يقولون إنّ الرقم الحقيقي هو ما بين ٢٥ و٣٠ في المئة، لكن لا رغبة لدى احد بالإفصاح عنه، وخلق بلبلة شعبية اضافية. ويعود ذلك الى اضطرار العديد من المصانع والمعامل للإغلاق بعد رفع الحماية عن بعض الصناعات الوطنية، والقطاعات الاقتصادية، فقد اجبرت القوانين الاوروبية ايضًا اليونان، وغيرها، على شراء مواد اولية معينة من دول الاتحاد دون غيرها، واسعارها مرتفعة اكثر من المصادر السابقة مثل الدول العربية، او دول جنوب شرق آسيا، مما ادى الى اغلاق بعض المصانع. الامر نفسه ينطبق على مستوى الفقر، الذي وصل إلى ٢٠ في المئة في ٢٠٠٩. وتشير بعض مراكز الأبحاث المستقلة إلى أنّ الرقم يتخطى ذلك بكثير منذ بداية ٢٠١٢، وأنّ الدولة لا ترغب بنشر الارقام الحقيقية. حتى أنّ مؤسسة الاحصاءات اليونانية الرسمية، لا تنشر على موقعها الإلكتروني اي نسب عن الفقر، بل فقط عن مداخيل العائلات. كذلك ارتفعت نسبة الانتحار بين العاطلين من العمل أو المفلسين، وهي ظاهرة غير منتشرة عادة بين اليونانيين. ويذكر متابعو الشأن اليوناني النقل الحي لبعض القنوات لمحاولة انتحار ثنائي فقد عمله، عبر القفز من شرفة المكتب حيث كانا يعملان، قبل ان يقتنعا بالعودة عن قرارهما. عمومًا، انكمش الاقتصاد اليوناني منذ بدء اجراءات التقشف الذي فرضته اوروبا على اثينا بنسبة ٢٠ في المئة، وهي نسبة هائلة لا بل مخيفة.

هل العودة الى الدراخما تنقذ أثينا؟

منذ بداية التحركات الشعبية المعترضة على السياسات التقشفية للحكومة، ولاحقًا على حزم الانقاذ المتتالية من قبل الاتحاد الاوروبي وصندوق النقد الدولي، بدأنا نسمع اصواتًا تنادي بالتخلي عن منطقة اليورو والخروج منها من غير رجعة، للعودة الى النظام النقدي والاقتصادي والمالي القديم. لكن الامر لم يعد يقتصر على المتظاهرين، بل اصبح عدد من الاقتصاديين يتحدثون علنًا عن أنّ لا حل سوى بالخروج من اليورو، وذلك رغم الإرهاب الفكري الذي تمارسه مراكز الأبحاث المشهورة والصحف والمجلات التي لا تتحدث سوى عن خراب اوروبا واليونان إذا قررت هذه الاخيرة التخلي عن عضويتها في الاتحاد. وإلى



جانب الاقتصاديين اليونانيين الذين يطالبون بخروج مشرِّف قبل الإفلاس (كوستاس لابافيتساس، مثلاً)، لا يتردّد إدوارد بريسكوت (نوبل للاقتصاد في ٢٠٠٤)، ونوريل روبيني (توقع الأزمة المالية في ٢٠٠٥)، وهاورد فالدستيان (جامعة هارفرد، مستشار سابق لرونالد ريغان) في طرح الموضوع نفسه.

الحل امام اليونان قد يكون خفض قيمة عملتها كي تعيد تنشيط الاقتصاد، وبما انها لا تستطيع ذلك ما دامت تستخدم اليورو الذي لا سلطة لها على قيمته، المسألة تكون بالعودة الى الدراخما. حينها، يمكن تحفيز النمو والتوظيف في البلاد بعد خفض قيمة العملة الوطنية.

لا حل غير ذلك إلا المزيد من اجراءات التقشف التي قد تشعل ثورة شعبية حقيقية فيما يتجرأ البعض على الكلام عن إعلان الإفلاس أو التوقف عن دفع الديون أو جزء منها. وقد اقدمت اثينا على تجربة في هذا الشأن حين اعادت التفاوض حول بعض الديون الداخلية مع مصارف ومؤسسات مالية، وقررت عدم دفعها كلها، في آذار الماضي، فأعادت جدولة ١٧٢ مليار يورو من القروض على سندات خزينة يملكها القطاع الخاص. ولجوءها الى هذا الحل سيكون ضربة موجعة للائحة كبيرة من المصارف اليونانية، والاوروبية والأميركية الخاصة، التي ما انكفأت تقدم الاموال منذ ٢٠٠٠ لأثينا مع اغراءات هي اشبه بفخاخ، كي تبقي اليونانيين الذين يدفعون الثمن، تحت رحمتها لعقود مقبلة.

وقدم الاقتصادي اليوناني اندرياس كوتراس (وهو من مؤيدي البقاء في منطقة اليورو) دراسة برهن فيها انّ الخسارة المالية للاتحاد لن تكون كبيرة في حال خروج اليونان من اوروبا الموحدة، إذ ستتكلف الدول مجتمعة ٤٠٠ مليار يورو، وهو مبلغ اقل مما ستضطر لدفعه في السنوات المقبلة اذا استمرت الأزمة اليونانية. ويقول كوتراس انّ الخوف هو من العدوى التي قد تنتقل الى اسبانيا والبرتغال، ولاحقًا ايطاليا، مما سيؤدي حكمًا الى انفراط عقد الاتحاد، الكارثة الكبرى، خصوصًا على المانيا التي تتزعم اوروبا على الأقل ماليًا.

لكن العودة الى الدراخما ليست الحل المعجزة الذي سينقذ اثينا. الحل هو بالتخلي عن السياسات النيوليبرالية الاوروبية، واللجوء الى حل ماكرو – اقتصادي، وليس نقديًا فقط: اي تطبيق الحمائية، وتشجيع الصناعة وتنشيطها، والتوظيف الذي سينشّط الانفاق، وتشجيع الاستثمار الداخلي. كل ما سبق، إلى جانب توقف اليونان عن دفع ديونها، الخارجية والداخلية، هو ما سينقذ اثينا من الضياع. لكن واقعيًا لن يجرؤ أو يريد الحزبان المسيطران على الحياة السياسية منذ ٤٠ عامًا، اي «نيا ديموكراتيا» و«باسوك»، السير في هذه الطريق، ويقع ذلك على عاتق اليسار لتحقيقه.

كلما اتى استحقاق دين جديد كانت الحكومات تلجأ الى القطاع الخاص للاستدانة على سندات خزينة، كي تدفع فوائد القروض الاوروبية، وهكذا دواليك.

هل اليسار هو الحل؟

منذ إعلان تحديد موعد في ٦ أيار ٢٠١٢ للانتخابات التشريعية، بدأ نجم ألكسيس تسيبراس يلمع خارج اليونان، بعد ان اصبح النجم داخلها منذ فترة. المهندس الشاب يترأس منذ ٢٠٠٨ «سيريزا» أو ائتلاف اليسار الراديكالي، واصبح اليوم رجل المعارضة الأبرز، بعد تشكيل الحكومة في نهاية حزيران ٢٠١٢.

تأسس ائتلاف «سيريزا» قبل الانتخابات التشريعية في ٢٠٠٤، من خلال لقاءات جمعت احزابًا يسارية كانت تفرّقها الخلافات قبل ذلك التاريخ، لكنها اتفقت على الوقوف في وجه الخصخصة المتزايدة، والتآكل الذي يصيب الحقوق الاجتماعية والمدنية في البلاد. بعد الانتخابات، اجتمعت احزاب عدّة لتشكل الائتلاف، وهي سيناسبيسموس (ائتلاف الحركات اليسارية والبيئة)، الذي كان حزب تسيبراس، أكوا (اليسار الشيوعي البيئي المتجدد)، ديا (يسار العمال الدولي)، كيدا (حركة من اليسار الموحد) وهو فصيل ترك الحزب الشيوعي اليوناني، الى جانب جماعات يسارية مستقلة. مر الائتلاف بأزمات عدّة بعد الانتخابات التشريعية ذلك العام، وعانى بضعة انشقاقات. لم يكن أحد يتوقع بعد ذلك ان يكون مفاجأة انتخابات ٢٠٠٧ حين نال ٥,٠٤ في المئة من الأصوات. وفي اول انتخابات داخل الائتلاف بعد ذلك، انتخب تسيبراس الذي كان مستشارًا



المساعدات ساهمت بتعميق الأزمة، إذ كانت نسبة الدين العام الى الناتج المحلي في ٢٠٠٩، ١٢٩ في المئة، ووصلت اليوم الى ١٧٠ في المئة، ويتوقع ان تصبح ١٩٨ في المئة، في نهاية العام الجاري.

في بلدية اثينا، رئيسًا. كان ذلك ربما نقطة التغيير الكبيرة، إذ استطاع تسيبراس أن يبني شعبية كبيرة له بين الناخبين كونه لم يكن نائبًا حتى في ذلك الوقت، مما جعله نظيفًا بنظر الناس، في زمن الفضائح المالية المتكررة. هكذا استطاع ان يصل بسهولة الى البرلمان في انتخابات ٢٠٠٩ المبكرة، رغم تراجع حصة الائتلاف الى ٤،٧ في المئة من الأصوات على المستوى الوطني. في العام التالي، انشقّ اربعة نواب عن الائتلاف ليشكلوا كتلتهم المستقلة، والتي اصبحت لاحقًا حزب «اليسار الديموقراطي» الذي خاض الانتخابات الأخيرة (في ٦ ايار و١٧ حزيران) منفردًا، وانضم الى الحكومة التي تألفت بعد انتخابات ١٧ حزيران مع حزب اليمين «نيا ديموكراتيا» والحزب الاشتراكي «باسوك». وكان واضحًا ان مكافأة اليسار «الديموقراطي» ستكون عالية بعد حضور بابادوبولوس مؤتمر الحزب الأول في آذار ٢٠١٠، وجلوسه في الصف الأمامي للحضور.

«سيريزا» اصبح اليوم حزبًا، اكثر من كونه ائتلاف احزاب يضم ١٣ فصيلًا شيوعيًا مختلفًا، وتقدم الى انتخابات ايار وحزيران الماضيين وفق هذا التوصيف (على امل الحصول على «منحة» الخمسين نائبًا اضافيًا التي يمنحها القانون للرابح الأول في الانتخابات في حال حصل على ثلث الأصوات). وهو يعكس هذه الاحزاب التي يتألف منها، وتشمل اطياف اليسار كلها: من الخضر وانصار البيئة، إلى الماويين، والتروتسكيين، واليسار الأوروبي، واليسار الراديكالي، ويتكلم باسم اطياف اليسار كلها تلك... وتشير الأرقام بوضوح إلى التقدم الكبير الذي حققه «سيريزا» مع ١٦،٧٨ في المئة في انتخابات أيار، ثم ٢٦،٨٩ في المئة في حزيران، محققًا المركز الثاني في المرتين، ومتفوقًا على الاشتراكيين، والحزب الشيوعي الرسمي الذي يتخذ موقفًا عدائيًا من تسيبراس وحزبه، إذ رفضت الامينة العامة للحزب الشيوعي اليكا باباريغا حتى اللقاء بتسيبراس حين كلفه الرئيس اليوناني كارولوس بابولياس بمحاولة تشكيل الحكومة في ايار الماضي، وفكر بجمع اليسار كله في حكومة تناهض المساعدات الاوروبية.

استطاع «سيريزا» ان يتفوّق على الحزب الشيوعي اليوناني في معركة الحصول على اصوات اليسار (وغير اليسار، خصوصًا من بين الشباب والمترددين والمتضررين من الأزمة وحزم الانقاذ والتقشف) بسبب قيادته الشابة وعدم انحصار نظرته بالداخل اليوناني فقط، وذلك رغم أنّ الاثنين يعارضان حزمة التقشف والسياسات المفروضة اوروبيًا. وفيما يحافظ الحزب الشيوعي على قاعدته الانتخابية نسبيًا، يخترق «سيريزا» صفوف مجموعات سكانية وشعبية جديدة في كل استحقاق انتخابي. وناخبو «سيريزا» هم من الشباب بأغلبهم، وهذا كان واضحًا في انتخابات ١٧ حزيران، إذ اظهرت الأرقام انّ نسبة المقترعين للأحزاب التي تؤيد خطة الانقاذ الأوروبية كانت مؤلفة بشكل ساحق من الكبار في سن، والمتقاعدين، واصحاب الاعمال، الذين يأملون ان تأتي حكومة تنفذ الإملاءات الأوروبية وتنقذهم.. فيما صوّتت أغلبية شبابية لـ«سيريزا».

هذه النتائج والاحصاءات الانتخابية قد تكون مؤشرًا على دور كبير قد يلعبه الحزب، بوصفه ممثلًا للشيوعيين واليسار الراديكالي في مستقبل اليونان، خصوصًا أنّ تسيبراس وحزبه اصبحا اليوم يتزعمان المعارضة رسميًا، فالأزمات المالية المتلاحقة والسياسات النيوليبرالية التي تريد الترويكا الأوروبية فرضها على اثينا واجبارها على تطبيقها، قد تدفع بالمزيد من الناخبين الى حضن «سيريزا». لكن ذلك سيحصل على حساب احزاب اليسار الأخرى، وخصوصًا التي تصف نفسها بالراديكالية، ويرى الناخبون انها لم تعد تلبي طموحاتهم، في بلد تعتبر «الماركسية» فيه شرفًا لا تهمة، للدور الذي اطّلع به الشيوعيون والماركسيون في محاربة الفاشية (اليونانية والألمانية في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات)، والجيش اليوناني خلال الحرب الأهلية (١٩٤٦ ــ ١٩٤٩).

واذا كان يمكن استخلاص درس من السنوات العشر الماضية في اليونان، فهو أنّ لا حزب محصنًا ضد النقمة الشعبية، وتغيير الحكومات واجراء انتخابات برلمانية اصبح حلًا يسهل اللجوء إليه كل بضعة أشهر، فهل يكون يوم «سيريزا» اقرب من المتوقع؟◆



لماذا أقفل أردوغان ملف «الانفتاح الكردي»؟

نوراي ميرت

كاتبة وصحافية تركية، متخصصة في شؤون الشرق الاوسط، ومحاضرة جامعية. طردت من عملها في إحدى المحطات التلفزيونية ومن صحيفة «مليبيت» أخيرًا بعد انتقادات وجهها إليها رئيس الوزراء التركي رجب طيب اردوغان.

ليس سرًّا أنّ المسألة الكردية في تركيا باتت على شفير الهاوية. لقد فشلت جميع حكومات حزب «العدالة والتنمية» في سياساتها المتعلقة بالقضية الكردية لأسباب عديدة. وحتى اللحظة، لا يزال أردوغان وحزبه يرفضان مواجهة الحقيقة المُرّة.

سبق لي أن عوّلتُ على قدرة «العدالة والتنمية» على اتخاذ خطوات إيجابية في طريق حل المشكلة الكردية. كنتُ عضوًا في مجموعة من مثقفين يساريين التقوا رئيس الحكومة اردوغان في ٢٠٠٥، مباشرةً قبل زيارته الشهيرة لدياربكر حيث ندّد بالسياسات الرسمية السابقة، ووعد بفتح صفحة جديدة. كنتُ من بين المتفائلين، لكنني لم أكن من بين من توقّع حصول معجزة. كان لا بدّ لمسار حلّ القضية الكردية من أن يكون طويلًا، وبحاجة إلى الكثير من الجهود. إلى جانب ذلك، كانت القضية الكردية ولا تزال جزءًا أساسيًا من التحوُّل العام نحو الديمقراطية في السياسة التركية.

رغم ذلك، بدأ الجوّ السياسي في الولاية الثانية لحكم «العدالة والتنمية» بالابتعاد عن مسار التحوُّل نحو الديمقراطية والحل السلمي للقضية الكردية. في البداية، لم يكن ممكنًا تحميل «العدالة والتنمية» وحده المسؤولية عن أشباح النظام القديم. لقد حاول الجيش التدخل في الانتخابات الرئاسية في نهاية الولاية الأولى، وقد واجه الحزب الحاكم ملفًا قضائيًا لحظره من قبل المحكمة الدستورية في بداية ولايته الثانية. كانت تلك العلامات الأخيرة لانبعاث الهيمنة العلمانية، ومحاولتها الأخيرة لعرقلة السلطة السياسية للمحافظين. لحسن الحظ، تمكن «العدالة والتنمية» من الكفاح وتخطّي التدخلات غير الديمقراطية. لسوء الحظ، جسّد انتصار «العدالة والتنمية» فجر الديمقراطية، لكن ذلك تحوّل في الواقع إلى مسار مرير للانتقام. تحوّل الأمر ليصبح انتصارًا للسياسات المدنية، لا للسياسات الديمقراطية. يمكن للسياسات المدنية أن تجنح نحو الاستبداد مثلما يمكن أن تكون ديمقراطية، وقد اختار «العدالة والتنمية» الطريق السابق لتثبيت قوته، وبعدها إحكام قبضته على السلطة. مع ذلك، اختار معظم ديمقراطيي تركيا عدم رؤية ما يجري، واستمروا في محاولة إيجاد كل أنواع الأعذار لـ«العدالة والتنمية» لتبرير عجزه الديمقراطي. لقد تمّت مسامحة «العدالة والتنمية» على فشله ما دام يقاتل السيطرة العلمانية ــ العسكرية، وهو ما ظنّ البعض أنّ من شأنه إحلال الديمقراطية أوتوماتيكيًا. في الواقع، لقد حارب «العدالة والتنمية» الهيمنة العلمانية للاستيلاء على السلطة المطلقة. إضافة إلى ذلك، لم يكن نضال «العدالة والتنمية» ضد استبداد وعسكرة الهيمنة العلمانية، بل ضدّ علمانيتها (الصارمة). الاختبار الحاسم للدمقرطة تجسّد بما يسمّى «المشكلة الكردية».

نقطة التحوُّل في السياسة الكردية لـ«العدالة والتنمية» كانت مبادرة «الانفتاح الكردي» في صيف ٢٠٠٩. كان التوقيت مناسبًا، إذ كان «العدالة والتنمية» قويًا لدرجة كافية لكي يقوم بخطوة جدية في طريق حلّ «المشكلة» آنذاك. أطلق «العدالة والتنمية» «مسارًا انفتاحيًا»، وبدأ بشكل واضح مسار مفاوضات مع عبد الله أوجلان ومع الجناح المسلح لحزب العمال الكردستاني لإنجاز حلٍّ. باختصار، كانت هناك مساحة كافية للتفاؤل بالنسبة إلى معظم الأكراد والديمقراطيين. وقد بدا أنني كنتُ الوحيدة (باستثناء القوميين الأتراك) التي عجزتُ عن مشاركة هذا التفاؤل، وللأسف أضحت كوابيسي حقيقةً. كنتُ

متشكّكة منذ البداية في «الانفتاح»، ليس لأنني كنتُ أعتقد أنّ اردوغان شخص منافق. على العكس من ذلك، لطالما ظننتُ أن اردوغان مصمِّم للغاية وصادق في ما يتعلق بحل «المسألة الكردية». المشكلة كانت في فهم اردوغان للمسألة الكردية ولحلِّها. لقد توقّع اردوغان من الأكراد والأتراك ببساطة أن يتكيّفوا مع سياساته.

في الواقع، لم يكن اردوغان وحده الذي حدّد السياسات الكردية لـ«العدالة والتنمية»، بل حدّدتها الخلفية السياسية التي يتحدر منها اردوغان وحزبه. يُعرَف عن «العدالة والتنمية» جذوره الاسلامية السياسية، علمًا ان الاسلام السياسي التركي كان دائمًا قوميًا بشكل استثنائي. وحتى إن ظلّ الاسلام السياسي التركي متميزًا عن القوميين المتطرّفين من ناحية عدم التمركُز العلني حول القومية التركية، إلا أن هذه القومية أدّت دورًا مهمًا في تشكيل عقل الاسلاميين الأتراك. بالنسبة إلى الاسلاميين، المرجعية كانت «الامبراطورية العثمانية» بدلًا من «العرق التركي» المعتمدة بالنسبة إلى القوميين المتطرفين. مع ذلك، فإنّ الامبراطورية العثمانية كانت امبراطورية تركية، والاسلاميون لم يفكروا بشكل آخر بتاتًا. إشارتهم إلى مرجعية التاريخ العثماني كجنّة متعددة الاثنيات والأديان لم تعنِ يومًا إحالة إلى مرجعية تعايش متواضع. على العكس من ذلك، غالبًا ما يعني ذلك إشارة إلى كرم أخلاق وتسامُح الحكام الأتراك الذين لم يكتفوا بـ«إنقاذ الاسلام وإعطائه المجد» فحسب، بل أيضًا حكموا بلادًا شاسعة بإتقان وبعدل. كان أحفاد الاسلاميين حريصين دائمًا على تكرار التجربة (مثلما عبّرت عن نفسها أيضًا في السياسة الخارجية الأخيرة لحكومة حزب العدالة والتنمية). لقد ظنّ الاسلاميون السابقون، الديمقراطيون المحافظون الجدُد، أن المشكلة مع الأكراد تتمحور خصوصًا حول أوجه قصور النظام الجمهوري. لقد اعتقدوا أنّ السياسات العلمانية للدولة ـ الأمّة هي ما همّشت الأكراد المتديّنين غالبًا. لذلك، ظنّوا أنه، في حال تمّ تعزيز الأخوّة الدينية بالتوازي مع سياسات التعدد الثقافي، فستختفي المشكلة بكل بساطة. في الواقع، النقطة الوحيدة الجديدة التي حملتها السياسات الكردية لـ«العدالة والتنمية»، هي أنها حاولت الدمج بين مقاربة تتعلق بحقوق الإنسان وهذه العقلية المحافظة القديمة.

في الواقع، حتى لو كان فهم «العدالة والتنمية» في ما يتعلق بحقوق الانسان لا يخلو من عيب، فهذه السياسة تمتلك حظوظًا متواضعة للنجاح. كان الأوان قد فات بالنسبة إلى الأكراد الذين كان يتوقع «العدالة والتنمية» منهم أن يحصروا مطالبهم بـ«ضمان حقوقهم في إطار الحقوق الفردية». لقد تشكلت المعارضة الكردية حول فكرة الاستقلال، وتحوّلت إلى مفاهيم الحقوق الجماعية ونوع من «الوضعية السياسية» عندما تمّ التخلي عن النضال من أجل الاستقلال. لهذه الأسباب، كان المعروض عليهم ضئيلًا جدًا. رغم ذلك، لم يكن مسار الانفتاح قادرًا على أن يتخطّى حدود مناقشة واكتشاف الاختلافات بين التوقعات الكردية والعروض الحكومية. لقد بدا واضحًا منذ البداية أن الحكومة لم تكن تمتلك برنامجًا واضحًا ما خلا بضع خطوات استعراضية كافتتاح فرع كردي في «التلفزيون الرسمي» TRT6.

تكمن المشكلة في فهم اردوغان وحزبه للمسألة الكردية ولحلِّها. لقد ظنّ أنه إذا تمّ تعزيز الأخوّة الدينية بالتوازي مع سياسات التعدد الثقافي، فستختفي المشكلة بكل بساطة.

الخطوة الأكثر جرأةً كانت تنظيم مجيء مجموعة من المقاتلين الأكراد كـ«موفدي سلام» إلى تركيا. مع ذلك، تحوّل عبورهم الحدود إلى فضيحة، وهو ما أنهى المسار الطموح لـ«الانفتاح الكردي». لقد استقبل «موفدي السلام» آلافُ الأشخاص على معبر «الخابور» الحدودي، وذلك بفرح واحتفالات وحماسة استثنائية مع موكب رافقهم في رحلتهم إلى دياربكر. لم تفوّت المعارضة القومية فرصة اتهام «العدالة والتنمية» باللعب في أيدي هؤلاء الذين يريدون تقسيم تركيا. في الواقع، لم تكن المعارضة وحدها مَن قام بردة فعل سلبية إزاء ما حصل، بل إنّ الكتلة الناخبة لـ«العدالة والتنمية» قامت بذلك أيضًا. باختصار، بعد ما يُسمّى «حادثة الخابور»، بدأ اردوغان ووزير الداخلية بشير أتالاي، الذي كان مكلَّفًا مسؤولية «سياسة الانفتاح» بتغيير الوجهة السياسية. أولًا، تمّت إعادة تعريف المسار على اعتبار أنه «وحدة وطنية وأخوّة» عوض أن يكون انفتاحًا كرديًا. بعدها، تمّ تحميل المعارضة الكردية مسؤولية فشل المسار من

خلال اتهامها باستفزاز «الرأي العام التركي» عمدًا عن طريق الاحتفال بالمقاتلين العائدين إلى ديارهم.

في الحقيقة، الحكومة هي من فشلت في تحضير الرأي العام للمصالحة. إضافة إلى ذلك، مثّلت المحاكمات التي أُنشئت على الحدود، حرجًا إضافيًا بما أنه لم يتم تحضير أي إطار مسبق للعمل. طُلب من المقاتلين العائدين الالتزام بقانون «الندم» لمسامحتهم، لكن هؤلاء رفضوا ذلك وأعلنوا أنهم عادوا بموجب أوامر زعيم حزب العمال الكردستاني عبد الله أوجلان بوصفهم موفدي سلام، وتمّ حل المشكلة ببيانات غامضة. على ما يبدو، ظنت الحكومة أن المسار يشكل علامة حسن نية لإقناع الأكراد بترك باقي أجزاء المسار بين أيديها ونيّتها الحسنة. هكذا انتهى مسار الانفتاح بنحو فجائي أو غيّر مجرى التطورات بالنسبة إلى الحكومة.

لم تعترف الحكومة بتاتًا بأن الفشل كان سببه سوء إدارتها للمسار، وألقت بكل لومها على المعارضة الكردية، بينما كان الوضع بالنسبة إلى المعارضة الكردية عبارة عن خيبة كبيرة. رغم واقع أن الجميع عَلِم أو توقّع بأن المفاوضات مع أوجلان وحزبه «العمال الكردستاني» لم تُلغَ وأنها استمرت بعيدًا عن الأضواء، بدأ الجو السياسي بالتدهور منذ انتهى مفعول «الانفتاح الكردي»، وذلك بعد وقت قصير من إطلاق هذه المبادرة. من جهة، بدأت المعارضة الكردية بالتركيز على سياسات «الحكم الذاتي الديمقراطي» مثلما تسمّيها للتعريف بهدفها السياسي. ومن جهة أخرى، لم تعد الحكومة مهتمّة بمواصلة التفاوض مع المعارضة الكردية فحسب، بل أيضًا فقدت اهتمامها بالالتزام بأيّ مسار تفاوضي حواري. كانت الحملة الانتخابية للحزب الحاكم في الانتخابات الأخيرة (١٢ حزيران ٢٠١١) شديدة القومية ومعادية إزاء المعارضة الكردية. وحتى لو اعتقد معظم الديمقراطيين بأنّ ذلك كان مجرّد حملة انتخابية شعبوية، وأنّ حقبة جديدة من الحوار قد تُفتَح بعدها، إلا أنه سرعان ما اتضح أن اردوغان وحزبه كانوا يعنون ما يقولونه في اللقاءات الانتخابية.

طرأت الأزمة مباشرةً بعد الانتخابات، عندما قرّر مجلس القضاء الأعلى تجريد بعض النواب المنتخبين حديثًا من نيابتهم. معظم هؤلاء النواب كانوا من المعارضة الكردية (حزب السلام والديمقراطية). نُظر إلى هذا القرار على أنه قرار سياسي أكثر مما هو قضائي، بدليل أن الحكومة بدت سعيدة بالقرار. تُوِّجَت الأزمة في ما بعد بتصميم الحكومة في ما يتعلق باستبعاد التواصل مع المعارضة الكردية كمحاوِر. وقد تمّ التعاطي مع الأحداث التراجيدية في «سيلفان» في ما بعد، حيث قُتل ٢٤ جنديًا تركيًا على يد «العمال الكردستاني» في «نقطة تحوُّل» لتفسير السياسات الحكومية المتشددة. إلا أن كل ذلك سبقته أحداث كالأزمة التي تلت الانتخابات، وقرار أوجلان التخلّي عن دوره وسيطًا.

وثق اردوغان أكثر من اللزوم بشعبيته وحزبه إلى حدّ مبالَغ به جعله يقلل من أهمية التأثير المستقبلي المحتمَل للمسألة الكردية على السياسات التركية الاقليمية.

مرّ عام تقريبًا وكل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ يوميًا. لقد أظهرت الحكومة تصميمها على القضاء على المعارضة الكردية عند كل جبهة. من جهة، فُرِضَت العزلة على أوجلان ورفضت الجهات الرسمية جميع طلبات محاميه للقائه، كما أنّ وتيرة العمليات العسكرية للجيش ارتفعت داخل تركيا وفي شمال العراق. من جهة أخرى، بدأت موجة اعتقال الآلاف من ساسة حزب «السلام والديمقراطية» بتهم الارتباط بـ«اتحاد المنظمات الكردية» (KCK) المحظور.

إلى أن أتت اللحظة المأساوية مع «حادثة أولو ديري» عندما قُتل ٣٤ مدنيًا كرديًا بقصف جوي على الحدود العراقية ـ التركية. كان هؤلاء مهرّبين قُتلوا بـ«حادث» نتج من معلومات خاطئة. في البداية، تردّدت وسائل الاعلام التركية في بثّ الأنباء، لكنها لم تتمكن من إخفاء ما حصل. عندها، فشلت الحكومة في إنكار ما حدث، وفي نهاية المطاف، تمّ الإعلان عنه على أنّه حادثة مع رفض الحكومة الاعتذار. ومنذ ذلك الحين، أصبحت هذه الحادثة نقطة تحوُّل بالنسبة إلى السياسات الحكومية، ومع الوقت، شعر الأكراد بالاستفزاز من سلوك الحكومة، وحتى الداعمون الديمقراطيون لها بدأوا يصبحون نقديين جدًا إزاءها. وأخيرًا، أعلن وزير الداخلية سيّئ الذكر، إدريس نعيم شاهين، أنه ليس هناك شيء للاعتذار

عنه، وأشار إلى أن هؤلاء الذين قُتلوا هم مجرمون وكان سيعتقلون لو لم يُقتلوا. للحظة، لم يكن متوقَّعًا أن يدعم اردوغان وزيره، غير أنه خذل التوقعات ودعم ما قاله شاهين. وقد هنّأ زعيم الحزب القومي (الحركة القومية التركية) دولت بهشلي الوزير شاهين، وبدأت التوقعات تتحدث عن تحالف قومي – محافِظ محتمَل لتمرير الدستور الجديد.

في الواقع، وقبل وقت طويل من السجال الأخير، اتّبع اردوغان و«العدالة والتنمية» سياسات قومية وعسكرية لم تختلف عن تلك المتبعة في الأيام السوداء لأعوام التسعينيات. إلى جانب ذلك، كانت تركيا تبتعد عن السياسات الديمقراطية كثيرًا إلى حدّ يؤثر في النهاية على السياسات الكردية. قبل أي شيء آخر، كان للنجاحات الأولى ثم لمسلسل الفشل في السياسات الخارجية الحكومية، تأثير على السياسات الكردية لأنقرة.

في البداية، كان اردوغان وحزبه واثقين أكثر من اللزوم بشعبيتهم وبدورهم المهم في السياسات الاقليمية، إلى حدّ مبالَغ به جعلهم يقللون من أهمية التأثير المستقبلي المحتمَل للمسألة الكردية على السياسات التركية الاقليمية. ظنّ البعض أن تركيا ستُعطى حرية الحركة لسحق «أعدائها الداخليين» بما أنها حليف مهم للولايات المتحدة، ولكونها تتمتع بأصدقاء أقوياء في العالم العربي.

عندها، اعتقد البعض أن الأزمة في سورية هي فرصة للسيطرة على أكراد سورية. في البداية، لم تكن تركيا متحمّسة للتدخُّل في الشؤون السورية الداخلية، لكن في ما بعد، ولحظة قرّرت الحكومة الانخراط بعمق في سياسات تغيير النظام في سورية، أراد حزب «العدالة والتنمية» تشكيل المعارضة السورية وفق مصالحه، والتأكد من عرقلة أي مشروع للحكم الذاتي للأكراد في سورية الجديدة. لا يزال اردوغان حتى اليوم يكره الاعتراف بمحدودية الدور التركي في المنطقة، وبتعقيدات القضية الكردية بالنسبة إلى السياسات الاقليمية. يضغط «العدالة والتنمية» على حلفائه للتأقلم مع الموقف التركي حيال المسألة الكردية، ويتوقّع أن ينال دعمًا أميركيًا غير مشروط، ويطالب الزعماء العراقيين في شمال البلاد بأن يتصرفوا كخدم لتركيا، لكن كل ذلك ظلّ من دون جدوى. لهذه الأسباب انتفض اردوغان و«العدالة والتنمية» عمومًا بعد نشر التقارير الاستخبارية الأميركية المسرّبة حول حادثة «أولو ديري». وضع هذا التسريب اردوغان في وضع بالغ الصعوبة، وأطلق سجالاً جديدًا محتدمًا حول «أولو ديري». وردًا على ذلك، أصبحت السياسات الحكومية حيال الأزمة الكردية أكثر عدوانية بدل أن تهدأ في ضوء ارتفاع حدّة التوتر السياسي والتطورات الأخيرة في المنطقة.

في النهاية، تبدو تركيا عاجزة عن التعامل مع «أزمتها الكردية» ما دامت جميع حكوماتها مصرّة على رفض مواجهة الحقيقة. بدل ذلك، يفضل حكام أنقرة أن يوهموا أنفسهم بأن المشكلة هي «مشكلة إرهاب»، وأن مصدرها حفنة من المتشددين، وأن المعارضة الكردية لا تمثّل جميع الأكراد، وأن الأكراد سيكونون سعيدين بالسياسات الحكومية الخيرية. لقد لجأت الدولة



التركية إلى جميع أصناف سياسات القضاء على المعارضة الكردية منذ ولادة النظام الجمهوري. ثمّ حاولت جميع الحكومات التركية استعمال كل الوسائل والطرق، من الترويج لـ«الأكراد الجيدين في مواجهة الأكراد السيئين» وصولاً إلى تعزيز التعصب الديني ضد المعارضة الكردية العلمانية. فشلت كل هذه السياسات، لكن رغم ذلك، لا شيء قادرًا على إقناع الدولة التركية وحكوماتها بالتفاوُض مع الأكراد بعدل. قد يكون حكم «العدالة والتنمية»، أو ما يسمى «تركيا الجديدة»، مختلفًا جدًا عن الوجه السابق لتركيا في عدة نواحٍ، لكنه ليس كذلك في ما يتعلّق بالمقاربة العسكرية والقومية إزاء الأكراد.

يفضل حكام أنقرة أن يوهموا أنفسهم بأن المشكلة هي «مشكلة إرهاب»، وأن المعارضة الكردية لا تمثّل جميع الأكراد، وأن الأكراد سيكونون سعيدين بالسياسات الحكومية الخيرية.

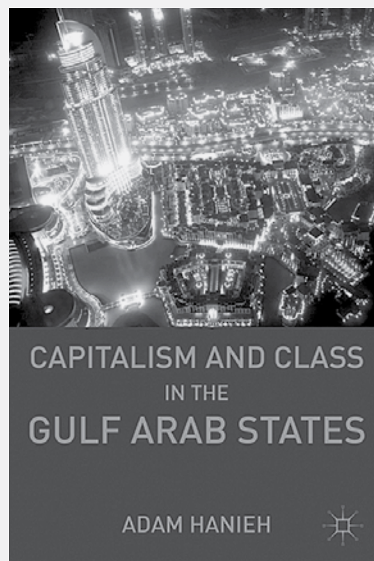
صحيح أنّ النظام الجمهوري نجح في استيعاب أطياف كبيرة من الأكراد، وأن المعارضة الكردية العلمانية لطالما تجنّبها الطرف المحافظ من المجتمع الكردي. إلا أنّ شرائح واسعة من الأكراد منجذبون حول الهوية الوطنية، بعدما عانوا طويلًا، والأكراد اليوم شديدو التسييس. رغم واقع أن حزب السلام والديمقراطية يأتي من خلفية سياسية يسارية علمانية، فإنّه يحصد المزيد من أصوات الأكراد في جنوب شرق تركيا، وأكثر بكثير مما هو متوقّع من أناس محافظين للغاية. فضلاً عن ذلك، لا تنال أية حركة وطنية الدعم الكامل من المجتمع الذي تتكلم باسمه. حالة باكستان عيّنة من بين حالات عدة حيث المنظمة الإسلامية لم تمثل جميع الهنود المسلمين، لكن فكرة إنشاء باكستان تحقّقت ولم يتمكن حتى زعيم عظيم كالمهاتما غاندي من إيقافها. أكثر من ذلك، فإن اردوغان ليس غاندي. إذا كانت تركيا تسعى إلى حل سلمي ووسيلة للتعايش مع مواطنيها الأكراد، فسيكون ذلك ممكنًا فقط عبر أخذ المعارضة الكردية بالاعتبار جديًا، بدل الطلب منها الاستسلام.

في النهاية، ليست الأزمة الكردية مشكلة الحكومة الحالية، بل مشكلة جميع من يعيشون في تركيا. قد يكون صعبًا على جميع الأحزاب التركية والرأي العام التركي أن يهضموا الحقائق الجليّة المتعلقة بالأكراد، لكن الكثير من الأكراد ينظرون إلى أوجلان كمخلِّص وطني، ويرون في الكفاح المسلح («العمّال الكردستاني») ضمانة وحيدة لوجودهم وكرامتهم. في ظل هذه الظروف، من غير الواقعي، وبالتالي من غير المجدي، توجيه النداءات إلى حزب «السلام والديمقراطية» للابتعاد عن أوجلان وعن النضال المسلَّح. سيخسر «السلام والديمقراطية» شرعيته إن فعل ذلك ما دام ناخبوه يدعمونه على اعتبار أنه الممثل الديمقراطي عن المعارضة الكردية. في النهاية، ستحتاج تركيا إلى إيجاد طريقة لبدء مفاوضات مع جميع الفاعلين السياسيين في المعارضة الكردية، عاجلا أو آجلا، وذلك لإنقاذ حيوات الشباب من كلا الطرفين.◆

دول الخليج في الرأسمالية العالمية

ميسون سكرية

تدرّس الانثروبولوجيا في الجامعة الاميركية في القاهرة.



آدم هنية، الرأسمالية والتكوّن الطبقي في دول الخليج العربي، نيو يورك، بالغريف ماكميلان، ٢٠١١

Adam Hanieh, Capitalism and Class in the Gulf Arab States, Palgrave Macmillan, New York, 2011.

آدم هنية

استاذ الدراسات التنموية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن.

كتاب آدم هنية «الرأسمالية والتكوّن الطبقي في دول الخليج العربي»، أوّل بحث من نوعه يعالج مسألة تشكّل الطبقات في الدول النفطية. انه عمل بحثي جدّي ولافت، يدرس دور دول الخليج في الاقتصاد العالمي كما في المنطقة العربية. ويحلل هذا العمل الرائد العمليات التي تدمج دول الخليج في الاقتصاد الرأسمالي العالمي عبر تدويل رأس المال ودور تلك الدول في النظام الاقتصادي العالمي. ويتابع ادوار رأس المال الخليجي المدوّل المتركّز حول المحور السعودي ـــ الاماراتي ورأس المال المستتبع له. ويمثل هذا التدويل عملية تشكّل طبقي وثيقة الارتباط بالتطور السريع لاقتصاديات الخليج والتحولات المادية التي تطرأ على المدن الخليجية.

يحتوي الكتاب على ستة فصول تنقسم الى ثلاثة أجزاء. في المقدمة المفصلة يقدّم آدم عرضًا شاملاً لتاريخ نشوء طبقة التجار في الخليج، والدور الذي أدّاه الاستعمار البريطاني في نشوء كياناته، حيث يشدد الكاتب على أنّ عائلات التجار الاوائل التي شجع الاستعمار البريطاني على

كتاب

يلتزم المؤلف منهج «تدويل رأس المال» إذ يشدّد على أنّ غزو المكان عبر رأس المال او التدويل المالي «امر يتأصّل في طبيعة عملية التراكم بالذات، أي انه ليس خيارًا سياسيًا او قرارًا تتخذه القوى المحرّكة لبعض الدول».

نشوئها، فضلاً عن الكتل التجارية الجديدة التي ظهرت مع بدء الحقبة النفطية، كانت من قبيل «الطبقة قيد التكوين» التي تحوّلت لاحقًا الى رأس المال الخليجي المعاصر. وتضمنت المقدمة ايضًا مقاربةً منهجيةً مبتكرة لعملية تدوير رأس المال في المنطقة الخليجية.

ثلاثة منطلقات نظرية

في الجانب النظري، تجدر الإشارة الى ثلاث نقاط أساسية.

أولًا، يحاجج الكاتب في أنّه لم يعد من المناسب تحليل عملية تشكل الطبقات في الخليج استنادًا الى النظرية الكلاسيكية للدولة الريعية، فالأخيرة محدودة لأنها تعتبر الدولة جوهرًا موجودًا بحدّ ذاته، في حين انه يرى الى الدولة على أنّها تعبير محدد للتشكّل الطبقي بما هو مجموعة علاقات اجتماعية في صيرورة دائمة.

ثانيًا، يرى الباحث أنّ عملية تدويل رأس المال، عكس البداهة السائدة، لم تلغِ الدور الذي تؤديه الدولة في التكوّن الطبقي أو في اعادة انتاج الرأسمالية بحد ذاتها. صحيح أنّ تراكم رأس المال يجري في ظلّ نظام عالمي أحادي الطابع ويتميّز إجمالًا بفوارق جغرافية واجتماعية عميقة وبتراتبية حادة، الا انّ ذلك لا يعني أنّ الدول بحد ذاتها فقدت أهميتها. لا يزال التراكم يجري على الصعيد الكوني، الا ان حاجة التدويل الرأسمالي الى قوانين هدفها إدامة شروط التراكم ــ من مثل تعديل التشريعات، وضبط قوة العمل وغيرها ــ تزيد من أهمية دور الدولة لا العكس.

ثالثًا، قامت عملية التدويل في الدول الخليجية عبر عملية «أقلمة» مطلعها نشوء المحور السعودي ــ الإماراتي. وهذا ما يمكّننا من فهم نمو دور دول الخليج في عالم الأسواق العالمية، فخلف تدفق الأموال أو السلع، يقبع توسّع في العلاقات الاجتماعية التي تربط الطبقات الرأسمالية في دول الخليج بعضها ببعض.

وإذ ينتقل الباحث الى تعيين مطلع التكون الطبقي في دول الخليج، يتكلّم عن خاصيتين مميّزتين: التمفصل المكاني والتراكم الأولي لرأس المال عبر دور الدولة في توجيه العوائد النفطية، ففي الفترة التكوينية سمحت الدولة بنشوء نواة متميّزة من الخليجيين تحلقت حولها لاحقًا طبقة رأسمالية نمت في قلب الدورتين السلعية والمالية في غياب دورة إنتاجية. وتشكّلت في الدورتين المذكورتين مجموعة من العلاقات الاجتماعية نشأ في طياتها رأس مال محلي ضخم، وثيق الارتباط بالدول ذاتها وبالطبقات التجارية الناشئة. وكانت الطريقة التي بها تطوّرت تلك الدورات منسجمة مع الاتجاهات السائدة في الاقتصاد العالمي منذ الحرب العالمية الثانية حتى أواخر السبعينيات، حيث ازدادت أهمية القطاع المالي على سائر القطاعات وكان للنفط دور متزايد الأهمية في التراكم الرأسمالي.

هيمنة المحور المالي السعودي ــ الإماراتي

يتوجه القسم الثاني من الكتاب نحو تشكّل الرأسمال الخليجي بعد انفراط عقد الاتحاد السوفياتي ودمج الصين في السوق الرأسمالي العالمي. يجري هنا فحص الدور الحاسم للتدويل الرأسمالي وتبعات ذلك بالنسبة إلى منطقة الخليج بأسرها من منظار الاقتصاد العالمي والتنافس بين القوى الرأسمالية العالمية. هنا المساهمة الأهمّ لآدم هنية حيث يعرض جداول مفصّلة تشرح عملية التراكم وتعيّن المسيطرين عليها وأماكن تمركزها في كلّ دولة من دول الخليج. وهنا ايضا يعاين المؤلف مختلف الدورات الرأسمالية والكيفية التي بها يجري التراكم في كلّ منها. ويحلّل هنية الاختراق المتبادل للعلاقات الاجتماعية الرأسمالية كما تعكسها مشاريع الملكية المشتركة (دولة ــ قطاع خاص) والتداخل بين الادارة الحكومية والشركات الرأسمالية في حالة أكثر من ٥٠٠ شركة ومؤسسة مالية ومشروع في مجلس التعاون الخليجي. ويخلص التحليل أعلاه الى نتيجتين. الاولى، ارتكاز رأس المال الخليجي على المحور السعودي ـ الاماراتي؛ والثانية، تركّز تراكم الرأسمال الخليجي حول مشاريع البناء وتصنيع السلع العالية الاستهلاك للطاقة كالألمينيوم. ويجد تدويل دورة الانتاج السلّعية تعبيره في الدور التخزيني -التوزيعي الذي تؤديه السعودية والامارات في المستوردات العالمية وفي تجارة الترانزيت عبر الفضاء الاقليمي ــ أي دول مجلس التعاون. ولنظام الوكالات وحقوق التوزيع دور أساسي في هذه الدورة السّلعية. هنا يتمثل الشكل المؤسسي للرأسمال الخليجي في توسّع المخازن الكبرى و«المولات» والاسواق الحرة.

الاندماج السياسي بين دول مجلس التعاون لم يصل بعد الى مستوى الاندماج الاقتصادي، لأن النخب السياسية لا تزال ذات مصلحة أساسية في الحفاظ على سياسات مستقلة.

ويسيطر التكتّل السعودي – الاماراتي في دائرة التوزيع السلعي تلك على معظم حقوق الوكالات لعدة دول في مجلس التعاون، مع توجّهه الواضح نحو قطاع البيع بالتجزئة على مستوى الخليج عامة. ويشرح هذا القسم من الكتاب كيف يهيمن المحور السعودي –الاماراتي على الدورة المالية لرأس المال والعامل الأساسي فيها هو نمو الأسواق العالمية الرأسمالية والذي يدلّ على مزيد من الترابط بين الرأسمال الخليجي وبين هندسة الأسواق المالية العالمية.

تجمع الاسواق الرأسمالية كل الموارد المالية التي تحتويها منطقة مجلس التعاون الخليجي، وتؤدي البحرين دورًا اساسيًا في تدويل الدورة المالية بالتعاون مع أكثرية البنوك حيث الجزء الأكبر من الأسواق يملكها مستثمرو مجلس التعاون من غير البحرينيين. وأهم ما يبينه هذا الفصل من الكتاب هو الصلة الحميمة بين رأس المال الخليجي وبين الدولة والشركات التجارية في اقطار الخليج، حيث المعنيون بعملية التراكم على علاقة بالعائلات الحاكمة كما هي حال شركات Kingdom Group وNBK وAl-Qassimi Group. ويتضح هنا ايضا أنّ لرأس المال الخليجي هذا تأثيرًا متزايدًا على السياسات الاقتصادية والمالية في كل دول مجلس التعاون الخليجي. غير أنّ الكاتب يحاجج أيضًا في أنّ الاندماج السياسي بين دول مجلس التعاون لم يصل بعد الى مستوى الاندماج الاقتصادي، لأن النخب السياسية لا تزال ذات مصلحة أساسية في الحفاظ على سياسات مستقلة وعلى الاستحواذ على الريع كلٌّ في دولته.

رؤوس الاموال الخليجية في المدى العربي

إذا كان نمو الرأسمال الخليجي مؤشرًا على نزعات التدويل والتمويل الرأسمالية عبر فضاء مجلس التعاون الخليجي، فانّ تلك النزعات لا تقتصر على دول مجلس التعاون الخليجي بل تشمل العالم العربي الذي ترتبط اجزاؤه الاخرى بشكل لا فكاك منه بأنماط التراكم والتشكّل الطبقي لدول الخليج.

هذا هو موضوع الجزء الثالث والأخير من الكتاب حيث يبيّن الكاتب كيف أنّ رؤوس الأموال العامة والخاصة لمجلس التعاون تخترق الاقتصاديات الوطنية لمختلف الدول العربية، وكيف تعيد الرأسمالية الخليجية صوغ طبيعة التراكم نفسه في تلك البلدان من خلال استحواذها على ملكية الشركات المالية والانتاجية في مصر والاردن ولبنان وفلسطين خصوصا. فبحسب تقديرات البنك الدولي فانّ دول الخليج مسؤولة عن حوالي ٣٦٪ من إجمالي الاستثمارات الاجنبية في العالم العربي. وقد تلقت دول المشرق العربي أكثر من ٦٠٪ من استثمارات مجلس التعاون الخليجي. وبلغت قيمة اجمالي الاموال المستثمرة من دول مجلس التعاون في بلدان المشرق حوالي ٦٦,٢ مليار يورو خلال فترة ٢٠٠٣ — ٢٠٠٩ بالمقارنة مع ٢٢,٩ مليون قادمة من أوروبا و٥,٢ من أميركا الشمالية.

إنّ استثمارات رأس المال الخليجي متمركزة في دورتين رأسماليتين تتمحور حولهما عملية التراكم الرأسمالي في دول مجلس التعاون اصلا هما القطاع المصرفي من جهة وقطاعا البناء والبيع بالتجزئة من جهة اخرى. فقد جاءت الموجة الاستثمارية الاولى في العراق من الشركات الأميركية المستفيدة من العقود الممنوحة من الحكومة الاميركية. غير أنّه مع انشاء «سلطة الاحتلال المؤقتة» في حزيران ٢٠٠٤ تخطّت استثمارات دول مجلس التعاون الخليجي كمية الاستثمارات الاميركية، فبين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٩، كان مصدر أكثر من نصف الاستثمارات الاجنبية في العراق مجلس التعاون الخليجي. وبحلول عام ٢٠٠٩ كانت اربعة من أصل ستة بنوك في العراق مملوكة من بنوك تأخذ من دول مجلس التعاون الخليجي مقرا لها. أمّا في قطاعي العقارات والاسكان فهناك مشروعان هائلان هما «المعبر» و«الداماك» DAMAC properties وAl-MAABAR مسجلان في دولة الامارات العربية المتحدة وقد عادل حجم استثماراتهما أكثر من ٧٥,٥٪ من مجموع الاستثمار العقاري في العراق بأكمله. كذلك تملك شركات QatarQtel وKuwaitiZein وAgility الحصة الاكبر في شركات للهواتف الخلوية.

وقد جُرّبت الانماط الاستثمارية الخليجية ذاتها في سائر دول المشرق العربي. ويحاول آدم هنيّة البرهنة على أنّ عملية التدفق الرأسمالي من بلدان مجلس التعاون الى بلدان المشرق ترتبط بدور أكبر للرأسمال في توجيه السياسات

بحسب تقديرات البنك الدولي فإن دول الخليج مسؤولة عن حوالى ٣٦٪ من إجمالي الاستثمارات الاجنبية في العالم العربي. وقد تلقّت دول المشرق العربي أكثر من ٦٠٪ من استثمارات مجلس التعاون الخليجي.

الاقتصادية للدول المعنية. والمثال المعروف على ذلك هو مؤتمر باريس، حيث لعبت دول الخليج دورًا أساسيًا وتحملت أكبر قدر من الالتزامات المالية تجاه لبنان، متخطية بذلك المبالغ التي وعد بها البنك الدولي والولايات المتحدة والمجموعة الاروروبية مجتمعين. أما الفصل الذي يعالج فيه الكاتب موضوع فلسطين فيركّز على دور رجل الاعمال منيب المصري الذي جنى أمواله أساسًا من خلال الاستثمار في الخليج.

يتبيّن فيما بعد أنّ حفنة من الشركات المرتبطة برأس المال الخليجي ــ بشقّيه العام والخاص ــ تهيمن على هذه الدفوق داخل الاقليم. تتركّز هذه الاستثمارات في نشاطات عدة مثل البناء والانشطة العقارية والاطعمة والبيع بالتجزئة، والمرافئ والخدمات، والبنوك والقطاع المالي والاعلام. والواضح أنّ طبيعة التركيز القطاعي تختلف حسب بلدان، فعندما تكون الاستثمارات آتية من الولايات المتحدة والمجموعة الاوروبية تجدها تتركّز في قطاعي الصناعة والنفط.

خلاصات وأسئلة

يسمح الكتاب بالتبصّر في كيفية التشكّل الطبقي في الخليج وفي الدور الذي تقوم به دول مجلس التعاون في المشرق عبر الاستثمارات المباشرة او عبر تكوّن رأسماليين بدأوا مسيرتهم في الخليج وعادوا الى بلدانهم ليحتلوا مناصب مؤثّرة فيه امثال رفيق الحريري في لبنان ومنيب المصري في فلسطين. لكن الكتاب يبدو بحاجة إلى المزيد من التعمق في عدة مفاصل. وأهم النواقص فيه هي أنّه يعتبر رأس المال المحور الأوحد لتحليلاته. ذلك ان الكمية الهائلة من المعلومات التي يقدمها وإبرازه أهمية تدفق الرأسمال في تشكّل الرأسمال الخليجي، يثيران عددا من الأسئلة:

+ ما علاقة الطبقة الرأسمالية التي تكونت في السنوات التي تلت تدويل المال بالطبقات الأخرى في دول الخليج؟ وكيف تم تكوين تلك الطبقات الأخرى؟ كيف يمكن لكتاب عن تكوين الطبقات التركيز على الطبقة الرأسمالية فقط وإغفال أي تطرق للطبقات الأخرى؟

+ لماذا يتركّز الرأسمال الخليجي في دورات التوزيع السّلعية والوكالات الحصرية للشركات العابرة للجنسيات وفي القطاع المالي والبيع بالتجزئة فقط؟ ولماذا في منطقة يقوم اقتصادها على النفط بشكل اساسي يتركز الرأسمال الخليجي في دورات لرأس المال لا وجود للنفط فيها؟

+ من يقرّر على الصعيد العالمي ما الدورات التي يحقق فيها رأس المال الخليجي عملية تراكمه؟ وما دور الولايات المتحدة الأميركية في هذا القرار، على وجه التحديد؟

+ ماذا عن عملية اتخاذ القرار في الخليج ذاته؟ هل يملك مجلس التعاون الخليجي والمتحكمون فيه بالسلطة والمال القدرة على توجيه السياسات الاقتصادية في دول المشرق؟ وهل ان الامر هنا للقرارات الخليجية حصرًا؟ أم انه يحدث بالتعاون مع اللاعب الأكبر في المنطقة أي الولايات المتحدة الأميركية؟ وما تأثير تمركز عملية تراكم رأس المال حول قطاعي التجزئة والمال على سيادة تلك الدول؟

لعل سبب عدم تقديم أجوبة عن مثل هذه الاسئلة هو التزام المؤلف بمنهج نظري أوحد هو منهج «تدويل رأس المال» حيث يشدّد على أنّ غزو المكان عبر رأس المال او التدويل المالي «امر يتأصّل في طبيعة عملية التراكم بالذات، أي انه ليس خيارًا سياسيًا او قرارًا تتخذه القوى المحرّكة لبعض الدول. إن عملية تدويل رأس المال عملية تنافسية بين القوى الرأسمالية ذاتها». (ص ١٢١).

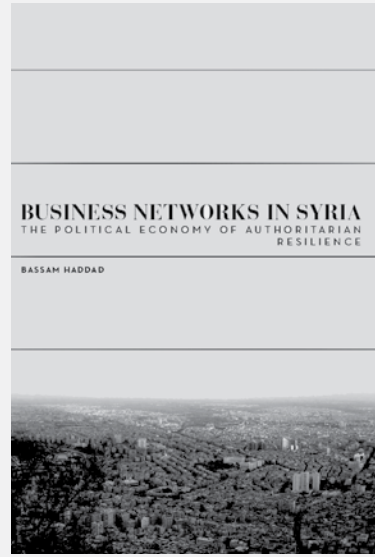
إنّ اقتصار الكاتب على هذا المنهج لشرح التكوين الطبقي في الخليج وعلى تأثير الرأسمال الخليجي على تكوين الطبقات في المشرق العربي، يفقد القارئ الكثير من حيث التفصيل ومتعة القراءة ويحرمه من فهم دور رأس المال هذا في ضبط الطبقات الوسطى والدنيا إن من خلال نشر ثقافة تتوافق مع اقتصاد السوق عبر الإعلان والإعلام أو من خلال تمويل مؤسسات المجتمع المدني التي تروّج لهذا الاقتصاد أو حتى من خلال المؤسسات الخيرية وجمعيات البر والإحسان التي تعمل في حقل محاربة الفقر.

بالرغم من هذه الملاحظات يبقى الكتاب بحثًا رائدًا في مجاله، وفيه أيما إفادة من أجل فهم التحولات الطبقية في الخليج العربي.◆

السلطة السياسية والشبكات الاقتصادية في سورية

عمر ضاحي

أستاذ مساعد في الاقتصاد في كلية هامبشاير، الولايات المتحدة الاميركية.



بسام حداد، الشبكات التجارية في سورية: «الاقتصاد السياسي للصمود السلطوي» دار نشر جامعة ستانفورد. ٢٠١١.

Bassam Haddad, Business Networks in Syria: The Political Economy of Authoritarian Resilience, Stanford University Press, Palo Alto, 2011.

بسام حداد

أستاذ في جامعة جورج مايسون، الولايات المتحدة. محرر موقع «جدلية».

كيف نفسّر جذور الثورة السورية وتعقيداتها؟ وكيف لنا أن نفهم تركيبة النظام السوري والعوامل التي تحكم علاقته بالقطاعات الاقتصادية المختلفة، خصيصًا القطاع الخاص؟ وهل تحوّلت تلك العلاقة في عهد بشار الاسد وما هي طبيعة هذا التحوّل؟ أسئلة عديدة تُطرح مع بداية الثورة وقبلها عن الاقتصاد السياسي السوري لم يجب عليها بنحو ممنهج لعدّة اسباب من أهمها شحّة الدراسات الدّقيقة عن سورية.

تطبيق سوري لنظرية «الشبكات الاقتصادية»

يأتي كتاب الدكتور بسام حداد الجديد الذي صدر أخيرًا عن دار نشر جامعة ستانفورد ليسد هذه الثغرة في دراسات سورية المعاصرة على الاقل في الأوساط الاكاديمية الغربية. فقد طغت في العقد الماضي من الزمن الدراسات ذات الطابع «الما بعد حداثي» على الاكاديميين اليساريين وبات من يُصر على التحليل التقليدي (الاقتصاد السياسي) يُنظر اليه وكأنه عالق في سن المراهقة الفكرية. وأفضل مثال على تلك

الظاهرة هو مقارنة الاهتمام الذي حظى به كتاب ليزا وادين (السيطرة الغامضة) بالمقارنة مع الاهمال شبه الكلّي لكتاب حنّا بطاطو العملاق والذي صدر في العام نفسه (١٩٩٩). كتاب وادين قيّم. ومنهج التحليل الذي يعتمد على تحليل الخطاب السياسي والرموز له مزايا عديدة. الّا انه سرعان ما اندلعت الثورات العربية من المحيط الى الخليج، فوقفت تلك الدراسات عاجزة عن شرح واقع الامور واتضح ان هنالك حاجة ماسة للاقتصاد السياسي او للتحليل التاريخي الهيكلي. ومع ان كتاب حدّاد ليس حول الثورة السورية بذاتها الا انه يحتوي على تحليل يُمَكِّن القارئ من فهم عميق لتناقضات المجتمع السوري التي ساهمت في جعله قابلا للاشتعال.

الكتاب الذي يعالج علاقة السلطة في عهد البعث برأس المال الخاص — أو بـ«الشبكات الاقتصادية»، كما يسمّيها الكاتب — ثمرة سنين طويلة من دراسة الاقتصاد السياسي السوري قابَلَ خلالها الكاتب مجموعة كبيرة من التجّار والمسؤولين والمثقفين السوريين بالاضافة الى البحث الميداني وتحليل الاحصائيات الاقتصادية. ويتضمن الكتاب ستة فصول تتراوح بين مراجعة تاريخية للنظام السوري الحديث وشرحٍ لنظرية الشبكات التجارية التي يطبّقها الكاتب على الواقع السوري مع مراعاة تاريخية لخصوصية سورية المعاصرة وإلفة بها. أي انه يأخذ في الحساب الوضع القائم الناتج تاريخيًا من العلاقة الجدلية بين الشرائح الاجتماعية المختلفة، ما يضيف معطيات مميزة لنظرية الشبكات التجارية.

وبالرغم من ان الفصول الستّة نشرت بشكل او بآخر على شكل مقالات خلال السنين الماضية، الا انها مجموعة هنا بشكل مترابط ومع اضافات جديدة. ويحتوي الكتاب الى ذلك معلومات واحصائيات عن الاقتصاد الكلّي والجزئي والقطاعات الصناعية والخدمية وعن القوانين التجارية وواقع الاعلام والمجتمع السوري بعامة. وكل ذلك يجعل من كتاب حدّاد من أهم الكتب عن سورية المعاصرة خصيصا عن فترة ١٩٩٠ — ٢٠٠٥ والتغيّر الجذري الذي طرأ خلالها على علاقة السلطة برأس المال.

ويمكن تقسيم الكتاب الى ثلاثة أقسام. يشرح الاول جذور الشبكات الاقتصادية من الناحية النظرية ويعطي لمحة سريعة عن السياق التاريخي الذي ولدت فيها. ويقدّم القسم الثاني بحثًا معمّقًا في طبيعة الشبكات ومكوناتها وآلية عملها وعلاقاتها بصنع القرار الاقتصادي، أما القسم ألاخير فيعرض تحوّلات الشبكات وأثرها على الاقتصاد السوري في السنوات الاخيرة.

هدف الكتاب الاساسي هو محاولة نظرية — تطبيقية لتفسير التدهور التنموي في سورية خلال فترة ١٩٩٠ — ٢٠٠٠. يعتمد الكاتب بشكل اساسي على «نظرية الشبكات الاقتصادية» (business network theory) والتي تركز على العلاقات الاقتصادية بين الافراد وليس بين الطبقات. ومع ان الكاتب لا ينكر دور الصراع الطّبقي في سورية ألا انه يرى أن ذلك التحليل عير كافٍ لفهم المحرّك الاساسي للسياسة والاقتصاد في سورية منذ أستيلاء حافظ الاسد على السلطة حتى اندلاع الثورة في آذار ٢٠١١.

يعود حدّاد الى عقد الستينيات حين تشكلت العلاقة بين أصحاب السلطة الجدد المنتمين الى أقليات ريفية وأصحاب المال السنّة في المدن الكبرى. تأرجحت العلاقة مع التغيرات الداخلية والخارجية حينها الى ان استقرّت على نمط هجين أشبه بالتواطؤ بدلا من التعاون. وأهم مميزات التواطؤ أنه قائم على انعدام الثقة، ذلك ان ابناء الاقليات الريفية المضطهَدة تاريخيا لم يثقوا بمضطهديهم السابقين (وقد باتوا حلفاءهم الجدد). ولّد أنعدام الثقة، برأي بسام حدّاد، نظامًا أقتصاديًا محدود القدرة على التنمية. لأنه حوّل الافق التنموي للدولة والقطاع الخاص من المشاريع والاستثمارات

يعود حدّاد الى عقد الستينيات حين تشكلت العلاقة بين أصحاب السلطة الجدد المنتمين الى أقليات ريفية وأصحاب المال السنّة في المدن الكبرى. تأرجحت العلاقة مع التغيرات الداخلية والخارجية حينها الى ان استقرّت على نمط هجين أشبه بالتواطؤ بدلا من التعاون.

الطويلة الامد الى المشاريع ذات الربح السريع.

ثلاث مراحل في علاقة السلطة برأس المال

إذًا، تكمن أصول الانحدار التنموي — او الخطيئة الاصلية – في ان الشبكات تشكلت لأسباب أمنية وليست اقتصادية، واتخذت لاحقا الطابع التجاري. مرّت العلاقات بين الدولة ورأس المال بثلاث مراحل في عهد حافظ الاسد ١٩٧٠—١٩٧٧؛ ١٩٧٨ — ١٩٨٥؛ ١٩٨٦ — ٢٠٠٠. وكانت العلاقات تشتد وتتراخى بحسب فرص الربح التي توفرها الظروف الداخلية والخارجية او اولويات النظام. ولكل مرحلة خصوصيتها من حيث خلفية الشركاء (تجار سابقون ثم ضباط الجيش والامن وشركاؤهم ثم اولاد المسؤولين في التسعينيات) وطبيعة العلاقة بين الشركاء (تصالحية في البدء تلاها تعاون حذر الى ان وصلت أخيرا الى الشراكة العلنية في عهد بشار الاسد).

المرحلة الاولى قد تكون هي الاهم لانها انتجت نموذج الشراكة الذي تكرر لاحقًا. بدأت الطبقة العليا من النظام «بالتّحاصص» أو توزيع قطاعات الاقتصاد بين اعضائها. وتشكلّت الترويكا الشهيرة المكوّنة من صائب نحّاس وعثمان العائدي وعبد الرحمن العطّار. وفيما انحصرت فرص الاثراء في نخبة الجيش والامن والقيادة السياسية خلال الفترة الاولى، توسعت الشبكات مع تعاقب المراحل الثلاث لتشمل عددا أكبر من المنتفعين. وكانت كل مرحلة تترافق مع عملية

لا ينكر حدّاد دور الطائفية لكنه يشرح أن مسبباتها تاريخية هيكلية وأن الطائفية السياسية في سورية استُخدمت من قبل النظام السوري وسيلة لضمان السلطة، وان انعدام الثقة بين أصحاب السلطة وأصحاب المال سببه العلاقة التاريخية لا الانتماء المذهبي.

تحرير ولبرلة جزئيتين للاقتصاد السوري يفتحان مجالات اضافية للاستثمار والربح. وهنا تكمن برأيي فكرة الكتاب المركزية: بما ان الشبكات التجارية قامت واستمرت في غياب الثقة بين أصحاب السلطة وأصحاب المال، كان الهدف الاساسي للاولين منذ البداية تقويض هامش المناورة عند أصحاب المال كي لا يكوّنوا استقلالية عن النظام قد تستخدم في وقت ما لفرض رأيهم كشركاء في القرار السياسي والاقتصادي او حتى العمل على تغيير السلطة السياسية. لكن هذه المعادلة بين الطرفين ليست جامدة إذ تحكمها عدة عوامل من أهمها البديل المتاح لكلا الطرفين. وقد كان أصحاب السلطة الطرف الاقوى في المعادلة طالما استمرت عائدات النفط والمساعدات الخارجية او بشكل عام الواردات المالية التي توفّر لهم استقلالية عن الرأسمال المحلّي. لكن مع مرور الزمن بدأت تلك الواردات بالتناقص من جهة ومن جهة أخرى ازدادت قوّة واستقلالية أصحاب المال، فلم يعد هذا الطرف عاجزًا ولم يبق اصحاب السلطة بالقوّة التي كانوا يتمتعون بها سابقا. وباشر أصحاب المال بإعادة صياغة هذا التعاقد (غير المكتوب) لصالحهم.

الّا ان التغيير التدريجي في موازين القوى لم يَنتج منه تعاقدٌ جديدٌ. فابتداءً من منتصف التسعينيات بدأت تلك الشبكات تتضعضع أثر الانحدار التدريجي لمعدلات النمو الاقتصادي السوري وتراجُع المستوى المعيشي العام. حينها وقف أصحاب السلطة أمام مفترق طرق. إما أن يستمروا في أعطاء اصحاب المال ما يريدون، او يحرّروا السلطة السياسية ويدخلوا أطرافًا مهمشة من داخل البلد أو خارجه. كلا الخيارين كان يشكّل خطرا غير مقبول من وجهة نظر النظام على استقلاليته وسلطته، ولذلك أختار طريقًا ثالثًا. قرّرت القوّة الصاعدة (بشار الاسد وحلفاؤه) تحطيم الشبكات التي شُكّلت في المراحل السابقة وانتاج شبكات جديدة أضيق من سابقاتها ومحصورة بشركائها. واستمرت هذه العملية وفق ما رواه حدّاد من ١٩٩٥ – ٢٠٠٥ عندما أحكم بشار قبضته نهائيًا على السلطة وأقصى الحرس القديم وشركاءه الاقتصاديين وكل من لم يخضع للمعادلة الجديدة. وبذلك خرج كل من عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي وكثرٌ من شركائهم وتجار آخرون من امثال رياض سيف

ومأمون الحمصي، وصعد رامي مخلوف وشاليش وشركاؤهما الذين احكموا قبضتهم على الاقتصاد السوري ومصادر الاثراء. وهكذا، عندما كان صانعو القرار يخيّرون بين إحكام السيطرة على السلطة وبين اتخاذ قرارات تنموية للنهوض بالاقتصاد، كانوا يختارون السلطة، ويستتبع ذلك اهتراء تدريجي للمؤسّسات الاقتصادية. الى أن بات الولاء السياسي في عهد بشار الاسد المعيار الوحيد للموظّف المعني بالشأن الاقتصادي، مّا أدى بدوره الى استفحال الفساد من الاعلى الى الاسفل بشكل غير مسبوق حتّى في عهد حافظ الاسد.

الى اي مدى النخب الحاكمة مستقلة عن الطبقات؟

منهاج التّحليل الذي يركّز على الشبكات الاقتصادية له مزايا عدّة عن مناهج التحليل السائدة عن التنمية في دول العالم الثالث عمومًا وسورية خصوصًا.

اولًا، بعكس التحليل الليبرالي، ولا يدّعي بأن تدخّل الدولة في الاقتصاد يشكل بحد ذاته سبب التدهور التنموي في سورية، بل يعيّن العلّة في نمط التدخل.

ثانيا، لا يحاول حدّاد إقحام التحليل الطبقي الماركسي التقليدي في سورية في غير محلّه، حيث من الواضح ان شبكات الاقتصاد السياسي في سورية مكونة من أفراد ينتمون الى طبقات وشرائح مختلفة من المجتمع السوري.

ثالثًا، لا ينكر حدّاد دور الطائفية لكنه يشرح أن مسبباتها تاريخية هيكلية (تواجد اقليّات دينية محرومة ومستغَلّة اقتصاديا من جهة، ومن جهة أخرى أكثرية دينية تمتلك أدوات الانتاج من الارض الى رأس المال) وأن الطائفية السياسية في سورية استُخدمت من قبل النظام السوري وسيلة لضمان السلطة، وان انعدام الثقة بين أصحاب السلطة وأصحاب المال سببه العلاقة التاريخية لا الانتماء المذهبي. وهو بذلك يتفادى التحليل الثقافوي الاستشراقي للخلافات بين اقسام المجتمع السوري.

ينجح الكاتب في فكرته الاساسية بأن هامش المناورة لدى أصحاب السلطة انحسر مع مرور الزمن. لكن ثمة اسئلة تطرح نفسها حول قضية مركزية اختلف حولها الباحثون في مدى استقلالية النخب الحاكمة في دول العالم الثالث وفي سورية على وجه التحديد عن الطبقات في المجتمع. مثلا، رايموند هينبوش، الذي كتب كثيرا عن الاقتصاد السياسي السوري، ادعى أن التحليل الماركسي التقليدي لا يصلح لتفسير واقع النظام السوري الذي نجح جزئيا في تشكيل مؤسسات تعمل بشكل «عقلاني ـــ قانوني» مستقلّة عن الطبقات السائدة في المجتمع, لكن في الطرف الآخر تحليل دافيد والدنر يرسم صورة عن نظام رسّخ سلطته من خلال تحالفات طبقية استخدمها للوصول الى السلطة لكنه وقع أسيرها منذ البداية. عالج هذا الموضوع حدّاد بمرونة واسعة ولكن حبذا لو تطرّق الكاتب الى مسألة التحالفات الطبقية واستقلالية السلطة بشكل أوسع ولا سيما دور العمّال والفلاحين وطبقات القطاع الخاص التي نشطت خارج الشبكات التي تحدّث عنها، لانه قد يخيّل للقارئ ان كل ما كان يجري في سورية كان محصورًا داخل تلك الشبكات، وأن بقية فئات المجتمع كانت منفعلة دون أن تكون فاعلة. يكتسب ذلك الشرح أهمية لان محور الكتاب يتعلّق بطبيعة التغيير بالشبكات الاقتصادية في عهد بشار الاسد. سبق أن ذكرنا دور عامل "الثقة" ألتي أوكل لها الكاتب سبب تأطير الشبكات بطريقة أثرت سلبيا على التنمية الاقتصادية. فمن الواضح ان الاندماج الذي حصل عن طريق الشراكة او العلاقات العائلية قد ساعد في بناء الثقة ما بين أصحاب السلطة وأصحاب المال، او ربما تذليل الفوارق بينهما، لكن ذلك لم يؤدّ الى التمنية البشرية بالطبع بل ساهم في زيادة وتيرة اللبرلة الاقتصادية على حساب تحالفات النظام السابقة.

قال ماركس ان الانسان يصنع تاريخه، لكن تحت ظروف لا يسيطر عليها، وكتاب حدّاد دليل على ان تلك المقولة تنطبق على الحاكم والمحكوم. فأصحاب السلطة في سورية حاولوا إحكام قبضتهم على الاقتصاد والسياسة طيلة نصف قرن من الزمن حتى بدا وكأنهم حصلوا على وصفة سحرية للسلطوية السياسية تمكنهم من الحكم الى الابد. لكن كتاب حداد دليل أن واقع الامور لم يكن كذلك. فكانت الظروف التي انتجتها تلك الوصفة تضيّق شيئا فشيئًا هامش المناورة على أصحاب السلطة. وكتاب حدّاد يُظهر أيضًا مأساة السلطوية السياسية التي دفع ثمنها الشعب السوري مرات عدة من الحرية والتنمية المفقودة والكوارث البشرية.◆

فلسطين بين العولمة والدولة

ميسون سكرية

تدرّس الانثروبولوجيا في الجامعة الاميركية في القاهرة.



خليل نخلة، فلسطين المعولمة
والتخلي عن وطن,
لندن: دار .Red Sea 1220, 2012
Khalil Nakle, Globalized Palestine:
The National Sell-Out of a Homeland,
London, Red Sea 1220, 2012.

خليل نخلة

انثروبولوجي الجليل، فلسطين.

ينضم كتاب خليل نخلة «فلسطين المعولمة» الى سلسلة من الادبيات الناشئة التي تحلل تأثير «العولمة» في شكلها الاقتصادي النيوليبرالي على صعود طبقات رأسمالية جديدة في مختلف الاقطار العربية، طبقات ترتبط مصالحها بمراكز السلطة العالمية التي تعمل بمؤازرة المؤسسات الدولية، والنخبة السياسية المحلية، وفق سياسات متماشية مع مصالحها. بناءً عليه، يحلل «فلسطين المعولمة» بايجاز دور جناح من الطبقة الرأسمالية المعولمة في فلسطين المكوّن من رأسماليي الشتات، ويكشف تواطؤها مع الداعمين الدوليين كما مع المنظمات غير الحكومية لتقويض ما يعدّه المؤلف مشروع تحرير فلسطين وإمكانية تحقيق دولة فلسطينية.

يتمتع نخلة بخبرة مديدة في تقاطعات التحالف المحوري المكون من ثلاثي «المنظمات غير الحكومية» والمساعدات الدولية والطبقة الرأسمالية. فقد كان شاهدًا عيانًا على كيفية عمل تلك الاطراف معاً من أجل مصالح الداعمين الغربيين و«لمصلحة اسرائيل، الدولة المحتلة»

حسب تعبيره. ذلك انّ الرأسماليين الفلسطينيين ونخبة اوسلو في الاقتصاد السياسي كما المنظمات غير الحكومية الفلسطينية البارزة حديثاً بالاضافة الى وكالات الغوث العابرة للحدود الوطنية تعمل جميعها تحت الاحتلال من أجل اعلاء «راية التنمية الاقتصادية». وطبقًا لمقولة الكاتب، فهذا التحالف ليس مرتبًا بشكل واعٍ ومسبق، بل إنّه «كلما طال الوضع الراهن المنبني على فرضية يتم قبولها واستيعابها بأنه لا تناقض بين البقاء تحت الاحتلال وبين عملية التنمية الاقتصادية، فالتحالف الثلاثي يتعرّف الى أهدافه بنحو أفضل واوعى.» (ص xxi). بتعبير آخر فأطراف التحالف الثلاثي يشكلون نظامًا مغلقًا يعمل وحده مثبتًا الناس في بنية هي السلطة الفلسطينية ويتأطر عملهم من خلالها.

يفرد نخلة أطول فصلين في الكتاب لشرح كيفية تحوّل التحالف الثلاثي الى نظام. فيفصّل في عوامل تشكّل الطبقة الفلسطينية الرأسمالية ومن ثم المنظمات غير الحكومية في علاقاتها مع وكالات الغوث. يليهما فصل حول رؤية الكاتب لما يسميه «التنمية التحررية المتمركزة شعبيًا»، يتبعه باستنتاج يقدّم فيه الكاتب إطاره النظري. ويعتمد هذا الإطار على ما يلي:

أولا، الإنتاج المعرفي النقدي للمنظمات غير الحكومية ولعلاقتها بالنظام النيوليبرالي ودوره في اعادة استعمار العالم الثالث من خلال عملية نزع الصفة السياسية عن التنمية بحيث تعتمد على محاربة الفقر لا محاربة البنى والسياسات الاقتصادية التي أدت اليه.

ثانيًا، نقد خطاب المساعدات الانسانية الذي يؤدي الى نزع الصفة السياسية عن الاحتلال والصراعات السياسية ويفتح الطريق للتدخل الاستعماري في أكثر من منطقة في العالم.

يفرد الكاتب فصلًا كاملًا لشرح كيف تحوّل ثلاثي «المنظمات غير الحكومية» والمساعدات الدولية والطبقة الرأسمالية الى نظام متكامل.

ثالثًا، المقارنة بين مجريات الامور في الضفة الغربية وبين التجربة الجنوب أفريقية.

اما الجزء الاهم من الكتاب فهما الفصلان الثاني والثالث حيث يجادل المؤلف في أن الطبقة الرأسمالية الفلسطينية في مرحلة ما بعد أوسلو تمثلت في فرعين منفصلين. الفرع الاول يتكوّن من «المغتربين» ممن غادر فلسطين التاريخية وراكم رأس ماله في الشتات وخصوصًا في الدول الخليجية، ليعود الى فلسطين مع اتفاقية اوسلو او بعدها. اما الفرع الثاني فهو الطبقة الرأسمالية المحلية التي يتشكل رأسمالها من الاعمال الصغيرة للأسر الفلسطينية في وحدات لا يزيد عدد العاملين فيها على عشرة عمال منها في ٩٠ بالمئة من الحالات، وتعتمد بالدرجة الاولى على المقاولات الفرعية مع الشركات الاسرائيلية. ويوضح الكاتب ان السلطة الفلسطينية طالما انحازت الى رأسماليي الشتات «لسيطرتهم على التراكم الهائل للرأسمال وتفاعلهم المباشر مع منظمة التحرير الفلسطينية بسبب مساندتهم لمشاريعها السياسية». ومن أجل التمثيل على الزواج الحاصل مع منظمة التحرير الفلسطينية قبل اوسلو وبعدها، يفصل نخلة صعود رأسماليّين اثنين هما عبد الحميد شومان، مؤسس «البنك العربي»، وحسيب صبّاغ صاحب «شركة اتحاد المقاولين» (CCC) وأهمية ادوار الوساطة التي لعباها بين منظمة التحرير وبين أنظمة عربية في مناسبات مختلفة، منها التوسط لخروج منظمة التحرير الفلسطينية من الاردن عقب مجازر ايلول الاسود. اما التجسيد الآخر للعلاقة بين المغتربين الفلسطينيين ومنظمة التحرير الفلسطينية في مرحلة ما قبل اوسلو، فهم رجال الاعمال الفلسطينيون في مصر، وخصوصا حالة سامي الشوا وامثاله من ابناء قطاع غزة الذين درسوا في اسرائيل ثم نقلوا مهاراتهم في الاعمال الى مصر.

يفصل الكتاب في دور هؤلاء الرأسماليين الفلسطينيين في تطبيع العلاقات الاقتصادية مع اسرائيل حيث إن الشوا وصبّاغ وباسل عقل ومنيب المصري أدّوا دورا مهمًا في التوسط بين وزارة الخارجية الاميركية وياسر عرفات خلال صياغة مسودة القرار ٢٤٢ مثلما أدّوا دورا في قبول هذا الاخير لذاك القرار. وبتعبير الكاتب، فقد حوّل الزواج بين منظمة التحرير الفلسطينية ورأسماليي الشتات المنظمة المذكورة من منظمة ثورية

الى منظمة بورجوازية. خلال كل تلك المدة، كان عرفات ممثلاً لنخبة سياسية كانت تتهم رجال الاعمال الفلسطينيين بأنهم «كومبرادوريون»، فـإذا بها تدعمهم وتشجعهم وتتوسطهم بينها وبين الانظمة العربية والادارة الاميركية. ثم ما لبث أن تجدد عقد الزواج هذا بعد عودة رأسماليي الشتات الى اراضي السلطة الفلسطينية.

ان اعتماد اقتصاد السوق من السلطة الفلسطينية، وتفعيل القوانين التي تركّز على استثمارات تحفّز الاحتكارات وتتجاهل الزراعة والصناعة لصالح العقارات والقطاع المصرفي، ادى الى استحواذ رأسمال الشتات على الاستثمارات الجديدة في ظل السلطة الفلسطينية. عنى ذلك تهميش الرأسماليين الصغار والمتوسطين من الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين والذين حاولوا جلب الأنظار لمأساتهم عبر العديد المؤتمرات من دون أية نتيجة تذكر. فقد سيطر رأسماليو الشتات على البنى التنظيمية وعلى السياسة الاقتصادية العامة من أجل المحافظة على مصالحهم في ما يطلق عليه الكاتب تعبير «سايكس ـ بيكو اقتصادي».

يعتمد رأسماليو الشتات على استراتيجيتين اثنتين. تقول الاولى بأن التحالف الاقتصادي مع الاسرائيليين هو الطريق الى السلام بين «الشعبين»، علمًا أن معظمهم يمثل شركات اسرائيلية عاملة في اراضي السلطة الفلسطينية. وتقوم الثانية على التشدق بالوطنية اذ يقدم هؤلاء انفسهم بأنهم يريدون «بناء وطن» عن طريق التطبيع الاقتصادي مع اسرائيل. وتتجلى عملية البناء هذه بأوضح ما تتجلّى في «المناطق الاقتصادية الحرة» التي حوّلت الفلسطينيين الى يد عاملة رخيصة لدى الشركات الاسرائيلية، فبعد أوسلو أنشئت في الضفة الغربية وقطاع غزة خمس مناطق حرة اقتصادية في بيت حانون وطرقومية وجنين، وأيريتز في غزة. وقد أقفلت هذه الاخيرة بعد حصار غزة وبعد الفصل بين الضفة والقطاع ووادي الأردن. والجدير بالذكر أن هذه المناطق الصناعية الحرة كانت جزءا من اتفاقيات السلام، بنيت بتمويل من اليابان والاتحاد الأوروبي والدول المانحة على أساس انها سوف تسهم في توفير فرص عمل للفلسطينيين، فكان أن اعتمدت كليا على المصانع الاسرائيلية التي استفادت من المساعدات الموجهة أساسًا للسلطة ومن اليد العاملة الفلسطينية الرخيصة ومن تسهيل تصدير السلع الاسرائيلية الى دول الخليج العربي بالدرجة الاولى.

حوّل الزواج بين منظمة التحرير الفلسطينية ورأسماليي الشتات المنظمة المذكورة من منظمة ثورية الى منظمة بورجوازية، وتجدد عقد الزواج هذا بعد عودة رأسماليي الشتات الى اراضي السلطة الفلسطينية.

كذلك الامر، يجري التطبيع في مختلف لجان رجال الاعمال الاسرائيلية ـ الفلسطينية المشتركة والتي تعقد مؤتمراتها في اسرائيل او في الاردن حيث يدعى فيها رجال الاعمال الاسرائيليون الى الاستثمار في اراضي السلطة الفلسطينية. ولقد أصبح رأسماليو الشتات من القوة بحيث استشعر ياسر عرفات نفسه خطرهم، فحاول تقليب الرأسماليين من السكان الأصليين عليهم لكنه لم ينجح في مهمته، ففي نهاية المطاف كان هؤلاء يحظون بدعم اسرائيل والولايات المتحدة و«المجتمع الدولي».

تظهر الاسماء نفسها من رأسماليي الشتات (صباغ، مصري، عقل، شومان) في الفصل اللاحق من الكتاب حول الداعمين الدوليين من منظمات غير حكومية ووكالات تنمية دولية. يفصّل الكتاب في ادوار «مؤسسة التعاون» التي انشأها رأسماليو الشتات كممثل للمجتمع المدني الفلسطيني، بما فيها دورها في تسييس المساعدات الى السلطة الفلسطينية، من جهة، وفي نزع الصفة السياسية عن التنمية، من جهة اخرى، كما لو أن التنمية تحصل في دولة «طبيعية»، مستقلة وذات سيادة. ولقد أفضت سياسات التنمية خلال اتفاقية اوسلو وبعدها، مثل المساعدات الدولية، الى خلق طبقة من الفلسطينيين المستفيدين من وظائف في المنظمات غير الحكومية. لقد أسهمت «مؤسسة التعاون» عبر ادارتها للأموال والمنح وعبر دورها كوسيط مهم بين وكالات الغوث والمانحين والمنظمات غير الحكومية المحلية في عملية تقييد الفلسطينيين بالقروض البنكية

وقروض من المنظمات غير الحكومية على حد سواء. ويبرهن هذا الفصل من الكتاب على الطبيعة الفائقة التسييس لعملية اعطاء المساعدات – بما فيها مساعدات «مؤسسة التعاون» – ومدى ما تنطوي عليه من «نفاق ومراوغة وخداع». وتظهِر حالة «مؤسسة التعاون» بالضبط كيف أن الطبقة الرأسمالية تعمل وثيقًا مع النخبة السياسية ومع المؤسسات الدولية، للسيطرة على المجتمع المدني الفلسطيني.

ومن نافل القول أنّ وجود هذه الهيمنة خنق مخيلة الفلسطينيين، وطوّعهم لقبول «الوضع الراهن»، لا بل هو ثبّتهم في بنية تبدو لنا صعبة الكسر. أما من أجل تفكيك التحالف الثلاثي المذكور، فانّ المؤلف يقترح «التنمية التحريرية المتمركزة شعبيًا» في برنامج من خمس نقاط: ١) تحقيق التحرر الذاتي، والوعي «الأصلي الحقيقي المحفّز» عبر تغيير النظام التعليمي؛ ٢) المشاركة الكاملة للجماعة في تحديد نوعية التعليم التي تريد؛ ٣) خلق ظروف مهيئة للتنمية التحررية المتمركزة شعبيا عبر الاستثمار في الرأسمال البشري؛ ٤) وضع الانسان المناسب في المكان المناسب؛ ٥) تلبية الجامعات «لحاجات المجتمع» (ص ٣٢ – ٣٥).

والمفارقة انّ كل هذه النقاط، المقدمة بما هي حلول، تنتمي إلى الوصفات الجاهزة التي يدعو اليها البنك الدولي اصلا وسواه من مؤسسات الدعم الدولية، فيبدو مما

يعتمد رأسماليو الشتات على استراتيجيتين: الاولى تقول إن التحالف الاقتصادي مع الاسرائيليين هو الطريق الى السلام بين «الشعبين»، وتقوم الثانية على التشدق بالوطنية.

سبق أنّ العمل خلال عشرين عامًا في قطاع التنمية، يعوق اي امكانية تخيّل أيّ شيء آخر يقع خارج ما قد جرى تعويدنا عليه. ربما هو سلطان الايديولوجية النيوليبرالية التي جففت قدرتنا على مجرد التفكير بوصفات تتعدى تلك التي يقدمها النظام النيوليبرالي نفسه والذي يفترض بالكتاب أنّه ينتقده.

ثلاث ملاحظات تقييمية

أولًا: إن التركيز على التعليم وعلى المهارات والوعي والتنمية المجتمعية والثقافة، أو على الهوية «الاصلية» او الهوية عمومًا – والتي تحتل مجتمعة موقع القلب من حلول «التنمية التحررية المتمركزة شعبيًا»، انما هي تكرار للاساسي من برامج المؤسسات الاقتصادية الدولية منذ التسعينيات، اي انها النيوليبرالية بلباس انساني. ولعل ابرز سؤال تثيره هو: كيف يمكن لمعالجات تركّز على التنمية المجتمعية وعلى تعميم التعليم وتنمية المهارات، أن تواجه التحالف الثلاثي المتكوّن من النخبة الاقتصادية – السياسية والمؤسسات الدولية والمنظمات التنموية غير حكومية؟

ثانيًا: ان كتاب «فلسطين المعولمة» جهد مميز ومبتكر في فهم الوضع الاقتصادي – الاجتماعي في الضفة الغربية، وهو قابل لأن يتحول الى دليل عمل فعّال لكل المناضلين من أجل العدالة في فلسطين. لكن الكاتب يستنتج فيه بعض الخلاصات دون إسناد مباشر بالحجج والبراهين الوافية. فمثلا يفتقر الكتاب إلى الاحصاءات والاستبيانات او الامثلة التي تدعم مقولته عن الثروات التي راكمها فلسطينيو الشتات من خلال علاقتهم بالسلطة الفلسطينية.

ثالثًا: ان لهجة الكاتب الاخلاقية تقلّل من قيمته ووقعه بعض الشيء، فعلى الرغم من تحليله الدقيق للنظام الفلسطيني القائم وبُناه الطبقية والتداخل بين مصالح رجال الاعمال والسلطة السياسية ومصالح مراكز السلطة العالمية، فانّه يعرض حلولًا لا تنطلق من مصالح الاكثرية الشعبية بقدر ما تقوم على قيم معيّنة «يفترض» على افراد النخبة الاقتصادية – السياسية ان يتحلوا بها – بما هم فلسطينيون – على اعتبار ان عدم تقيّدهم بتلك القيم يعني أنهم «يبيعون وطنهم» ويطبّعون مع الاحتلال.◆



«القرامطة»

سيناريو فيلم لعمر أميرالاي ومحمد ملص

ننشر في ما يلي ١٣ مشهدًا من سيناريو «القرامطة» (١٩٨٠) الذي عمل عليه عمر اميرالاي، ومحمد ملص، وصنع الله ابراهيم، وصمّم له الازياء جان بيير ديليفير. لم يبصر السيناريو النور، لكن قراءة هذه المختارات منه اليوم، تضيء حقبة تبدو معاصرة من تاريخنا العربي الاسلامي بقدر ما تغني معرفتنا بإبداع الراحل عمر اميرالاي وزميليه السينمائي محمد ملص والروائي صنع الله ابراهيم.



عمر اميرالاي

(١٩٤٤–٢٠١١) سينمائي، سورية. من افلامه: «سد الفرات» (١٩٧٣) الدجاج (١٩٧٧) «الحياة اليومية في قرية سورية» (١٩٧٤) «سيدة شبام» (١٩٨٨) «رائحة الجنّة» (١٩٩٣) آخرها «طوفان في بلاد البعث» (٢٠٠٣) يحوي نقده اللاذع لنظام البعث. وله افلام تسجيلية عن سعدالله ونوس، بنظيرعلي بوتو، ميشال سورا، رفيق الحريري وغيرهم.

أنقذَتنا كتابة سيناريو «القرامطة» من الانحياز للحركات الاسلامية

محمد ملص

سينمائي سوري. من اعماله «أحلام المدينة»، «المنام» (١٩٨٨)، «الليل» (١٩٩٣)، «باب المقام» (٢٠٠٥) حازت أفلامه على جوائز عدّة في مهرجانات عربية ودولية.

نريد أن نضع القارئ العربي اليوم أمام نص سيناريو فيلم روائي عن «القرامطة»، كان قد كتب قبل حوالي خمسة وثلاثين عامًا ولم يصبح فيلمًا. تأخذني الذاكرة إلى التساؤل من جديد: ما الذي جعلنا نفكر، ونحن في الثلاثينيات من العمر، في كتابة هذا المشروع؟

بل ما الذي جمعنا نحن الثلاثة، عمر أميرالاي وصنع الله ابراهيم وأنا، حول مشروع كهذا؟ فننخرط في قراءة الوثائق والمراجع ودراسة اليوميات، ثم نحاول أن نستبصر التاريخ، ونتخيل ونكتب ونعيد المحاولة مرات عديدة، على مدى ثلاثة أعوام أو أكثر؟!

حين أفتح صفحات هذا السيناريو، وقد فارقنا عمر أميرالاي، يعود إلى داخلي التساؤل من جديد حول كنه هذه الشخصية السينمائية التي فقدناها. جاء يومًا ما إلي، وقد اختمرت في رأسه فكرة كما هو معتاد، وقال كلمة واحدة «القرامطة»! ففتح أمامي، وربما أمام صنع الله ابراهيم أيضًا، ردهة بل ردهات، بل مَعْبرًا وربما معابر عديدة من الوعي والاطلاع والحوار والنقاش والكتابة والتغيير لسنوات عدّة، تبدو لي اليوم محطة راسخة في التشارك الخلاق، ونواة صلبة للتعاون الإبداعي الذي امتد بيننا لأكثر من خمس وعشرين سنة من عمرنا.

ليس لدي أي شك أبدًا في أنّ عمر أميرالاي، حين جاء إلي - في البداية ورمى بكلمة «القرامطة» (في الحقيقة لم يكن عمر يأتي إلي، بل كنا معًا دائمًا) كان لديه الإحساس العميق بأنّ ما يسمى في سورية «التصحيح»، ليس هو في الحقيقة إلا البذور الأولى للثورة المضادة. بالصدفة، أو بعدمها، ومنذ اللحظات الأولى لقيامها، انقضّت بشراسة على التجربة السينمائية التي كانت قد بدأت يومها، وأجهضتها انتقامًا مما قدمته تلك التجربة من أفكار وأفلام، وعقابًا على ما حاولت تلك التجربة أن تؤسسه على صعيد التعاضد السينمائي في البلدان العربية لسينما بديلة وثقافة عضوية وحيّة.

ربما لم يكن أمام هذا السينمائي الوثائقي يومها إلا اللجوء إلى الروائي وإلا العودة إلى التاريخ.

يومها لم تكن المرارة قاتلة بعد! وكان ثمة أمل. لذلك كان عمر يحس بالرغبة في التماهي مع مرارة التجربة القرمطية على أكثر من صعيد.

أتذكر، ولن أنسى أبدًا ونحن نكتب، كيف كان عمر يحدثني عن اللحظات الأخيرة في حياة «الحسن الأعصم»، باني دولة القرامطة، وكيف كنت أماهي بين لحظات البحث عن الهواء والاختناق، بين الشخصيتين: المتحدِث والمتحدث عنه. بينما كان الفجر يلوّح الستارة البيضاء، لكنه لم يكن ينشق يومها إلا عن سواد أواخر السبعينيات السورية.

بعيدًا عن مطبخ ومختبرات الكتابة المشتركة، التي جمعتنا نحن الثلاثة, عمر وصنع الله وأنا، والتي جمعتني بعمر عديدًا من المرات بعدها، أريد أن أقول للقارئ إن سيناريو «القرامطة» ليس عن القرامطة فقط، بل عن تجربة بناء دولة ومجتمع مختلف تسوده العدالة، وعن عسف السلطات والخلفاء الذين حكموا الدولة الإسلامية في العصر العباسي.

وأعتقد أن في ثنايا هذا السيناريو، ثمة حدسًا مسبقًا ندّعي استبصاره، مع ما كان يحدث في سورية خلال فترة كتابة السيناريو (١٩٧٦ ــ ١٩٧٩) وما كان يسمى بالصحوة الإسلامية، التي كدنا أن ننحاز إليها، فأنقذتنا الكتابة منها. لذلك لم يكن مستغربًا على الإطلاق، مع تعثر تنفيذ الفيلم فيما بعد، أن تتحوّل الفصول الكثيرة من السيناريو ، إلى حلقات من مشروع تاريخي آخر للتلفزيون (أعلنه للمرة الأولى) بالطموح ذاته، بعنوان «الخلفاء». حاولنا خلاله معًا، عمر وأنا، بمعزل عن التجربة القرمطية، أن نتناول ثلاثة عشر خليفة حكموا خلال مختلف العصور الاسلامية المتعددة.

لكن هذا شيء آخر وكان لا بد له من أن يتعثر أيضًا.

أن لا يتحقق سيناريو كهذا، وأن لا يصبح فيلمًا (وأن لا يصبح الخلفاء عملًا دراميًا) قد لا يبدو لي اليوم أمرًا مستغربًا، بعد هذه السنين الطويلة من المعاناة والمواجهات مع الأوضاع الراهنة، ومع الأنظمة التي سادت وسيطرت على كل شيء. ففي جُعَبنا، ونحن اليوم في الستينيات من العمر، سواء كنا تحت التراب أو فوقه، الكثير من المشاريع المجهضة والموؤودة. لعل لهذه الإطلالة على سيناريو «القرامطة» أن تساهم في فهم وإحساس الأسباب العميقة وراء نهوض الشوارع بحثًا عن الكرامة المنتهكة وعن الحرية المفقودة، وبحثًا عن الذات التي سلبت خلال هذه الأعوام الطويلة من الاستبداد.

هيا إلى مجتمع الإلفة
هيا إلى الجنّة على هذه الأرض

صنع الله ابراهيم
روائي، مصر. من اعماله: «تلك الرائحة»، «اللجنة»، «ذات»، «شرف»، «وردة»، «القانون الفرنسي» وغيرها.

جان بيير دليفير
مصمم أزياء فرنسي لبناني ذو شهرة عالمية. صمم الازياء لمسرحيات الاخوين رحباني وفيروز.

مقدمة

في منتصف القرن الثامن الميلادي، استولى العباسيّون على الخلافة الإسلامية في بغداد وأقاموا فيها سلطة قويّة شديدة البأس بلغت ذروتها في عهد الخليفة هارون الرشيد.

وفي ظلّ هذه السلطة شهد المسلمون ابتعادًا تامًا عن المبادئ المثالية للإسلام التي جاء بها الرسول محمّد، رافعًا شعارات المساواة بين البشر وإلغاء الرقّ. وتبلورت المعارضة للسلطة المستبدّة في عدّة اتجاهات اتّخذ أغلبها غطاءً دينيًّا، وكان أبرزها المطالبون بأحقية أهل البيت في الخلافة، وعُرف مؤيّدو هذا الحقّ بالشيعة.

ومن فرط ما تعرّض له الشيعة من اضطهاد على يد السلطة العباسيّة (والأمويّة من قبلها) تطرّفوا إلى المناداة بعودة الإمام، وهو ابن عمّ الرسول، أو واحد من نسله، ممّا يمثّل خروجًا عن المبادئ الأساسية للإسلام التي ختمت عملية النبوّة بوفاة النبي محمّد. بل تمادى أحد فروع هذا التيّار، وهو الدعوة الإسماعيلية، فألّهت إمامها، وأقامت في القاهرة خلافة مناوئة للعباسيين وهي الخلافة الفاطمية، في حين اتّجه تيار آخر وجهة معاكسة، إذ تميّز بطابع عقلانيّ صريح، وبأساس اجتماعيّ قوي، وهو الذي عُرف في التاريخ باسم الحركة القرمطية.



• المشهد ١

بغداد ـ قصر الخليفة القاهر بالله

قبل ألف عام. قصر الخليفة العبّاسي القاهر بالله.

إحدى ردهات القصر. صدى وقع أقدام. خطوات سريعة وحازمة تقترب من بعيد. حفيف ملابس. ضربات صارمة لكعب رمح على الأرض الرخامية تواكب خطوات رجل. تنعطف أقدامه إلى ردهة أخرى. يقترب منّا الرجل أكثر. إنّه الخليفة القاهر. رجل ربعة. في الأربعينيات. أسمر معتدل الجسم. أصهب الشعر. طويل الأنف وفي مقدّم لحيته السوداء طول. تعابير وجهه تشي بطبع عصبيّ وقاسٍ.

يدخل القاهر بحزم «قاعة الخلافة» المغلقة جدرانها بستائر موشّاة بالذهب وهو يضرب الأرض برمحه على إيقاع خطواته. يتّجه إلى صدر القاعة حيث كرسي الخليفة. يجلس عليه. يضع الرمح بين ساقيه، ويُرخي نصله على كتفه اليمنى.

يلج القاعة رجل كهل يرتدي بردعة المؤرخين التي عرفوا بها وقد تأبّط كتابًا ضخمًا. يتقدّم بخطوات قصيرة متسارعة حتى منتصف القاعة. يركع ويقبّل الأرض أمام الخليفة القاهر.

ينقر الخليفة بكعب رمحه على الأرض. يرفع المؤرخ رأسه قليلًا فيقع نظره على الرمح أولًا، ثم يد الخليفة، ثم نقش خاتمه الذي كتب عليه «القاهر بالله المنتقم من أعداء الله لدين الله».

الخليفة: ـ لتصدقني أو هذه!

وأشار إليه بالحربة.

المؤرّخ: ـ أصدق يا أمير المؤمنين.

الخليفة: ـ عمّا أسألك عنه، ولا تغيّب عنّي شيئًا، وتُحسن القصّة، ولا تسجع فيها، ولا تُسقط منها شيئًا.

المؤرّخ: ـ نعم يا أمير المؤمنين.

الخليفة: ـ أنت علاّمة بأخبار خلفاء بني العبّاس في أخلاقهم وشيمهم من أبي العبّاس السفّاح فمَن دونه.

المؤرّخ: ـ نعم يا أمير المؤمنين.

يقلّب المؤرّخ بضع صفحات من الكتاب الذي وُضع الآن على حامل مصحف. يصمت قليلًا، ثم يرفع رأسه ليخاطب الخليفة بتهيّب شديد.

المؤرّخ: ـ على أنّ الأمان لي يا أمير المؤمنين.

الخليفة: ـ ذلك لك.

يعود المؤرّخ إلى كتابه ويقرأ فيه.

المؤرّخ: ـ أمّا أبو العبّاس السفّاح فكان سريعًا إلى سفك الدماء، واتّبعه عمّاله في الشرق والغرب في فعله، واستنّوا بسيرته.

الخليفة: ـ أخبرني عن المنصور.

المؤرّخ: ـ الصّدق يا أمير المؤمنين.

الخليفة: ـ الصّدق.

المؤرّخ: ـ كان والله أوّل من أوقع الفرقة بين ولد بني العبّاس ابن عبد المطّلب وبين آل أبي طالب، وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدًا، وكان أوّل خليفة قرّب المنجّمين وعمل بأحكام النجوم، وكان أوّل خليفة ترجمت له الكتب من اللغة الأعجمية إلى العربية، منها «كليلة ودمنة»، وكتب أرسطوطاليس من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس، وكتاب إقليدس، وكتاب الأرثماطيقي، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية، وأخرجت للناس فنظروا فيها وتعلقوا إلى علمها، وكان أوّل خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وصرفهم في مهماته وقدّمهم على العرب، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده، فسقطت قيادات العرب، وزالت رياستها، وذهبت مراتبها.

الخليفة (مقاطعًا): ـ قد قلت فبيّنت كيف سقطت قيادات العرب وزالت رياساتهم وذهبت مراتبها.

المؤرّخ مستدركًا.

المؤرّخ: ـ ما قلت إلا الصّدق يا أمير المؤمنين.

الخليفة مقاطعًا بغضب.

الخليفة: ـ وهل بحجّة الصّدق تتطاولون هكذا على بني العباس وتسيئون إلى الذين حملوا وزر الأمّة يا ابن الزّانية؟

يتناول الخليفة الحربة ويهزّها ثمّ يهوي بها نحو المؤرّخ الذي يزيغ منها فتخطئه.

يقف المؤرّخ الذي يرتجف من الخوف ويتّجه نحو الحربة التي انتهى بها المطاف عند باب القاعة، فيلتقطها، ثمّ يعود بها بسرعة إلى الخليفة ويسلمه إيّاها.

يتناول الخليفة الرّمح منه بعصبية قائلًا:

الخليفة: ـ ويلك، أبغضت ما فيه عيناك ومللت الحياة؟

المؤرّخ: ـ لا يا أمير المؤمنين؟

الخليفة: ـ حدّثني عن الرّشيد إذن كيف كانت طريقته.

المؤرّخ: ـ كان مواظبًا على الحجّ، متابعًا للغزو،

واتّخذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة، فعمّ الناس إحسانه مع ما قُرن به من عدله، ثم بنى الثغور، ومدّن المدن، وحصّن فيها الحصون، وأحكم بناء الحرب، فقمع الباطل وأظهر الحقّ، وأنار الإسلام، وبرّز على سائر الأمم، وكان أحسن الناس في أيامه أمّ جعفر، وكان أوّل من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العبّاس، وبالنّرد، فسمّى الناس أيّامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها «أيّام العروس».

الخليفة: ـ أراك قد أقصرت من أفعال أم جعفر، فلم ذلك؟

المؤرّخ: ـ يا أمير المؤمنين، ميلًا في الاختصار وطلبًا للإيجاز.

الخليفة: ـ زدني منها!

المؤرّخ: ـ نعم يا أمير المؤمنين، كان من فعلها وحسن سيرتها في الجدّ والهزل ما برزت فيه على غيرها، فهي أوّل من اتّخذ الآلة من الذهب والفضّة المكلّلة بالجوهر، واصطنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ ثوبٌ وُشي اتّخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أوّل من اتخذ الشاكرية والخدم والجواري يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وتشبّه الناس في أفعالهم بأمّ جعفر، ولمّا أفضي الأمر إلى ولدها، يا أمير المؤمنين، قدّم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم، فلما رأت أمّ جعفر شدّة شغفه بالخدم واشتغاله بهم، اتّخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعمّمت رؤوسهنّ وألبستهنّ الأقبية كالرجال والمناطق فماست قدودهنّ وبرزت أردافهنّ وبعثت بهنّ إليه فاختلفن بين يديه فاستحسنهنّ واجتذبن قلبه إليهنّ وأبرزهنّ للناس من الخاصة والعامة، فاتّخذ الناس الجواري المطمومات (ذوات الشعر القصير) وسمّوهنّ الغلاميّات.

عند سماع الخليفة ذلك الوصف يذهب به الطرب والسرور والفرح فينادي بأعلى صوته: ـ يا غلام، قدح على وصف الغلاميات!

يبادر إليه جوار كثيرة يتوهّمهنّ المرء غلمانًا، فيسرع بشربه عند رؤيتهنّ ويقول: ـ هيه!

المؤرّخ: ـ نعم يا أمير المؤمنين، ثمّ أفضى الأمر إلى المأمون الذي اجتهد في قراءة الكتب القديمة، وأمعن في درسها، وأطنب على قراءتها، فافتنّ في فهمها، وبلغ درايتها، وجالس المتكلمين، وقرّب إليه كثيرًا من الجدليين المبرّزين والمناظرين وغير هؤلاء ممّا وافقهم وخالفهم، فرغب الناس في صنعة النظر، وتعلموا البحث والجدل، حتى جاء عام ٢٠١.

◆ المشهد ٢

مشارف قرية في سواد العراق

عند مشارف قرية في سواد العراق يبدو حقل زراعي انتشرت فيه عائلة مكوّنة من أب وأمّ وأطفالهما. الجميع يعملون.

الأب يعمل على تحويل مجرى الماء من ساقية آتية من القرية ومتدفقة إلى ساقية صغيرة داخل حقله.

رأس بشري مقطوع تحمله المياه وتصدمه بحاجز السّاقية الرئيسية، ثم يندفع باتجاه ساقية الحقل.

الرجل المنحني فوق ساقية حقله يعمل على تسوية جوانبها.

يجرف الماء الرأس المقطوع الذي يصطدم بيدَي الرجل.

ينتفض الرجل واقفًا، هلعًا، ينظر نحو القرية، يصرخ ـ الجباة.! جباة الخليفة.!

◆ المشهد ٣

القرية تبدو الآن منهوبة، خاوية، بعض الحرائق، أبواب مغلقة، رجال معلقون من أطرافهم إلى الأشجار أو مداخل البيوت، حاجيات وأثاث مرميّة في الأزقّة، عدد محدود من الدّواب بين شارد ومقتول، أدوات زراعية محطمة.

◆ المشهد ٤

الراوي يضرب على الدفّ ويروي: ـ يُروى عن محمّد بن يزيد بن مركوب عن عبد الله الفراتي عن نصر بن مروان بن منذر بن باقر رضي الله عنه، قال: حدّثني معروف ابن السائب بن محمد بن شمس الدين أبو عبد الله المهزار عن عمر بن عماد الدين بن عمّار بن أبي أمّه، قال: روى عكرمة بن عقبة بن فلقان أنّه سمع من أحد المؤمنين الأتقياء أنّ من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار.

نكتشف أنّ الراوي يروي أمام حلقة من أهالي القرية الملتفّين حوله في ساحة القرية.

حين ينهي الراوي رواية الحديث يتلفت الناس فيما بينهم ويبدأ البعض تدريجيًا بمدّ ألسنتهم إلى

أرنبات أنوفهم.
كلّ الأهالي يمدّون ألسنتهم ما عدا ثلاثة من الرجال ينظرون إلى الراوي والأهالي باستغراب. أحد هؤلاء الثلاثة رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، قويّ البنية، يرتدي ملابس الفلاحين، هو (حمدان قرمط) يقف ويمسك بيده رسن ثور.
جُند الوالي يخترقون الساحة بجيادهم بسرعة، فيتفرق الأهالي ويتناثرون. يرمي الراوي الدّف ويهرب.
يصدم الجند بعض الأهالي. يفرّ الآخرون. فرس تدهس الدّف. حمدان والإثنان الآخران يتنحون جانبًا.
حمدان يسحب الثور خلفه ويتّجه صوب سوق القرية.

◆ المشهد ٥
سوق القرية

نتعرّف من خلال التحيّات المتبادلة بين حمدان وبين الأهالي والباعة أنّ أهالي القرية يكنّون له المودّة.
يبدو أمام دكان أحد الباعة أنّ جمهرة وصخبًا وصياحًا قد نشأت بين بعض الناس.
يقترب حمدان من شيخ طويل القامة، مهيب الطلعة، يرتدي جبّة خضراء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة، وله عينان واسعتان. توحي هيئته العامّة أنه كان ربيب نعمة ماضية.
عدد من الرجال من أعيان القرية وملاك الأراضي يحيطون بالشيخ ويلوّحون في وجهه.
ــ لصّ منافق. أخذت أجرك مرتين. لم يكفك أن تسرق تمرنا فرحت تبيع نواه.
البقال يبذل الجهود لتهدئة السادة:
ــ لقد أخطأتم. دعوني أشرح لكم. هذا وليّ من أولياء الله.
بينما يحاول البقال أن يشرح وهو يشقّ طريقه بين السّادة والناس لتهدئة الموقف يلمح حمدان أمامه، فيهتف: ــ هذا هو حمدان قرمط، دعونا نحكّمه الرأي.
الشيخ الأهوازي واقف بثبات وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة. يفسحون الطريق لحمدان الذي يقترب، فيهدأ الصياح.
البقال (يخاطب الجمع): ــ لقد طلبتم مني رجلاً يحرس لكم نخلكم، حقّ؟
أحدهم: ــ حقّ.
البقال: ــ ودللتكم على هذا الشيخ الذي وفد علينا منذ شهر وعاش بيننا زاهدًا متعبدًا، حقّ؟
البعض: ــ نعم نعرف كلّ هذا.
البقال: ــ إنّ الشيخ قام بمهمّته وأعطيتموه أجره. ولقد كان يشتري منّي كلّ يوم رطلاً من التمر لإفطاره، وطلبت منه أن يحفظ النوى لأشتريه. وما في اليوم هو نوى التمر الذي اشتراه مني.
حمدان: ــ لقد ظلمتم الشيخ والله.
أحدهم: ــ لم نكن نعلم أنه يشتري التمر.
أحدهم: ــ جُلّ من لا يخطئ.
حمدان: ــ وحقّ عليكم الاعتذار له.
ثالث: ــ نستميحك عذرًا أيّها الشيخ ونرجو أن تقبل عذرنا.
البقال يقبل على الشيخ الأهوازي في حماسة ويمسك بيده ويقبّلها.
البقال: ــ اغفر لهم يا مولانا، فإنّهم لا يعلمون. واغفر لي أيضًا. فأنا السبب.
ينصرف المجموع.
يلتفت البقال ليقدّم حمدان للشيخ فيجد حمدان قد مضى إلى حيث ترك ثوره.
حمدان يجذب مقود الثور.
يمسح الشيخ على رأس البقال وهو يردّد: ــ لا بأس. لا بأس.
حمدان يجذب مقود الثور، والثور يحرن عن الحركة.
الأهوازي ينظر باتجاه حمدان ثم يتجه نحوه ببطء.
الأهوازي يحاذي حمدان ويخاطبه: ــ دعه فإنّه لم يؤمر بعد.
حمدان (مدهومًا): ــ ومن يأمره؟
الأهوازي: ــ الذي يأمرني ويأمرك!
حمدان في حيرة، بينما الأهوازي يمشي دون أن يلتفت خلفه، وبعد أن يمضي قليلًا يتحرك حمدان نحو الشيخ ويتبعه قائلًا: ــ كأنك تعمل بأمر آمر لك.
يلتفت الشيخ نحو حمدان، وبوجه بشوش يومئ برأسه موافقًا. يقترب حمدان من الشيخ.
حمدان: ــ وهل أمرت بالمجيء إلى القرية؟
الشيخ: ــ أقول لك وتكتم الأمر؟
حمدان: ــ أفعل.
الشيخ: ــ عُهد إليّ أن أنقذ أهل هذه القرية وأملكهم أملاك أصحابها.
الشيخ ينظر إلى حمدان، حمدان مفكرًا. يصمت الاثنان ثم يتوقفان.

◆ المشهد ٦

الشيخ وحمدان في المسجد.

يلتفت كلّ منهما نحو الآخر بعدما فرغا من الصلاة، تتعانق يداهما، ويبدأ الشيخ بأخذ العهد على حمدان.

الشيخ: ــ جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه.

حمدان: ــ نعم.

الشيخ: ــ وذمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبيائه وملائكته ورسله.

حمدان: ــ نعم.

الشيخ: ــ أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته من أمري.

حمدان: ــ نعم.

الشيخ: ــ وأمر امامنا المستور الذي سيتحقق العدل الشامل بظهوره للبشر.

حمدان: ــ نعم.

◆ المشهد ٧

حقل زراعي كبير. الوقت أيّام الحصاد. الأعمال في الحقل متروكة.

كلّ الفلاحين العاملين فيه يقفون في الصلاة خلف حمدان قرمط.

الفلاحون ينتهون من الصلاة ويطوون الحصيرة ثمّ يتوزعون في الحقل للعمل.

يتجه حمدان أيضًا إلى العمل.

الملاحظ يراقب العمل عن بعد.

فجأة يتجه الفلاحون إلى الصلاة من جديد.

يهرع ملاحظ نحو الملاحظ الأول.

الملاحظ الثاني:

ــ لم يعد أولاد الكلاب يعملون شيئًا. هذه هي المرّة الثلاثون التي يصلون فيها اليوم.

الملاحظ الأول: ــ إنّه ذلك الشيخ الملعون الأهوازي الذي أقنعهم بأنّ الصّلاة خمسون مرّة وليست خمسًا.

الملاحظ الأول ينادي على حمدان قائلًا: ــ يا كلب. تعال إلى هنا.

حمدان ينظر نحو الملاحظ، يتجاهل النداء ويتجه لينضمّ إلى الفلاحين في العمل.

الملاحظ بعصبية: ــ يا كلب! تعال إليّ!

الفلاحون يتوقفون عن العمل تدريجيًا ويظلون في أماكنهم، حمدان يتفاعل ببطء في عمله.

الملاحظ مغتاظ، والفلاحون ينظرون وينقّلون النظر بين



حمدان والملاحظ.

الملاحظ الأول يطلب من الملاحظ الثاني مناداة الوكيل ويلتفت نحو حمدان ويقول وكأنّه يخاطب نفسه:

ــ الكلب لم يعد يستجيب.

يتوقف حمدان عن العمل. الفلاحون في لحظة ترقب.

يظهر الوكيل مقتربًا بسرعة وانفعال وخلفه خادم يحمل له شمسية وهو يثرثر كلامًا فيه شتائم للفلاحين، وحين يقترب أكثر نسمع منه:

الوكيل: ــ عدتم إلى بدعكم يا أولاد الكلاب.

حين يمرّ الوكيل أمام الملاحظ يقطع ثرثرته هذه ويتحدث مع الملاحظ بصوت خافت. ينصرف الملاحظ جريًا.

يتابع الوكيل تقدّمه ويستأنف شتائمه وكأنّه لم ينقطع عنها: ــ عدتم إلى بدعكم يا أولاد الكلب. لقد أمرنا النبيّ صلى الله عليه وسلم بخمس صلوات. لا بخمسين.

حمدان يعود ببطء إلى التلهي بعمله ويجيب الوكيل

حمدان: ــ والله ما جعلها خمسًا إلا أنتم حتى تشغّلونا.

لم يكد حمدان يتم جملته حتى نهض أحد الفلاحين وقال: ــ إنّ لله علينا حقًا يجب أن نؤديه.

ويدعو الفلاح الفلاحين للصلاة.

يتجه حمدان ويتبعه الفلاحون إلى الصلاة، يحاول الوكيل أن يفرّقهم ويمنعهم من إقامة الصلاة، وحين يفشل يحتار في أمره ويتحرّك في مكانه بلا هدف. الصلاة تقوم.

صوت خيول العساكر.

يتوجه العساكر مباشرة نحو الفلاحين ويبدأون بتفريقهم بالسياط بينما يتجه قائد العسكر نحو الوكيل وينزل عن جواده.

الوكيل: ــ الكلاب يصلّون طوال الوقت ولا يعملون شيئًا.

قائد العسكر يأمر عساكره بسوقهم إلى السجن، فيصرخ الوكيل: ــ لا. أرجوك، نحن الآن في وقت الحصاد.

يتوجه القائد الآن نحو العساكر ويأمرهم بسوق



الفلاحين نحو الحقول.
يتبعه الوكيل ويقف إلى جواره.
العساكر تمكنوا الآن من تفريق الفلاحين وسوقهم إلى الحقول.
الكلّ يعود إلى العمل، بمن فيهم حمدان، تحت ضربات السياط والشتائم التي تنهال عليهم من العساكر والقائد والوكيل.
الوكيل للقائد بعد أن يتبعه ويقف إلى جواره: ــ أساس البلاء هو ذلك الشيخ الملقب بالأهوازي الذي جاء إلينا منذ عام وجلب معه بلاء هذه البدع.
القائد: ــ صحيح، لكنّ الوالي يرفض أن نتعرّض له طالما أنّه لا يفعل غير الصلاة. وحتى لا تهيج العامة.
الوكيل: ــ ولكن لا بدّ. لا بدّ من إيجاد طريقة للخلاص منه.

◆ المشهد ٨

بغداد.
حمام في سماء بغداد.
حمامة تطير وتحوم فوق سطح أحد المنازل.
السطح مغطى بأعمدة رفيعة وحبال تشكل مناصب لنشر الصوف المصبوغ.
أطفال يعملون على نشر الصوف المصبوغ ونقله ومدّه على الأعمدة والحبال.
الحمامة تحوم فوق المكان وتقوم بعدة دورات.
أحد الأطفال ينتبه للحمامة ويركض ويدور معها وهو يقول لزميله: ـ هذه الحمامة لعبدان.
الحمامة تلف ثم تهبط إلى حافة جدار فيه فتحات للحمام.
ما أن تحطّ الحمامة حتى يركض الطفل نحوها ويمسكها، ثم يكتشف رسالة مربوطة إلى رجلها، فيتناول الرسالة.
يهرع الصبي في شارع من شوارع بغداد، يجتاز أزقة صغيرة، ثم يقف عند باب إحدى الزوايا الدينية.
حلقة يتصدّرها الحلاج، المتصوّف المعروف، وحوله مجموعة من الناس تستمع له يقول: ــ إنّ هؤلاء الصوفيّة يزعمون أنّ الطريق إلى معرفة الله هو أن ينظر الإنسان في أعماق نفسه، ويدقق النظر، فعندئذ سيشعر بالسعادة لأنه سيرى في قلبه أشجارًا وثمارًا وملائكة وأقمارًا. وأنا أقول أن هذه الأشجار والثمار لا يراها بل ويتمتع بها في الحقيقة سوى منتهكي الحرمات، وتجّار الدّم، وجباة الضرائب، ومرابي الأسواق، ولصوص عرق الآخرين.
في طرف الحلقة نلمح شاب نحيف الجسم، في الخامسة والعشرين من العمر، وهو عبدان، يقف ويتفرج.
الولد حامل الرسالة يبحث بين الوجوه ويتوقف بنظره عند عبدان.
الولد يشير إلى عبدان محاولًا لفت نظره.
يلمحه عبدان الذي يعتذر ويغادر الحلقة باتجاه الولد.
عبدان يتسلم الرسالة ثم يسير في سوق من أسواق بغداد المزدحمة، ويبدو أنّه يمضي في اتجاه مكان معين.
عبدان يخرج من السوق وينطلق محازيًا شاطئ دجلة.
عند الشاطئ ثمّة تجمهر حول شيء ما لا نراه بعد.
عبدان يقترب من التجمهر، فنسمع صوت أحد العساكر واقفًا على مكان عالٍ يقول: ــ وهذا عقاب من يهاجم قوافل الحجاج.
يطلّ عبدان على التجمهر فيلمح ثلاثة رجال مربوطين راكعين على الشاطئ ورؤوسهم مشدودة قريبًا جدًا من الماء ولكن لا تطاله.
وجوه الرجال الثلاثة تتصبب عرقًا، متقشرة، شعرهم منكوش، شفاههم جافة متشققة وعيونهم جاحظة نحو الماء. تبدو عليهم علامات الانهيار.
يحرس الرجال الثلاثة ثلة من العسكر، والرجل الرابع الواقف على مكان عال يتابع ترديد: ــ أطعموا الملح حتى يموتوا عطشًا، وهذا عقاب من يهاجم قوافل الحجاج.
يدخل أناس إلى الجمهرة ويغادرها أناس.
عبدان يتابع سيره وينعطف فنجد أنفسنا في سوق النخّاسين.
أحد النخّاسين ينادي وقد رصف بضاعته من النساء الجواري على منصة خشبية، ووقف يعرضهم ماسكًا أثداء واحدة تارة أو يقرص مؤخرة أخرى أو يتقدم من زنجيّة فيكشف شفتيها وينادي:
ــ إقترب وتوكل. لن تجد أجلد منها على الخدمة!
يتجه النخّاس نحو الجارية الشقراء وينادي:
ــ إقترب. عندي الرومية الشقراء.
يتابع نحو الثالثة ويقول: ــ والهنديّة الولود.
ثم يتوقف عند الجارية التالية: ــ ليس هناك أرقّ من الحبشيات.
بالقرب، وقف بائع جراد، يحمل ميزانًا بيد وباليد الأخرى يخرج حفنة جراد من شوال ليسوّي بها الكيل وهو ينادي بفرح، دون النظر إلى الشارين الذين يبدو عليهم

الفقر الشديد: ــ الحمد لله الذي كثر فيه الجّراد هذا العام، فصاده الناس وانتفع الضعفاء بأكله، وكان نعمة من نعم الله عزّ وجل.

يدخل عبدان سوق النحاسين ودويّ الطرق على النحاس يضجّ به المكان.

نرى عبدان متجهًا إلى أحد الدكاكين حيث يجلس صبيّ عند مقدّمة الدكان يطرق على النحاس، يتوقف الصبي عن العمل عند توقف عبدان أمامه.

عبدان: ــ قل لأبيك إنّ عبدان يريد أن يراك.

ينهض الصبي ويختفي داخل الدكان.

يتناول عبدان مقعدًا صغيرًا ويجلس على عتبة الدكان، يتأمل السوق.

مقابل عبدان دكان نحاس يجلس عند مدخله شابان منهمكين في العمل، بينما مدّ رجل ثالث حصيرة أمام الدكان يصلي عليها.

يدخل رجل وسط السوق وقد ارتدى ثوبًا أبيضًا ممزّق الأطراف ذو شعر ولحية مسترسلين يصرخ «أنا نبيّ الله. أنا نبيّ الله.» وهو يدقّ على طبل صغير ويصرخ بصوت منغّم.

أحد النحّاسين يخاطبه من دكانه وقد توقف عن العمل:

ــ وما هي حجتك؟

الرجل: ــ من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة فليحضرها إليّ، أجعلها له بابن في ساعة واحدة!

النحّاس: ــ نساء ما عندنا، عندي عنز حسناء فاجعلها لي.

الرجل يسير، الناس يشدّونه ويقولون له: ـ إلى أين؟

الرجل: ــ دعوني أمضي إلى جبريل لأعلمه أنّ هؤلاء القوم يريدون تيسًا ولا حاجة بهم إلى نبيّ!

الناس يتركونه ضاحكين.

النحّاس يعود إلى العمل وهو يضحك.

يخرج الصبي من داخل الدكان ويقول لعبدان: ــ أبي يدعوك إليه.

يدلف عبدان إلى الدّكان خلف الصبيّ، ثمّ يجتازان الباب الخلفي للدكان.

دهليز طويل.

عبدان يسير خلف الصبيّ.

ينتهي الدهليز إلى ردهة واسعة فيها أوتاد، وإلى كلّ وتد عُلّق إزار ومئزر.

يتناول الصبي مئزرًا وإزارًا من أحد الأوتاد، فيرتديهما بسرعة وهو يشير لعبدان أن يفعل الشيء ذاته.

يتناول عبدان إزارًا ومئزرًا ويرتديهما فوق ملابسه وهو ينظر إلى الصبيّ محاولًا تقليده.

يتقدّم الصبيّ ويتبعه عبدان.

قبو مضاء بمصباح زيتي يتوسّطه رجال بملابس مماثلة وقد التفوا حول أكوام من أشياء متباينة ومجمّعة بلا ترتيب: خناجر، وسيوف، وسلاسل، وثمّة إبريق كبير من النبيذ وعدد من الأقداح.

يغادر الصبيّ القبو عائدًا بعدما أوصل عبدان حيث ينهض أحد الجالسين ليستقبله مرحّبًا به باسمه.

الرجل يدعو عبدان إلى الجلوس وهو يقدّمه للآخرين. ــ هذا هو عبدان. صهر حمدان قرمط.

يتطلع عبدان حوله ويتأمّل الموجودات.

أحد الرجال الجالسين ينهض ويقدم كأسًا لعبدان، الجميع يشربون نخب الضّيف.

عبدان يضع الكأس، أحد الجالسين، ويبدو أنّه زعيم هؤلاء، يضع كأسه أيضًا ويقول: ــ ما وراءك؟

عبدان: ــ الوالي يستعدّ لقمع حركة حمدان، ولهذا فهو بحاجة إلى السلاح.

أحد الرجال: ــ وهل ينوي حمدان مهاجمة الوالي؟

عبدان: ــ يريد أن يكون قادرًا على الدفاع عن حركته.

أحد الرجال: ــ أنت تعرف يا عبدان أنّ الحرفيين صاروا اليوم مهدّدين باللصوص والأوباش وجند الخليفة والأتراك.

عبدان: ــ الخطر مشترك كما ترون.

أحد الرجال: ــ لكنّ أسلحتنا بالكاد تكفي عملياتنا.

رجل آخر: ــ إذا خرج أحد مثل حمدان على السلطان فلا بدّ لنا من أن نساعده.

يتوقف عبدان عند هذه النقطة التي وصل إليها الحوار ويقول: ــ سندفع ما تطلبونه.

يتشاور الزعيم مع أحد الجالسين ثم يلتفت نحو عبدان.

الزعيم: ــ حسنًا يا عبدان. أخبره بالأمر.

◆ المشهد ٩

مجتمع الألفة

[شخصيات هذا المشهد هم قادة الحركة القرمطية. شخصيات تركت بصماتها على تاريخ الحركة بالمصير المأسوي الذي انتهى إليه كلّ منها].

نتعرّف هنا إلى زكرويه، الانفعالي المندفع الذي يفتقر إلى الصّبر،
وعلى أبو سعيد الجنابي، الهادئ الصبور المتقد الذكاء الذي عطّل الفالج جانبه الأيسر،
وعلى أبو الفوارس الصّلب الذي يتميّز بالإخلاص والصلابة والإقدام أكثر مما يتميّز بالقدرة على التفكير الخلاق.
خيمة واسعة، مفروشة ببساطة، الوسائد مصفوفة في جنباتها. يتصدّر المكان حمدان وعبدان.
إلى الجانبين يجلس القادة وعددهم نحوا العشرة.
حمدان (وكأنّه يواصل حديثه): ــ لقد وافق الإمام على أن يذهب أبي سعيد (يشير إلى الجنابي) إلى البحرين، وأن يذهب زكرويه إلى الكوفة، وأبي الفوارس إلى ريف العراق، وإبن فضل وإبن حوشب (يشير إليهما) إلى اليمن.
يتوقف حمدان لحظة ثم يواصل: ـــ والضرورة تلحّ عليّ أن أكرّر: نحن لا نريد محاربة السلطان إلا إذا بدأنا هو بالعدوان.
يتبادل حمدان وعبدان النظر إلى وجوه الحاضرين وعند الجملة الأخيرة من حديث حمدان يبدو زكرويه ممتعضًا وغير راضٍ، بينما يبدي أبو سعيد التفهّم للموقف.
حمدان (مواصلًا): ــ لقد رفض زعيم الزّنج أن ننضمّ إليه حين اقترح عليه ذلك الشيخ الأهوازي قبل اختفائه. لو قبل لربّما لم تستطع جيوش الخلافة سحقه بالوحشية التي فعلتها به. ولربما أمكننا أيضًا أن نخطو بدعوتنا خطوة أكبر.
عبدان: ــ على كلّ حال ما زلنا في البداية، ودعوتنا لكي تنتشر وتقوى لا بدّ لنا من التمسّك بأصول الدعوة والمعرفة لطبيعة النفس البشريّة. علينا ألا نهجم على المستجيبين بأشياء تهزّ عقولهم حتى نرقيهم إلى المراتب حالًا فحالًا وندرّجهم درجة درجة. لا بدّ للداعية من أن يظهر التقشف والعفاف عن الدرهم والدينار، ولا بدّ للداعية من أن يكون حسنًا في سلوكه فلا يشرب الخمرة أو يرتكب المعاصي، ولا بدّ للداعية من أن يكون خبيرًا بالسحر وخفّة اليد، عليمًا بأخبار الأوّلين والآخرين، قادرًا على شرح أيّ مسألة.
حمدان (باسمًا): ــ ولا يكون مثل صاحب الأمّة المنكوبة حين سألوه عن الرّوح وعجز عن الإجابة فقال: هي من أمر ربّي!
يضحك الجميع.
الحمام الزاجل يملأ الشاشة محملًا بالرسائل وينطلق باتجاهات مختلفة في سماء واسعة.
وجه ابن الفضل الزعيم القرمطي في اليمن يتحدّث إلينا بمباشرة وإيجاز فيقول: ــ ولهذا لا بدّ لنا في بداية تقرّبنا من الناس من أن نظهر التشيّع.
وجوه مجموعة من الناس تنظر إلينا وتتابع الاستماع.
صوت ابن الفضل: ــ والقول بإقامة عليّ بن أبي طالب وأحقيّة أهل بيته من بعده بالخلافة.
وجه أبو سعيد الجنابي، الزعيم القرمطي في البحرين، يتحدّث إلينا بمباشرة وإيجاز فيقول:
ــ وعند هذه الدرجة تقبلون على زرع الشكّ في عقل الشخص وتدريبه على التفكير.
وجوه مجموعة من المستجيبين تنظر إلينا وتتابع الاستماع.
صوت أبو سعيد: ــ وإخراجه من سيطرة الأوهام السائدة.



وجه زكرويه، الزعيم القرمطي في بلاد الشام، يتحدّث إلينا بمباشرة وإيجاز، فيقول: ــ وبعد ذلك نشرح له كيف أننا لا نؤمن إلا بإمامنا المهدي.

وجوه مجموعة من المستجيبين تنظر إلينا وتتابع الاستماع.

صوت زكرويه: ــ إنّه في منزلة الأنبياء، وكلامه يلغي شرائع ما قبله من الأنبياء، وبظهوره يكون قد زهق الباطل وتحقق العدل.

وجه أبو الفوارس، الزعيم القرمطي في العراق، يتحدّث إلينا بمباشرة وإيجاز، فيقول: ــ عندئذ نقنعه بعبث الكتب المنزلة، ويلي ذلك إنكار البعث والقيامة.

وجوه مجموعة من المستجيبين، بينهم نساء، ينظرون إلينا ويستمعون.

صوت أبو الفوارس: ــ فمن مات لا يحيا من جديد وإنكار الملائكة في السماء والجنّ في الأرض.

ينطلق الحمام الزاجل ويملأ الشاشة ثم ينطلق في سماء واسعة.

المشاهد التالية يختفي منها قادة الحركة.

الوجوه المتكلمة التي تظهر الآن هي منتقاة من الوجوه التي شاهدناها مستمعة في المشاهد السابقة وهي تتحدّث بالطريقة والأسلوب نفسه وكذلك بالحجم نفسه.

وجه داعية: ــ وإذا دخلت عليه بهذا المدخل.

وجوه دعاة مستجدّين أكبر مما ظهر سابقًا.

صوت الدّاعية يكمل حديثه: ــ درّجته إلى ما تريده ومكنته.

وجه داعية آخر: ــ وإذا ظفرت بيهودي.

دعاة يستمعون: ــ فادخل عليه من جهة المسيح.

وجه امرأة سبق أن رأيناها تقول وهي تحرّك شيئًا لا نراه: ــ بئس من تخلى عن دين عيسى، هؤلاء الذين ظنّوا أنّهم إذا اسلموا.

مجموعة نساء يطحنّ على الرّحى وتتدلى الصلبان على صدورهنّ يستمعن وهنّ يعملن.

تتابع المرأة: ــ سيتخلصون من دفع الجزية. لكنّ المسلمين الخبثاء لم يرفعوا عنهم الجزية بعد إسلامهم.

وجه داعية: ــ إنّ كلّ الناس يرون أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب كان أحقّ بالخلافة.

الدعاة يستمعون في حقل من الحقول ويبدو أنّهم لتوّهم قد تركوا أعمالهم وجاؤوا يستمعون.

الداعية يتابع: ــ لما اتصف به من شمائل ولأنه ابن عمّ النبيّ أيضًا.

عامل صباغة داعية يقول: ـ لله درّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا لا يقبلان في الحقّ لومة لائم، كانا لا ينامان وفي المدينة جائع.

مجموعة من عمّال الصباغة يستريحون في حوض المصانع المحيطة ويستمعون: ـ ولولاهما لآل مآل الأمّة الإسلاميّة بعد وفاة النبيّ إلى عليّ بن أبي طالب ولما علم الله ما كان قد حلّ بنا.

وجه صيّاد يقول: ــ لقد ظلمت هذه الأمّة عليّ بن أبي طالب وقتلوا أبناءه وسبوا بناته وهذه الشرور.

مجموعة من الصيادين وقفوا على الشاطئ وقد استعدوا للصلاة يستمعون: ــ لم يكن أساسها إلا الشيخين البائسين أبا بكر وعمر اللذين اغتصبا الخلافة بعد محمّد وعليّ أحقّ بها.

وجه داعية فارسي يقول:

ــ لقد سلبكم هؤلاء العرب كلّ شيء ومنعوكم عن دينكم.

سوق من الأسواق، مجموعة من الناس يقفون ويستمعون إلى الدّاعية: ــ وأكلوا رزقكم وسبوا نساءكم وما أنتم بعاجزين عن حكم أنفسكم.

وجه داعية يسأل: ــ لماذا خلق الله العالم في سبعة أيّام؟ هل عجز عن خلقها في ساعة؟

عدد من الدعاة يستمعون.

الدّاعية يسأل: ــ لماذا جعلت قامة الإنسان منتصبة دون الحيوان؟

داعية زنجي: ــ لن ننسى ما حلّ بنا في البصرة حين غطت رؤوس الزنج.

مكان يشبه أمكنة السباخ على الشواطئ وقد توقف العمال الزنوج عن أعمالهم وأخذوا يستمعون: ــ المقطوعة صفحة دجلة. ليس لنا خيار إلا الانتقام والثأر.

وجه داعية يقول: ــ إبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد كلّ هؤلاء الأنبياء هم أنبياء سياسات وشرائع. أما أنبياء الحكمة.

عند مدخل جامع وقف عدد من المستمعين. ــ كأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم من الفلاسفة، فإنّ أولئك قد أخذوا عنهم شرائعهم ليصلوا بها إلى العامّة.

وجه داعية: ــ وإذا وافقتني على أنّ العالم قديم قدم الزمان ولا مدبّر له. تجلس مجموعة من الرجال في غرفة مليئة بالكتب. ــ لم يعد هناك خلاف على الإطلاق بين ما نؤمن به وما ندعو إليه.



◆ المشهد ١٠

[مجموعة من المشاهد التي تعبّر عن استجابة النّاس للدعوة القرمطية في مرحلتها الجديدة وهي مرحلة بناء دار الهجرة].

الحمام الزاجل يملأ الشاشة ثم ينطلق في سماء واسعة.

شمسيّة صغيرة من أوراق النخيل. امرأة عجوز مليئة بالحيوية تجلس تحت الشجرة. حول المرأة أكوام من الأشياء كالغلال والتمر والغزل والنقود.

نسوة قادمات وكلّ واحدة تحمل قدرًا من الصوف المغزول على ساعديها.

العجوز تتناول من النسوة وتسجّل بمسمار على شجرة بالقرب منها.

رجل يهمّ بإفراغ صرّة نقود أمام العجوز.

امرأة تطالبه بانتظار دوره.

العجوز تحسم الخلاف بنبرة حاسمة وتدعوه إلى الوقوف في الدّور.

الرجل يصرّ وينحني أمام المرأة العجوز، يفكّ صرّته، يخرج جزءًا مما تحتويه ويعطيه للعجوز، يبدأ بإعادة ربط صرّته لكنّه يتوقف لحظة، يفتحها من جديد، ويخرج قطعتين نقديتين ويضعهما في يد العجوز.

حقل زراعي.

مجموعة من الفلاحين يجرّون الدهّاق (جابي الضرائب) الذي شاهدناه سابقًا.

الفلاحون يعلقون الدّهاق من أحد ساقيه إلى شجرة.

تلة منعزلة قليلًا.

عدد من الرجال والنساء على التلة يقومون بالبناء، حركة بناء سريعة، جِمال تحمل التبن والخشب، حمير محمّلة بالحصى والرمال، العاملون في البناء مرحون ومندفعون بالعمل بحركات فرحة، رقص وغناء في أرجاء العمل.

الفلاحون يهاجمون بيوت السادة الأثرياء ويقودونهم من حجراتهم خارج بيوتهم.

الفلاحون يقودون اثنين من رجال الشرطة ويستولون على جيادهم.

البناء على التلة الصغيرة مستمرّ وقد ظهرت جدران بيوت بيضاء واكتست أطراف التلال بالحشائش الخضراء.

الحمام يطير فوق المدينة الجديدة مهيماباز (دار الهجرة).

وسط شوارع المدينة البيضاء، السكان متوجهون نحو دار كبيرة ويجرّون خلفهم جواميس وبقرًا ومحاريب



وأدوات زراعية ودجاجًا وأنوال النسيج.

في فناء الدار الكبيرة في المدينة البيضاء، رجال يقومون باستلام العطايا التي يتقدّم بها المستجيبون للدعوة.

الاستلام والعطاء يجريان بنظام وبجوّ من المرح والاندفاع.

عند مدخل الدار مجموعة من النساء، بعضهنّ يحمل أنوالًا صغيرة للنسيج، بينما تجمعت الأخريات ضاحكات مازحات حول فتاة تحاول نزع الأساور من يدها. تساعدها النسوة وتحاول هي بصعوبة لكن الأساور مستعصية.

مجموعة أخرى قادمة نحو الدار.

رجل يخلع أقراط زوجته من أنفها، لا تبدو المرأة سعيدة لذلك.

فتاة سمراء ذات حيوية تركض وهي تحمل صندوقًا صغيرًا وامرأة عجوز تطاردها وتقذفها ويبدو أنّها أمّها.

◆ المشهد ١١

المشهد الأعظم



غروب

التلة المكسوّة السفوح بالعشب الأخضر والتي تقوم عليها الآن مدينة «مهماباز» ببيوتها البيضاء.

نيران تشتعل في أماكن متناثرة.

شوارع المدينة وحاراتها تعجّ بحركة مرحة رشيقة والأهالي نساء ورجال يتبادلون الكلمات وهم يأتون ويروحون.

الدار الكبيرة التي شاهدناها مكانًا لدفع العطايا تبدو مضاءة إضاءة خاصّة وتبعث في النفس إحساسًا مرحًا وراحة داخلية والجميع يرتدون الجلابيب البيضاء.

أصوات غناء ودفوف تنبعث حول الدار والحركة في داخل الحوش بادية وكأنّما تجري استعدادات لاحتفال ما.

مجموعات جديدة من الرجال والنساء يتوافدون.

الوافدون ينخرطون في هذه الأجواء بسرعة.

الكلّ يشارك بحيث لا نرى متفرجين.

النساء متدفقات يمازحن والرجال يتحرّشن بخفة بالنساء.

يقف القصاص عند باب الدار يروي ويشارك الآخرين المزاح والتحرش.

بعض النساء يقومون بتزيين الحسان والصبايا. نساء مسنات يكحلن العيون. أخريات يجدلن شعور الفتيات



بخيوط الياسمين والورود الصفراء والحمراء.
بالقرب نساء يكحّلن الرجال ويطوّقنهم بالورود الملوّنة.
فتيات يحملن قوارير ماء الورد والمباخر ويتجوّلن ويرششن العطور.
نساء ورجال يملأون الأقداح بالنبيذ. يتسرّب الليل وتتوهّج مواقد النيران وأضواء الشموع والمصابيح.
فتبرز ألوان الزهور والورود وتتبدّى الألوان البيضاء للملابس كهالة متحركة من الحياة والتدفق.
تغمر الجوّ هالة من الشفافية الملوّنة المتحركة.
رجل يرفع كأسه ضاحكًا وهو ينادي: ـ قدح للمعتمد بالله. الخليفة الجديد!
ضربات دفوف هادئة تتصاعد وأصوات غناء وضحك.
شاب ينزع العصابة عن عينيه ومجموعة من الفتيات والشبّان يحيطون به بحركات راقصة مرحة.
الشاب يمسك بيده تفاحة مقضومة من طرفها ويبدأ بالدوران وقياس أسنان الفتيات بقضمة التفاحة. كلّ هذا يجري في حركات نشطة متراقصة ومرحة تتحوّل بالتدريج إلى غمز ودلال يتخللها بعض الحركات الجسدية الموحية.
ضربات دفوف ورقص.
فتاة جميلة (الفتاة التي شاهدناها تحمل صندوقًا صغيرًا من المجوهرات) وهي اليوم في أتم زينتها، تنفصل بحركة سريعة وغاضبة عن حلقة وتقف حانقة وتقول: ـ قلت لك أكثر من مرّة لا. ألا تفهم!
تخفّ الضجّة، تتوقف الحركة قليلًا.
الجميع يتوجهون بأنظارهم نحو الفتاة والحلقة التي انفصلت عنها.
امرأة تقترب من الفتاة وتتساءل بلهفة عما حدث للفتاة، فتقول هذه بصوت غاضب وهي تشير نحو شاب يافع.
الفتاة: ـ هذا الفحل المقدام يظنّ أنّ بوسعه إخضاعي لرغباته بمحض قوته!
تتناثر ضحكات متفرقة ويتحرك البعض نحو الفتاة.
امرأة عجوز متصابية تقف في مكانها وتقول بصوت صارخ وباستخفاف: ـ ولماذا ترفضينه؟
تتوقد الفتاة الجميلة وتزداد غضبًا وتضع يدها في وسطها وتنحني إلى الأمام وتصرخ في وجه العجوز: ـ لأنّي لا أريد. لأنّي حرّة بروحي وجسدي. مفهوم!
تلتفت الفتاة نحو الشاب المرتبك وتتابع: ـ هل تعرف سبب مجيئي إلى هنا؟ لأنّ قبيلتي لم يكن لها رجال



كالرّجال. لأنّني لم أجد نفسي إلا وأهلي يسلمونني ليلة زواجي لشيخ القبيلة. اعترضت، بكيت، بكى أبي يومها كالنساء وقال لي إنّ هذا حقّ لشيخ القبيلة منذ القدم. زيّنوني، زفوني إليه بالدّفوف. بعدها حملوني إلى زوجي. في الصباح ذهبت إلى الساحة التي يجتمع فيها الرجال. كانوا كلهم مجتمعين هناك، أخوتي وأبي وأعمامي وكلّ ذوي اللحى والشوارب. هل تعرف ماذا فعلت؟ وقفت أمامهم ورفعت ثوبي هكذا (ترفع ثوبها كاشفة عن فخذيها). وأريتهم ما غدروا به. لقد نكسوا رؤوسهم كالنساء.

يسود المكان صمت.

تتحرك الفتاة ببطء من مكانها.

يتدخل القصّاص ليكسر جوّ الانقباض فيجتاز السّاحة راقصًا وداعيًا الآخرين إلى الرّقص وهو يضرب على الدّف وينشد:

ــ خذي الدّف يا هذه واضربي

وغنّي هزاريك ثم اضربي

تولى نبيّ بني هاشم

وهذا نبيّ بني يعرب

لكلّ نبيّ مضى شرعه

وهانا شريعة هذا النّبي

فقد حطّ عنّا فروض الصلاة

وحط الصّيام ولم يتعب

القصّاص يستثير ضاربي المزاهر والدّفوف.

تبدأ المجموعات بالتحرّك تدريجيًا، تستأنف الحركة، والإيقاع يعود بطيئًا ثمّ يرتفع.

تتمايل فتاة وتشدّ شابًا نحوها.

شاب يركض نحو فتاة بحركات راقصة وهو يغنّي وتهرج الفتاة نحوه.

رقص يتصاعد.

وجوه، أيد، صدور النساء، وجوه، دفّ، حركة، تعرق الوجوه، أيد تلتفّ، أقدام، الرّقص يعلو ويتصاعد.

تتناثر أطواق الزهور.

تموج أطراف الملابس البيضاء.

تموج وتعرق تدريجيًا أجساد النساء والرجال وتلتفت وتلتصق الملابس حول الأجساد.

رقص.

تموج الحركات وتتكشف أطراف الأجساد.

يسود المكان جوّ ذو مذاق حسّي جميل مفعم باللون والحركة.

تدريجيًا وبنفس الإيقاع تنقسم حلقة الرقص إلى حلقات، ما تلبث هي نفسها أن تتكاثر وتنقسم إلى حلقات أخرى، حتى بات كلّ فتاة وشاب يشكلان حلقة منفصلة تتباعد وتتوارى (نرى فتاة الصندوق مرحة وسعيدة مع شاب آخر) الحركات تتباطأ تدريجيًا والإعياء يجعل الراقصين يتساقطون زوجًا زوجًا إلى الأرض والأنوار تخفت.

أزواج الرّاقصين تتابع الرّقص على الأرض.

الإعياء يزداد والأصوات تخفت والحركات تتوارى.

بالتدريج يفرغ الغناء وتنوس الأضواء باستثناء نيران بعيدة جدًا مشتعلة.

• المشهد ١٢

الخليفة المعتضد بالله، رجل اتّصف بالقسوة، وكان السفّاح الثاني بين الخلفاء العباسيين. نحيف الجسم، متوسّط القامة، في السّابعة والثلاثين من العمر، ذو لحية سوداء حسنة، يتمتع بحيوية عالية ودائمة، متحفز باستمرار، خجول.

بعد ظهر حارّ جدًا. إنّه وقت القيلولة.

وجه المعتضد نائمًا، الوجه مسترخ على فخذ سمراء.

يدٌ سمراء تقترب بهدوء ثم ترفع الرّأس النّائم برفق عن الفخذ العارية وتسنده برفق أيضًا إلى وسادة طريّة.

تتحرّك الفخذ العارية وتبتعد الجارية بهدوء لتهبط عن السرير.

يبدو السرير الملكي الموسّد بالحرير وخلفه ستائر حرير وديباج ملوّنة ووجه المعتضد ينضح عرقًا.

يتحرّك قليلًا.

الفم ينفرج، يفتح الخليفة عينيه قليلًا، ثم ما يلبث أن يرفع رأسه فجأة، ينظر حوله، وحين يدرك أين هو يتخذ هيئته وملامحه التي سنعتادها كلما رأيناه.

يلتفت حوله غاضبًا، فنلمح قريبًا منه الجارية السمراء وقد وقفت تمشط شعرها.

المكان قاعة كبيرة من قاعات قصر الخليفة مفروشة بالأرائك والستائر الملوّنة.

الخليفة بحزم وغضب: ــ لماذا نهضت؟

تهرع الجارية نحوه مضطربة وهي تقول: ــ سلِمتَ ودُمتَ يا مولاي!





معالم الغضب لم تتبدّل عن الوجه العظميّ الحادّ التقاطيع للمعتضد الذي ما يلبث أن يتحرّك في استلقائه قليلًا ويقول بنبرة جافة: ـ أسلمت إليك رأسي فتركتني وحيدًا. لا أدري ما يقع لي وأنا نائم!

تقترب الجارية منه ثم تركع إلى جانب السرير عند قدميه وهي تقول بلهجة من الدلع: ـ لقد تعلمت ألا أجلس مع النّيام ولا أنام مع الجلوس والله خير حافظٍ لأمير المؤمنين.

يضطجع المعتضد ويتكئ على الوسائد وتترامى قدماه قريبًا من وجه الجارية التي تبدأ بمداعبة قدميه وتمسح على ساقيه.

المعتضد يبدو شاردًا وغارقًا في عالم ما لكنّه فجأة ودون أن تتغيّر ملامح وجهه يبعث صوتًا وكأنّه يخاطب نفسه: ـ لقد كان حلمًا غريبًا!

الجارية: ـ خيرٌ إن شاء الله يا أمير المؤمنين.

يلتفت نحوها.

المعتضد: ـ رأيت قصري خاويًا ولا أحد فيه وأنا أركض في دهاليز القصر وخلفي حيوان غريب لم أر له مثيلًا من قبل. كان يطاردني بينما كنت أركض. برز بدر رئيس الشرطة أمامي، ناديته، استنجدت به، لكنّه ظلّ واقفًا في مكانه يضحك. وكلما ناديته علا ضحكه واتسع فمه وجحظت عيناه.

الجارية مهدئة وكأنّها لم تفهم شيئًا من هذا الحلم: ـ إنّما هي أحلام يا أمير المؤمنين وتفسيرها عند ربّي.

يعتدل المعتضد في جلسته، يبدو مهمومًا.

حين تقبل عليه الجارية محاولة التخفيف عنه يدفعها جانبًا وينهض واقفًا.

الجارية تسرع بالخفّ إليه والعباءة وتضعها على كتفيه، يسير المعتضد متمهّلًا ويخرج.

المعتضد يمشي في دهاليز القصر.

في نهاية الدّهليز باب مغطى بستائر يقف على جانبيه اثنان من الخصيان.

يقترب المعتضد من الستائر، تسمع همهمة.

حين يهمّ الخصيان بالإعلان عن مقدمه، وفتح الستائر أمامه، يشير إليهما بحركة هادئة بالكفّ عن ذلك.

المعتضد يمسك طرف الستارة ويزيح جانبها قليلًا وينظر من خلال الشقّ الموجود.

قاعة كبيرة في صدرها سرير.

شغب، زوجة المعتضد، المتكئة على السرير الأبنوسيّ

المغطى بالوسائد الحريرية، تتشاغل بجام من العاج.
نراها تلتقط حبّات المسك عن الوسادة وتضعها في الجام.
حول السرير جوار وخصيان يقفون على استعداد لتقديم الخدمة.
وسط القاعة حلقة من الغلمان يتصدّرهم طفل في الخامسة من عمره (وهو الخليفة المقتدر بالله في ما بعد) يرتدي ثيابًا تدلّ على عظمة شأنه.
الطفل يمسك بيده عنقود عنب، يأكل حبّة، ثم يبدأ بتقديم حبّة لكلّ غلام في الحلقة حسب الدّور، حتى يصل الدّور إليه فيأكل حبّة واحدة كالآخرين ثم يواصل الكرّة وهكذا.
المعتضد ينتفض من الغضب، يدير وجهه، ثم يلتفت ويعود إلى الممرّ الذي يفضي إلى الحديقة.
المعتضد يتجه نحو سرير في الحديقة يتبعه أحد الوزراء، يجلس على السرير والوزير يقول له:
ــ ما لي أراك مهمومًا يا مولاي؟
المعتضد: ــ والله يا صافي لولا النّار والعار لقتلت هذا الصبيّ اليوم.
الوزير: ــ حاشا الله يا مولاي، ماذا فعل؟ أعيذك بالله يا مولاي من شرّ اللعين إبليس!
المعتضد: ــ ويحك يا هذا، أنا أبصر بما أقول، ها أنا رجلٌ يسوس الأمور، ويصلح الدّنيا بعد فساد شديد، ولا بدّ من موتي، واعلم أنّ النّاس بعدي لن يختاروا غير ولدي، وهو صبيّ له من الطبع في السّخاء ما رأيت منه اليوم، إذ أطعم الغلمان مثلما أكل.
الوزير: ــ أدام الله عزّك وعزّه يا أمير المؤمنين.
المعتضد (حانقًا): ــ أنت لا تفهم! لقد ساوى الصبيّ بينه وبينهم، إنّه سيفرّط بالأموال مثلما فرّط بالعنب ويودي بالبلاد إلى الخراب وزوال ملك بني العباس.
الوزير: ــ ليبقك الله حتى ينشأ في حياتك ويصير كهلًا في أيّامك ويتحلى بخلقك.
المعتضد ينهض فجأة ويردّد وكأنّه يقول لنفسه: ــ بل سيحدث ما قلت.

• المشهد ١٣

خيمة مكشوفة من جهاتها الأربع تقع على مشارف مدينة القرامطة الجديدة.



على مبعدة تتحرّك قوافل جمال وقطعان غنم.
داخل الخيمة اجتمع كلّ من حمدان وعبدان وزكرويه وأبي الفوارس وأبي سعيد، وكذلك بقية الذين حضروا الاجتماع السابق عند بداية الدعوة، عدا ممثلَي اليمن وهما أبي الفضل وأبي حوشب.
زكرويه: ــ إنّ ما نجمعه من أموال إنّما نجمعه باسم الإمام، فلا بدّ إذن من أن يذهب إليه كله أو الجزء الأكبر منه.
حمدان: ــ لكنّ كلّ درهم نجمعه ينفق في بناء مجتمع الألفة وشراء الأسلحة للدّفاع عن الدعوة.
عبدان: ــ لا يمكن أن نرى الناس تعاني من المظالم وتشكو الجوع والعري والمرض ونقول لهم انتظروا حتى يظهر الإمام ليحقق لكم العدل.
أحد الأعضاء: ــ مهمتنا ليست تحقيق العدل بل نشر الدعوة تمهيدًا لظهور الإمام.
شخص آخر: ــ لقد طال انتظارنا لهذا الظهور ولا ندري



متى يقع.

زكرويه: ـــ ما دامت الدّعوة لم يتحقق لها الانتشار الشامل بعد فإنّ سريّة الإمام واجبة وطاعته لازمة.

أبو سعيد: ــ لقد صارت الدّعوة شبه علنيّة، وهي تنتشر بسرعة في البحرين وفارس واليمن، حتى لم يعد ثمّة معنى لأن ندعو لإمام مجهول يعيش في الخفاء ولا يعرفه أحد، بل لا نعرف نحن عنه شيئًا.

زكرويه: ـــ ما تتحدّث عنه ليس انتشارًا، إنّه طريق لن يؤدّي إلى شيء. فالطريق الوحيد لنشر الدّعوة هو أن نسقط السلطان في عقر داره.

حمدان: ــ لكنّنا لا نملك اليوم القوّة لمجابهة السلطان مجابهة مباشرة، ويجب أن نقتصر على الأماكن البعيدة عن عاصمة الخلافة.

زكرويه: ــ إنّ النّاس لا تستطيع الانتظار.

عبدان: ــ ولذلك نحن أقمنا مجتمع الألفة.

زكرويه: ــ لكنّ الفرصة الآن مناسبة لدحر الخلافة بعدما دبّ فيها الوهن وأصبحت تحتضر بالتدريج.

عبدان: ــ على العكس، فهي منذ تولي المعتضد الحكم دبّت فيها الحياة من جديد، لذلك لا بدّ من الانتظار.

شخص يسأل: ـــ أنا لا أعرف حقًا لماذا يعترض الإمام على مجتمع الألفة.

عبدان: ــ إنّه يريدنا أن نعود إليه في كلّ شأن من شؤوننا.

زكرويه: ــ لمن ندعو الناس إذا خالفنا طاعة الإمام؟

أحد الأعضاء: ــ لست أفهم كيف يصبح إنسان ما رئيسًا لدعوة لمجرد أن الصّدفة جعلته ابنًا للإمام السابق.

أبو الفوارس: ــ ما شأن الناس بإمام لا يعرفونه ويزعم أنّه من نسل عليّ بن أبي طالب! الناس تريد أن تعيش في أمان من الجوع والحاجة ولا يعنيها لمن تصير الخلافة.

حمدان: ــ إنّ من يريد التخلي عمّا حققناه فهذا شأنه، أمّا من يعتقد أنّنا سنتخلى نحن فهو واهم.

عبدان: ـ بل ينبغي علينا من الآن فصاعدًا أن نشكل مجلسًا يختاره الأعضاء من بين أفضل الرجال يتولى أمور الدعوة مكان الإمام.

زكرويه يتطلع في وجوه الموجودين ويلمح الأكثرية المؤيدة.

ينهض في حدّة ويقول: ـــ أنا لا أضع يدي في يد الخارجين على الإمام.

ينهض شخص آخر معه. يغادر الاثنان الخيمة.

يهمّ عبدان بملاحقتهما، لكنّ حمدان يمسك بيده ويهزّ رأسه كأنما يشير إلى عدم جدوى ذلك.

يبدو زكرويه ورفيقه يمتطيان جواديهما وينطلقان بينما يتوسّط المشهد من الأمام سيف معلق على حامل الخيمة.◆

محمد عمران

فنان سوري، مواليد
١٩٧٩. مجاز من كلية
الفنون الجميلة في دمشق

محمد عمران

موت لكل احتمالات الضوء





نحيب جنائزي

رندا مداح

فنانة سورية، مجدل شمس، الجولان المحتل. درست الفن بجامعة دمشق. عرضت أعمالها في دمشق وبيت لحم ورام الله ومجدل شمس.

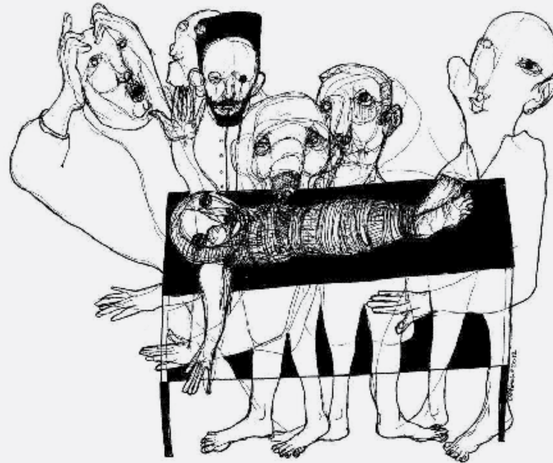
جسد مسجى على طاولة سوداء تلفّه خيوط كما الشرنقة في فترة تحولها. يدا الجسد مفتوحتان لاحتمالات الموت التي هي، في سورية، نفق نهايته مشرّعة على كل احتمالات الضوء. القاتل هناك لا تسعفه فطنته في إنهاك سُبُل الخلود.



جسد

حول الجسد ست شخصيات لكل منها هاجسها والسؤال. شخصية واحدة تعبر عن الفاجعة. لن يعبر محمد عن حزنه أكثر. فهنالك دائمًا مساحة لكوميديا وقعها أشد إيلامًا من الاسترسال بعرض عناصر الفاجعة.

تقدم الشخصيات نفسها تاركةً النحيب للمتلقي. لن تلمس جسد الشهيد. ستبقي الايدي تحت الطاولة ولكنها ستتنشق الغبار عن جسده المنتهَك والمصفّى. بعض الشخصيات يقف في خلفية المشهد يلقي نظرة لا مبالية تنقصها خبرة من ذاق الهوان.



الهوان

هذا هو الشعور الذي سيتحول في عمل «ربطة خبز» إلى فعل مقاومة. العمل يشبه مشهدا اخيرًا من مسرحية يموت بطلها بشكل استعراضي. الاستعراض هنا هو حالة رفض بحتة للتسليم بواقع الموت المنحدر من البحث عن ابسط سبل الحياة.

اليد ما تزال مرفوعة إلى الأعلى حاملة ربطة الخبز، وحولها هالة من دمٍ على مساحة بيضاء. الخبز مختلط بالدم (باللون) ضمن مساحة محايدة يُشكّل قصتها سيخ الحديد والضحية وتأكيد الخبز والدم. لن نحمل وزر مشاهدة القاتل او لوعة المخلّص من المساحة، كما اننا











لن نبقى محايدين. سنتورط في المشهد من خلال عين الضحية المفتوحة. هي عينٌ ثالثة ثرثارة ترتب أسئلتنا عن جدوى الفعل كيفما كان.

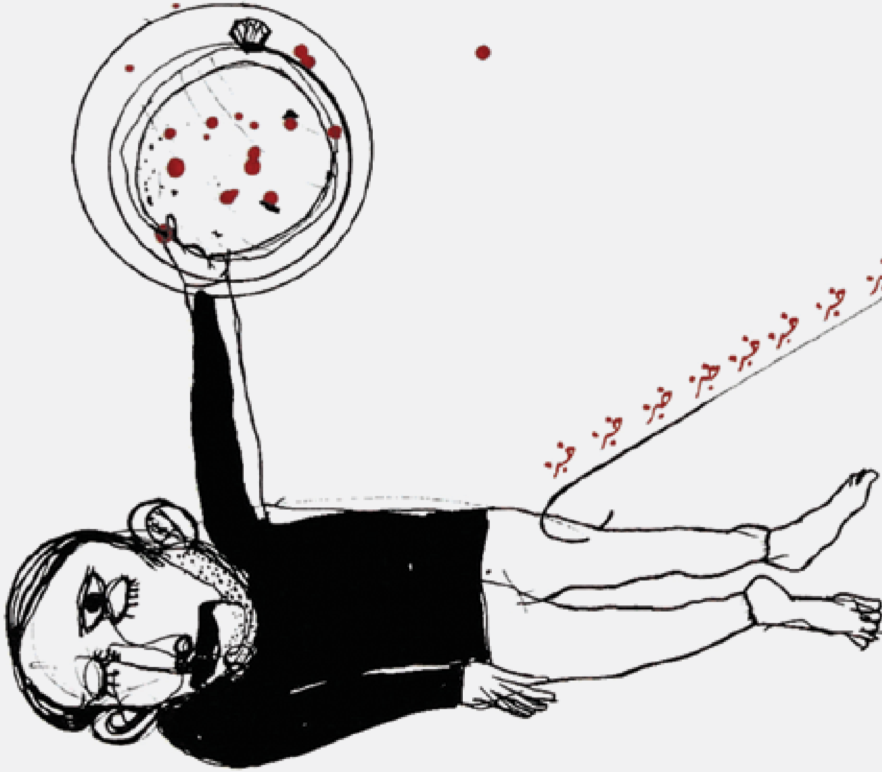
عينا الضحية مغمضتان وعين ثالثة مفتوحة بإصرارٍ مقاوم: لن يخذلنا الموت.

هو المشهد الأخير من مسرحية واقعية يحارب ضحاياها لرؤية حقٍ بحجم رغيف خبز. لرؤية وطنٍ أكبر من رغيف خبز، «وطن يتسع للجميع».

وطن

تضيق المساحة في عمل «إبن العم» الذي يحاول بعضُهُ اغتيال البعض منه. جسدٌ حيواني ذئبي الملامح بنصفه المسيطر وعلى الرأس أذنان متطاولتان صغيرتان تعلوهما نظارة سوداء تشبه نظارة المُخبرين مشوهي الهوية التائهين بين خوفهم وممارستهم للعنف.

لا يخلو هذا الجزء من الجسد من ثقة وقحة يعززهما حضور لا إنساني قادرٌ على الاستباحة. إبن العم بيدين رجوليتين يكسوهما الشعر، يمسك رأسًا آخر للجسد نفسه في استعراض لعنف سريالي تجاه الذات والآخر. والجسد المتناحر، الذي يحاول اغتيال جزئه الانساني،





ينذر بتعفن الجزء الآخر وانتهائه. هي نزعة تدمير ذاتي عبر قتل الضدّ في الذات بدءًا من ذاتها، وإسكات الجزء الادمي فيها. النهاية مفتوحة في هذا العمل. هل سيموت ابن العم؟ هل سيبقى قيد الاغتيال؟

مخيلة

تتبعثر الخطوط في الاعمال لكن خطًا واحدًا يرسم تخومها، تاركًا فوضى أجزاء بشر وحيوانات والآلات داخلها. يرتبك المشاهد من شدّة العنف. لكن شعورًا بالتحدي يحضر داخل تلك المساحة بين الرؤية والإدراك.

في أعمال أخرى لمحمد عمران كائنات هجينة، أجزاؤها بنادق ودبابات، كائنات ملتصقة بعناصر غير عضوية تترك لنا سؤالها عن الزائل. الكرسي من مفردات أعماله الاثيرة. في مجموعته النحتية يرتبط الجسد بالكرسي فيصير هو الكرسي بعضلاته وعظامه الممتدة الى قوائم. ويضيف محمد العجلات إليها، ثم يختصر الجسد فيصير نصف جسد على قاعدة مُدَوْلبة. يتقلّص الجسد في حضرة الكرسي.



ليست أعمال محمد عمران طارئة على الثورة. في استعراض مجموعته النحتية والتخطيطية والتصويرية السابقة نلتقي الأجساد اياها منزوعة الإرادة يشرخها في غالب الاحيان فجٌّ من الصدر إلى أسفل البطن او نلتقيها مقطّعة الأوصال. سنشاهد الغبن ذاته ولكن بصمت أقل. فهذا الصمت الذي تحوّل بعد الخامس عشر من مارس/ آذار الى صراخ زادت من حدّته أسئلة الثورة والغُربة.◆



شهوة المحو

بسمة عبد العزيز

صحافية وفنانة، مصر.

منذ بـدايـات الـثـورة المصرية فـي أوائــل ٢٠١١، اندفعت مختلف الفنون لدعمها ومساندتها ونقلها للجميع، داخل الميادين المنتفضة وخـارجـهـا. هكذا ظهرت الشعارات والـرسـوم الملونة كمرآة معبرة عن كل موقعة تجري وعن كل حـدث يقع. وفـي أحيان أخـرى جـاءت مستشرفة للآتي أو محرضة عليه. لـم تقتصر فـي وجـودهـا على العاصمة التي انطلقت منها الـشـرارة الأولـى، بل انتشرت في جميع أرجـاء الـوطـن وربـوعـه، على جـدران المباني والأســوار والأبـــواب وأكـشـاك الكهرباء وحـتـى الأشـجـار. كـل سطح أمكن الرسم أو الكتابة عليه قد امتلأ عن آخـره، وخلال فترة زمنية قصيرة، استعاد المصريون موهبتهم الأولـى الفائقة فـي تـدويـن الأحــداث، وتوثيقها حـروفًـا ورمـــوزًا وأشـكـالًا. الموهبة التي لولاها لما احتفظوا بتاريخ الآف الأعوام على الجدران والأحجار.

غـزا الغرافيتي الـشـوارع، ليوصل رسائله للجميع، لمن يقرأ ولمن لا يـقـرأ، لمن يريد ولمن لا يـريـد، حتى صار بمثابة ذاكــرة حية دقيقة تـرصـد كـل نبضة مـن نبضات الثورة وتحتفظ لها بكل خبر طـازج. لكن في الوقت ذاته، ومع صعود هذا الفن إلى ذروة الحماسة والتألق والإبـداع، ومــع سـخـونـة الـلـوحـات وجـرأتـهـا ومـواجـهـتـهـا للسلطة الخائفة دون مـواربـة، ووصولها إلـى الهدف مباشرة دون كثير مـن التفاصيل، بـدأت عمليات طمس مـوازيـة: صار هناك من يصنع الرسوم وهناك من يطاردها بـدأب ليزيلها بعد ساعات أو أيام.

الشعب يكتب والسلطة تمحو

اتـخـذت عمليات الطمس أو المحو والإزالــة مجراها في وقـت باكر جـدًا. لكنها لم تكن منظمة وسـافـرة الوجه كما أصبحت في الفترة التي أحاطت بالعملية الانتخابية. إذ بعد تنحّي الرئيس السابق كانت هناك مـحـاولات للتخلص من بعض الـشـعـارات والـعـبـارات، لكنها تمت على استحياء، وفـي ما بعد تطور الأمـر ليتخذ شكلًا أكثر فجاجة ووضوحًا، ولتقوم الدولة ممثلة في أجهزتها وهيئاتها بإعلان نيتها في التخلص مـن كـل مـا قـد يـؤرخ لأحــداث الـثـورة الجسام. أحــداث قـد يصبح الاحتفاظ بها وتخليدها، مـرادفًـا لإدانـة السلطة القائمة، ودافعًا محرضًا على محاسبتها.

يـوم ٢٤ شـبـاط/ فـبـرايـر ٢٠١٢ على وجـه التحديد، كتب أحـد النشطاء على الفايس بـوك إعـلانًـا يفيد بأن الجيش قـد قـام بمحو كـل رسـوم الغرافيتي مـن شـارع محمد محمود. وفي اليوم التالي، قام عمال «الهيئة العامة لنظافة وتجميل الـقـاهـرة»، بطلي سـور مـدرسـة القلب المقدس بغمره بلون أصفر كئيب للتغطية على العبارات الـتـي كُـتِـبَـت عـلـيـه، والـتـي صـاغـت اتـهـامـات صريحة



لـ«العسكر» تـارة، ولـ«المجلس العسكري» تـارة أخـرى. وفـي مطلع أبريل/نيسان ــ أي بعد شهر واحـد لا اكثر ــ أخـذ عمال «الهيئة العامة لنظافة وتجميل القاهرة» يلطّخون أسـوار نـادي الشمس في مصر الجديدة باللون الأصـفـر المعتاد، ليطمسوا معالم الكتابة والـشـعـارات الثورية التي غطته. وفـي شهر مـايـو/ايـار، رصـدت غالبية الصحف اليومية وبعض الـدوريـات الأسبوعية قيام «هيئة النظافة بمحافظة القاهرة» بـإزالـة رسـوم الغرافيتي من سـور الجامعة الأميركية فـي شـارع محمد محمود، الـذي شهد أشهر المعارك بين الـثـوار وقـوات الشرطة والجيش. بعض تلك الـرسـوم كـانـت لـوجـوه شـهـداء قـضـوا نحبهم على يـد قـوات الأمــن أثـنـاء الـثـورة، وبعضها كـان يسخر بخفة الـدم المصرية المعهودة من رمـوز النظام المتهاوي، وهي في مجملها توثيق شديد الأهمية للثورة المصرية.

عاد اللون الاصفر الكئيب ليغمر الجدران كلّها دون ان يميز بين رسوم وكلمات، وليدلّ على المحو المنظم المقصود لكل ما يمت للثورة بصلة، لكن فناني الشوارع لم يصابوا بالإحباط، بل قاموا بتجهيز أدواتهم وعادوا مرة أخرى ليبتكروا رسومًا جديدة أكثر سخونة. هكذا ردّوا على قرار المحو بالتوجه إلى الشارع مباشرة، وملأوا جدرانه بوجوه الشهداء الملونة. لقد أتت الاستغاثات التي انطلقت من مواقع التواصل الاجتماعي لإنقاذ شارع محمد محمود ثمارها، فهو ذاك الشارع الذي أُطلِقَ عليه اسم «عيون الحرية»، حيث فقد العشرات أبصارهم برصاص الشرطة خلال المواجهات الدامية التي جرت في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي، والذي صار هواؤه يحمل عبقًا من الرهبة. وأضافت إليه الجداريات عمقًا وشموخًا، وحالة شديدة الخصوصية يعيد فيها المرء تمثل الأحداث بتفاصيلها، رائحة أدخنة القنابل والدماء المختلطة بالتراب.

أحاجيّ ومبررات

بالقرب من ميدان العباسية، راح بعض سائقي السيارات المتوقفة بسبب ازحام المرور، ينادون على العمال الذين يحملون مماسحهم ودهاناتهم للسؤال عما هم بصدد فعله. التفت أحدهم مبتسمًا، وقد بدا أنه الرئيس المسؤول: «بنخبّي الكلام القبيح».. وفي شارع محمد محمود، أجاب أحد العاملين عن السؤال ذاته: «المحافظ بعتنا نمسح الصور دي وقال لنا عشان الرئيس الجديد لما ييجي يلاقي البلد نضيفة». وقال آخر أمام أحد الأسوار التي بدأت فرشاته تكسوها بلون كالح: إن المحافظة كلفته وعددًا من زملائه، القيام بأعمال تجميل في الشارع، عن طريق إزالة «التشوهات» التي لحقت به من فوق الجدران كلها، ودهانها باللون المناسب.

لقد ذكر رئيس «الهيئة العامة لنظافة وتجميل القاهرة» حين سُئِلَ، أنه إلى جانب الرسومات الجميلة، قد توجد عبارات خادشة وغير لائقة، الأمر الذي يوجب إزالة شاملة. وهو رد لا يسمن ولا يغني من جوع. لكن الأكثر مدعاة للتعجب والدهشة هو تصريح رئيس الهيئة بأن عملية المحو «تأتي في إطار إعادة المظهر الجمالي لقلب العاصمة». تلك العاصمة التي تعج بمختلف أنواع القبح المعماري، لن تجد طريقها للجمال البصري سوى بإزالة الرسوم الفنية والتوثيقية من على جدرانها الشائهة. على الجانب الآخر أكد رئيس جهاز التنسيق الحضاري اهتمامه بتصوير هذه الرسومات تمهيدا لتدريسها، وأشار إلى أنه قام بتشكيل لجنة فنية لبحث ما يجب تركه، وما يجب محوه، أيا كانت قيمته التاريخية،



وأن المعيار الأول والأخير هو القيمة التاريخية للمبنى المرسوم على جدرانه وليس للعمل. هي رؤية ربما تحتاج إلى مراجعة، ففي تلك الحالة سوف نقف أمام قيمتين تاريخيتين، تملك إحداهما إصدار الحكم بإعدام الأخرى بغض النظر عن أهميتها. يبدو أن السلطة تقدم في حقيقة الأمر مبررات واهية، يصعب الاتكاء عليها، من أجل إضفاء مشروعية على عملية المحو، وإكسابها قدرًا من تعاطف الناس.

لا يُعتَبَر الرسم على الجدران فعلًا مستحدثًا ولا دخيلًا على المصريين، ولنا أن نتصور الحال لو كان لحكام مصر القديمة التي قامت حضارتها لآلاف الأعوام وانتقلت إلينا عبر النقوش الحجرية، أن يعتبروا رسوم الجدران بمثابة تشويه، يستدعي تحرك الدولة لإزالته.

«ليس هذا بغرافيتي!»

صحيح أن الغرافيتي فن ممنوع، وأنه يعتبر في معظم دول العالم تقريبًا بمثابة تخريب للملكية العامة، لكن بلدًا تقوم فيه ثورة كي تُسقِطُ نظامًا، وتضع دستورًا وتسترد حريتها، لا يمكن أن يكون أول عمل تقوم به هو محو كل ما يدل على ثورتها، وشهدائها ومعاركها مع السلطة القمعية. إن تجريم فن الشارع وريشته وصوته يرتبط ارتباطًا وثيقًا بقوة تأثيره على الناس، وما يشحذ فيهم من طاقة وقدرة على الفعل والصمود، هو محاولة لمحو ذاكرة ما كان وما يجب أن يكون.

في شهر أكتوبر/تشرين الأول الماضي، أقيم معرض لمجموعة من فناني الغرافيتي تحت عنوان : «ليس هذا بغرافيتي». وهو عنوان يحمل دلالات متعددة، فربما هدف اختياره للسخرية من عمليات المحو، ومن غباء القائمين عليها الذين يطمسون كل شيء دون تمييز، بينما هم لا يستدعون بفعلهم سوى المزيد من الرسوم والمزيد من الإصرار. وربما يكون العنوان محاولة استباقية لطيفة، لوقاية المعرض من أي هجمات تستهدف محتوياته، باعتبارها عملًا إجراميًا يعاقب عليه القانون.

لأن الغرافيتي فن يخيف المستبدين والطغاة، يجابه أصحابه دومًا أنواعًا من القمع والتهديد. فقد تعرّض بعض فناني الغرافيتي للاعتقال في ليبيا إبان فترة حكم القذافي، منهم صادق جشوط وهو أحد الرسامين المعروفين، وعُذِّبَت ابنته الطفلة. وفي السعودية، أصدرت وزارة الداخلية قرارًا بتغريم كل من يلقى القبض عليه متلبسًا بالرسم على الجدران، مبلغًا يراوح ما بين الفين وخمسة آلاف ريال، وذلك بعد اعتقال مجموعة من الشباب، كتبوا عبارات وُصِفَت بأنها سياسية ومخلة. وفي مصر، اعتقل الناشط علي الحلبي، لقيامه بالرسم على سور «جمعية الوفاء والأمل» وحبس على ذمة التحقيقات بتهمة إتلاف منشأة عامة تخص القوات المسلحة. وأثناء نظر تجديد الحبس تم توقيع الغرامة التي قدرت بـ١٨٠٠ جنيه عليه، ثم أفرجت عنه النيابة العسكرية بعد دفع المبلغ. كذلك، ألقي القبض على الناشطين أحمد عبد الله وجلال البحيري بعد رسمهما غرافيتي على سور جامعة «بنها»، ثم أطلق سراحهما.

بسبب الإدانة التي تلحق برسامي الغرافيتي وفناني الشوارع، جرت العادة أن ينجزوا رسومهم في غفلة من الآخرين، وهو ما يستدعي في أحيان كثيرة أن يبدأ العمل بعد منتصف الليل أو فجرًا. وبينما هم مضطرون إلى الاختباء عن العيون لإيصال رسائلهم للسلطة من جانب، وللجمهور من جانب آخر، فإن عملية محو تلك الرسائل تجري على مسمع ومرأى من الجميع، وفي أغلب الاحوال تبدأ وقت الظهيرة، حين يكون العمال والطلبة والموظفون عائدين من أشغالهم. والمقصد واضح، فالسلطة تستطيع أن تفعل ما تشاء وقت أن تشاء ولا يملك أحد أن يوقفها، سواء ثار الناس أو لم يثوروا.

آراء أخرى

فيما قرر مسؤولو الدولة أنّ رسوم الغرافيتي تمثل تشويها وتخريبًا للمرافق والمباني، وأنها غير لائقة جماليًا، فقد كان لبعض أصحاب الشأن رأي مخالف. في إحدى الوقائع، أكد أفراد من حرس الجامعة الأميركية أن الخدمة التي تمر للاطمئنان إلى الأمن، فوجئت بعدد من العمال أمام الباب الرئيسي للجامعة الذي يقع بشارع محمد محمود، يقومون بإزالة صور الشهداء من على الجدران. وقالوا إنهم قاموا بمنعهم من ذلك، مُوضحين أن صور الشهداء لا تسيء للجامعة في شيء، بل بالعكس فإن الجامعة ترحب بالصور، وتمجد الشهداء. من ناحية أخرى أصدرت اللجنة الفنية في كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية بيانًا للرد على محاولات إزالة رسوم الغرافيتي عن أحد مبانيها، أكدت فيه رفضها القاطع لسياسة «تكميم الأفواه المتبعة من قبل إدارة الكلية المخلوعة، ومن بعض أعضاء الإتحاد»، وأشارت إلى أن رسومات الغرافيتي بوجه عام قابلة للإزالة بعد فترة بطريقة معينة، وذكرت أنها رغم لومها الطلاب الذين

نـفـذوا الـرسـومـات على مبنى الإعـــدادي الأثـــري، فإنها لـن تتخذ أي إجــراء قانوني ضدهـم لانـهـم حصلوا على موافقات من المسؤولين، لكنها سـوف تتقدم بمذكرة ضد العمال وضـد طـلاب الاتحاد الذين قاموا بإزالة الغرافيتي بوسائل غير مناسبة، ودون الـرجـوع الــى اللجنة الفنية المتخصصة في هـذه الأمـــور، ما أدى إلـى تشويه المبنى. الطريف في الأمـر أنّ البيان لفت النظر إلى أن المشاركين في إزالـة الغرافيتي قاموا بـإزالـة الـرأي المكتوب (يسقط حكم العسكر)، و(يـسـقـط قـانـون الـطـوارئ) دون محو الغرافيتي بالكامل، فاستنتجت منه اللجنة الفنية أن الهدف ليس إزالة التشويه بل إزالـة الـرأي الـثـوري الحر، وعليه وجهت تحذيرًا شديدًا للمعتدين.

لم تقتصر عمليات الإزالــة الانتقائية على مباني كلية الهندسة فـي الاسـكـنـدريـة، بـل كانت ملحوظة ثابتة في أغلب المناطق، حيث أصابت مـحـاولات الطمس والمحو تلك العبارات التي تدين العسكر وتمجد الشهداء. وفي الوقت ذاتـه تركت باقي العبارات والـصـور التي لا علاقة لها بالعسكر على حالها، حتى ثار اللغط فقام الطامسون بدهان الجدران كاملة.

عـلـى كـل حـــال، تمثل أغـلـب رســوم الـغـرافـيـتـي في حـد ذاتـهـا قيمة فنية خالصة، وقـد ازدانـــت الآف وربما ملايين الـجـدران عبر السنين بـرسـوم متنوعة، نفّذها أشـهـر الـرسـامـيـن وأعـظـمـهـم، منها مـا تضمه كثير من الكنائس والأديـــرة. ولا يُعتَبَر الـرسـم على الـجـدران فعلاً مستحدثًا ولا دخـيـلاً على المصريين، ولـنـا أن نتصور الحال لو كـان لحكام مصر القديمة التي قامت حضارتها لآلاف الأعـــوام وانتقلت إلينا عبر النقوش الحجرية، أن يعتبروا رســوم الـجـدران بمثابة تشويه يستدعي تحرك الـدولـة لإزالـتـه. لا يسع المتابع لتلك المبررات والحجج الـتـي يسوقها الـمـسـؤولـون للدفاع عـن مسلكهم، والتي تتنكر خلف فـكـرة التشوية والإســـاءة للقيم الجمالية والـحـضـاريـة، إلا أن يـتـسـاءل عـن هـــذا الـكـم مـن الطرز المعمارية المتنافرة التي تزخر بها العاصمة المصرية، وتلك الألـــوان القبيحة التي يستخدمها أصـحـاب المحال التجارية فـي لافتاتهم، والارتـفـاعـات المتباينة للبنايات السكنية الـتـي لا يحكمها ضـابـط أو رابـــط، والـواجـهـات الـزجـاجـيـة العاكسة الـتـي لا تناسب الـمـنـاخ ولا الطرز العتيقة فـي أحـيـاء لها عراقتها المعمارية، والسيراميك الـذي يغطي بعض أرصفة وسـط المدينة ويجعلها مدعاة لسخرية السائحين. تـرى ألا تمثل تلك الأشـيـاء جميعًا أي دافـع أو محرض على الإصـلاح، أم أن بُعدَها عـن أي مواجهة مباشرة مع السلطة يكفل لها البقاء، مهما كان مقدار التشويه الذي تتسبب فيه؟

بأيدينا نمحو

ربما كـان من الطبيعي أن تعادي السلطة الغرافيتي أو «فـن الـشـارع»، وأن تبذل ما في وسعها لإزالـتـه، فهو في أغلبه مـوجّـه ضدها وضـد كـل وجـه مـن وجـوه الاستبداد والـقـمـع. لكن الغريب أن تـشـارك فـي عملية المعاداة والإزالـــة مجموعات مـن الشباب، ربما انتمت بشكل أو بآخر للفعل الـثـوري، وشـاركـت فـي صناعته، أمـر يحتاج إلى شيء من التأمل والدراسة.

فـي شهر فـبـرايـر/شـبـاط ٢٠١٢، قـام مـا يـقـرب من ثلاثين شابًا وصفتهم الجرائد والصحف بكونهم «شباب الـثـورة» فـي محافظة بني سـويـف، بالدعوة إلــى تنظيف النصب التذكاري الموجود في ميدان الشهداء من رسوم الغرافيتي والـشـعـارات المكتوبة عليه، مستخدمين مواد حـارقـة مثل البنزين ومـاء الـنـار، بـالإضـافـة إلـى السنفرة والأسـلاك والمُلَمِّعَات. ويتخذ النصب شكل هـرم ميدوم، وهـو أحـد المعالم الـبـارزة فـي المحافظة، أقيم لتخليد الـشـهـداء خـلال الـحـروب مـن ١٩٤٨ الـى «حـرب أكتوبر» ١٩٧٣. أطـلـق الـشـبـاب على حملتهم اسـم «حـركـة بني سـويـف الـحـرة»، وذكـر أحـد مؤسسيها أن الـنَـصُـب كان «مـشـوهًـا» بـعـبـارات مـن قبيل «يسقط مـبـارك»، و«تحيا ثـورة ٢٥ يناير» وأن الحركة قـررت إزالـة هـذه العبارات والرسوم احترامًا للشهداء!

فـي الـشـهـر الـتـالـي (مــــــارس/آذار)، وبينما يستمر المعتصمون المطالبون برحيل المجلس العسكري في اعتصامهم فـي مـيـدان التحرير، تشكلت حـركـة أطلقت على نفسها اسـم «أنـصـار التحرير» قيل إنها تضم شبابا مستقلين وعـددًا من مصابِي الثورة، وضعت لنفسها هدف إعـادة تنظيف الميدان وتزيينه، وأحضر أعضاؤها أدوات التنظيف الـلازمـة والـدهـانـات لتلوين الأرصـفـة. وذكـر أحـد أعـضـاء الـحـركـة فـي حـوار صـحـافـي، أن المجموعة أرادت أن تثبت للمجلس العسكري والحكومة أن الثوار والمصابين ليسوا بلطجية أو مأجورين يسعون إلـى هدم الـدولـة، وإنـمـا هـم يعملون مـن أجـل بناء مصر جديدة، وأنهم سوف يغادرون الميدان بمجرد الانتهاء من تنظيفه.

قامت حركة «أنـصـار التحرير» بعملها، وحققت الهدف الـذي تطلعت إليـه، والـذي لـم يكن يتعلق مـن قريب أو بعيد بـأهـداف هـؤلاء المعتصمين، الذين واصـلـوا المبيت في الميدان متمسكين بقضيتهم دون أن تمثل لهم عملية التنظيف والدهان أهمية كبرى. على المنوال ذاتـه، تكونت رابـطـة على مـوقـع الـتـواصـل الاجتماعي (الـفـايـس بـوك) تحمل عنوان «بأيدينا» تضم في عضويتها عـددًا كبيرًا من الأطباء والمهندسين والطيارين الذين اتفقوا على النزول إلـى الـشـوارع والميادين الرئيسية «الـمـشـوّهـة» كـل يوم جمعة لتنظيفها. وذكـر مؤسس الرابطة ــ وهو طبيب ــ أن الأعضاء قسموا العمل في ما بينهم حيث تولت مجموعة تنظيف أسـدَي قصر النيل، وتولت أخـرى تنظيف الجدران والكوبري، وأن بعض السياح شاركهم في المحو.

لا يقتصر الأمــر على تلك المجموعات الـتـي تنشأ بـدافـع مـثـالـي، والـتـي تـرفـع بـشـيء مـن الـسـذاجـة رايـة المسؤولية والانـتـمـاء. فهناك الـخـلافـات الإيديولوجية التي تدفع بـأفـراد أو جماعات، إلـى محو الآخـر المخالف في الــرأي. ذكـر شهود العيان أنهم تابعوا أحـد الأشخاص الملتحين وهــو يـحـاول طـمـس جــزء مــن مـلامـح صــورة تظهر شخصًا ملتحيًا يـرتـدي سـتـرة طبع عليها شعار الإخــوان المسلمين، وكتب فوقها «يسرّنا أن نقدم مرشح الجماعة»، بـالإضـافـة لـصـورة أخــرى تتضمن إطــار سيارة مكتوب عليه «الاسـتـبـن»، لكنه فشل في تلك المحاولة ، وقـام آخــرون من أنصار الشيخ حـازم صـلاح أبـو إسماعيل بطمس غرافيتي يصور الشيخ عماد عفت، واستبدلوا به آخر للشيخ حازم.

مهما أثــار فعل المحو مــن استنكار وضـيـق، تبقى قواعد اللعبة واحـدة: الرسم ثم الطمس، وإعـادة الرسم مرة أخـرى. انه العناد أمـام الخوف وصمود الفن أمـام الاستبداد. لم تعد الأيـدي التي تزيل خفية، ولـم تعد بالضرورة أيدي السلطة المعروفة للجميع، هي أحيانًا أيـادٍ صديقة. ورغم كثرتها لا تفتأ الـرسـوم تنبت على كل حائط، وتكبر يومًا بعد يوم، دون أن يملك أحد السيطرة عليها.

شهوة المحو لدى الاصدقاء:
الثورة لم تنته بعد!

يمكن اعتبار مشاهدة عمليات محو الغرافيتي، سـواء تلك التي تمت عن طريق الدولة أو التي دعت إليها مجموعات الـشـبـاب المستقلة، فـي ضـوء مـا سبقها مــن أحـــداث، امـتـدادًا طبيعيًا ومتوقعًا لمرحلة الكنس والتنظيف التي اتـخـذت مجراها صباح تنحّي الرئيس السابق. للحقيقة كـان المشهد غريبًا، حتى أن غالبية صحف العالم أبرزته وعلّقت عليه. أمسك الشباب بالمكانس لإزاحــة الأتربة والمخلّفات، وارتــدت مجموعات من الفتيات والسيدات ــ بعضهن لم تـزرن الميدان ولـو لمرة واحــدة منذ بدأت الثورة ــ قفازات طبية لجمع القمامة في أكياس سوداء.

لا تكمن الغرابة في عملية التنظيف نفسها، إنما في سرعة الانتقال مـن الــروح الثورية التي تخوض المعارك وتبذل الدماء والأبـصـار، إلـى تلك الـروح الخفيفة اللطيفة المرفّهة، التي ترغب في إعــادة الميادين والـشـوارع إلى مـا كـانـت عليه، وتـضـع على رأس أولـويـاتـهـا رشّ المياه ومسح الأرصـفـة، وتطمح إلـى إزالــة آثــار الإقـامـة ونفايات المعيشة، وآثــار الـثـورة التي قـام بها الشعب. هكذا بدأ المحو في عجلة شـديـدة، وبمنتهى الفرحة والـجـزل، كما لـو كـان رحـيـل مـبـارك قـد أنـهـى كـل شـــيء، وكـمـا لـو أنه تنبغي العودة سريعًا للمشهد المعتاد.

تفرز الشرائح الاجتماعية المتباينة سلوكيات متباينة بالسليقة، الفقراء الذين يتكومون في غرف ضيقة ويشتركون في دورات المياه ويلتقطون من قمامة الآخرين بعض الأشياء التي لا يملكون ترف شرائها، ربما لا يهتمون كثيرًا بقيمة كالنظافة ولا يعبأون بإزالة مخلفات الأيام التي قضوها على الأرض. في المقابل هناك الطبقة المتوسطة التي يحمل أفرادها قيمًا قد لا تحظى بالأهمية ذاتها لدى طبقات أخرى، بل قد لا تتوافر لديها من الأصل، رفاهية الخصوصية والأناقة والنظافة الفائقة، هي قيم ربما دفعت البعض إلى الإمساك بالمماسح فورًا والشروع في تنظيف ومحو كل أثر للثورة، وهي التي جعلت آخرين يقفون أول ما وقفوا، لتلوين الأرصفة، بمنتهى الجدية والفخر، مقتنعين بأن ذاك هو سبيلهم للتقدم بالوطن خطوات إلى الأمام. يؤكد هذا الأمر أن كثيرا من أعضاء المجموعات التي تكونت بغرض القيام بعمليات المحو والتنظيف، هم من الأطباء والمهندسين والصيادلة الذين ينتمون بوضوح إلى الطبقة الوسطى. وتقودني هذه الملاحظة إلى حديث أحد الصحافيين النشطاء في ندوة أقامها منتدى علم الاجتماع النقدي، حين طلب الكلمة ليصرخ بأن الشباب الذين كانوا في الصفوف الأولى، والذين ضحوا وخاضوا معارك الكر والفر مع القوات الأمنية، وقتلوا دون أن يحظوا بأي تكريم، هم شباب الطبقات الدنيا، وأن هؤلاء الذين يسكنون العشوائيات ولا يجدون القوت، هم الذين كانوا يبيتون أسفل الدبابات والمدرعات، وأنهم في حقيقة الأمر لا يهتمون كثيرًا بعمليات التنظيف الحماسية التي جرت في ميدان

التحرير عن طريق شباب وشابات «مرفهين»، مع ان وسائل الإعلام إهتمت بها، ونقلتها باحتفاء، وأسبغت على الذين قاموا بها صفة الثوار الحقيقيين.

لا يمثل محو السلطة للغرافيتي سوى حلقة في سلسلة طويلة من الحلقات، جرت وتجري منذ قيام الحركة الثورية المصرية، وإلى جانب مشاركتها الشباب في تنظيف الميادين والشوارع من آثار المعيشة ومخلفاتها، وكأن بشرًا لم يقضوا ليالي فيها. وإلى جانب محو الرسوم والعبارات التي رسمها الثائرون على كل جدار، فقد تم أيضًا محو أدلة لا حصر لها ترتبط بعمليات القتل والاغتيال التي راح ضحيتها المئات. طاردت السلطة آثار الرصاص والدماء والدهس في كثير من المعارك التي لا يزال الجناة فيها طلقاء، ومحتها تمامًا. وقد أصبح اليوم التالي لأحداث ماسبيرو والطرقات مغسولة بالمياه، والشوارع نظيفة لامعة، لا أثر فيها لعمليات القتل التي قامت بها السلطة. أتى الصباح وكأن أحدًا لم يكن هناك. بالمثل تم «محو» الوثائق الموجودة في مقار جهاز أمن الدولة ورآها الناس ممزقة مفرومة لا طائل منها. كذلك تم محو الأشرطة الخاصة بكاميرات المتابعة في المتحف المصري، والتي كانت ضمن أحراز قضية قتل المتظاهرين، إذ صدرت بشأنها مذكرة منسوبة إلى جهاز الاستخبارات وموجهة إلى النيابة العامة، تفيد بعدم صلاحيتها، وبأنه قد تم تسجيل مواد أخرى عليها في الفترة من ٢٥ إلى ٣١ يناير/ كانون الثاني، وهي الفترة التي شهدت قتلًا مكثفًا ومقصودًا.

هكذا لا تقف ِعملية المحو والإزالــة عند الرسوم. المحو المنظّم يطاول الثورة وآثارها.◆





إريك رولو

صحافي كبير في العصر الذهبي للتحرر العربي

إريك رولو

صحافي مصري ودبلوماسي فرنسي.

ولد في ١ تموز ١٩٢٦ في القاهرة، ومارس الصحافة باكرا في القاهرة ثم في باريس التي انتقل اليها على اثر الاجواء التي سادت في مصر تجاه اليهود والشيوعيين بعيد نكبة فلسطين.
تسلّم قسم الشرق الاوسط في «لوموند» اليومية من ١٩٥٥ الى ١٩٨٥ ووصف خلالها بأنه «صحافي كبير في صحيفة كبيرة» عبّر حينها عن عميق معرفته بأوضاع المنطقة وتعاطفه الكبير مع قضاياها وحركاتها التحررية. ربطته علاقة مميزة بالرئيس جمال عبد الناصر وبياسر عرفات والقادة الفلسطينيين والإمام الخميني. عيّنه فرانسوا ميتران اول سفير لفرنسا لدى منظمة التحرير الفلسطينية في تونس خلال الاعوام ١٩٦٥ الى ١٩٨٦. وشغل بعدها منصب سفير فرنسا في انقره الى حين تقاعده العام ١٩٩١. عرف بمعارضته الشديدة للغزو الاميركي للعراق. واظب على الكتابة في «لو موند دبلوماتيك» بعد تقاعده عن العمل الصحافي. تدور مؤلفاته الرئيسية حول قضية فلسطين والمقاومة الفلسطينية والحروب العربية الاسرائيلي. حائز على وسام جوقة الشرف الفرنسي وعضو في محكمة راسل عن فلسطين.
ننشر في ما يلي المقدمة والجزء الاكبر من الفصل الاول من كتاب الصحافي والدبلوماسي إريك رولو بعنوان «مدخل إلى فصول الربيع العربي: الشرق الأوسط بعيدًا عن الأساطير» الذي يصدر قريبا عن دار فايار في باريس. اقتطفنا من المخطوطة التي خصّنا المؤلف بحق ترجمة اجزاء منها التقديم عن حياة المؤلف والقسم المتعلّق بأول لقاء له بالرئيس جمال عبد الناصر، مطلع الثورة المصرية.

نشأتُ في فرنسا، وتلقيت تعليمي في مدارس الجمهورية، ومن بينها تلك التابعة لـ«الرابطة الإسرائيلية العالمية». وكان أبي، بطبيعة الحال، مناصرًا لعلمانية الدولة، ويؤيد الدمج الكامل للمواطنين اليهود في دولتهم، ما جعله عصيًّا على تقبّل أيّ شكل من أشكال الفكر القومي اليهودي. ورغم كونه ملحدًا أو لادينيا ــ لم أتمكن يومًا من تمييز ذلك بدقّة ــ إلا أنه بقي مخلصًا لتقاليد اليهودية. فكان يحيي الأعياد الكبرى ــ الفصح اليهودي، رأس السنة اليهودية، ويوم كيبور ــ غارقًا من كؤوس الخمر التي تُغدق خلال الصلوات الطقسية. وباستثناء التهكّم اللطيف، لم يجد ما يقوله لي، عندما قررت، خلال إحدى نوبات المراهقة، متابعة صفوف

مسائية في كِنِيس، بهدف دراسة النصوص المقدّسة (ومن ضمنها التلمود)، وقد كانت تلك التجربة، على ما أظن، مقدّمةً لفقداني الإيمان ــ ومعها مسيرة مهنية حاخامية. كما أنه لم يتصدّ لقراري بالانتساب إلى نادي حركة «هشومير هتساعير» («الحارس الشاب»)، وهي حركة صهيونية ذات ميول ماركسية. وأظن أن أبي، مثلي، كان يجهل تمامًا، تقريبًا، كل ما يمت بصلة للصهيونية والماركسية، وهما أيديولوجيتان خلا منهما بوضوح عالمه الفكري. انسحبت من ذاك النادي بعد عامٍ على انتسابي إليه، بعد خيبة أملي من Hدعائه التوفيق مًا بين القومية اليهودية والأممية الماركسية.

الوالد العلماني والصيف في لبنان

وكان أبي يدّخر المال الكافي ليضمن لنا، كل خمس سنوات، إجازة في لبنان حيث غزارة المياه، ووفرة النبات، وسخاء البساتين، تشكّل عوامل تسلخُنا بسعادة عن مصرٍ القاحلة والجافة. قطارٌ مضعضعٌ من زمنٍ آخر يشقّ طريقه ببطء، وسط صخب حديديّ يصمّ الآذان، يعبر بنا سيناء. ومنها يقلّنا أوتوبيس إلى تل أبيب، لنزور أخي الذي هاجر إلى فلسطين قبل الحرب، يحرّكه حبٌّ للمغامرة أكثر بكثير من الالتزام بالمثل الدينية. لا شيء سواه ربطنا بالأرض المقدسة، حيث كنا نقضي يومين أو ثلاثة لا أكثر، قبل أن نمضي باتجاه أشهر الإجازة الثلاثة في لبنان.

عشنا باندماجٍ تام في المجتمع المصري، الذي حفظ لليهود فيه موقعًا محظيًا. في وسط القاهرة، كانت الأحياء التجارية تغطّ في سباتٍ عميق خلال «يوم كيبور»، أو رأس السنة اليهودية, فتقفل أبوابها مجموعةٌ من أكبر المتاجر، والحوانيت، والمصارف، والشركات التجارية، كما البورصة. أما المقاهي، والمطاعم، ودور السينما، فتعيش خلاله يومًا متباطئًا. وكان يكفي التنزّه في شرايين العاصمة الرئيسية لتقفز إلى العيون أسماء المحال الكبرى الرفيعة المستوى، من «شيكوريل»، و«شملة»، و«غاتينيو»، و«أوروزدي باك»، و«أديس»، و«أوريكو»، و«الصالون الأخضر»، و«الملكة الصغيرة»، كاشفةً عن ثراء عائلات السفارديم.

كان يقارعها في المستوى متجرٌ واحدٌ فقط، وهو «صيدناوي»، المملوك من عائلة مسيحية مهاجرة من سورية، تحمل الاسم ذاته.

حاييم ناهوم أفندي، كبير حاخامات مصر (منذ العام ١٩٢٥ حتى العام ١٩٦٠)، والساهر على شؤون الرعية الدينية، كان في آن معًا عضوًا في مجلس الشيوخ في الأكاديمية الملكية، لِسعة علمه النادرة. متعدّد الألسن، يتقن العربية الفصحى بقدر ما يتقن العبرية والتركية والفرنسية والإنكليزية. وقد أتاحت له البعثات الدبلوماسية التي أشركه فيها السلطان العثماني حتى العام ١٩٢٠، حين كان يشغل منصب كبير حاخامات السلطنة، أن يحافظ على علاقاته في الأوساط السياسية الأوروبية، وهي ميزة وضعها في خدمة السلطات المصرية والجماعة اليهودية لاحقًا. فهو من متخرّجي «الرابطة الإسرائيلية العالمية» في فرنسا، حيث قضى سنوات شبابه، وأتى ليتشارك مع معظم القادة اليهود المصريين قناعات «اندماجية» أو استيعابية، وبالتالي، تحفّظات تجاه الهجرة (بالعبرية «عليا»، أي الصعود) إلى فلسطين. إلا أن خلط اليهود المصريين ما بين مفهومَي الصهيونية والإحسان (ظنًّا منهم أن تبرّعاتهم تسخّر لخدمة اليهود الهاربين من الاضطهاد الأوروبي) أساء إلى قادة الحركة الصهيونية.

في المقابل، وتدريجيًا، وعى وجهاء الجماعة، وعلى رأسهم الحاخام الكبير، لما يمكن للصراع في فلسطين أن يخلّفه من عواقب مؤسفة على اليهود في بلدٍ لا يمكن لأكثريته إلا أن تكون معادية للمشروع الصهيوني. لذلك، بات هاجس متواصل الإشهار بصوت مرتفع قوي النبرة: «يهود ومواطنون مصريون، في آن». وهو فعل قناعة عاد عليهم بدعم القصر والحكومة الحاميين، كما بحفظ العلاقات الطيبة مع النخبة المسلمة، قبل أن تتصاعد حدّة الصراع اليهودي ــ الفلسطيني. بطبيعة الحال، أبدى المصريون تعاطفًا شديد الخصوصية تجاه الفلسطينيين، الجيران الذين رأوهم يجرّدون من جزء من أرضهم، على أيدي أقليّة من المستوطنين الغرباء.

مقابلة صحافية مع حسن البنّا

إثر اندلاع الصراع، وقبل اغتيال حسن البنا في ١٢ شباط/فبراير ١٩٤٩، سنحت لي فرصة إجراء حوار معه، نشرته «الغازيت المصرية»، وهي يومية ناطقة بالإنكليزية منحتني وظيفة الصحافي. وكان البنا حينها المرشد العام لجماعة «الأخوان المسلمين»، وقائد

الحملة ضد إنشاء دولة يهودية. وقد أثار فيّ لقاؤه انزعاجًا مبهمًا.

قصير القامة، ممتلئ الجسم، استبدل بذلته الأوروبية بجلبابٍ واسعٍ أحمر اللون، تحيط بوجهه لحية سوداء غير مشذّبة، يستقبل ضيفه بعذوبة لسان رجال الدين، بينما عيناه تتفحّصه بنظرةٍ ثاقبةٍ ذات طبيعة خاصة. سعى البنا بوضوح إلى إغواء محاوره، باستخدام المكر المرح، والكلام الاستعاري، والتحليل المبني بحنكة، مدّعمًا خطابه بباقة لا تنضب من الاقتباسات والطرائف. وقد أبدى لا مبالاة بيّنة تجاه كوني يهوديًا.

خطيبٌ لامع ينضح شغفًا، تستنهض ديماغوجيته الرسولية النكهة حماسة الحشود، ليبرهن أن الإسلام وحده يمتلك القدرة على معالجة كافة العلل التي يعاني منها الشعب. إلى الصهيونية، استهدف نقده، بشكل أساسي، الاستعمار البريطاني، و«الفحش الأخلاقي» في الغرب، و«الكفّار» المتحكمين بالاقتصاد، والملّاك المُدانين بالأنانية والجشع. كان يدين بشكل تام الاشتراكية والشيوعية، معتبرًا انهما عقيدتان غريبتان تتضاربان مع تعاليم الرسول. كان يجتذب معجبين ومريدين بفضل شبكاته المتعددة التي تحاصر البلد، كما بفضل المؤسسات الاجتماعية، والرياضية، والخيرية، والطبية، والعيادات والمدارس المجانية التي أوعز ببنائها، بحيث ملأ الفراغ الثقيل الذي خلّفه غياب الدولة، بمنشآت يمكن استخدامها ستارًا للمؤامرات والعمليات الإرهابية التي أعدّها. بعد مرور عامين على لقائي به، في شباط / فبراير ١٩٤٩، اغتيل حسن البنا على أيدي عملاء السلطة، انتقامًا لرئيس الوزراء محمود النقراشي باشا الذي قتله عضو في جماعة «الأخوان المسلمين». وكان رئيس الوزراء المصري بذلك يدفع ثمن قرارٍ فرضه عليه الإنكليز، عندما حاصروا قصره الملكي بدباباتهم في شباط/فبراير العام ١٩٤٢، لإجباره على إعلان الحرب ــ متأخرًا، بالفعل ــ ضد قوى «المحور».

خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، لم تكن أولوية الحركة الوطنية الكفاح ضد الصهيونية، وإنما مقاومة الاحتلال البريطاني، وقد نظّم الوفديّون المناصرون لحزب «الوفد» اليساري، والشيوعيون، اعتصامات وتظاهرات ضده. شاركتُ في واحدة منها في شباط/فبراير ١٩٤٦، وكانت أضخم تظاهرة نظّمتها آنذاك «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال».. وانتهت بحمام دم. أمام الأمواج البشرية المتراصة والعاصفة التي تدفّقت إلى «ميدان الإسماعيلية» الشاسع (أصبح اسمه «ميدان التحرير» إثر الثورة الناصرية)، حيث تمركزت الثكن البريطانية، فتحت القوات النظامية النار على الحشد، متسببة بسقوط حوالي عشرين قتيلًا ومئات الجرحى. إحدى الرصاصات قتلت طالبًا يافعًا كان يسير بجواري. حُفر مشهد المجزرة في ذاكرتي. ثم أمر رئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا، وهو في آن أحد كبار رجال الأعمال، بتوقيف عشرات القيادات «الوفدية» والشيوعية، كما حظر النوادي التي ينشطون فيها والمنشورات التي يصدرونها. إلا أن تلك الإجراءات منحت زخمًا كبيرًا للحركة الوطنية، أفضى بعد ست سنوات إلى إسقاط النظام الملكي، تمهيدًا لإجلاء القواعد البريطانية من منطقة قناة السويس.

قرار التقسيم ذريعة لحملة على الشيوعيين المصريين

إلا أن المناخ السياسي بدأ يتردّى منذ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، عندما أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة مرسومًا يقضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة يهودية والثانية عربية فلسطينية. تسبّب القرار بتفجّر غضب عارم، وطبع بداية مرحلة رهاب اليهود. الصحافة التي كانت قد برهنت حتى تلك اللحظة عن اعتدالها، شنّت هجومًا على اليهود، متهمةً إياهم بأنهم، في آن معًا، «صهاينة» و«شيوعيون». وهكذا، أرسى إنشاء دولة إسرائيل الطلاق ما بين اليهود وشركائهم في المواطنة، في مختلف أنحاء العالم العربي. القادة الصهاينة وجدوا في ذلك تأكيدًا لنظريتهم القائلة بأن الأقليات غير المسلمة لا تمتلك مستقبلًا في البلاد الإسلامية، والنتيجة: دفقٌ جديد من المهاجرين إلى إسرائيل. ولكن، مع ذلك، قررت عائلتي، كعائلات كثيرة غيرها، ألا تترك البلد إذ لم تفقد كل أملٍ بالتسوية.

من جهتها، استفادت حكومة الملك فاروق من الموقف لتجرّد الماركسيين من صدقيتهم، وتصفهم بـ«الصهاينة المقنّعين». فإلى الأصول اليهودية التي ينحدر منها قادة شيوعيون كثر، أتى قرارهم بدعم تقسيم فلسطين إلى دولتين ليجعلهم مشبوهين بارزين، فقد دعموا صراحةً المشروع الصهيوني، بعد سنوات من حكمهم عليه بـ«الرجعية» و«العنصرية». وهم في الواقع

تبنّوا قرار الاتحاد السوفياتي بالتصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح إنشاء دولة يهودية. وقد كلّفتهم تلك التبعية غاليًا لسنوات عديدة لاحقة، رغم بقائهم على العداء العميق للإيديولوجيا الصهيونية، فاتخذت السلطات المصرية إجراءات بحقّهم، كحلّ «الرابطة اليهودية المعادية للصهيونية»، وتوقيف قادتها ومصادرة منشوراتها، علمًا أنها رابطةٌ منبثقة عن أحد التنظيمات الشيوعية، تدافع بدورها عن القرار بإنشاء دولة يهودية.

اشتدّت السلطات قسوةً، عند احتلال الجيوش العربية لإسرائيل. ففي ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨، اعتقل مئات «الشيوعيين» و«الصهاينة»، أو المفترضين كذلك، وسجنوا في مخيّمين يقعان بالقرب من القاهرة، ويقومان على مبدأ الزنازين الإفرادية. كما طُرد عدد من القيادات الشيوعية، مصريين وغير مصريين، إلى خارج البلاد. وقد كان حظّهم بذلك أفضل من المصير الذي لاقاه نظراؤهم العراقيون، إذ أعدم ثلاثة منهم شنقًا خلال المرحلة ذاتها في بغداد، بذريعة أنهم يؤيدون تقسيم فلسطين. وكانت حصّتي آنذاك الاعتقال، والخضوع

حسن البنا، مؤسس «جماعة الإخوان المسلمين»



للاستجواب المكثّف حول آرائي السياسية، لأمنح بعد شهر حرية مؤقتة، يتابع خلالها الادعاء بناء القضية، علمًا أنه في ظل الأحكام العرفية، كان يمكن لاعتقالي أن يستمر إلى أجلٍ غير مسمّى.

تحت تهديد الإدانة بالتهمة المزدوجة، «الصهيونية» و«الشيوعية»، وكوني عاطلًا من العمل مجرّدًا من أي مدخول ماديّ، قررت أن أغادر مصر. لم تعترض الشرطة رحيلي، إلا أنها لم تمنحني إلا تأشيرة «خروج بلا عودة». بتّ من غير المرغوب بهم في مسقط رأسي. محرومًا من عائلتي، وأصدقائي، ومعارفي. سافرت محمّلًا بعاطفة مزدوجة، الحزن الناتج من النفي وسعادة التواجد في باريس ـ الوطن الذي يميل إليه أبي، وتنتظرني فيه حياةٌ ثانية، اتضح لاحقًا أنها ستكون مذهلة على أكثر من صعيد. بعد أشهر قليلة، وفي ٢٣ تموز / يوليو ١٩٥٢ تحديدًا، سيستولي «الضبّاط الأحرار» بقيادة جمال عبد الناصر، على السلطة، ويعلنوا بعد عام من هذا التاريخ نشوء الجمهورية.

واليوم، بعد مرور حوالي ٦٠ عامًا، أجدني أقف شاهدًا عن بُعد على الربيع الذي يجتاح العالم العربي. لم يكن ليراهن أحدٌ على أن تلك المنطقة ستهتز على وقع انتفاضاتٍ شعبية ظُنّ أنها تجهلها. ولم يتوقع أحدٌ أيضًا أن الرؤوس ستسقط، وأن الرئيس التونسي زين العابدين بن علي سيهرب، وأن رئيس الدولة المصرية حسني مبارك سيحاكم بتهمة الخيانة العظمى، وأن الرئيس اليمني علي عبد الله صالح سيُجبر على التنازل عن كرسيه، وأن بشّار الأسد سيتسبّب بحمام دم ليبقي سلطته على سورية. الأعين تشهد على بداية مرحلة جديدة، لا يمكن تكهّن ما ستفضي إليه، فالانتخابات الحرّة في تونس ومصر تصل بـ«الأخوان المسلمين» إلى السلطة، وهم يتعهّدون باحترام ورع لمبادئ الديمقراطية. لمَ لا، ما داموا يمتلكون الأكثرية في المجالس المنتخبة؟

وإن كان النص الوارد أدناه لا يعلن بوضوح بزوغ فجر «الربيع العربي»، فهو يشكّل، في آن معًا، توطئةً له، وعرضًا لمسوّغاته.

دعوة مفاجئة لزيارة القاهرة

تحت تهديد الملاحقة بتهمة ممارسة النشاطات «الصهيونية» و«الشيوعية»، بت مطرودًا من مصر، وبقيت

منفيًا لاثني عشر عامًا. من هنا، يأتي الطابع السريالي للاستقبال الذي خصص لي عند هبوطي في مطار القاهرة. فيه، استقبلنا، أنا وزوجتي المصورة الصحافية روزي، ممثلٌ رفيع المستوى عن وزارة الإعلام، باحترام غير مسبوق، وتم اقتيادنا بسيارة ليموزين رسمية إلى فندق قاهري ضخم، حُجز لنا فيه جناحٌ. وكانت بانتظارنا باقة ورد ضخمة، مرفقة ببطاقة تشير إلى أن «رئاسة الجمهورية» ترحّب بنا. كمّ من التشريفات كافٍ لكي يذهل منفيًا قديمًا.

حدثت مقدّمات الرواية التي كنت بصدد عيشها في باريس وتعود لأشهر قليلة خلت إلى صيف ١٩٦٣ تحديدًا. كنت حينها رئيس تحرير باب الشرقين الأوسط والأدنى في جريدة «لو موند»، وهو منصب مُنح لي بما يخالف كل منطق في التفكير، نظرًا لرفض معظم البلاد العربية، إن لم يكن جميعها، منح تأشيرة دخولٍ ليهوديّ، آنذاك.

لكن إدارة تحرير الجريدة استمدت ثقتها بي من تحقيقات ميدانية كنت قد أجريتها سابقًا في أفريقيا السوداء، خلال مرحلةٍ صعب العمل فيها هناك، لكونها شهدت ذروة نشاط الحركات المناهضة للاستعمار. وبالتأكيد، ساهم تمكّني من اللغتين العربية والإنكليزية في تبرير القرار الغريب الذي اتخذته إدارة التحرير، وإن لم يكن كافيًا لفتح أغلب أبواب المنطقة أمامي. أضف إلى ذلك التحقيقات التي أجريتها في كل من إسرائيل وإيران وتركيا، إذ توحي بقدرتي على اختراق كافة أسوار «القلعة العربية». أما أنا فلم أكن أتوهم ذلك، خاصة عند النظر إلى العدائية العالية التي تستفزها إسرائيل في المنطقة. وكدت أرفض المنصب الموكل إليّ، لأكرّس نفسي لمنطقة أخرى من العالم، لا جذور لي فيها، ولا تبعات لتلك الجذور.

وبقيت الصورة على ضبابيتها إلى أن اخترقها بصيص أملٍ، بعد ثلاث سنوات، عندما اتصل بي صحافي مصري عابر سبيل في باريس، وطلب مني موعدًا للقاء. كنت أعرف اسمه، لطفي الخولي، من حسن سمعته ككاتب عمود يومي في جريدة «الأهرام»، وكاتب مقالات طويلة، ومؤلف مسرحي، ووجه يساري. خلال الغذاء الذي دعوته إليه، قدّم لي عرضًا سيمثّل منعطفًا أساسيًا في حياتي المهنية. فقد أتى، حسبما قال لي، بتكليف من محمد حسنين هيكل، مدير «الأهرام» والصديق المقرّب من الرئيس جمال عبد الناصر، حاملًا دعوة لزيارة مصر. وأكّد لي أني سأحظى بجميع التسهيلات لأجري تحقيقًا صحافيًا، وسأكون حرًّا في حركتي واتصالاتي، ولو مع أقطاب المعارضة، وحرًّا أيضًا في نشر كتاباتي من دون إخضاعها لأي رقابة مسبقة. وعند وصولي، سأمنح تأشيرة دخول تتيح لي البقاء في مصر للمدة التي تناسبني. وهذا كمٌّ من الامتيازات لم تكن مصر الناصرية تمنحه آنذاك لصحافيّ أجنبي، أيًّا كان. أطلعت إدارة التحرير على العرض، فأمرتني بقبول الدعوة، بشرط واحد: أن تتكفّل الجريدة بتغطية كافة تكاليف السفر والإقامة، وليس الصحيفة المصرية.

عقودٌ عديدة انقضت قبل أن أتمكن من فكّ لغز تلك الدعوة الغريبة، التي وجهها إليّ مدير «الأهرام». فقد اتضح لي من الحوارات التي أجريتها بعد وفاة عبد الناصر مع أشخاص مقرّبين منه، وبشكل خاص حواري مع مدير مكتبه سامي شرف، أن حسابات سياسية واعية حفّزت اتخاذ قرارٍ بفتح أبواب مصر أمام المبعوث الخاص لجريدة «لو موند». فقبْلها بعام، كانت الجزائر قد حصلت على استقلالها، واستعادتْ مصر وفرنسا علاقاتهما الدبلوماسية، فرغب ناصر بإنهاء ماضي الخصومة والمواجهة، وبناء الثقة مع حكومة الجنرال ديغول، الذي كان يكنّ له إعجابًا كبيرًا، كان من المطلوب أن يضحي متبادلًا. وبالقدر ذاته، كان يعتقد ــ وليس اعتباطيًّا ــ بأن باريس ستتيح أمام البلاد التي استعادت حديثًا سيادتها، سبيلًا ثالثًا يسمح بالتفلّت من ثنائية الاتحاد السوفياتي ــ الولايات المتحدة، فكان من الواجب إذًا تبديد العدائية السائدة بين البلدين، قدر المستطاع، ويمكن للإعلام الفرنسي أن يكون احد السبل المتاحة لذلك. ويمكن اعتبار «لو موند» الجريدة الوحيدة القادرة آنذاك على المساهمة في التقريب بين البلدين، كونها عُرفت بميلٍ ديغولي وعالم ثالثيّ، كما أن قوة تأثيرها تفيض بشكل واسع عن حدودها الوطنية.

صحافي في خضم حركات التحرر الوطني

لذلك، ارتأى مستشارو عبد الناصر، وخصوصًا مدير «الأهرام» بإيحاء أكيد من لطفي الخولي، أن الخطوة الأولى في هذا الاتجاه تكون بإرساء علاقة مع مسؤول

قسم الشرق الأوسط في «لو موند». ولم يكن الرهان خاسرًا تمامًا. فقد كان يُنظر إليّ في الأوساط السياسية كشخص «تقدّمي» من الممكن أن يتفاعل إيجابًا مع بعض إنجازات النظام الناصري.

أضف إلى ذلك أن توجّه مقالاتي لفت أنظار المسؤولين المصريين. ففي خلال الأزمة البلجيكية ــ الكونغولية في العام ١٩٦٠، اتخذت موقفًا صريحًا من المواجهة ما بين بروكسل وليوبولفيل (الاسم السابق لعاصمة الكونغو ــ زائير)، ينتصر للحركة الاستقلالية ورئيسها باتريس لومومبا، الذي استهدفته مؤامرة عالمية (لم تكن الولايات المتحدة غريبة عنها)، كان من المفترض أن تؤدي إلى اغتياله واستبداله بموبوتو. كنت واحدًا من قلّة قليلة في الصحافة الفرنسية بادرت إلى كشف خلفيات انفصال مقاطعة كاتانغا، الذي قادته عن بعد «لونيون مينيار»، وهي شركة قابضة بلجيكية تنقّب مناجم النحاس الغنيّة فيها، إذ كانت، كجميع الشركات الكبرى الأخرى في المرحلة الاستعمارية، تخشى أن ينتقص الاستقلال من امتيازاتها الهائلة.

وبعد مرور سنتين، في العام ١٩٦٢، كنت أدافع عن الجمهورية اليمنية، التي ولدت إثر الانقلاب الذي أطاح النظام الملكيّ. وأتت انتقاداتي المستمرة لديكتاتورية شاه إيران (الذي يعتبره الغرب «إصلاحيًا عظيمًا»)، ولانتهاكاته لحقوق الإنسان، وخضوعه للإرادة الأميركية، لتشدّ انتباه الأوساط السياسية المصرية التي كانت تشاركني التوجّه العام لآرائي السياسية.

وقد تميّز تعاطفي النسبيّ مع مصر الناصرية عن العدائية التي أبداها السواد الأعظم من الصحف الغربية تجاه «ديكتاتور» القاهرة. ولم تكن جريدتي آخر الصحف التي شنّت هجومًا على الرئيس المصري، وشبّهته بهتلر أو ستالين، واتهمته، تباعًا أو في آن معًا، بالفاشية والشيوعية، كما بالعمالة للكرملن. أما أنا فلم أكن لأجترّ التوصيفات المألوفة في الغرب، والهادفة إلى أبلسة قادة العالم الثالث الذين يتحدّون النظام القائم. فقائد الثورة المصرية لم يقم فحسب بإسقاط الملكية، وتجريد كبار الإقطاعيين من أراضيهم، وتفكيك الأوليغارشيات الصناعية والمالية المحلية والبريطانية والفرنسية وسواها، وتأميم شركة قناة السويس، رمز السيطرة الأجنبية على وادي النيل ومصدر فخرها، ولكنه أيضًا أرسى علاقات وديّة مع الاتحاد السوفياتي وأقماره الصناعية، ليوازن ثقل النفوذ الغربي، وبشكل خاص الأميركي.



من جهتها، أخـذت جمهورية فرنسا الرابعة على عبد الـنـاصر، بشكل خـاص، دعـمـه لـثـورة الشعب الـجـزائـري، ناسبةً إليه الأبـوة المفترضة للحركة القومية. ومثلما تملي الـحـرب الصالحة فـي حـالات شبيهة، حملت الحملة ضد عبد الناصر نبرةً أخلاقية، لتموّه جيدًا المصالح التي لا تجاهر بها القوى العظمى.

حينها، رأيـت أنـه يـحـق تـمـامًـا للرئيس المصري أن يـدعـم الـثـورة الـجـزائـريـة، وأن يسعى إلـى تشييد الـسـدّ العالي فـي أسـوان لتوسيع الـريّ وترشيده فـي بلد صـحـراوي، وأن يـقـوّي مـصـادر الطاقة، وتـالـيًـا، الإمكانات الصناعية لمصر. ووجـدت وضـاعـةً في قـرار واشنطن في الـعـام ١٩٥٦، القاضي بحرمان الـمـشـروع مـن المشاركة فـي المنافسة على التمويل والـدعـم التكنولوجي، في مـعـرض «عـقـاب» عبد الـنـاصـر على عـقـده صفقة سلاح مع موسكو، وهـي صفقة يبرّرها رفـض الـولايـات المتحدة مدّه بالوسائل الدفاعية.

ولـم أتـردّد في مشاركة حماسة المصريين، كما مجمل شعوب العالم الثالث، عند تأميم شركة قناة السويس في ٢٣ تـمـوز/يـولـيـو ١٩٥٦، بـجـرأةٍ لـم يُـعـرف لـهـا مثيلٌ في تلك الحقبة، وهـو فعلٌ ثـوري يأتي ثانيًا في الترتيب الزمني فـي المنطقة، إذ كـان القومي المعتدل محمد مصدّق قد أعلن قبل أربـع سنوات، تأميمًا للنفط الإيراني تم إجهاضه. وقد عاد عليه هذا التحدّي بالتشهير والاتهام بالعمالة لموسكو، قبل إطاحته فـي الـعـام ١٩٥٣، إثر انـقـلابٍ حـرّضـت عليه «وكـالـة الاسـتـخـبـارات المركزية» الأميركيةً. مع ذلـك، فـإن إعـادة استملاك الـمـوارد الوطنية، فـي كلتا الحالتين، أتـت موافقة لحقوق الـسـيـادة، ولم يسجّل اعـتـداءٌ على مصالح المساهمين، إذ جـرّدوا من ملكيتهم بشكل قانوني، وعوّض عليهم بنزاهة.

أتـى الـرد على عبد الناصر أشـدّ وحشيةً من الـرد على محمد مصدّق، وإن شابهه بانعدام المبررات. فبعد ثلاثة أشهر لا أكثر على تأميم ناصر لقناة السويس، اجتاحت الـدبـابـات الإسـرائـيـلـيـة سـيـنـاء، بينما تـم إنـــزال الـقـوات الفرنسية والبريطانية في بـور سعيد، بذريعة الفصل ما بين الطرفين المتحاربين. في الواقع، كان الهدف الموحّد للحلفاء يـرمـي إلـى إسـقـاط الجمهورية الـنـاصـريـة، وقد أضيف إليه طموح الـدولـة العبرية بالحصول على منفذ حـرّ إلـى قناة السويس، تكتمل ذروتـه بتملّك سيناء. بدا انتصار الغزاة حينها حتميًا، رغـم قـوة المقاومة المصرية وإصـرارهـا، إلـى أن حـلّ يـوم طالب فيه الرئيس أيزنهاور بانسحاب كافة الـقـوات العسكرية الأجنبية، فتمت تلبية طلبه.. علمًا أن الرئيس السوفياتي الـمـارشـال بولغانين هـدّد بالتدخّل العسكري، بما يعنيه ذلـك من إشهار دعم موسكو للبلد النامي، طبعًا.

موقف متناقض من النظام الناصري

ولـم تـأت مـبـادرة الرئيس الأمـيـركـي الـفـريـدة مـن نوعها، مجانية. فقد اسـتـاء مـن إبقائه بعيدًا عـن تـواطـؤ لندن وبـاريـس والـقـدس، وهـدفـه الأكـيـد وضـع مـصـر تحت وصايتهم. وقـد أصابت نظرة أيـزنـهـاور: فقد رفـع التدخّل شعبيته إلـى أوجـهـا، ومعها نفوذ الـولايـات المتحدة في مـصـر وفـي مجمل الـشـرق الأوســـط، بينما أتــى فشل «الــعــدوان الـثـلاثـي» ليعلن نهاية الـوجـود الفرنسي ــ البريطاني في مصر، وليسجّل بداية تراجع نفوذ القوتين في المنطقة. أمـا الضرر الـذي ألحق بإسرائيل فلم يكن أقـل شـأنًـا: بـات ينظر إلـى الـدولـة اليهودية، أكثر من أي وقـت مـضـى، على أنـهـا دولـة توسّعية مـسـخّـرة لخدمة الإمبريالية الغربية.

مـع ذلـك، ورغـم كـل شـيء، عـدت مـن مصر بتحفظات عميقة تـجـاه النظام الـنـاصـري. الانـقـلاب على الملكية، ومـا تبعه مـن إصـلاحـات جـذريـة اقتصادية واجتماعية، واسـتـعـادة الـسـيـادة الوطنية بعد الـجـلاء الـتـام لقوات الاحـتـلال البريطانية، هـي عناوين تنسجم بالتأكيد مع قناعاتي كـشـاب. إلا أن الطابع العسكري للنظام الـذي أرسـتـه مجموعة الـضـبـاط الـتـي اسـتـولـت على السلطة فـي ٢٣ تـمـوز/يـولـيـو ١٩٥٢، بقي فـي نـظـري وصـمـة لا تمحى. وفـي الأزمــة التي اندلعت بعد سنتين بين ناصر وبين واجهة قيادة الثورة ورمزها الجنرال محمد نجيب، وجـدت الحق في صف الأخـيـر، الـذي سعى لتشريع عمل كافة الأحـــزاب السياسية، مـن «الأخـــوان المسلمين» إلى الشيوعيين، وإعادة الحياة البرلمانية إلى مجراها.

ومـع ذلــك، لـم أكـن بـعـيـدًا تـمـامًـا عـن حجة خصوم الـجـنـرال نجيب الـتـي تفيد بـأن إحـلال الديمقراطية سيعيد إرسـاء نفوذ أصـحـاب رأس الـمـال، كونهم مـا زالـوا يتحكّمون بـــأدوات السيطرة على المشهد السياسي. وقـد كـان نظام الحزب الـواحـد حينها يسود معظم البلاد التي فـازت باستقلالها منذ الحرب العالمية الثانية. كافة الإشـــارات دلّـت حينها إلـى أنـه ثمن يجب دفعه لضمان

تقدّم الشعوب النامية ورعايتها.

تجاذبني الطرحان المتناقضان جذريًا، حتى خرجت بمعادلة وجدتها موفّقة، تفيد بأنه، بحزبٍ واحد أو من دونه، لا شيء يبرر مصادرة الحريات العامة، وانتهاك ما كان يُسمّى بحقوق الفرد. فالقمع الوحشي الذي طال جميع المعارضين في مصر، أكانوا ليبراليين أم وفديين أم شيوعيين أم من الإخوان المسلمين، لم يكن بالنسبة إليّ محتملًا، منذ ذلك الحين.

ولم يحلّ العنف الجسدي، بكافة أشكاله، كممارسة استثنائية في المعتقلات. وقد نشرت «لو موند» في مطلع الستينيات خبر وفاة اثنين من مثقفي الصف الأول في مصر، تحت التعذيب، وكانت تربطني بهما معرفة شخصية خلال سنوات شبابي في القاهرة: فريد حدّاد، «طبيب الفقراء»، الذي كان زميلي في المدرسة الثانوية، وشهدي عطية الشافعي، الذي عرفته رئيس تحرير أسبوعية «الجماهير». شهدي هو أستاذ مجاز باللغة الإنكليزية، سحر الكثيرين بكاريزماه الشخصية وذكائه، وأدّى دورًا بارزًا في الحركة الشيوعية. ولسخرية القدر الُمرّة، تعرض الرجلان للضرب حتى الموت على أيدي سجّانيهما، بينما لم يكن أي منهما مناهضًا شرسًا للناصرية.

عرضت شروطي الاخلاقية على هيكل

كان فريد وشهدي حاضرين في بالي، عندما استقبلني محمد حسنين هيكل، غداة وصولي إلى القاهرة، في حزيران/يونيو ١٩٦٣. خلال العشاء الذي نظّمه على شرفي في تراس فندق «سميراميس» القاهري الكبير، الواقع على ضفاف النيل، حرصت بلا تلكؤ على تبديد أي غموض يمكن أن يشوب علاقتنا الناشئة حديثًا. وقد شكرت له الدعوة التي وجّهت إلي وأتاحت لي فرصة العودة إلى مسقط رأسي، في ظروف شديدة الاختلاف عن تلك التي قادتني إلى منفاي. كذلك أبديت امتناني لحصوله على موافقة الرئيس ناصر المبدئية على منحي مقابلة صحافية لـ«لو موند»، وهو امتياز نادرًا ما منحه «الريّس» لأحد.

في المقابل، عرضت له الأخلاقيات الأدبية التي أنتمي إليها، والتي أحرص على التقيّد بها بشكل صارم، ووضّحت بدماثة أن الصداقة لن تكون يومًا غير مشروطة، وأني سوف أنشر سلسلة مقالات عند عودتي إلى باريس، من الواضح أنها لن تنال القبول، وإنما ستعكس بأمانة آرائي الشخصية، التي لا يتشاركها بطبيعة الحال معي، لا هو ولا القادة المصريون.

هيكل رجل يتمتع بنباهة وتهذيب شديدين، فاستقبل رسالتي أولًا باستياء مندهش، قبل أن أجد في رد فعله رضا بالكاد أخفاه صاحبه. لاحقًا، أفهمني لطفي الخولي، الذي حضر اللقاء، أن مدير «الأهرام» يميل بشدّة إلى التعامل مع رجل يشبهه في تمسّكه بالقناعات الشخصية، حتى ولو تباعدت آراؤنا. فهو يعتبر أن النقد الآتي من مراقبٍ ذي صدقية سيخدم النظام الناصري أكثر من المدائح التي يكيلها صحافي متذلل. ولأنه صحافي متنبّه، على معرفة بيّنة بالصحافة الغربية، فإن عنادي ما كان ليصدمه.

أثرت بلا تحفّظ المسألة المحرّمة دونًا عن سواها، وهي تلك المتعلّقة باضطهاد سجناء الرأي، مشيرًا إلى أني أنوي طرحها على الرئيس، خلال المقابلة التي منحني إياها. وكوني على ثقة من أن هيكل لن يهمل تنبيه ناصر إلى ذلك، أضفت أن مخيّمات الاعتقال تحجب الأوجه الإيجابية لسياسة الحكومة المصرية، في عيون الرأي العام العالمي، والفرنسي الذي تتوجه إليه جريدتي تحديدًا. فلم يغب التحذير الضمني عن هيكل، الذي اكتفى، في معرض الإجابة، برسم ابتسامةٍ مفخخة بالألغاز. بعد مرور سنوات عديدة، عرفت أن هيكل كان يشاركني الرأي، سرًّا.

اللقاء مع جمال عبد الناصر

كنت أتوقع أن يأتي لقائي بجمال عبد الناصر، بعد أيام قليلة، حاسمًا على أكثر من مستوى. في البدء، فوجئت إيجابًا بالبساطة الوديّة التي أبداها خلال استقبالي. كان يرتدي سروالًا من كتّان، وقميصًا خفيفًا من نسيج القطن، مفتوح الياقة، واستقبلنا، روزي رولو وأنا، في البيت المتواضع نسبيًا الذي يقطنه منذ أن كان ضابطًا شابًا، في الضاحية القاهرية منشية البكري، إذ يفضّله على القصور التي وضعتها الجمهورية بتصرّفه. الصالون الذي شهد المقابلة، يحوي أثاثًا أمينًا على تقاليد بورجوازية الطبقة الوسطى المصرية — كنبات وكراسٍ تنقل موضة لويس الخامس عشر — لكنه لا يعكس مقام رئيس دولة. وقد زيّن الجدار الأخضر الرماديّ، ببورتريهات موقّعة من قادة حركة العالم الثالث: تيتو، نهرو، شو ان لاي، نكروما، سوكارنو.

وبما أن الغرفة ليست مجهّزة بمكيّف للهواء، اجتهدت

مروحة لجعل حرارة حزيران / يونيو القاهري قابلة للاحتمال. لقاؤنا ــ الذي دار بالإنكليزية حينًا وبالعاميّة المصرية حينًا ــ استمر لما يزيد على الساعتين، بحضور هيكل الذي ــ احترامًا للرئيس ــ لم يتدخّل بتاتًا في سياق الحوار.

طويل القامة، كتفاه جسيمتان متقوّستان برشاقة ككتفي مُلاكم، نظرته مكثّفة لكن عطوفة، وقد استهل الكلام بهدف إراحتنا. انكسر الجليد سريعًا: شكا من انه يعاني من الوحدة منذ أن انتقلت عائلته، أي زوجته وأولاده، إلى الإسكندرية لقضاء عطلة الصيف. البيت، الذي لم نصادف فيه معاونين او خدمًا (باستثناء الشخص الذي قدّم لنا الليموناضة والقهوة التركية) بدا له مهجورًا وكئيبًا. قال أنه لحسن الحظ يعمل كثيرًا، أكثر من المعدّل المقبول برأيه، في المكتب الذي استحدثه في شقّته، وهو يسعى جاهدًا، رغم كل شيء، ليخصص وقتًا لرياضتيه المفضلتين، السباحة وكرة المضرب. ألا تشغله هواية؟ لا يذهب ناصر إلى حدّ مكاشفتنا بميله الشخصي ــ الذي يعرفه عنه المقرّبون منه ــ لأفلام رعاة البقر التي تنتجها السينما الأميركية، أو عشقه للعبة الشطرنج التي حرص على ممارستها قدر المستطاع مع المشير عبد الحكيم عامر، الصديق الأقرب إلى قلبه بين مجموعة الضبّاط الذين استولوا على السلطة في تموز / يوليو ١٩٥٢. سيعزله في ظروفٍ سأستحضرها في الفصل الثاني عشر، عزلًا اصابه بجرحٍ في الروح، تلى الهزيمة العسكرية في العام ١٩٦٧، إذ اعتُبر عامر مسؤولًا عنها، بصفته القائد الأعلى للقوات المسلّحة في حينه.

أظهر عبد الناصر فضولًا نهمًا وقدرة على الإنصات خارجة عن المألوف. وقبل أن أتمكن من صياغة أول أسئلتي في الحوار المقرر نشره في «لو موند»، استجوبني طويّلًا عن حياتي المهنية، وآلية عمل الإعلام الفرنسي والحريّات التي يتمتع بها، وفاجأني بسؤاله عن حياتي الشخصية. كمّ طفلًا لدينا؟ في أيّ بيت نسكن؟ كيف نقسّط البيت الذي نقيم فيه، في قلب مدينة باريس؟ ما هو حجم الفوائد التي يستلزمها القرض المصرفي؟ إلى أي حدّ تقتطع نسب السداد من ميزانية البيت؟ سحنتي المفاجأة دعته لأن يعتذر عن تطفله، شارحًا أنه يسعى لمعرفة ما إذا كان بوسعه منح المصريين مساكن بكلفة مخفضة يقدرون على تملّكها، وما إذا كان مشروعًا شبيهًا يعتبر خياليًا في مثاليته، في بلد نام بالكاد يسمح مدخول الأكثرية العظمى من سكانه بتأمينٍ القوت.

وكما لو أن مكتبه لم يمدّه بكافة المعطيات حولي، سألني أيضًا عن جذوري، وحياتي في مصر خلال سنوات شبابي، لكنه تفادى بعناية الخوض في الأسباب التي قادتني إلى منفاي. واتضح له أننا «جيران»، لأن المدينة التي ولدت فيها، مصر الجديدة، تقع على مقربة من بيته في منشية البكري، حيث يدور اللقاء. وقد بدا واضحًا أنه يمارس تمرينًا في الإغراء، لا يمتلك سرّه إلا خبراء التواصل.

السؤال الحساس والسَبْق الصحافي

بدا لي المناخ ملائمًا لطرح السؤال الأشد حساسية، حول المعتقلات. ولقد بدا أنه يتوقّعه، نظرًا لسرعته في تقديم الإجابة، معلنًا بهدوء: «قررت أن أطلق سراح كافة السجناء السياسيين قبل نهاية العام الجاري». التصريح، غير المتوقّع أبدًا، سيحتلّ العناوين الأولى في الصحافة الغربية، والعالمية طبعًا. بثّت جميع محطات الإذاعة الخبر، إلا إذاعة القاهرة ويا للغرابة. لكن ذلك لم يعق وصوله إلى مئات السجناء الذين يستمعون إلى المحطات الأجنبية بانتظام. تفجّر الفرح في المعتقلات،



احتفالات صاخبة تحتفي بالحدث. هبّت رياح التفاؤل على المجتمع المدني، ومعظمه يساريّ الاصطفاف. وببديهية مجرّدة تمامًا من المنطق، أصبحت أنا، بالنسبة إلى المعتقلين السياسيين، «البطل» الذي تمكّن من انتزاع الوعد من الرئيس. فالهوّة التي تفصل بين الرئيس المصري والشيوعيين بدت، على الأقل في تلك المرحلة، غير قابلة للردم. أولًا، لأن معظمهم دان الانقلاب الناصري في تموز/يوليو ١٩٥٢، كما دان، بعده بقليل، القرار العجول والسريع التنفيذ الذي قضى بإعدام اثنين من العمال الشيوعيين. وبعد سنتين من ذلك، اصطف الشيوعيون إلى جانب الجنرال محمد نجيب، مطالبين بعودة الجيش إلى ثكنه، فسُجن عددٌ منهم، بينما نُفي خالد محيي الدين إلى سويسرا، وهو أحد الضباط الشيوعيين داخل مجلس الثورة، وصديق مقرّب من عبد الناصر. وفي العام ١٩٥٨ سادت موجة اعتقالات واسعة، لم تشهد لها البلاد مثيلًا قبلًا، ما أن عبّر الماركسيون عن رفضهم للسياسة القومية العربية التي ينتهجها عبد الناصر وعابوا عليه فرضه لوحدة اصطناعية تقوم على سيادة الحزب الواحد.

الوحدة السورية ــ المصرية، التي اتخذت لنفسها اسم «الجمهورية العربية المتحدة»، تحققت في شباط / فبراير العام ١٩٥٨، بناءً على طلب قادة دمشق، ولكنها تأسست على القواعد التي فرضها «الريّس»: حلّ جميع الأجسام السياسية لصالح الحزب الواحد، ونقل الأنظمة السياسية والاقتصادية النافذة المفعول في وادي النيل وإسقاطها كما هي على سورية، بتجاهلٍ تام لخصوصية البُنى السورية والعادات والظروف الداخلية. ومع ذلك، أثار إندماج البلدين حماسة أولى تفجّرت في الشارعين السوري والمصري، فضلًا عن الابتهاج الذي ساد العالم العربي. واحتفت وسائل الإعلام بظهور أفق جديد لـ«أمة» سوف تمتد من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي.

تنبّه الإمبرياليون وعملاؤهم، الملّاك الاستغلاليون، الأنظمة الملكية الرجعية، جميعهم إلى أنها ليست إلا بداية آليةٍ باتت حتمية. وارتفعت الآمال، على امتداد المنطقة، عند إطاحة الملكية العراقية في تموز / يوليو ١٩٥٨، ووصول سلطة عسكرية إلى الحكم تشبه كثيرًا تلك الحاكمة في القاهرة، وصدور أولى إعلاناتها الثورية، القومية والاشتراكية. اعتقد الناس حينها أن عهد الناصرية الظافر يبلغ ذروة جديدة. وفي بلاد أخرى، منها لبنان حيث انتقل مناصرو القومية العربية الكثر إلى مرحلة الهجوم، بدأ التجهّز للالتحاق بركب القومية العربية المنتصر.

في هذه الأثناء، وعلى عكس التوقّعات، أدّى الماركسيون دور مُفسدي البهجة. من أقصى العالم العربي إلى أقصاه، وتحديدًا في العراق، عارض الشيوعيون وحدةً محتملة ما بين القاهرة وبغداد. فهي، بنظرهم، تشكّل نكوصًا، نظرًا لكون الحركة الثورية في بلاد ما بين النهرين أشدّ جذرية من تلك الماثلة في وادي النيل. وعلى عكس عبد الناصر، فإن نظيره العراقي



الجنرال عبد الكريم قاسم كان يركن إلى حكماء القوى السياسية التي تشكّل عماد نظامه. في المقام الأول، صمّم الشيوعيون العراقيون على مقاومة إرساء الحزب الواحد، وكانوا حينها يتصدّرون المشهد. وكانوا مؤثرين بشكل خاص بين الشيعة، أكبر الجماعات المكوّنة للشعب العراقي، كما بين الأكراد (يشكّلون ربع السكان تقريبًا)، وكلا الطرفين يتخوّف من وحدة انصهارية تلغي الخصوصية التي يتمتعون بها على مستوى الهوية في محيط عربي سنّي. في المحصّلة، لن ترغب الأغلبية القصوى من العراقيين، كما حكومة الجنرال قاسم، بالذوبان في «الجمهورية العربية المتحدة».

التباين ما بين القاهرة وبغداد، الذي بدا ملبدًا في بدايته، لم يتأخر في اتخاذ شكل المواجهة. وقف الشيوعيون المصريون في صف رفاقهم العراقيين، فاعتُبروا خائنين لبلدهم وللأمة العربية. فأصابتهم موجة اعتقالات، انسحبت لتطال العديد من المفكّرين الليبراليين كما اليساريين، الذين لم يتفاعلوا إيجابًا مع البونابارتية الناصرية.

من هنا، أتى الإعلان عن إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، بعد مرور خمس سنوات خلت من التفسيرات، ليحيّرني. لماذا اتُّخذ القرار، ولماذا خُصّ به صحافيًّا أجنبيًا عابر سبيل في البلاد؟ بدا لي مؤكدًا أن عبد الناصر أراد مخاطبة الرأي العام الغربي، بالدرجة الأولى، وهو رأي عام لا يبدي سواده الأعظم أي تعاطف تجاه الحاكم المصري، فوجب عليه أن يدعّم نظامه الذي لا يزال يترنح إثر الضربة التي تلقاها، منذ عامين، عند انهيار الوحدة السورية ــ المصرية.

هيبته في العالم العربي، وحتى في مصر، باتت منتقصة. بعد الانقلاب الذي أطاح عبد الكريم قاسم في العام ١٩٦٣، قدّم خلفاؤه المنتمون إلى «حزب البعث» أنفسهم كمنافسين للناصريين. وقد ارتاب الرئيس المصري منهم حدّ الهوس، معتبرًا أن ذاك التنظيم قد خانه من خلال التسبّب بانهيار «الجمهورية العربية المتحدة». واحتجتُ إلى استعادةٍ لاحقة للأحداث، لكي أنتبه إلى أن إقفال المعتقلات لم يكن ليحلّ مفاجأة في هذا السياق كله. فعلى الرغم من طابعه الاستعراضي، لم يكن أكثر من إجراء ضمن إجراءات أخرى تبرهن على عزم جمال عبد الناصر على قلب صفحة وفتح صفحة جديدة. فقد شكّل الإجراء خطوة منطقية في تتابع الإصلاحات التي أقدم عليها في معرض تجديد النظام وتدعيمه. واستهل عبد الناصر النقد الذاتي للتجربة السابقة برفض القومية العربية التقليدية، ناسبًا إليها مضمونًا يبطلها. وللسبب ذاته وجب عليه أن يشرح خلال المقابلة التي جمعتني به، فإن الوحدة لا يمكن أن تتحقق إلا بين شعوب تطمح إلى «أهداف مشتركة»، وهي الاشتراكية ومعاداة الإمبريالية. بمعنى آخر، لا تكفي العوامل الثقافية واللغوية والدينية لتشكّل عنصرًا جامعًا. وحدة الشعوب تستبدل وحدة الأوطان، حسبما أشار ناصر: إن كان لا بد من ذلك، فلتكن كونفدرالية مكوّنة من غرفتين، الأولى منتخبة تبعًا للنسبية، والثانية تمثّل بالتساوي دولًا أعضاء، بحيث تلبّي المصالح المحدّدة للشعوب المعنية بها. بدا جليًا أنه يستقي من السوق الأوروبية المشتركة، مثلما نظّر لها الجنرال ديغول، نموذجه.

وعلى الرغم من تململه من طرح نظريةٍ تبقى حظوظ تطبيقها ضعيفة، على الأقل في الأفق المنظور، قاوم «الريّس» الضغوط التي مورست عليه لإعلان الوحدة بين مصر واليمن الذي اجتاحته القوات المصرية دفاعًا عن الجمهورية التي تأسست في أواخر العام ١٩٦٢، في مواجهة القبائل الممولة من الإمام المخلوع و«المملكة العربية السعودية». وبالقدر ذاته، لم يكن متحمّسًا لوحدة مصرية ــ جزائرية. كما أنه استمر في إدانة شوفينية قادة بغداد الجدد، الذين رفضوا الاعتراف بشرعية آمال الأكراد الطامحين إلى استقلال ذاتي ضمن الدولة العراقية. وبعد سنوات، لن يلبّي عبد الناصر الطلب الملحّ بالوحدة الذي رفعه إليه مرارًا العقيد معمّر القذافي، قائد ليبيا المندفع.

بدا واضحًا حينها أن «الريّس» يسعى لتهيئة منفذٍ وديّ يقوى على استيعاب فيضان الشعب المصري، وفائض إنتاجه. كذلك هدف إلى الضغط على البلاد العربية النفطية، المسمّاة «ممالك رجعية»، ليجبرها على تكريس نسبة من أرباحها لتنمية «الشعوب الشقيقة» المجرّدة من الموارد الطبيعية، وعلى رأسها مصر بطبيعة الحال. أما القوامة السياسية التي سعى لإرسائها على الجماهير العربية فقد أراد لها أن تستحث تضامنًا كاملًا معه، يساهم أساسًا في تعزيز دور مصر على الساحة الدولية.◆

ترجمة: **سحر مندور**

العنف في الحروب الأهلية: القبيلة والمقدّس والمعجزة

فوّاز طرابلسي

كاتب واستاذ جامعي.

الى نصري الصايغ

«عبثًا يحاولون التطهّر بأن يتلوّثوا بالدم، مثل رجل بعد أن يستحمّ بالوَحْل يريد أن ينظّف جسده بالوحل! ومَن يلاحظه يفعل ذلك يظنه قد مسّه خبل بالتأكيد!» (هيراقليطس)

يعالج هذا النص عددًا من الاشكال التي يتّخذها العنف كما تجلّى في حروب لبنان الأهلية. يقال ان الحرب لا معنى لها بل لها وظائف. نعالج اولا بعض تلك الوظائف. ونعالج ثانيا الطقوس التي يولّدها العنف الاهلي عندما يقصّر عن هدفه العسكري المباشر — تسديد الهزيمة النهائية للعدو — فيتمادى زمنا ويروح يتغذى من إحباطاته. ونحلل ثالثا نموذجين من «ابطال» الحروب الاهلية، القنّاص والمنتقم.

العنف والقبيلة

اذا كانت الحروب اللبنانية في احد أسبابها قد نتجت من النزاعات بين الطوائف، فإنها ايضا البوتقة التي تحققت فيها عملية إعادة الانتاج الموسعة للطوائف. في الحروب، تتحول تلك الكائنات العجيبة الى مسوخ حقيقية، علمًا انه في انتاج المسوخ «يوجد الغلط المؤكد والصحيح الممكن»، كما يقول رينيه جيرار[١]. تستعير الطوائف أعرافَها وقيمها والعَصَب من تكوينات اجتماعية أهلية اكثر عضوية — الاسرة والعشيرة والقبيلة — لكنها في المقابل، تستمدّ مادتها التعبوية الاضافية من الرموز والصور والمرجعيات الدينية والمذهبية إذ لا معنى للحديث عن «طائفة» اذا لم يرسم الدين والمذهب تخومها. ولما كانت الطوائف قد نخرها التطوّر التاريخي والانقسامات الاجتماعية وغلبة القيم والعلاقات النقدية، فإنها تظهر بما هي مسوخ متعددة الرؤوس تحكمها أعراف وأنماط سلوك متناقضة ومتخلّعة ومنفلتة من أعقلتها، بل قل هي مخبّلة بكل ما للكلمة من معنى.

أ. في البدء كانت الأم

الإهانة الموجهة الى الام هي التي دفعت مروان الى القتل. ابن الموظف الشيعي الصغير من الشياح والأم مسيحية كان له من العمر ١٥ سنة عندما اندلعت الحرب. من اجل إرضاء أمه أراد أن يدرس ليتخرّج طبيبا او مهندسا. صار قاتلا. «حتى القتلة لهم امّهات» هو عنوان قصته. وبامكاننا ان نزيد فنقول: القتلة خصوصا لهم أمهات، تدليلا على العلاقة المميزة التي تربط القاتل بالأم.

عندما تنطلق اولى رصاصات الحرب، يبدأ مروان تدريبه على البندقية. يلتذّ بالرمي مثلما يلتذّ صبي إذ يكتشف الاستمناء. يقول: «انك تصير جسدا واحدا معها [البندقية]... وهي ترتعش تحت إبطك. تهزّك هزًّا... وانت تنعظ معها، ثم تقذف». تفاجئه الام.. فتصفعه: «تبدأ هكذا ثم تنتهي بأن تقتل»[٢]، تقول له عن اللعب بالبندقية كما لو ان أمًا تقول لولدها المُراهق: إن لم تقلع عن الاستمناء تفقد البصر.

المشهد الذي يدفع مروان الى العنف يتعلّق ايضا

1 René Girard, Le Bouc Emissaire. Paris, Grasset, 1982, p.54.

٢ Patrick Meney, Même les tueurs ont une mère, Paris, Editions de la table ronde, 1986, pp. 37-38.

بأمه، بل بـ«الأم الجمعية». هو مشهد نساء الشياح مطروحات أرضًا يشخب دمهن وقد اصابتهن قذيفة اطلقوها من «الجهة الثانية». فكّر مروان: انهم يتعرّضون للاضعف في من بيننا والاغلى على قلوبنا:

«اذ يقتلون نساء الشياح فهذا يعني انهم يريدون قتل طائفتنا برمتها. وإذ يأخذون منا الامهات، فإنهم يريدون سلبنا ارضنا ثم يفجّرون منا العائلة، وبعد الامهات يأتي دور الشقيقات ثم دور الاطفال ثم دَورنا جميعا. في كل الاحوال، يستحيل إلا ان نردّ، يستحيل الا ندافع عن انفسنا، الا نشنّ الهجوم المضاد. ينبغي ان نطبق العدالة ونستعرض قوتنا، لنقول لهم اننا لن نستسلم للابادة الجماعية. انها ضرورة حيوية. بل هي واجب»[٣].

في هذا القول كل عناصر الهذيان القبلي: أم ـ ارض ـ أسرة ـ عرض ـ قوة ـ ذكورة ـ حياة ـ واجب ـ ابادة. اما التخلّع فيكمن في ان الهاذي، وهو ابن الضاحية البيروتية، يستوعب استيعابا ويستعيد على نحو ناقص ومفكك خطابا هو بالدرجة الاولى خطاب الريف.

عندما يعصي الولد امّه فيقتل، تحضنه الام، تغطّيه، مع انه يقتل أبناء جلدتها، المسيحيين في «الجهة المقابلة». «أعرفُ جرائمه»، تقول، «لكنه لا يزال هو مروان بالنسبة لي»[٤]. وهذه الام المسيحية لقاتل شيعي في ضاحية بيروت الجنوبية تردّد «الحِكمة» ذاتها التي ترويها احدى الامهات في رواية نيكوس كازانتزاكس عن الحرب الاهلية اليونانية التي تقول «خير لي ان اكون أمّ قاتل من ان اكون أمّ قتيل»[٥].

وشفاعة الأم لابنها القاتل ممنوحة للمقاتل العادي مثلما هي ممنوحة للقائد الميليشياوي. هذه صحافية تلفزيونية اميركية، نَصَحها الموساد الاسرائيلي بأن تذهب شمالا وتقابل النجم الصاعد في لبنان، تلتقي بشير الجميّل فتقع في غرامه. تعود الى بيروت لتصوير فيلم عن قائد «القوات اللبنانية» من اجل «تلميع صورته» في اميركا. الفيلم مبنيّ على شاكلة دراما نفسانية (بسيكودراما) على الطريقة الاميركية: بشير يتماهى مع ابيه لكن الاب يؤثر عليه الابن البكر، امين. اما الابن الاصغر فهو حبيب أمه. وعندما تسأل الصحافيةُ الامَّ عما اذا كان لبشير أصدقاء، تجيب الام: «بشير ليس بحاجة الى اصدقاء. لديه أمه».

ما دمنا في مضمار العائلات، جدير بالتذكير هنا ان بشير حقق صعوده السياسي والحزبي بانتهاكه قانون الاسرة البطركية القائم على حق البكورية، اي انه اغتصب السلطة التي تعود «طبيعيا» الى الابن البكر، اخيه أمين، فكان لا بد من ان يقضي الابن الاصغر اغتيالا لكي يستعيد امين الجميل حق البكورية في ترؤس الجمهورية اللبنانية.

ب. الإصابة في العرض

غريبة الحرب النفسانية التي يمارسها الخصوم في الحروب الاهلية. انها لا تروم كسب افراد القوات المعادية الى صف خصومهم ولا حتى إقناعهم بالفرار من ميليشياتهم والانضمام اليهم. والسبب ان المرء لا يغيّر جلده، كما تقول الحكمة القَبَلية و«الدم لا يصير ماء». وما دام لا نية ولا ارادة بل لا حتى امكانية لكسب الآخر، حريّ إصابته باكبر عدد من «الجراح الرمزية».

إصابة «العرض» هي «الجرح الرمزي» الاعمق الذي يبلغه العنف اللفظي. وما دامت الرجولة/الذكورة تتجلى في الدفاع عن العرض، فهي التي ينبغي إستهدافها عند الخصم. ولا غرابة في الامر: هي عملية تجريح تمارسها جميع الجماعات الحربية التقليدية. ذلك ان الاستحواذ على رجولة الخصم جسديا او رمزيا او طقوسيا ممارسة قديمة قدم العالم. لدى بعض القبائل الافريقية، يكون الاستحواذ على رجولة المقاتل العدو، مثلا، بانتزاع كبده بعد قتله والتهامه نيئًا على اعتبار ان الكبد هو مكمن الرجولة. في التعبير الشعبي، عندما يراد التعبير عن ارقى مشاعر الغضب ضد احد يقال: اريد ان اشرب دمه!

٣ المصدر ذاته، ص ١٣١.

٤ المصدر ذاته، ص ١٣٨.

٥ Nikos Kazantzakis, Les frères ennemis, Paris, Plon, 1974.

فؤاد خوري «آثار الحرب الأهلية» ١٩٩١.



في الحروب اللبنانية، مورست عمليات التجريح الرمزية في مبارزات كلامية عنيفة بين المتقاتلين خلال فترات الاستراحة. على طرفي المتراس يستعين المسلحون بمكبرات للصوت وبالهواتف لممارسة عربدات من الشتم والبذاءة يتبادلون خلالها الاهانات والتشهير بالاعراض والتعبير بنقصان الرجولة قبل ان يلجأوا الى استخدام الووكي توكي مع تقادم الحرب تكنولوجيًا، مبدعين في ابتكار الشتائم الاكثر بذاءة في ذلك السباق لاصابة «الآخر» في اعمق أعماق «عرضه» والرجولة[٦].

ولكن، ماذا عن الجروح الفعلية: هتك الاعراض بالاغتصاب؟ عن حالات الاغتصاب، نعرف القليل. والسؤال: لماذا؟ هل لقلة عدد حوادث الاغتصاب اصلاً، ام بسبب عدم اعتراف الضحايا بها مخافة الفضيحة والعَيب؟ لا يسمح مستوى معارفنا عن هذا الموضوع باكثر من تسجيل السؤال.

د. تدنيس الحمى وتطهيره

«ارضك وعرضك»، يقول العرف القبلي بصدد الاولويات الواجب الدفاع عنها ولو بالتضحية بالحياة من اجلها. وغالبا ما يكون وجود الآخر، الغريب، هو الخطر الابرز الذي يهدد الارض، فيُرى الى وجوده على انه تدنيس لمقدّس هو الارض الاصلية المعرّفة دوما بأنها طاهرة. للحد من تلك التجاوزات، يجري تقسيم البلد الى مجموعة من المعسكرات، من الحمى المقدسة، لا بد من تطهيرها بطرد «الآخر» منها.

الحواجز هي المراكز الامامية للحِمى، حيث يتقرر دخول الاخر او حجزه. على الحواجز، ينبغي الكشف عن الهوية باشكال مختلفة. اولا بواسطة بطاقة الهوية، لكن هذه قد تكون مزورة. في غمرة الجنون الانتمائي، تصير كل علامة مميزة حبلى بالمعاني. فاذا لم يكن الاسم كافيا للكشف عن الهوية، يجري اللجوء الى اللهجة. لكشف فلسطيني ما عليك الا ان تجبره على ان يتلفظ بمفردة «بَنَدُورة». فهو يلفظها بتسكين النون كما لن يلفظها اي لبناني، يقول: «بَنْدُورة». هذا السكون قد يكلف المرء حياته[٧]. من جهة ثانية لم يكن نادرا على حواجز المنظمات الفلسطينية واحزاب وتنظيمات الحركة الوطنية اللبنانية ان يطلب من المرء ان يكشف عن عورته للتأكد من هويته الطائفية باستبيان ما اذا كان مختونا او لا. وفي امتحان آخر، قد يطالَب مَن يدّعي على الحاجز انه مسلم ان يتلو الفاتحة ومن يدّعي انه «من دين عيسى» ان يتلو «أبانا الذي في السموات».

خلال الفترة الاولى من الحرب، ساد خواف الغريب المتسلل الى الحمى. نقلت جريدة «العمل» اخبار مَرَدة سُود يرودون شوارع الاشرفية، قيل انهم صوماليون متطوعون في صفوف التنظيمات الفلسطينية. يبلغ الواحد منهم مترين طولا على الاقل، وله حلقة معدنية في اذنه، فضلًا عن سمرته الداكنة (المصطلح المستخدم هو أنهم «عبيد سود»). بل رُوي ان جثة احد هؤلاء الصوماليين قد وجدت في حديقة عامة في منطقة السيوفي. المفارقة في الامر انه بعد بضعة ايام من إيراد «العمل» هذا الخبر، مع ما رافقه من خَواف وتخويف، اذا الصحيفة الكتائبية ذاتها تنشر في صدر صفحاتها الاولى صورة لمطلع الحرب بين الصومال واوغادين.. فكنت ترى المردة الصوماليين إياهم، في زيّهم العسكري الناصع يُستعرَضون في شوارع موغاديشو، فيما اليومية الكتائبية تكيل المدائح لـ«نضالهم» من اجل «تطهير» اثيوبيا من... الشيوعية!

والحواجز هي ايضا المكان حيث يجري التموّن بالمخطوفين على سبيل الاحتياط، اي بما هو ضمانة لتبادل اسرى لاحق او لكي

فؤاد خوري «آثار الحرب الأهلية» ١٩٩١.



٦ غسان حبال وزينب حسّون، «العنف والانسان»، السفير، ٣ ايلول ١٩٨٥.

٧ cf. Samia Naim Sanbar, «Contact d'usage et stratégies de la communication», Peuples Méditerranéens, no. 33, octobre-décembre 1985, pp. 55-63.

يكون في متناول اليد ضحية محتملة للانتقام منها إذا وقع قريبٌ او احد ابناء الطائفة ضحية القتل على الهوية.

في عرف القبيلة التقليدية، كان اللجوء الى حمى «الآخر» ضمانة لسلامة المرء، حتى لو كان اللاجئ مضرجة يداه بدم احد ابناء القبيلة. «انا دخيلك»، يعلن

بشير الجميّل حقق صعوده السياسي والحزبي بانتهاكه قانون الاسرة البطركية القائم على حق البكورية، اي انه اغتصب السلطة التي تعود «طبيعيا» الى الابن البكر، اخيه أمين، فكان لا بد من ان يقضي الابن الاصغر اغتيالا لكي يستعيد امين الجميل حق البكورية في ترؤس الجمهورية اللبنانية.

الدخيل لشيخ القبيلة، وهذا يكفي لكي يعفو عنه ويرعاه بالحماية. في اللهجة اللبنانية، اتخذ هذا المصطلح مع الوقت معنى التوسّل والتضرّع. «انا دخيلك» بمعنى: أستحلفك، أتوسل اليك. وكم مرة استخدم المخطوفون او ابناء المناطق التي جرى اجتياحها هذه العبارة دون ان يخطر في بالهم ان القبيلة «الحديثة» تصمّ آذانها عن تقاليدها القديمة.

اذا كانت القبائل ترفض الدخلاء، فإنها لم تكن ترتضي ان يتجاوز افرادها قواعد التضامن والامتثال للتقاليد. فالخارج عن السرب لا بد من عزله. هؤلاء هم الصعاليك، الذين تنبذهم القبيلة الى ان تطردهم من الحمى او تقتلهم. بداية المعارك ١٩٧٥، هاجمت القوات الكتائبية قرية جاج في جرود جبيل، وهي احد معاقل حزبية ريمون إده، لمعارضة الاهالي فتح مكتب لحزب الكتائب في قريتهم. طوّقت قوات كتائبية القرية، التي لم تكن مسلحة، ثم اقتحمها بضع مئات من المسلحين. جمعوا الاهالي في ساحة الكنيسة واجبروا الشباب بينهم على الركوع ارضا وشَتْم ريمون إده. ثلاثة شبان قبلوا مهانة الركوع لكنهم رفضوا شتم زعيمهم فقتلوا راكعين على مرأى من اهل القرية. هذه العملية التأديبية افتتحتْ تعريفا جديدا لمن هو «الغريب». صار الغريب بعدذاك لا يعرَّف بِناءً على هوية الطائفية وحدها بل على انتمائه السياسي ايضا. وعندما تسلّمت حركة «امل» السيطرة على بيروت الغربية، اغتيل حسين مروة وحسن حمدان (مهدي عامل) المثقفان الشيوعيان، على يد ابناء جلدتهم في الطائفة الشيعية.

صار القتل واجبا. وصار قتل «الاوباش» بمثابة «مهمة حضارية»، حسب تحريض «حراس الارز»، ابناء الطبقة الوسطى المارونيين الغيورين على امتيازاتهم الطائفية والطبقية الصغيرة. «على كل لبناني ان يقتل فلسطينيا!» كان شعارهم الذي صكّه سعيد عقل. وهو الواجب إياه الذي حدا بالشيخ الدرزي الجليل الى قتل جاره المسيحي، كما في النكتة التي شاعت عقب «حرب الجبل» التي شنّها مسلحو وليد جنبلاط على «القوات اللبنانية» عام ١٩٨٣ وارتكبت خلالها عدة مجازر في حق المسيحيين ادت الى تهجير اكثريتهم من المنطقة. شيخ درزي رأى ابناء طائفته يقتلون المسيحيين ويطرودنهم من قراهم، فقرر قتل مسيحي، اداء لواجبه تجاه الطائفة. لكن اين يجد ذاك المسيحي والعدد كبير من المسيحيين قد لاذوا بالفرار؟ لم يبق غير جاره وصديق عمره الذي لم يفرّ لأنه أمن جيرة الشيخ وصداقته. استدعى الشيخ جاره المسيحي فصعد هذا الى بيت صديقه ولم يصدق ما سمعت أذناه. جاره وصديق عمره «مضطر» لقتله. لم يتزحزح الشيخ الدرزي قيد انملة عن تصميمه على الرغم من توسلات جاره المسيحي مستشهدا بالجيرة الحسنة ومستحلفا بالخبز والملح والعشرة المشتركة بينهما. عبثًا حاول. الواجب هو الواجب. اما الصداقة المديدة وحسن الجوار فقد تشفع بالمسيحي في أمر واحد: «لن اوجعك. هي عقصة دبّور»!

والحمى المقدس عندما يدنّس لا بد من تطهيره. لنتذكر: فكرة «الغريب» يندغم فيها ترفّع ابناء القرية «الاصليين» عن «الَجلَب»، الوافدين من خارج القرية، مع الابوية القبلية تجاه «الدخيل»، ومع الاستعلاء الطبقي تجاه من هم ادنى في المرتبة او الموقع الاجتماعي والثقافي، فضلًا عن غير اللبنانيين. ها هو الاب سمعان الدويهي، نائب زغرتا السابق، يرفع هذا الادغام السهل بين «بؤساء» و«غرباء» الى مصاف العنصرية إذ يعرّف الغرباء بأنهم بالدرجة الاولى الفقراء، فيرى الى أحيائهم على انها بؤر فساد واوبئة تهدد الاسس الاخلاقية والانسانية والروحانية للبنانيين[8]. «لقّحوا أطفالكم ضد اليسار الدولي»، يقول احد الشعارات التي رفعتها جماعة «حراس الارز» على جدران بيروت الشرقية. وتجرّ الاستعارة الطبية نفسها الى حديثهم عن مخيّم تل الزعتر على اعتبار انه «دمّلة» يجب ان تفقأ بـ«عملية جراحية».

٨ وضاح شرارة، السلم الاهلي البارد، هامش الصفحتين ٧٤٠ و٧٤١.

والمداواة والتطهير وجهان لعملية واحدة. ذلك ان الصحيح هو المقدس. ها هو الشيخ الدرزي عفيف بو علوان ينذر مسلحي «القوات اللبنانية» بالاستسلام والقاء السلاح، خلال «حرب الجبل» للعام ١٩٨٣: «سلّموا أسلحتكم، غادروا هذه الارض، لا تدنّسوها، والا فحذارِ!»[٩]. ولا يعرَف الِحمى بالهوية الطائفية وحسب. هناك التعريف القبلي. ينتمي المسلحون الكتائبيون الذين اغاروا على إهدن (وقتلوا النائب طوني فرنجية وأسرته) الى المذهب ذاته الذي ينتمي اليه سكان اهدن وابناء الاسرة المقتولة، الا انهم ينتمون الى العشيرة العدوة. بمناسبة الذكرى الاولى للغارة، يقول الاب يوسف يمّين في القداس الاحتفالي الذي اقيم للمناسبة «جميع الذين دنّسوا اهدن سوف يقتلون، خصوصا ابناء عشيرة الجميّل، واحفادهم لأجيال قادمة، حتى لا يبقى منهم رجل او امرأة»[١٠].

أحيانا كان التطهير يحصل بواسطة الحديد والنار. والمشهد الاكثر تعبيرا هنا هو مشهد مجموعة من المسلّحين الكتائبيين يعزف احدهم على الغيتار ويشربون الشامبانيا حول جثة محترقة على مشهد حيّ الكرنتينا التنكي الفقير تتصاعد منه ألسنة النيران. وقد عرفت الامكنة «الغريبة» المصير ذاته في الحمى المقدسة لهذا الفريق او ذاك: مخيمات الضبية وجسر الباشا وتل الزعتر، حي النبعة في ضاحية بيروت الشرقية، وبلدات الدامور، الجية، العيشية، الخ.

اما الاعجوبة التي أعلنت عقب سقوط حي النبعة فأبلغ تعبير عن انجاز تطهير المكان. نقلت الصحف ان المسلحين الكتائبيين، وهم «ينظفون» الارض من «اعدائهم» الفلسطينيين ــ التقدميين عثروا على كميات من البخور تفترش الارض. تعالت الصيحات بوجود معجزة. واخذت جموع من الناس تتوافد لتشاهد وتشهد.. فها هي الارض ذاتها تعلن اخيرا أن تطهيرها قد تحقق بواسطة اعجوبة. لم يطل زمن الاعجوبة طويلا، فبعد ايام معدودة، تبيّن ان ما حُسِب انه بخور لم يكن الا منتجات كيماوية من مصنع للصابون، استخدمه المسلحون الفلسطينيون لحشو اكياس المتاريس، لفقدان الرمل. غير أن الاثر التطهيري والعجائبي للخبر كان قد فعل فعله وظل الناس يتوافدون لزيارة الموقع لايام عديدة...

لنتذكر أن لممارسة التطهير هذه سابقة شهيرة في الصهيونية، فقد عمّدت عملية احتلال فلسطين والطرد القسري لسكانها وهجرة عرب فلسطين من اراضيهم عام ١٩٤٨ على انها «التطهير العجائبي للارض» حسب تعبير مجلة الجيش الاسرائيلي[١١].

العنف والمقدّس

أ. تطويب الزعماء المحتجبين

ما إن توفي بشير الجميّل حتى جرى تشبيهه بالسيد المسيح وتطويبه قديسا ابديا. يستعيد الاب سليم عبو حياة قائد «القوات اللبنانية» بما هي مسير يتجه نحو مآله المقدَّر ــ الشهادة، فيتحدث عن الساعات الاخيرة من حياة «الباش» كما لو انها درب الصليب الى الجلجلة التي عليها مشى السيد المسيح:

«ليس صدفة، بالنسبة للشعب المسيحي، ان يموت بشير يوم ١٤ سبتمبر/أيلول، الذي هو «يوم تمجيد الصليب المقدّس»، ولا هو من قبيل الصدفة ايضا انه القى خطبته الاخيرة، ساعتين قبل اغتياله، في «دير الصليب»، حيث تخدم شقيقته الراهبة، ولا هو من قبيل الصدفة في شيء انه تكلم واقفا امام صليب كبير حامل عبارة «بهذه العلامة سوف تنتصر». هذا الطفل مات وله من العمر ٣٤ سنة، وهو تقريبا عمر المسيح عندما صلب»[١٢].

هذه الـ«تقريبا» في المقارنة بين عمر بشير الجميل وعمر السيد المسيح ليست موفّقة، فحسب الرواية الدينية، كان عمر السيد المسيح ٣٣ سنة عندما مات على الصليب، فاذا كان عمر بشير الجميل عند مصرعه هو ٣٤ سنة، فهذا يثبت امرًا آخر أكثر مساسًا بأمور هذه الحياة الدنيا: وهو أن قائد «القوات اللبنانية» لم يكن له الحق في ان يترشح الى الانتخابات الرئاسية وان انتخابه رئيسا للجمهورية اللبنانية كان باطلا وغير دستوري. ذلك ان عمر الحد الادنى في الدستور للترشّح الى منصب الرئاسة الاولى في البلاد هو ٣٥ سنة!!

مهما يكن من امر، فإن اختفاء الامام موسى الصدر الملفوف بالغموض في ليبيا في آب ١٩٧٨ يحاكي من عدد من الاوجه حال بشير الجميل، فاذا وجدت لبشير صفات تشبّهه بالسيد المسيح، فإن رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى كان يتمتع بقابلية لمحاكاة من نوع آخر لسبب انتمائه الأسري. فالسيّد اللبناني يملك ما يكفي من الصفات لكي يتماهى مع الامام محمد

٩ Issa Makhlouf, Beyrouth, ou la fascination de la mort, Paris, ed. de la passion, 1988, p. 160.

١٠ Jonathan Randall, Going All the Way, New York, Random House, 1984, p. 131.

١١ cf. Ammiel Alcalay, After Jews and Arabs. Remaking Levantine Culture, Minneapolis and London, University of Minneapolis, 1993, p.220.

١٢ كما ورد في عيسى مخلوف، ، المصدر المذكور اعلاه، ص ١٥٠. وليسمح لنا بهذه الملاحظة: اذا كان سن بشير الجميل عند وفاته هو ذاته الذي يخبرنا به الاب عبو فهذا يؤكد امرا اكثر دنيوية وهو ان رئيس «القوات اللبنانية» لم يكن له الحق في الترشح للانتخابات الرئاسية وان انتخابه كان مخالفا للدستور ولاغيا بالتالي. ذلك ان الحد الادنى لسنّ المرشح لانتخابات رئاسة الجمهورية كما يحدد الدستور هو ٣٥ سنة.

الحواجز هي المراكز الامامية للحِمى، حيث يتقرر دخول الآخر او حجزه. على الحواجز، ينبغي الكشف عن الهوية بأشكال مختلفة. أولاً بواسطة بطاقة الهوية، لكن هذه قد تكون مزورة. في غمرة الجنون الانتمائي، تصير كل علامة مميزة حبلى بالمعاني، فاذا لم يكن الاسم كافيا للكشف عن الهوية، يجري اللجوء الى اللهجة.

الذي حقق «غيبته» في العام ٨٧٤. وهذا ما يؤكده مثقف شيعي اميركي من اصل لبناني متحرق لاثبات قوة الجذب والتعبئة التي يتمتع بها الماضي نحو الانجاز المهدوي الخلاصي: «تمتزج سيرة موسى الصدر مع الحساسية الالفية لشعبه، هي الحساسية الالفية لرجل استثنائي سوف يقود التاريخ الى غايته المقدّرة، غاية تتحقق عندما تقضي بذلك المشيئة الالهية. وقد كان هذا كله معطى لموسى الصدر بحكم الطبيعة»[١٣].

والمعطى للإمام اللبناني المغيّب «بحكم الطبيعة» هو انتماؤه المباشر الى سلالة ائمة الشيعة. ذلك ان «الغيبة» تفتتح زمن الانتظار والتوق الى عودة المهدي «يملأ الكون عدلا وسلاما بعدما ملئ جورا وحربا». وسوف يمثّل تسلم الامام الخميني للسلطة في ايران بعد اسابيع من اختفاء الإمام اللبناني دعما لهذا الانتظار ووعدا بعودة المهدي تلك العودة. وإذ طالب انصار موسى الصدر مرشد الثورة الاسلامية بالعثور على الإمام المغيّب واعادته اليهم، اشاع المرشد الروحي الامل بعودة الصدر مرتكزا على انتمائه الاسري تحديدا. وعد بعودة حقيقية تحصل على الطريقة التي بها عاد الجد الاكبر للإمام اللبناني، الامام موسى الكاظم، صاحب «الغيبة الصغرى». فقد سجن هذا الاخير سبع سنوات حسب البعض و١٤ سنة حسب البعض الآخر وعاد اخيرا الى انصاره[١٤].

١٣ Fuad Ajamy, The Vanished Imam. Musa al-Sadr and the Shia of Lebanon, Ithaca and London, Cornell University Press, 1986, p. 23.

١٤ عجمي، المصدر ذاته، ص ١٩٦.

فؤاد خوري «آثار الحرب الأهلية»، بيروت ١٩٩١.



ب. سلاح المعجزات

خلال حرب ١٩٧٥، وردت عشرات الروايات عن ظهور السيدة العذراء في اماكن متفرقة من المناطق المسيحية، بينها عشرون ظهورًا على الاقل في قضاءي كسروان والمتن. وانتشرت روايات ايضا عن ظهور العذراء في القرى المارونية دير الاحمر ورام وقدّام في البقاع.

على تلة مطلة على زحلة، نصب الاهالي تمثالا ضخما للسيدة العذراء، شفيعة المدينة. واقع الحال ان عبادة العذراء كلية الحضور في اكبر تجمع كاثوليكي في الشرق. يقال عن امرأة جميلة انها تشبه السيدة العذراء؛ ويسمّى مشروب العرق، والزحليون مولعون به اشد الولوع، «دموع العذراء»، وباسم العذراء يحلف الاهالي أغلظ الأيمان او يستحلفون، هلم جرّا. خلال الحرب الاهلية، روي عن سيدة زحلة معجزات عديدة خلال عمليات الحصار المتكررة التي تعرّضت لها المدينة. ظهرت وهي تطوّح بذراعيها طاردة القذائف المتساقطة على المدينة. ولم تكن معجزة العذراء هذه الا نسخة حديثة عما نسب اليها من معجزات سنة ١٨٤٣ حين انقذت المدينة المسيحية الكاثوليكية من هجمة درزية اذ اطلقت طيورا سماوية ذرّت الرمل في عيون المهاجمين. مهما يكن من امر، فهذا يؤكد اتفاق الديانتين على الدور العسكري لطيور الابابيل، سمّي بهذا الإسم او لم يسمّ.

في زغرتا، المشتبكة حينها في حرب مع طرابلس، قبل ان تقع القطيعة الدموية بينها وبين حزب الكتائب، كان المسلحون ينتظمون في تشكيلات قتالية عائلية، تتباهى كل واحدة منها بظهور شفيعها القديّس يقاتل الى جانبها. ويروى ان مسلحي آل كرم كانوا يشاهدون عميدهم يوسف بك كرم طائرا فوق اشجار الزيتون على صهوة حصانه يعضدهم في مطاردة «الاعداء». ولم يكن في امر ظهور الابطال الاسطوريين او القديسين يقاتلون

الى صف انصارهم اي غرابة، فخلال الايام الاولى من الحرب العالمية الاولى، تواترت روايات عن مشاهدات مماثلة لدى شعوب اخرى. روى جنود فرنسيون انهم شاهدوا السيدة العذراء وجان دارك، وتحدث جنود انكليز عن مشاهدة القديس يوسف والقديس ميخائيل يقاتلون الى جانب هذا الفريق وذاك.

ولم يقتصر «الظهور» على القديسين والابطال الاسطوريين. عرفت الحرب حالات من «الظهور» اكثر معاصرة واكثر «علمانية». ولعل الذروة في مشاهد

إن اختفاء الامام موسى الصدر الملفوف بالغموض في ليبيا في آب ١٩٧٨ يحاكي من عدد من الاوجه حال بشير الجميل، فاذا وجدت لبشير صفات تشبّهه بالسيد المسيح، فإن رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى كان يتمتع بقابلية لمحاكاة من نوع آخر لسبب انتمائه الأسري. فالسيّد اللبناني يملك ما يكفي من الصفات لكي يتماهى مع الامام محمد الذي حقق «غيبته» في العام ٨٧٤.

الانتظار المعاصرة هي السهرات التي كان ينظمها انصار الجنرال ميشال عون في القصر الجمهوري ببعبدا ينتظرون إطلالة القائد من على شرفة القصر، تحييه لافتات جبّارة تصوّره على شاكلة القديس جوارجيوس، شفيع بيروت، والذي تروي الاسطورة انه صرع التنين في الخليج المسمّى على اسمه. آنذاك، كان التنين يتجسّد في النظام السوري.

وقعت آخر حادثة «ظهور» معروف للسيدة العذراء نهاية العام ١٩٨٣ في الشريط الحدودي الذي يسيطر عليه «جيش لبنان الجنوبي» إبان المرض الذي قضى على قائده سعد حداد. شهد منزل رئيس بلدية رميش حينها ظاهرة عجائبية نموذجية، إذ اخذ تمثال العذراء يرشح زيتا خلال شهر. وفي كل يوم، كان جندي من جنود «جيش لبنان الجنوبي» يرد منزل المختار لاخذ قطرات من الزيت العجائبي يمشح بها جبين سعد حدّاد على امل الشفاء. اخيرا، عندما تحوّل الزيت الراشح من تمثال العذراء الى دم وإنقلب التمثال واقعًا من تلقاء ذاته، رأى القوم في ذلك النذير بوفاة الرائد سعد الحداد المحتومة[١٥].

١٥ «عذراء رميش: الزيت والدم»، الاسبوع العربي، ٢٤ ايلول ١٩٨٤.

لم تقتصر حالات الظهور العجائبي على المسيحيين، وإن كانت اكثر انتشارا بينهم. سُجّل ظهور الولي يعقوب المنصوري، شفيع قرية السلطان يعقوب السنّية في البقاع الغربي. وسرت روايات عديدة تتحدث عن ظهور ذو الفقار، سيف الامام علي بن ابي طالب، يقود مقاتلي حركة «امل» وحزب الله.

ج. «حرب باردة» حول معجزة

مثّل تطويب الحبيس اللبناني شربل مخلوف قديسا في الفاتيكان في اكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٧ مناسبة لكي تعبّر الجماعة الدولية عن دعمها، الخيالي والرمزي، لـ«عودة» السلام الى ربوع لبنان ولانطلاقة عملية الإعمار، والاخيرة ليست اقل خيالية ولا رمزية عن الاولى، فضلاً عن الاحتفال بالوحدة الوطنية والتآخي المستعادين. دار كل هذا حول الجثمان العجائبي للحبيس الشمالي الذي اكتشف ان جثمانه ظل سالما كاملا بعد عقود على وفاته فحقق معجزات عديدة في دير عنايا في جرود بلاد جبيل على مقربة من قرية شيعية.

الظرف مناسب جدا. اننا مطلع عهد الرئيس الياس سركيس الموكل بتحقيق السلام في البلاد بعد اول فترة من فترات الحرب بدعم من سورية وبحضور «قوات الردع العربية» ذات الغالبية السورية. ويصدف انه في يوم التطويب ذاته، في ٩ اكتوبر/تشرين الأول، كان مقدّرا على الجيش اللبناني ان ينتشر جنوبا بناءً على اتفاق وقعه الرئيس سركيس وابو اياد الرجل الثاني في حركة فتح الفلسطينية. تخلّف الرئيس سركيس عن السفر الى روما بسبب تلك المهمة الملحة، واكتفى بترؤس القداس الاحتفالي في دير عنايا. وكان وفد اكليركي قد وصل روما، يرأسه البطريرك الماروني خريش، فيما الوفد الرسمي اللبناني يضم الرئيس السابق للجمهورية شارل حلو، وهو رئيس الفرانكوفونية واول سفير للبنان في الفاتيكان في عهد الاستقلال. وضم الوفد اللبناني وزراء يمثلون الطوائف الست الرئيسية، ونحوًا من عشرين نائبا برئاسة نائب رئيس المجلس النيابي وشخصيات عده بينها رئيس الجامعة اللبنانية. اما الوفد الكتائبي فقد وصل على حدة، يترأسه بيار الجميل ويضم، في من يضم، ابنه بشير.

المعجزة على كافة الالسنة. لكنها لا تحقق الاجماع حولها. لكل شربله ولكل معجزته. مسيرة كبرى انطلقت من مناطق لبنانية عدة تتجه الى محبس الراهب للدلالة على ان لبنان يتوحد في شربل مثلما شربل توحد بالرب. لكن المسيرة تكاد ان تكون مسيحية صرفة. وكلٌ يشدّ بالمعجزة نحوه ويسيّسها على هواه. المحامي الكتائبي فريد غانم يعلن ان تطويب «قديس لبنان» هو «معجزة القرن». ويستطرد متبهلا الى الله ان يحفظ لبنان «بلدا أبديا ذا رسالة خالدة من القيم والانسانية والحرية» وهذا هو اللبنان الذي يدافع عنه القدّيس وتلك هي المهمة التي يؤديها. ويلتقط بيار الجميل الكرة من محازبه، وهي بعد في الجو، فيعلن ان التطويب يزيده وعيا لمسؤولياته ويلهمه في نضاله لمتابعة رسالته. كأنما الاحتفال هو لتطويب الشيخ بيار لا القديس شربل!![١٦].

ما من شك في ان المحاولة الكتائبية للاستئثار بالمعجزة تلقى المعارضة مثلما الدعاية الرسمية التي تريد المماهاة بين المعجزة وبين الوحدة الوطنية. ها هو شربل آخر، الاب شربل قسيس، رئيس الرهبانيات المارونية اللبنانية، يدافع عن الطائفية السياسية ضد التجاوزات التي ارتكبها بحقها «السياسيون الكذابون» خدمةً لمصالحهم الخاصة إذ نزعوا عنها كل وظيفتها «التوازنية».

وحده عمر فرّوخ، المفكر العروبي المخضرم، تجرأ على عدم المشاركة في التكاذب الطوائفي الجماعي. رفض اقامة اية صلة بين تطويب القديس شربل وبين تحقيق الوحدة الوطنية. ثم انه كمسلم لا يؤمن بالشفاعة فالله في عرفه ليس بحاجة الى وسطاء. اما عن الوحدة الوطنية، فأصرّ فروخ على انها لن تتحقق من دون تحقيق العدالة الاجتماعية، وتخليص أهالي الجنوب من عذاباتهم وعودة المهجرين الى ديارهم ووقف الهجمات ضد الثقافة العربية التي «أشعّت على العالم بأسره شرقا وغربا» واعتماد سياسة تطبق مبدأ «الغرم على قد الغنم»[١٧]. اما الوجه الاجتماعي للمعجزة فتعهده البابا وصحافي... شيوعي. اخذ سيّد الفاتيكان يبشّر بفكرة تخدمه في

١٦ صحيفة «العمل»، ١٥ ايلول ١٩٧٧.



فؤاد خوري «آثار الحرب الأهلية»، بيروت، ١٩٩١.

معركته مع الشيوعية، وهي العلاقة بين الفقر والايمان، فطفق يتحدث عن البيئة الاجتماعية للقديس وهي أسرة من الفلاحين الفقراء المتواضعين ومن العمال يجمعهم ويحركهم ايمان ساطع. اما على صفحات الجريدة الناطقة باسم الحزب الشيوعي اللبناني، فتضرّع نبيل هادي للرب الاله، بشفاعة القديس اللبناني، ان يعيد ابنه يسوع المسيح الى الارض للاهتمام بالفقراء والمحرومين وأن يطرد الاغنياء والمحتكرين من هيكل الربّ وقد حوّلوه مجددا الى وكر للصوص.

ويهيب الصحافي الشيوعي بالسيد المسيح ان يحمل سوطه وينزل الى الارض وينحاز الى المعذّبين، ضحايا الظلمات، الذين يناضلون من اجل الحياة، فيبشّرهم بأن طلوع البشر بات قريبا، وانه قريبا سوف ينفتح طريق العدالة والحياة[١٨]. ◆

١٧ صحيفة «النهار» ١١ تشرين الاول ١٩٧٧.

١٨ نبيل هادي، صحيفة «النداء»، ٩ تشرين الاول ١٩٧٧.

فؤاد خوري «آثار الحرب الأهلية»، بيروت، ١٩٩١.



مقابلة مع عزيز العظمة:
الإسلاميون في دين ودنيا

عزيز العظمة

مؤرخ وكاتب واستاذ جامعي. من مؤلفاته «إسلامات وحداثات»، **«العلمانية من منظار مختلف» (١٩٩٣)، «دنيا الدين في حاضر العرب» (١٩٩٧)، «المُلك الاسلامي» (١٩٩٧)، و«قسطنطين زريق:عربي للقرن العشرين» (٢٠٠٣). اختار وقدّم لمختارات من اعمال ابن خلدون وابن تيمية والماوردي وابن عبد الوهاب وأحمد فارس الشدياق والرازي والمسعودي وابن الراوندي.**

هذه مقابلة اجراها عزيز العظمة مع مطبوعة يسارية ايرانية من وحي صدور كتابه «اسلامات وحداثات»، آثرنا ترجمتها مساهمة منا في التعريف بفكر المؤرخ والجامعي السوري ولاعتقادنا انها تُغني البحث والمعرفة عن الحركات الاسلامية المعاصرة لما لها من شمول وإحاطة نقدية. وهذا ما يزيد من راهنيتها بالنسبة إلى الثورات العربية الجارية.

س: دعني أبدأ بمسائل مفهومية. لماذا تَصِمُ الحركات الإسلامية المعاصرة، في كتابك «إسلامات وحداثات»بأنّها «إسلاموية سياسية» وليست «أصولية إسلامية»، على سبيل المثال؟

ج: لا مانع لديّ من استخدام مصطلح الأصولية، سوى أنَّ الأصولية قد لا تكون سياسية، ويمكن أن تُعرَب على أنّها شكل من أشكال ضبط الذات الصارم وصياغة الذات المتجددة تبعًا لمتطلبات طقسية ودينية – أخلاقية. الأصولية موقف من الزمن، إذ تعتبر أنَّ لا عواقب له، فلا تجد أيّة مشكلة في الأطروحة العبثية التي مفادها أنَّ من الممكن استعادة ما كان قائمًا في البدء، أو في العصر الذهبي: إمَّا بالعودة إلى النصوص دون توسّط التقاليد التي تُعْتَبَر فاسدةً (لأنّها تمثّل الزمن بين الحاضر وبدايته المُفتَرَضة) كما هي الحال مع مارتن لوثر والسلفية السنيّة عمومًا من محمد عبده مرورًا برشيد رضا والإخوان المسلمين وصولًا إلى الآن، أو بإعادة تشكيل المجتمع تبعًا لقوالب بدئية تُرَى على أنّها نسخ من ممارسات العصر الذهبيّ، كما هي الحال لدى الحركات التي تُوصَف بأنّها حركات أصولية.

لقد أطلق الكاثوليك على هذه الحركات الأخيرة اسم التّمامية، لكنّ الظاهرتين متشابهتان: إضفاء الطابع الأخلاقي بمعناه الديني على الحياة الخاصة، مراقبة المجتمع وإدارته سلطويًا بعد إصلاحه وفقًا لمؤسسات تجعل ذلك ممكنًا: إنَّ الكالڤنية، والإصلاح المضاد الباڤاري (الكاثوليكي، بالطبع)، والوهابية، والخمينية، جميعها من هذا النمط، على اختلاف أساليبها. وتتشابه الأصولية الإسلامية والبروتستانتية، بحسب دراسات قام بها صديقي صادق العظم، ذلك التشابه الشديد الذي لا يعود معه ثمّة مبرر للتردد في استخدام مصطلح الأصولية للإشارة إلى الحالات الإسلامية المماثلة، اللهم ما عدا الافتراضات المستمدّة من الاستشراق بشأن «اختلاف» الإسلام أو «خروجه على القياس». ها أنت ترى، إذًا، أنّه ليس لديّ أيّ تزمّت مصطلحيّ.

جذور مشتركة؟

س: لِنَعُدْ إلى مناقشة الحركات الإسلامية من منظور تاريخي. يرى بعض المحللين أنَّ المنظومة الفكرية والحركات السياسية الإسلامية المعاصرة نشأت وتطورت منذ أواسط القرن الثامن عشر عبر سيرورة الإحياء الإسلامي. وهذه الحركات، التي راحت تظهر طيلة تلك الفترة تحت مسمّى «الإسلاميّة» المشترك، في بلدان متباعدة تباعد إندونيسيا وإيران ومصر ونيجيريا، إنّما تبدي تنوّعًا شديدًا في أصلها وبناها وسيروراتها. هل ثمّة خصيصة مشتركة تدعم افتراض نَسَبٍ مباشر؟ وما رأيك

فيها نظر

عمومًا بالمقاربة الآنفة؟

ج: لا أتّفق مع هذا التحليل. ذلك لأنّه تحليل تزامنيّ سكونيّ. حركات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ــ الوهابية في الجزيرة العربية، والمهدية في السودان، وعثمان دان فوديو في نيجيريا، إلخ ـــ لها طابعها المختلف تمامًا عن طابع الحركات الحديثة. والحركات الوحيدة التي يمكن المقارنة بينها اليوم هي طالبان و«الأفغان» العرب في الجزائر، وفي غير مكان.

قبل كلّ شيء، لهذه الحركات جميعًا طابع ديني مجدِّد تمكن مقارنته بما شهدته القرون الوسطى، خاصةً الحنبلية الدمشقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، التي تتبع ابن تيميّة، والتي تتّسم بتمامية بدائية تتحاشى عامدةً أيّ انخراط في الحداثة وأشكالها ومقتضياتها السياسية والإيديولوجية. وكذلك، فإنَّ هذه الحركات مميّزة اجتماعيًا، كون معظمها حركات غير مدينية.

لكن هذه ليس القصة كاملةً. فالوهابية، مثلًا، كانت طريقة لترويض القبائل العربية تحت سيطرة عشيرة تجارية وراثية، هي آل سعود، بإعادة إدراج تلك القبائل في المجتمع في سياق كيان سياسي جديد تشكّل خارج منظومة التراتبيات القبلية، ووقف على رأسه آل سعود وشركاؤهم من رجال الدين، أو المشايخ، ذريّة محمد بن عبد الوهاب. كان التركيز على تدبّر أمر القبائل كي تذعن لتأدية الزكاة، الترجمة الإسلامية للضريبة التي تُؤدَّى للدولة مُجسَّدة بشخص الإمام، ولاحقًا الملك. وكانت هذه ضرورة فرضتها التحوّلات التي اعترت أنساق التجارة في الجزيرة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. أمّا المهديّة فكانت ثورة العشائر التي تتاجر بالعبيد بقيادة عائلة مقدّسة من الصوفيين الذين انتهك التوسّع البريطاني والسياسات المناهضة للرقّ حرمة أراضيهم، مع أنَّ غاية هذه السياسات الأخيرة لم تكن من منطلق إنساني وحسب، إذ كانت تستهدف إطاحة الأسس الاقتصادية لنفوذهم.

كذلك قامت الحركة السنوسية في ليبيا، في فترة قيام المهدية ذاتها، حول شبكة الطرق التجارية العابرة للصحراء والتي باتت مهجورة.

أمّا الحركات الحديثة فتدين في نشوئها إلى عوامل اخرى. يكفي القول الآن إنَّ نتاجها الإيديولوجي لا يمكن تصوره دون عدّة الحركات الشعبوية اليمينية، شبه الفاشية المتاحة عالميًا. وليس مصادفةً أنّها ظهرت في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، في الوقت ذاته مع جمعية المتطوعين الوطنيين (RSS) الفاشية الهندوسية الهندية. وفي وقتٍ كان الغرب أيضًا ينجرف بقوة نحو اليمين المتطرف، في سياق من العداء للشيوعية، كما في سياق أزمةٍ حادّة في النظام الرأسمالي. وليس مصادفةً أيضًا أن عاودت هذه الحركات الظهور في ثمانينيات القرن العشرين، بعد فترة من التهميش الاجتماعي والثقافي والسياسي تماشت مع تطورات في الغرب، حين كان النظام الرأسمالي، مرّة أخرى، يحلّ أزماته الحادّة باللجوء إلى خلق مواقع أساسية من الهامشية الاقتصادية والمكانية والثقافية عبر إحياء الإيديولوجيات الشعبوية والعنصرية اليمينية (الذي يُمَرَّر اليوم تحت عنوان «الاختلاف الثقافي»).

«حديثة» ومناهضة للعلمانية في آنٍ معًا؟

س: لو ركّزنا الآن على الحركات الإسلامية «الحديثة»، ثمّة قضايا أساسية عديدة سبقت مناقشتها على نطاق واسع، ومعظمها يحتاج إلى مزيدٍ من الإحكام. أولًا هنالك سؤال حول إيديولوجيا هذه الحركات. وكما أشرتَ، فإنَّ إيديولوجيتها لم تتشكّل من خلال تطور تاريخي ضمن عالم ما قبل رأسمالي منعزل. وهي، في الواقع، نتاج «الأزمنة الحديثة»، وموسومة بتطور الرأسمالية العالمي، وأزمة هذه الرأسمالية التي طاولت جميع الأبعاد بما في ذلك البعد الإيديولوجي.

غير أنَّ السؤال هو إلى أيّ مدى يمكن لمفهوم «الحديث»، في ضوء خطاب «الحداثيين» و«ما بعد الحداثيين» الحالي، أن يوفّر أداةً تحليلية ناجعة في دراسة الحركات الإسلامية منذ عشرينيات القرن العشرين، ما دامت هذه الحركات قد بقيت مناهضةً للعلمانية طيلة هذه الفترة؟ ثمَّ، لو نظرنا إلى حقيقة أنَّ الحركات الإسلامية منذ عشرينيات القرن العشرين قد مرّت بأطوار مختلفة من التطور، تجلّت في نتاجات إيديولوجية مختلفة تتراوح من الإصلاحية الإسلامية إلى الراديكالية الإسلامية أو الإسلاموية السياسية، إلى أيّ مدى يمكن تفسير هذه التنوّعات من خلال اتجاهات عالمية حصريًا وليس، مثلًا، من خلال خصوصية العالم الإسلامي؟

ج: يسرّني أن تطرح هذا السؤال. ذلك أنّه يمنحني الفرصة لأتناول ضروب الألفة، التي اختير بعضها عن وعي، بين الإيديولوجيا الإسلاموية والفاشية، ومع ذلك

المدى الواسع من الإيديولوجيات المناهضة للحداثة التي أَمْلَت المخزون الإيديولوجي للمحلويّة، والشعبوية اليمينية، والشوفينية في الشرق كما في الغرب. ذلك يتيح لي أن أتناول الموقع الحالي، حيث تجد المواقف ما بعد الحداثة في السياسة وفي العلوم الاجتماعية صورتها طبق الأصل، التي قد تكون واعيةً ذاتها تمامًا في أحيان كثيرة، في الإيديولوجيات المناهضة للحداثة وإيديولوجيات النكوص التاريخي.

الحداثة شكل يعقوبي في أفكاره عن الهندسة الاجتماعية ونزعته التدخلية التشريعية والثقافية وهو مطلق نوعًا ما في مركزيته الشديدة.

ينبغي أولًا أن نحدّد ما هي الحداثة باختصار: إنها ليست قائمة محدّدة من الصفات التي تمتلكها أو لا تمتلكها بعض المجتمعات، بل هي سيرورة تاريخية مؤسّسة في مؤسسات وأنظمة اجتماعية، ومعرفية، وإيديولوجيا خلال أَمد طويل.

ليس التنوير بحدّ ذاته خلاصة إجمالية للحداثة، على الأقلّ لأنّه متعدد التكافؤ هو ذاته، وليس حداثيًا بالضرورة، مع أنّه حديث بمعنى أنّه يمثّل جمهورية آداب حديثة فريدة وإنتلجنسيا خارج سيطرة الكهانة المسيحية.

الحداثة بوصفها حركةً تاريخيةً مؤسَّسة ذات مدى عالمي توضّعت في شكل الدولة الجديد، النابليوني نوعًا ما، الذي بزغ من الثورة الفرنسية وحمل هذه الحداثة: وهو شكلٌ يعقوبي في أفكاره عن الهندسة الاجتماعية ونزعته التدخليّة التشريعية والثقافية، وهو مطلق نوعًا ما في مركزيّته الشديدة التي تجد منطلقها في انحلال الخصوصية النسبي، ليس اجتماعيًا أو ثقافيًا أو جغرافيًا بالضرورة، بل في مفهومها للعلاقة السياسية التي تربط الدولة بالفرد كمواطن، دون لجوء في الحالة المثلى، إلى مؤسسات وسيطة تصنيفية.

توصَف المؤسسات الوسيطة هنا بأنها مدنية، وليست «أوليّة»، كي نستخدم تعبيرًا مستفزًّا رائجًا جدًا. وقد انتقلت هذه الدولة خارج فرنسا حيث حملها نابليون مباشرةً إلى إيطاليا وإسبانيا وبولندا. وحملها المثال النابليوني إلى أميركا اللاتينية بواسطة سيمون بوليفار. وحملها المثال المؤسساتي والمثاقفة إلى الأراضي العثمانية بواسطة الدولة العثمانية المتحمسة للإصلاح في أواسط القرن التاسع عشر، الأمر الذي يفسّر كثيرًا مما نجده في العالم العربي وفي تركيا اليوم حيث تواريخنا لا تزال تواريخ مجريات القرن التاسع عشر والتيارات المناهضة للحداثة التي ذكرتها. ودَعني أضيف: ليس ضروريًا أن تنسجم التحوّلات الحداثية مع الإيديولوجيات الحداثية الخاصة بالدولة من النوع الشامل. والاستثناءات الوحيدة هي فرنسا والمكسيك والدول الشيوعية، مع أنَّ هناك عناصر إيديولوجية، وقبل ذلك عناصر معرفية حداثية قوية، حاضرة في أجزاء من إيديولوجيات الدول التحديثية.

لذلك لم تعمد هذه الدول كثيرًا إلى توريط الدين والتأخّر الاجتماعي مباشرةً بل دفعتهما إلى مواقف من التحصّن والهامشية وحالت دون إصلاح حداثي جديّ. ما يوجد في الإسلام السني الحديث في العالم العربي من الحداثة ملتبس ومتردد وتبريري ودفاعي ومعرّض كثيرًا وعلى نحوٍ واضحٍ لهجوم كلٍّ من التقليديين والراديكاليين العرب على حدٍّ سواء (التياران المتقاربان حاليًا في الأزهر، على سبيل المثال، بعدما كان إلى الآن تقليديًا وداهن الحداثة أيام عبد الناصر، مما أنعش هذه المؤسسة بنحو هائل).

الحداثيّة اللامتكافئة

دعني أؤكّد أخيرًا أنَّ الحداثية كما وصفتها ليست سيرورة متكافئة بأيّ حال من الأحوال. ذلك أنَّ الحركات والاتجاهات التاريخية لا تكون متكافئةً أبدًا. ويتجلّى عدم تكافؤها في اختلاف رحابتها وشكلها باختلاف الزمان والمكان والطبقة، وهلمّ جرًا. ولذلك فإنَّ الاتجاه العالمي الإجمالي هو ذلك الاتجاه المركّب وغير المتكافئ في آنٍ معًا. ولم تكن الحداثية موحّدة أو تامّة الإنجاز، بالطبع، حتى في أوروبا ذاتها حيث للحداثة تاريخها المتنوّع وغير المتكافئ، كما كانت الحال لدينا. فالتاريخ لا يعرف أحوالًا مكتملةً وتامّةً. واحد تجليات عدم التكافؤ هذا، في الشرق كما في الغرب، هو مناهضة الحداثية، التي تصل بنا في النهاية إلى الإسلاموية. تطورت مناهضة الحداثة في مجرى القرن التاسع عشر لدى البرجوازية وأحيانًا لدى الحركات الملكية التي اتّحدت إيديولوجيًا ضدّ شبح الشيوعية الذي أعلن عنه ماركس وإنجلز في العام ١٨٤٨، وكانت البداية مع المناهضة الريفية للرأسمالية أواخر القرن الثامن عشر (وأبرز أمثلتها

«هامان» ونفوذه الهائل وأشباهه) ومع النزعة المحافظة الأرستقراطية، ومع مناهضة اليعقوبية (دو ميستر، برك) الكاثوليكية غالبًا (ولكن ليس بالضرورة).

الإيديولوجيات المحافظة ــ من تمجيد الثقافة والتراث والغريزة الاجتماعية والتراتب وشجب الآثار الضارة المترتبة على الأفكار الفرنسية الخاصة بالتقدم والتاريخية والعقل والديمقراطية بأشكال معينة أو حتى الثورة ــ كان هذا تاريخًا دمويًا دفع الحكام المتسلطين، من بين أشياء أخرى، إلى تشريع الاقتراع العام (تقريبًا) (غلادستون وبسمارك، مثلًا).

...الرومانتيكية تعطي الثقافات الأولوية على التاريخ، ولديها عن المجتمع تصوّر عضويّ وحيويّ، إذ تتصور المجتمعات كأفراد بقياسها على الكائنات العضوية، وككائنات تبقى هي ذاتها في جوهرها، فلا تتغيّر كثيرًا بمرور الزمن بل تضعف وتقوى، أو تضمر وتموت.

غير أنّه كان هنالك سلاح إيديولوجي هائل ملازم لهذه النزعة المحافظة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه على نحوٍ عريض جدًا اسم الرومانتيكية، ولا نقصد بها هنا حساسيةً سياسية عليلة أو مشبوبة بالأحرى، بل نقصد المعنى التقني، ومفاده أنَّ هذه الرومانتيكية تعطي الثقافات الأولوية على التاريخ، ولديها عن المجتمع تصوّر عضويّ وحيويّ. إذ تتصور المجتمعات كأفراد بقياسها على الكائنات العضوية، وككائنات تبقى هي ذاتها في جوهرها، فلا تتغيّر كثيرًا بمرور الزمن بل تضعف وتقوى، أو تضمر وتموت، وترتكس للمسائل المستوردة ثقافيًا كما يرتكس الجسم لتدخّل طفيلي من الطفيليات.

ولذلك تتصور هذه الرومانتيكية التاريخ على أنّه دوري وله نظام ــ قوة وصحّة ــ مقيمٌ على شروط الثبات والدوام (الثقافة، الشريعة، الدارما في الهند). وبذلك يكون الفعل السياسي فعل استعادة، ويضع الافتراضات عن العقل في التاريخ في ميدان مكائد الخارجيين، لأنّ ما له قيمة هو الغريزة الاجتماعية والفرد واستقلال العقل.

أمّا شكل الدولة التي تتخذها الرومانتيكية نموذجًا، فلا يقتصر على كونها مناهضة للحداثة وقائمة على تحقيق انسجام بين الغريزة الاجتماعية وشكل الدولة (ومن هنا إقامة دولة إسلامية، أو رايخ ألماني أصيل، أو مَلَكية الأسلاف الفرنسية الشرعية، أو جمهورية فرنسية أصيلة زاخرة بالروابط والأواصر الملكية والكاثوليكية، كما هي الحال مع لوپن، زعيم الجبهة القومية الفرنسية، اليوم) بل تتعدّى ذلك أيضًا إلى دولة نابوليونية إلى حدٍّ بعيد. دولة تعمد، عبر هندسة اجتماعية شمولية، إلى دفع المجتمع قسرًا خارج اغترابه عن ماضيه وتعيده الى ما كان عليه ذات مرّة (بالمناسبة، لدى السودان وزارة للهندسة الاجتماعية). ولقد غدت هذه التيارات الآن ــ عبر عولمة تصورات القرن التاسع عشر الإيديولوجية عن الجنسية، وأفكاره عن الشعب، وعبر الأشكال الجديدة من الكتابة والتواصل، وكذلك عبر الأنظمة التعليمية الجديدة والإنتلجنسيا الجديدة والخطابات السياسية التي تروّج لها الدولة ــ غدت هذه التيارات قوام الخطاب العام، إلى جانب أفكار التقدّم والديمقراطية والاشتراكية وسواها، والقرين الضروري للفعل السياسي والاجتماعي على نطاق عالمي، بما في ذلك العالم العربي. كانت الخطابات الدينية، كما قلت، مُهمَّشَة لكنها لم تَكُنْ منخرطة بأيّة طريقة منهجية أو منتظمة. ولا عجب، إذًا، أنَّ هؤلاء الاسلاميين المناهضين للحداثية ينبغي أن يوصفوا بأنّهم حديثون بل وحداثيون، بمعنىً ما، في بعض مواقفهم.

كان كلٌّ من علي شريعتي وسيّد قطب من المعجبين الكبار بالكسيس كاريل، وهو اختصاصي تحسين النسل الشهير في عشرينيات القرن العشرين والمستشار الثقافي للمارشال بيتان، الذي حَمَلَ على ما ابتُلِيَ به جسد المجتمع من انحطاط، ودافع عن أقلية صغيرة مُنْقِذَة سوف تعيد الصحة إلى هذا الجسد.

اليوم

نأتي أخيرًا إلى اللحظة الراهنة. لقد رسمتُ الخطوط العامة للاتجاهات العريضة ولا مجال هنا لأطروحة مرتجلة تتعدّى القول إنَّ السيد جمال الدين الأفغاني الأسد آبادي كان قد عبّر بقوة عن سياسات الاستعادة العضوية والرومانتيكية لدى الإسلاموية العربية. وتحددت هذه السياسات مزيدًا من التحديد بمصطلحات شرعية لدى رشيد رضا، ودعى إليها الإخوان المسلمون، وفُصِّلَت مزيدًا من التفصيل (وجرى التوسّع فيها) عبر سيطرة متزايدة عالمية النطاق مارستها البنى التحتية الإسلامية النفطية على وسائل الاتصال كما على

الأجندات التعليمية والإيديولوجية، مدعومةً كلّ الدعم بتصورٍ للإسلام يراه حصنًا ضد الشيوعية، أو ما أدعوه الخندق الثقافي لعقيدة الرئيس الاميركي ترومان في العالم العربي (وبالطبع، في إندونيسيا وماليزيا في خمسينيات القرن العشرين وستينياته أيضًا، وهو تطور لم يكن منفصلًا عن تجدد رعاية الدولة التركية التعليم الديني منذ أوائل ستينيات القرن العشرين ولا عن الارتباط الباكستاني ــ الأفغاني بالطبع).

(ردًا على) الفكرة السخيفة التي مفادها أنَّ التنوير مشروع إمبريالي: لم يكن التنوير كذلك، بالطبع، ولم يكن التاريخ الأوروبي ذاته تاريخ التنوير بل تاريخٌ كانت مناهضةُ التنوير من عناصره المكوِّنة العميقة، وما صُدِّرَ إلينا عن عمد كان الاستغلال والعنصرية.

في اللحظة الراهنة، ومع انهيار الإجماع الكينزي لما بعد الحرب (الرفاهويّة في الغرب والتنموية لدينا) ينشأ وضعٌ تبرزُ فيه إلى المقدّمة من جديد تلك الإيديولوجيات المحافظة التي كانت قد أُزيحت عن المواقع المركزية في الخطاب العام في الغرب كما في الشرق. ويؤدّي تشظّي سوق العمل المتزايد، على أسس إثنية وسواها من الأسس التصنيفيّة، إلى قيام معازل أو غيتوات محلية ودولية، على صعيد مكاني، وثقافي، وسوى ذلك من الأصعدة.

من هنا كانت الثقافوية، التي يلهمها في الأساس انحلال المدنيّة لمصلحة الجماعة، والتي تحظى في الولايات المتحدة بسطوة شديدة، حيث يلهمها نموذج اللوبي اليهودي بما حققه من نجاح بالغ. وتحول عاطفة الجماعة هذا إلى إيديولوجيا سياسية لا يمكن أن يكون بغير توسّط. وعنصر التوسّط هو ذلك النموذج المتاح من الأفكار الرومانتيكية عن المجتمع، وانغلاق الجماعة، والعضوية، التي سَرَت باسم العرق حتى الحرب العالمية الثانية، وتتخذ اليوم اسم الثقافة. ويتصل تملّق الاختلاف والخصوصية مع هذه الثقافوية أوثق الاتصال، سواء اتّسم بولع الأجانب أم برهابهم، وهو تملّقٌ له صورته الإسلامية المطابقة المتمثّلة في أفكار الخصوصية والفردية والأصالة.

ثمّة تواطؤ موضوعي جاء أيضًا من طرف المنظمات غير الحكومية الغربية التي هي اليوم وريثة فرق السلام الأميركية (US Peace Corps) بوصفها المموِّن الذي يورّد المعونة الثقافية المخصوصة، المناهضة للدولة الحداثية أشدّ المناهضة، أي بوصفها المموِّن بالثقافوية. وهذه الصلة ليست غائبة عن الإسلاموية: من استخدام العلاقات الودّية المتبادلة بين المنظمات غير الحكومية واللوبيات، تحت عنوان الأشكال الملائمة من الديمقراطية (المرتبطة بالإسلاموية، بوصفها أصلنا ومصيرنا) إلى الانتقادات ما بعد الحداثية (إنّما الحداثية تمامًا) لأفكار التقدم والعقل التي جاء بها التنوير.

وتتّصل بهذا أشدّ الاتصال تلك الفكرة السخيفة التي مفادها أنَّ التنوير مشروع إمبريالي: لم يكن التنوير كذلك، بالطبع، ولم يكن التاريخ الأوروبي ذاته تاريخ التنوير بل تاريخٌ كانت مناهضةُ التنوير من عناصره المكوِّنة العميقة، وما صُدِّرَ إلينا عن عمد كان الاستغلال والعنصرية، وليس التنوير: وكان علينا أن نعيد إنتاج ذلك بأنفسنا، في مواجهة احتمالات هائلة، وكذلك في مواجهة دول ومجتمعات.

أمّا بالنسبة إلى ما تشير إليه بأنّه «خصوصية العالم الإسلامي»، فلا أحسب، أولًا وقبل كلّ شيء، أن العالم الإسلامي من ضمن نظام الطبيعة، بل هو شيء بناه كلٌّ من الإسلامويين والغربيين (هنتنغتون مثال واحد وحسب، وليس عقلًا أصيلًا) بإعادة تقسيم العالم إيديولوجيًا، على أسس ثقافية، في زمنٍ بَطُلَت فيه التنموية، وحلّ محلّها التكيّف البنيوي، والاشتراطات المتبادلة، وما شابه.

وكما أنَّ هنالك لاهوتًا طبيعيًا للسوق، ثمّة لاهوت للثقافة، الثقافة التي انفكّت وانفصلت عن الدولة، التي هي القوة الأساسية لحداثيتنا في القرن ونصف القرن الأخير، وأُبعِدَت عنها لتتلقفها الجماعات ــ الأفراد. أمّا ما وفّرته الظروف الخاصة بالجماعات المسلمة المختلفة فكان سلاح الإسلاموية الرمزي وليس الإيديولوجي.

ولو استبدلنا اسمي النبي محمد والشريعة باسمَي رام والدارما، فسوف نصل إلى المجازات الإيديولوجية ذاتها التي تَسِم الفاشية الأصولية الهندية، ولو استبدلنا بهما المسيح أو جان دارك، فسوف نأتي إلى الأصولية الإنجيلية والعنصرية الفرنسية.

تتجلّى الخصوصية أيضًا في الشبكات الاجتماعية التي تعمل الإسلاموية عبرها. لكن لذلك أشباهه العالميين في تلك المناطق الشاسعة من الهامشية والبطالة البنيوية التي سبق أن أشرت إليها. وأخيرًا، على

المرء ألّا يستخفّ بالوظائف الشعبوية والقوموية المفرطة التي يؤدّيها كثير من الجماعات الأصولية، بما فيها تلك التي في إيران.

كيف غدت الإيديولوجيا حركةً؟

س: قبل الانتقال إلى سؤال آخر، هل يمكن أن أرجع إلى قضية عودة الإيديولوجيات المحافظة إلى البروز؟ بين القضايا المختلفة المثيرة التي طرحتها، والتي يمكننا أن نتوسّع على نحوٍ مفيد بأيٍّ منها، أودّ أن نركّز باختصار على القضية الآنفة.

كما أشرتَ، فإنَّ السياق الاجتماعي ــ الاقتصادي قد لا يكاد يوفّر أيّ تفسير مُرْضٍ لتحول ضروب العزل المكاني أو الثقافي إلى إيديولوجيات سياسية إن لم يتوسّط ذلك، مثلاً، نموذج الأفكار الرومانتيكية عن المجتمع. غير أنّ مفهوم «الثقافوية» الذي يلقي ضوءًا مهمًا على تحوّل العواطف الجماعوية إلى أيديولوجيات محافظة، لا يفسّر كيف تتحوّل الإيديولوجيات إلى حركات شعبوية تتحدّى البنى السياسية السائدة.

من ثمَّ، يمكن القول إنَّ الثقافوية، وخاصةً مساعدها الإداري، المنظمات غير الحكومية الغربية، يعملان تمامًا لمصلحة مشاركة الجماعة ومأسسة حركاتها كعناصر تتقاسم التكلفة في سياق التكيّف البنيوي.

ولذلك، فإننا قد نحتاج لأن نتبيّن كيف يمكن لإيديولوجيا سياسية محافظة، مثل الإسلاموية السياسية، أن تتطور إلى حركة سياسية تبتغي الوصول إلى سلطة الدولة، مع دعم جماهيري من أوساط المهمشين أقصى التهميش اجتماعيًا ومكانيًا، ولماذا هي إيديولوجيا محافظة، وليست إيديولوجيا تقدمية، مثلاً؟

ج: أحسب أن الجواب ينبغي أن يشير إلى أسباب نجاح الإيديولوجيات الشعبوية ذات الطابع القدسيّ الصريح في لحظات ظهورها. لقد وجدنا إيديولوجيات كهذه طوال هذا القرن، وعلى هوامش الحياة عمومًا، كما أشرت. وليس ثمّة سرّ عظيم هنا لأنَّ المجتمعات والكتل التاريخية تتكيّف عندما تتغير بطرائق متعددة، وليس من غير الطبيعي أن تحاول الجماعات المحرومة (وهنا أعني الحرمان الثقافي، وليس الحرمان المادي بالضرورة) الجماعات الاجتماعية المتبقية او المحتضرة، تأبيد ذاتها عن طريق الإصلاح: فكرة التغيير من الداخل التي تشتمل على تواريخ مكيّفة للرموز، أي على قراءة الحاضر في الماضي، بما في ذلك القرآن الكريم، وتقديم التجربة التاريخية، والنصّ القرآني، على أنهما استباق لحتمية الحداثة.

كان لدينا شيوعي عربي أثبت، دون أن يدعوه أحد إلى ذلك، أنَّ القرآن لم يسبق ديالكتيك الطبيعة لإنجلز وحسب، بل سبق أيضًا علم السبرنتيك بأكمله وفكرة قراءة الطبيعة عن طريق الرياضيات. هذا نوع من التبريرية غير الضرورية، أو من تملّق شعب متخيّل يُفترَض أنه لا يستجيب سوى للغة والرموز الدينية؛ وهو الشعب ذاته الذي دعم، كجمهور، كلًا من الشيوعية والناصرية والبعثية.

علينا أن نقاوم إغراء ترويج الأطروحة الإسلاموية ــ ذات الأثر الدعائي الكبير في الخارج والتي تلجأ إلى العاطفة الأخلاقية في الأزمنة الاستثنائية في الداخل ــ والتي مفادها أن المسلم بطبيعته إسلاموي الهوى سياسيًا. ذلك أنَّ الاثنين، المسلم والإسلاموي، متباينان تمامًا. ومعظم الأتقياء الذين أعرفهم يجحدون الإسلام السياسي ويزدرون السياسيين الإسلامويين، بوصفهم أشخاصًا يستخدمون الدين لغايات مدنّسة. وما يفسّر الفارق النوعي الذي يميّز اللحظة الراهنة هو فَوْعة ذلك الخليط من الدين والسياسة الشعبوية. ويمكن الإشارة إلى عدد من العوامل، لا يكفي أيّ منها بحدّ ذاته للتفسير، لكنها تنتج معًا وعلى نحوٍ تراكمي ما نراه من أثرٍ أكسيريّ.

علينا ــ ثانيةً ــ أن نقاوم الإغراء، الشائع هو ايضًا، الذي قد يدفعنا إلى أن نرى في الأمر «عودةً» إلى الإسلام: هذا غير تاريخيّ. وهو لا يأخذ على محمل الجدّ ما اعترى مجتمعاتنا من تغيرات عميقة، ولا يفسّر «غياب» ما يفترضه من «عودة»، دع عنك رضاه عن قراءة الإسلاموية السياسية لذاتها. لا، لا يمكن لجواب عضوي أو رومانتيكي أن يرضي النظرة النقدية، وينبغي أن ننتقل إلى غير مكان بحثًا عن تفسيرات، لا حاجة بها لأن تكون كلية أو «بنيوية» تمامًا، أي لا حاجة بها لأن تحيل إلى حتمية معينة.

ينبغي أن نعي أيضًا كم هي تقليديةٌ هذه التقليدية الجديدة لدى الإسلاموية وكم هي بعيدة عن الالتزام بالممارسة الاجتماعية التي تدّعي تمثيلها. وإلا لما احتاجت ــ كلّما أرادت التوسّع ــ إلى حشد كلٍّ هذا القدر الاستثنائي والمتواصل من العنف. إنّها تفعل ذلك لأنها خارج الحياة الاجتماعية. وما أشرت إليه من بحث

عـن تفسيرات تـكـون ذات أثـر تـراكـمـي وتـتـعـزز فـرادى وجماعات بعملها معًا، إنّما يقودنا بصورة حاسمة إلى الجانب التنظيمي وجانب البنية التحتية. وهـذه القصة مـعـروفـة جـيـدًا فـي مـا يـخـصّ رجـال الـديـن الشيعة في إيـران، ولا حاجة إلـى تـكـرارهـا. دعـونـا لا ننسى الخندق الثقافي لعقيدة الـرئـيـس الامـيـركـي تـرومـان. لقد وفّـر العناصر الأولـى الـلازمـة لإقـامـة بنية تحتية دولـيـة من المؤسسات التعليمية والإعلامية.

علينا أن نقاوم إغراء ترويج الأطروحة الإسلاموية التي مفادها أن المسلم بطبيعته إسلامي الهوى سياسيًا.

لـقـد تـسـارع ذلـك وتـوسّـع بفضل الـسـخـاء البترو ــ إسـلامـي، بـقـدر مـا تـسـارع وتـوسّـع بـخـضـوع ملايين الـعـرب وسـواهـم مـن المسلمين فـي شبه جـزيـرة العرب، ومنذ مرحلة بـاكـرة، الـى النظام التعليمي المحلي ذي المكوِّن الديني الظلامي إلـى أبعد الـحـدود. ولقد بقيت كلّ هذه البنى التحتية الدولية نائمة إلى أن دفعتها إلى الفعل قضية سلمان رشـدي وأعطتها زخـمًـا. لكن الأثـر الإسـلامـوي لـم يُنقَل تعليميًا وأخـلاقـيًـا فقط. بـل انتقَل أيـضًـا، في مصر مثلًا، أو في تلك الأجـزاء من لبنان حيث مناطق حـزب الـلـه، عبر الـرعـايـة الصحية، والـخـدمـات الاجتماعية، والإعـانـات، وعـمـالـة الـشـبـاب الـذيـن كانوا سيبقون لـولا ذلـك فـي حـالـة بطالة أو فـي حـالـة عدم صلاحية للعمل. يحدث كـلّ هـذا فـي حـالٍ مـن الهامشية والـتـشـظّـي المكاني والاجـتـمـاعـي، ذلـك التشظي الـذي تلتقط بعض شظاياه، عبر الخدمات التعليمية والثقافية والاجتماعية، منظماتٌ سياسية ذات بنية داخلية شبه لينينية، تملك مقادير هائلة من الأمـوال، مصادرها معروفة تمامًا. والـحـال، أنَّ كثيرًا مـن هـذا يخلق ربـاطًـا أخلاقيًا فـي أوسـاط تربط الـحـرمـان بلاأخلاقية آخـريـن وبانهيار الآداب العامة والـروابـط الاجتماعية السابقة وانتشار الانحراف العام.

ولا عجب أن يـؤدّي إحياء الروابط الاجتماعية في هذا السياق، مترافقًا مع الانكشاف الاجتماعي أمـام رأسمالية متوحشة ومـا يفاقمه من تراجع الرعاية الصحية الكينزية الــذي سـبـق أن أشــرت إلـيـه، لـيـس إلـى إضـفـاء الطابع الأخـلاقـي على السياسة وحـسـب، بـل أيـضًـا إلـى تقديس الأخــلاق، الأمــر الــذي يـزيـد كـثـيـرًا مـن تصلّبها، ويـحـوّل منافاة الحشمة إلـى كفر وفـسـوق. إضـافـةً إلـى ذلـك، فإنَّ حـالات الـيـأس النسبي تـكـون جـاهـزةً لاستقبال الأوهـام الخلاصية، والإيـحـاءات الأُخـرويِّـة والكليّة ــ «قَـلْـبُ عالمٍ بلا قلب، أفيون الشعوب» (كـارل ماركس). كلًّ هذا يتعلّقً بالمُجريات الداخلية. أمّـا الخارجية، كما يُعبَّر عنها في برامج سياسية، فتأخذ شكل تعبيرات رومانتيكية.

خـلال العقود القليلة الماضية، كانت ضـروب الإنهاك قـد اعـتـرت الإيديولوجيات التقدمية بوصفها جـزءًا من بـديـل تـاريـخـي للرأسمالية والإمـبـريـالـيـة، وهـي ضـروب الإنـهـاك ذاتها التي أسقطت الكتلة السوفياتية. ومـن هنا كانت فكرة «الـعـودة» المغلوطة إنّما الشائعة كثيرًا على الرغم من ذلك، اكانت إلى الدين أم الفاشية أم التعلّق بما هو سلافي إلخ.

لا شكّ أنَّ هذه الأشياء جميعًا كانت موجودةً من قبل. غير أنّـه ما من عـودة إليها، ليس لأنها جُـدِّدَت وصُقِلَت وحـسـب، بـل أيـضًـا، وبـشـكـلٍ حـاسـم، لأنـهـا لا تمثّل تواريخها أتـمّ التمثيل. ولا شـيء آخر يمثّل تلك التواريخ. لـذلـك، ليس ثـمّـة طبيعة مسلمة أو سلافية، ثـمّـة فقط نزوعات إسلامية أو سلافية متجددة تعبر فضاء المجتمع من المركز إلى هذا المحيط أو ذاك، وبالعكس.

أمّـا بالنسبة إلى المنظمات غير الحكومية، فـإنَّ النزعة العاطفيّة المحلية التي لـدى أحسنها نيّةً تجاه المحليين تسوق هـؤلاء الأخيرين عمومًا إلى إحياء جماعات متخيّلة برعاية أشـدّ العناصر تخلّفًا. كذلك تعمل المنظمات غير الحكومية بتآلف مع القوى النابذة، أي مع الخصوصيات الاجتماعية الـتـي يمكن أن تـكـون جـاهـزةً، بـشـيء من الـدعـم والـرغـبـة الـخـارجـيـة، لأن تتحول إلـى خصوصيات سياسية. وهـذا بالطبع ما يخرّب أشـدّ التخريب مقتضيات النسيج الوطني المدني، إذا ما أُريـد أن يكون هنالك أي تطوّر اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي ذي معنى.

ينبغي ألّا نـكـون مستعدين لأن نـرحّـب بسيطرة المعارضة على بنى الـدولـة بـصـرف النظر عـن توجّهها وعواقبه المحتملة، أو أن نحتضن العدمية الديماغوجية المناهضة للدولة الرائجة جـدًا، لـدى إسلامويين خـارج السلطة، ولـدى منظمات غير حكومية، كما لـدى قوى العولمة الجديدة وقوى التكيّف البنيوي.◆

ترجمة: **ثائر ديب**





التعريف بسلافوي جيجك:
في الإيديولوجيا والثورة

دورين خوري

باحثة وناشطة في مجال حقوق الإنسان والبيئة والحريات مؤسسة هنريش بول. لبنان.

«يُفترَض بكل كتاب يصدره جيجك ان يضم دون ترتيب مسبق مناقشات لهيغل وماركس وكانط، ونوادر وتأملات من حقبة قبل الاشتراكية او من بعدها، وملاحظات عن كافكا الى جانب كتّاب واسعي الانتشار مثل ستيفن كنغ وپاستريسيا هايسميث؛ وإحالات الى الاوبرا (فاغنر، موتزارت)؛ ونكاتا من الاخوة ماركس وتفجرًا للبذاءات، بِرازية او جنسية؛ ومداخلات في تاريخ الفلسفة، من سپينوزا وكييركيغارد الى كريپكه ودينيت؛ وتحليلات لافلام هتشكوك او منتجات هوليوودية اخرى؛ واشارات الى احداث جارية؛ ومطارحات في نقاط غامضة من عقيدة لاكان وسجالات مع منظرين معاصرين متنوعين (دريدا، دولوز)؛ ومباحث في الفقه المقارَن واخيرا تقارير عن فلسفة المعارف وعن «اكتشافات جديدة» في طب الاعصاب»[١].

ينطوي هذا الوصف للمفكر الماركسي السلوفيني سلافوي جيجك من قبل فريدريك جايمسون، وهو مفكر لا يقل عنه مكانة، على افضل حصر للانتقائية والعصبية والتوهّج في أعمال جيجك من حيث الاسلوب والمادة. ليست النوادر والنكات والإحالات الى افلام ومؤلفات تنتمي الى التيار السائد غايات بذاتها، بل تخدم في تفسير مفاهيم فلسفية معقدة وفي ربطها بالحياة اليومية. وسوف تركز هذه الدراسة على نظريتين من نظرياته لهما دلالة مميزة هذه الايام: كيف تشتغل الايديولوجيات واعادة الصياغة لنظرية الثورة عند لينين.

١ Frederic Jameson, «First Impressions: The Parallax View by Slavoy Zizek», London Review of Books, vol. 28, no. 17, 7 September 2006, p.7.

سيرة مختصرة

ولد سلافوي جيجك العام ١٩٤٩ في ليوليانا، في سلوفينيا وقد كانت حينها مقاطعة في يوغسلافيا.

نال شهاداته الجامعية من جامعات بلدته وقد نال الدكتوراه في الفلسفة العام ١٩٨١ ثم زار باريس حيث زامل اكاديميين من تلامذة المحلل النفساني الشهير جاك لاكان ونال الدكتوراه الثانية العام ١٩٨٥ في التحليل النفسي من جامعة باريس الثامنة. بعدها عاد الى سلوفينيا حيث كان ناشطا سياسيا في المعارضة الديمقراطية لنظام تيتو. والمعروف ان سلوفينيا هي اول مقاطعة اِنفصلت عن يوغسلافيا بعد وفاة تيتو.

منذ ذلك الحين وطاقات جيجك موجهة نحو البحث العلمي والفلسفة. نشر اول كتبه بالانكليزية العام ١٩٨٩ بعنوان «موضوع الايديولوجيا الرفيع» وهو ينشر بغزارة منذ ذلك الحين بحيث جاوز انتاجه العشرين كتابا. الى جانب شعبيته ككاتب، جيجك محاضر واسع الجمهور. ولكن الاهم ان كل افكاره ونشاطاته مشدودة نحو هدف واحد: الامل في الثورة السياسية. هو مفكر ماركسي يستخدم التحليل النفساني لشحذ ادواته الماركسية النظرية. فالماركسية تهدف الى تحسين المجتمع والتحليل النفساني يهدف الى تحسين احوال مرضاه. ويرى جيجك الى التحليل النفساني على انه نظرية ترى الى اللاوعي على انه يقع دوما خارج الانسان، ويتجسد في الطقوس والممارسات. وهكذا يجد ان أهداف التحليل النفساني تلتقي اهداف الماركسية لأن كليهما يعيّن «الحيز الاجتماعي» على انه الحيز الاكثر فاعلية للتحليل بسبب توسطه بين السياسي والفردي.

ماركس وفرويد
او الحلم والشكل السلعي

أمضى جيجك الكثير من الوقت في تحليل وجه من ابرز وجوه النظام الرأسمالي: الشكل السلعي. وقد لاحظ هنا

ايضا التشابه الاساسي بين منهج ماركس التأويلي وبين منهج لفرويد خصوصا من تحليل الرجلين للشكل السلعي وللحلم.

اولا، يرفض كلاهما الانشغال الغالب في المضمون، اي في «السر» المخبأ وراء الشكل ويؤثر التركيز على سرّ الشكل ذاته. يتساءل فرويد مثلا لماذا ان فكرة حلمية كامنة تتخذ الشكل الذي تتخذه؟ ولماذا تتحول بحيث تتخذ شكل الحلم؟ مثله، لا يكترث ماركس كثيرا لتحديد قيمة السلعة من خلال كمية العمل التي يستهلكه انتاجها بقد اهتمامه في تفسير «لماذا العمل لا يستطيع ان يفرض طابعه الاجتماعي الا بواسطة الشكل السلعي لمنتوجه؟»[٢].

ثانيا، يرفض فرويد الفكرة القائلة إن الحلم مجرد اضطراب بسيط في عمل الدماغ لا معنى فعليا له، ويدعو إلى استبدال هذا القول بمقاربة تأويلية ترى الى الحلم على انه ظاهرة ذات معنى، على انها ـ الظاهرة ـ تبعث برسالة مكبوته ينبغي اكتشافها بالواسطة التأويلية. على نحو مشابه، يرفض ماركس القول ان قيمة سلعة تعتمد على مجرد الصدفة (كالتفاعل بين العرض والطلب مثلا) ويدعو إلى العمل على اكتشاف سر قيمة السلع[٣]. باختصار، يقول جيجك انه ينبغي ان نحلل ولادة الشكل السلعي ذاته، ولا يمكننا ان نرى الشكل في «نواته الخفية/المحتجبة»، ونتفحص المسار الذي بموجبه يكتسب المضمون المحتجب مثل هذا الشكل (المصدر ذاته ص ٣٠٠).

يعيّن جيجك شكلين من اشكال الصنمية. يحصل الاول في المجتمعات قبل الرأسمالية (الاقطاعية الاوروبية) حيث صنمية السلعة لم تتطور بعد لأن الانتاج لا يزال انتاجا طبيعيا لا تحكمه السوق. هنا تتسم العلاقات بين البشر بـ«السيطرة والعبودية» (ماركس). اما الشكل الآخر من الصنمية فيحصل في المجتمعات الرأسمالية حيث تسود صنمية السلعة. في الحالة الاولى الملك هو ملك للاسبب غير أن سائر البشر يرون أنفهسم في علاقتهم به. ويلقى الملك معاملة ملكية لان رعاياه يعتقدون انه ملك بغض النظر عن علاقتهم به. بمعنى آخر، ان الرعايا لا يدركون ان الملك بدونهم لن يكون الا مجرد شخص عادي ـ فهو لا شيء اذا ما وضع خارج شبكة العلاقات الاجتماعية[٤].

يشتغل المجتمع الرأسمالي بالطريقة ذاتها تقريبا، باستثناء ان الاشياء فيه تحلّ محل البشر. اننا نعتقد ان السلعه لها قيمة بغض النظر عن علاقتها بنا او بأي سلعة اخرى. في حين ان قيمة سلعةٍ ما لا يمكن التعبير عنها الا في علاقتها بسلعة اخرى، حيث تصير مساوية لها. ويعبّر جيجك عن هذا الاستبدال بقوله: «ان انسحاب «السيد» [الاقطاعي] في ظل الرأسمالية لم يكن الا انزياحا: فقد استُبدلت صنميةُ العلاقات بين البشر بصنمية العلاقات بين الاشياء (وهذا ما نسميه صنمية السلعة)».

وهكذا ففي المجتمع البرجوازي، يجري كبت علاقات السيطرة والعبودية. ففي الشكل الخارجي، البشر ذوات احرار متحررون من السلطة العلنية لحاكم استبدادي فرد. على ان الحقيقة المكبوتة (استمرار السيطرة والعبودية على نحو محتجب) تظهر عن طريق عَـرَضٍ هو صنمية السلعة. وقد قالها ماركس ببساطة «بدلًا من ان تظهر العلاقات الاجتماعية، في كل الاحوال، بما هي العلاقات المتبادلة في ما بين الافراد، تتنكّر هذه العلاقات الاجتماعية بين الافراد في شكل علاقات اجتماعية بين اشياء»[٥].

كيف تشتغل الاديولوجيا

يتساءل جيجك: «ما الذي نعنيه عندما نقول ان المرء يؤمن؟» ويضيف «هذا هو محور اعمالي كلها».

في كتاباته عن الايديولوجيا، يقدم جيجك مراجعة اساسية للتعريف الكلاسيكي للايديولوجيا يختصر بهذه المعادلة «انهم يجهلون عواقب اعمالهم ومع ذلك فهم يمارسونها»[٦]. والمعني ان البشر ينساقون بسذاجة مع مسار الرأسمالية غافلين عن كونهم مستغَلّين. يعتقد جيجك ان هذا التعريف الماركسي التقليدي للايديولوجيا يعبّر عن آليات تشغيل المجتمع، الا إنه لا يساعدنا كثيرا على فهم سلوك الافراد. ذلك ان الايديولوجيا تشتغل على مسارات الافراد الغرائزية والنفسانية فمن الاهمية بمكان ان نتوصل الى صياغة نظرية لتلك المسارات.

ينطلق جيجك من ان تعريف المفكر بيتر سلوترجيك للايديولوجيا «انهم يعرفون تماما ما هم فاعلون ومع ذلك فإنهم يفعلونه». هذا التعريف يقلب التعريف الماركسي التقليدي رأسا على عقب لأنه يؤكد ان الشكل الغالب للايديولوجيا ليس هو الوعي الزائف وانما هو التشكيكية او «مفارقة وجود وعي زائف لكنه متنوّر». يدرك البشر تمام الادراك انه توجد ايديولوجيا كونية غالبة تخدعهم، وتستغلهم، وما شابه، لكنهم لا يتخلّون عنها. فلسان حال الكائن المتشكك انه ما دام ان الاثراء والسرقة يحميهما القانون فلا جدوى من معاكسة السلطة[٧].

٢ Tony Myers, Slavoj Zizek, London، Routledge, 2003, p. 296.

٣ المصدر ذاته، ص ٢٩٩٠.

٤ المصدر ذاته، ص ٣٠٩.

٥ المصدر ذاته، ٣١٢.

٦ Zizek, Mapping Ideology, London, Verso, 1994، p. 312.

غير ان العقل التشكيكي لا يأخذ في الاعتبار أهمية «التخييل الايديولوجي»، اي المستوى حيث الايديولوجيا تتولى فيه تنظيم الواقع الاجتماعي ذاته[٨]. فيؤكد جيجك ان الوهم الايديولوجي لا يتم على مستوى الفكري او المعرفي بقدر ما يتم على مستوى الفعل. والسؤال، بعبارة اخرى، هو: اذا كان البشر يدركون انه لا يوجد شيء سحري بشأن المال وانهم على الارجح يتعرضون للاستغلال خلال عملية التبادل بين السلع والمال، فلماذا يستمرون في ممارسة هذا النشاط المجتمعي (اي في «الفعل»)؟[٩]. يجيب جيجك بهذه العبارة «انهم تميميون في الممارسة وليس في النظرية»[١٠]. والوهم التميمي كامن في عملية تبادل السلع بما هي نشاط مجتمعي، على ما يبيّن ماركس. ويضيف جيجك «ما الذي يجهله الناس هو ان واقعهم المجتمعي ذاته، نشاطهم، يسوقه وهمٌ، ويقوده إنقلاب تميمي». اي ان الناس عافلون عن الوهم الناظم لنشاطهم المجتمعي الحقيقي[١١].

يستخدم جيجك النادرة التالية للتمثيل على هذه الفكرة. يروي قصة عن العالم الدانماركي نيلس بوهر. يزوره صديق في منزله الريفي فيجد حدوة حصان فوق مدخل البيت، فيسأل الصديق بوهر ما اذا كان يؤمن بمثل تلك الخرافات. يجيبه بوهر «طبعا اني لست اؤمن بها. لست أبله»، فيأتيه السؤال: «ولكن لماذا تحتفظ بالحدوة؟». فيجيب «اني أحتفظ بها لأنها تفعل فعلها مع أني لا أؤمن بها». فيعلّق جيجك «هذه هي الايديولوجيا في أيامنا. لسنا نؤمن بالديمقراطية اليوم، نسخر منها، ولكننا بطريقة ما نتصرّف وكأنها تؤدي غرضها»، ولكننا اذا استقينا المفهوم الكلاسيكي للايديولوجيا، حيث الوهم يقع في ميدان المعرفة، سوف يبدو مجتمعنا المعاصر على انه مجتمع بعد ايديولوجي لأن ما من احد يأخذ الايديولوجيا على محمل الجد. غير ان البعاد التشكيكي هو في نهاية المطاف الطريقة التي بها نعمي أنفسنا عن «الطاقة التنظيمية للمخيّلة الايديولوجية»، ولكن حتى لو أبقينا المسافة الساخرة التشكيكية بيننا وبين الاشياء، فإننا لا زلنا «نفعلها»[١٢].

ما الذي نستطيع ان نتعلّمه من جيجك (ولينين) عن الثورة؟

يعترف جيجك بأن التزامه بلينين ليس ينسجم مع ما هو رائج هذه الايام لأن لينين يُعتبَر من مخلفات الحقبة السوفياتية، من حيث إصراره اللاهوادة فيه على الصراع الطبقي، وعلى الحزب بما هو الشكل الوحيد للتنظيم السياسي، ودكتاتورية البروليتاريا وطبعا على الثورة العنيفة[١٣]. لكن في ضوء الثورات العربية، تبيّن قراءةٌ لجيجك وهو يعيد فكر لينين، أن النظرية قد تصير واقعا أحيانًا، او انها تقدّم لنا مجموعة من العبر لا يجوز تجاهلها. وسوف اركّز هنا على ستة مفاهيم إما ان الثورات العربية قد أكدت جدواها وإما انها توفر تحوّطات مفيدة للمستقبل.

١. الامل في التغيير يقع في المستبعدين
(او البروليتاريا الجديدة)

اين يعتقد جيجك ان الثورة، او على الاقل لونا من التغيير الجذري، سوف تقع؟ وجوابه هو تعيين تناقضات كامنة في الرأسمالية الكونية تعوق اعادة الانتاج المتواصلة لرأس المال.

يعيّن اربعة تناقضات. الثلاثة الاولى تشكل خصخصة «المشاعات» حسب تعبير مايكل هاردت وانطونيو نيغري (اي المواد والفضاءات التي يتقاسمها جميع البشر): ١) الملكية الفكرية بما هي ملكية فردية، اوخصخصة «الاشكال التشاركية لرأس المال المعرفي» اي اللغة؛ ٢) الكارثة البيئية، او خصخصة الطبيعة الخارجية (عن طريق الابادة التدريجية للغابات والبيئات الطبيعة لاغراض استخراج الموارد)؛ ٣) علم التعديلات الوراثيات، اي خصخصة الطبيعة الداخلية، او الكيان الباطني للبشر.

اما التناقض الرابع فهو الشكل الجديد من التمييز العنصري الاجتماعي، نقصد الفصل الاجتماعي والجسدي بين «المستبعدين» و«المستوعبين» وابرز ما يظهر في المراكز المدينية حيث التواصل الفعلي بين مستوعبين ومستبعدين. في هذه الحالة، تجري خصخصة المجتمع الدولتي، اي المدى حيث تشتغل فيه الدولة، (والمقصود انه يجري حصره بعدد محدود من البشر) وُيرى الى المستبعدين على انه يشكلون خطر الانتهاك[١٤].

ان المستبعدين هم بروليتاريا ايامنا هذه «انهم الذوات التحريرية في نهاية المطالف... وهم اعضاء جماعة او دولة لكنهم لا يملكون مكانا محددا او هوية معيّنة داخل هذه او تلك»[١٥].

يرى جيجك ان الطاقة الثورية تكمن في هذه التناقض الرابع، ذلك ان التناقضات الثلاثة الاخرى يمكن تغليفها في مصطلحات حيادية سياسيا (حيث الكوارث البيئية تتحول

٧ جيجك، المصدر ذاته.

٨ المصدر ذاته، ص ٣١٤.

٩ المصدر ذاته.

١٠ المصدر ذاته ص ٥ ـ ٣١٤.

١١ المصدر ذاته، ص ٣١٦.

١٢ المصدر ذاته.

١٣ Slavoj Zizek, «A Cyberspace Lenin: Why Not?», International Socialism Journal, no. 95, Summer 2002, http://pubs.socialistreviewindex.org.uk/isj95/zizek.htm

١٤ Slavoy Zizek, «How to Begin From the Beginning», New Left Review, no. 57, May-June 2009, p. 54.

١٥ http://fillip.ca/content/the-day-after.

الى تنمية مستدامة، والملكية المعرفية الى مسألة قانونية، والتعديلات الجينية الى مسألة اخلاقية) فيمكن معارضها دون التصدي للتناقص بين المستوعبين والمستبعدين. فإذا ما عينّا تلك المسائل الثلاث بما هي ميدان النزال ضد الرأسمالية الكونية، فإننا نجانب التصدي للمسألة الرئيسية.

من هنا ان الامل في تغيير جذري يقع في المستبعدين، تلك الفئات الاجتماعية التي تفتقر الى موقع محدد «في النظام الخاص للتراتب المجتمعي». ولا يجوز الخلط بين هذه الفكرة عن المستبعدين وبين التعريف الديمقراطي الليبرالي للمستبعدين بما هم «الاصوات الاقلية» (اي جميع الاقليات الدينية والثقافية والجنسية المطلوب التسامح معها او حمايتها) وهو خلط يفقد التاقض طابعه السياسي ويحجب مضمونه التناقضي[١٦].

جيجك على حق، الى حد ما، في تعيين امكانية الثورة على انها صادرة عن المستبعدين. ففيما اقطار عربية مثل تونس وسورية تخلت تدريجيا عن انظمتها الدولتية وبدأت الانتقال الى اقتصاديات السوق، تفاقمت الانقسامات الاجتماعية وقد كانت اصلا عميقة. فإذا المواطنون العاديون، وقد كانوا يعانون اصلا من مصادرة نخب الانظمة لمؤسسات الدولة وتسخيرها لصالحها، اخذوا يواجهون التمييز الاجتماعي الذي يتحدث عنه جيجك. في سورية، كانت مناطق مثل درعا، حيث انطلقت الثورة، تنتمي الى الاطراف التي تعرضت لاهمال مديد من قبل الحكومة المركزية وقد فشلت في الاستثمار في تلك المناطق واطلقت يد بطانة النظام وزبانيته في الاعتداء على ثرواتها الطبيعية. في تونس، تركزت الاستثمارات في المدن الشمالية المحيطة بالعاصمة، فيما المناطق الطرفية، مثل سيدي بوزيد، حيث انطلقت الثورة، كانت مناطق مهملة وسكانها فاقدي الامل.

ولكن ما الخطوة التالية، اين هي نقطة القطع؟ كيف تنتقل هذه البروليتاريا الجديدة الى النمط الثوري؟ ليس يملك جيجك أجوبة دقيقة عن الكيفية التي تتم بها هذه العملية، ربما لأنه لا يأتي جواب عندما يكون المرء في معرض في التخمين عن الثورة قبل ان تندلع. ولكن جوابه يفيد: انه النشاط الجذري الخالص، الذي يسمّيه «الفعل». و«الفعل» يتضمن مجازفة كبيرة، التي يسمّيها «جنون القرار». وهي مجازمة لأنها «تغيّر على نحو استرجاعي كافة المعطيات التي تتدخل فيها»[١٧].

٢. «تنظر القطةُ الى أسفل، فترى ان لا ارض صلبة تحتها، فتسقط».

مقياس آخر من مقاييس الوصول الى نقطة القطع في الثورة يلقى افضل تفسير له في استعارة «غير لائقة» من مسلسل «توم آند جيري» الذي يصف الانفتاح المؤقت في بداية الثورة او الفوضى السائدة خلالها حيث لم يعد واضحا من هو في السلطة ومن هو خارجها.

«تعرفون انه في مسلسل الصُوَر المتحركة «توم آند جيري» غالبًا ما يوجد مشهدٌ حيث القطة تمشي فوق هاوية وليس الا الفراغ تحت قوائمها، لكنها لا تسقط. عندما تنظر الى تحت فترى ان لا أرض صلبة تحتها، إذذاك تهوي ساقطة. ان الذين في السلطة يجب ان يجدوا أنفسهم في مثل هذا الوضع لكي يسقطوا. الى وضع كهذا يجب ان ندفع بمبارك، بحيث يكون فوق هاوية وليس لديه ما يتمسك به»[١٨].

٣. «البدء من البداية» او تكرار الثورة

ان قانونا من قوانين لينين يكتسب جدوى استثنائية بل قدرة استشرافية لايامنا هذه، هي نصيحته الى الثوريين بأن «يبدأوا من البداية». والمقصود العودة الى نقطة بداية الثورة وعدم التشبث بالموقع الحصين الذي بلغته. أدرك لينين انه بعد المرحلة الاولى من الثورة، يصير من الضروري المجازفة بالانتقال الى المرحلة الثانية اي تكرار الثورة. فالمشكلة في المرحلة الاولى انها تحافظ على شكل السلطة القديمة، ويسود خلالها الظن بأنه يمكن بلوغ الحرية والعدالة بمجرد استخدام مؤسسات الدولة القديمة لاغراض ديمقراطية. اي ان انصار الثورة الاولى يريدون اسقاط النظام الرأسمالي باستخدام شكل الديمقراطية الرأسمالية. وكما يشير جيجك، تلك هي الحالة النموذجية لـ«نفي النفي» الهيغلي: «يجري نفي العهد القديم أولًا داخل شكله الايديولوجي – السياسي ذاته» ومن ثم يتعيّن نفي هذا الشكل ذاته. اما في المرحلة الثانية من الثورة (اذا ما قيّض لها ان تتحقق) فيجري اسقاط الشكل ذاته (اي مؤسسات الدولة). اما الذين يخافون ان يخطوا الخطوة التالية فإنهم يريدون «الثورة دون الثورة»![١٩].

يمكن التمثيل هنا بالتجربة التونسية بل بمسار الثورة المصرية ايضا والى حد ما. ففي حين جرى اسقاط النظام، وحلقته الضيّقة، ظل شكله على حاله تقريبا،

١٦ Slavoj Zizek, «How to Begin from the Beginning», New Left Review, no. 57, May-June, p. 55.

١٧ Zizek, Welcome to the Desert of the Real, p. 153.

١٨ تلفزيون الجزيرة، شباط ٢٠١١.

١٩ تجدر الملاحظة ان المسألة فيما يتعلق بالثورات العربية هي الشكل الاستبدادي للسلطة في مقابل الشكل الديمقراطي. Zizek, Cyberspace Lenin: Why Not?

وبقيت الحاجة لاجراء اصلاح جدي في مؤسسات الدولة من اجل تحقيق المزيد من الاستيعاب المجتمعي.

٤. تبرير الثورة بالثورة

الشرعية مسألة خلافية اخرى في الثورات. إذا اخترنا دعم الثورة فعلينا التخلي عن اي تعلّق بالديمقراطية الليبرالية لأن الثورة الحقيقية هي التي تحصل في حالة استثنائية دون شرعية. إن «الفعل» ينتج شرعيته بذاته[٢٠]. يلاحظ جيجك ان لينين ليس يعتقد بأن على الثورة ان تتأجل بسبب عدم نضج الطبقة العاملة او لأن غالبية السكان ليست تؤيدها. ان الثورة تجيز نفسها بنفسها، والثوريون ليسوا بحاجة الى إذن من «الآخر الكبير». وليس يحتاج الفعل الثوري الى تغطية من «الآخر الكبير» بل يسعنا القول انه يجري ضد فكرة «الآخر الكبير» اصلا. ذلك ان السعي الى الشرعنة يخفي «خوفًا من هاوية الفعل» يتستّر خلف القوانين والانظمة. وهكذا فانتظار نضوج «الظروف الموضوعية» للثورة يعني الانتظار الى الابد[٢١].

لفهم ذلك، علينا تغيير مفهومنا للدولة وان ننظر اليها من منظار المضطهدين، الذين يرون فيها اداة للسيطرة الطبقية وأداة للعنف بالتالي. وإن اشارة جيجك الى روبسبيير تفسر هذه النقطة بإيجاز حيث يقول «إن قتل الملك لا يلقى تبريره في البرهنة على ان الملك قد ارتكب جريمة ما، إن مجرد وجود الملك هو الجريمة عينها، هو اساءة لحرية الشعب»[٢٢].

ان الشعار الليبرالي الذي يقول ان العنف قد يكون ضروريًا أحيانا ولكنه ليس شرعيا ابدًا ينبغي قلبه رأسا على عقب، عندما يتعلق الامر بالعلاقة بين أجهزة الدولة والمضطهدين. عند هؤلاء العنف دوما شرعي («ما دام وجودهم هو محصلة عنف») ولكنه ليس ضروريا ابدًا[٢٣].

هكذا فإذا نظرنا الى الثورات العربية من هذا المنظار، نقول انه شرعي للمحتجّين أن يمارسوا العنف الدفاعي ضد الدولة. وهذا ما يصعب على البلدان الغربية فهمه، حيث يدان «العنف من الطرفين» (الثوار من جهة وأجهزة الدولة الأمنية والبلطجية والشبيحة من جهة اخرى) على الرغم من الأدلة الوفيرة على من هو المعتدي.

٥. التضامن الكوني

ولكن ما الذي يجري اذا ما استولى المستبعدون على السلطة؟ يقول جيجك في المقام الاول، علينا ان نؤمن بنوع من الكونية السياسية الاصيلة، بـ«التضامن النضالي» حيث تدرك مختلف الفصائل المعادية للرأسمالية، من النسويين الى البيئيين الى مزارعي العالم الثالث، ان نضالاتها المختلفة هي في نهاية المطاف نضال كوني واحد ضد رأس المال. وهذا التضامن الاصيل حيوي في ما يسمّى «عصر ما بعد السياسة» حيث جري خفض السياسة الى مجرد تنازلات تفاوضية ومعاملات ادارية.

واذا ما ربطنا ذلك بالثورات العربية، يقول جيجك ان هذه فضحت «مدى الرخص والتفاهة» في التعددية الثقافية (اي الاحترام المتبادل للثقافات) على طريقة الاونسكو، لأنه عندما يقاتل الشعب الطغاة، بغض النظر عن مصدرهم، فانهم يتضامنون فورا في ما بينهم. ان التضامن الكوني مبنيّ على النضال من اجل الحرية. يقول جيجك في مقابلة له على «الجزيرة»: «ما جرى في تونس، ما يجري الآن في مصر، هو تحديدا تلك الثورة الكونية من اجل الكرامة وحقوق الانسان والعدالة الاقتصادية: انها الكونية قيد التطبيق»[٢٤].

٦. «في توسيخ الايدي»

ان تكون لينينيا، في عرف جيجك، يعني ان لا تخشى من «توسيخ يديك». وبدلا من ان يكون ناقدا اخلاقيا للسلطة، ينبغي على اليسار ان «يقبض» على السلطة،يقول جيجك في مقابلة صحافية[٢٥]. بعبارة اخرى، على المحجتين عموما، ان يقرروا كيف يكونون ناشطين سياسيا. عندما اندلعت الاضطرابات ضد العولمة في اواخر التسعينيات من القرن الماضي، كان الاعلام الرسمي قد بدأ يحذّر من أن الماركسية قد عادت وأخذت تتلاعب بـ«المحتجين الابرياء». طبعا السؤال بالنسبة لجيجك هو كيف تحويل تلك الاتهامات الى وقائع، اي كيف تحويل تلك الاضطرابات وتلك الراديكالية الى بنية تنظيمية قادرة على عدم الاكتفاء بالتعبير عن مطلب سياسي، وانما قادرة ايضا على الاستيلاء على السلطة. دون هذه الخطوة الواجبة، سرعان ما تفقد الحركة المناهضة للرأسمالية زخمها وتصير مجرد «اضطراب هامشي». بعبارات اخرى، دون الشكل التنظيمي للحزب، سوف تكون لدينا سياسة دون سياسة وثورة دون ثورة[٢٦].

هذا وصف مناسب للمعضلة التي تواجه الآن المحتجين الشباب الذين شكلوا قاطرات الثورات العربية. فما ان تهدأ الاحداث، وتدخل الثورة المرحلة

٢٠ المصدر ذاته، ص ١٥٣.

٢١ المصدر ذاته.

٢٢ Slavoj Zizek, «A Permanent Economic Emergency», New Left Review, no. 64, July-August 2010, p. 89.

٢٣ جيجك، المصدر ذاته Slavoj Zizek, «The One True Measure of Love is: You Can Insult the Other», Spiked Culture, 15th November 2001: http://www.spikes-online.com/Articles/00000002D2C4.htm

٢٤ الجزيرة، شباط ٢٠١١.

٢٥ Jonathan Derbysgire, «Interview with Slavoj Zizek», The New Statesman, 29 October 2009.

٢٦ Zizek, A Cyberspace Lenin: Why Not?

الاولى حسب تسمية لينين (وهي في هذه الحالة مرحلة الانتقال الى الديمقراطية) يجد المحتجون الشباب أنفسهم دون دورٍ او هوية، واذا هم عاجزون عن ممارسة نفوذ يُذكَر فيما احزاب المعارضة التقليدية (مثل النهضة في تونس والاخوان في مصر) وفلول الانظمة تستولي على المشهد السياسي وتدير عملية الانتقال حسب مصالحها. ان غياب اي بنية تنظيمية للثوريين، وفي حالات عديدة ممانعتهم تكوين مثل تلك البنى التنظيمية، مثّل نقطة ضعف رئيسة لم يبدأ الاعتراف بها إلا في الآونة الاخيرة. والسؤال الاساس هو: هل ان الشباب الثائر سوف يكتفي بمجرد تنظيم احتجاجات جماهيرية ضد مؤسسات السلطة، ام تراهم يريدون الانتقال الى المرحلة الثانية، وبدء المعركة من اجل تسلم السلطة؟ وهل هم مستعدّون لتلك المعركة؟

في محصلة الامر، جيجك براغماتي جدا في ما يتعلق بمآل الثورات العربية. هذا ما يقوله عن مصر: «ان رد الفعل الغالبة على الرأي العام الغربي تجاه التحالف بين الاسلاميين والجيش سوف يكون بلا شك استعراضا ظفراويا للحكمة التشكيكية: سوف يقال لنا انه في حالة ايران، تنتهي الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية دومًا بظهور الحركات الاسلامية الجهادية. وسوف يبدو مبارك الاقل سوءا بين شرّين، فيقال انه خير لنا ان نبقي على قديمنا على جديد لن يدوم لنا». لكنه يظل متمسكا بالامل إذ يختم: «ضد مثل هذه النزعة التشكيكية، يجب ان يبقى المرء وفيًا وفاء غير مشروط للنواة التحررية الجذرية التي تنطوي عليها الانتفاضة المصرية»[٢٧]. ◆

٢٧ London Review of Books, August 2012.



الرغبة والمرح في كتابة العلوم الاجتماعيّة

الطاهر لبيب

كاتب وأستاذ في العلوم الاجتماعية. قدّمت هذه «الشهادة» لندوة «مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي»، المنعقدة في وهران/الجزائر ١٠-١٢مارس/آذار ٢٠١٢.

قد تكون في شهادتي مجازفةُ التركيز على ما يبدو بعيدًا عمّا يُنتظر من «شهادة باحثٍ». ومهما كان الأمر، فلا أقربَ إليَّ ولا أَوْلى بالذّكر من تلقائية الميلِ، عندي، إلى الحميميّ في العلاقة بالمعرفة. في حدود هذا الميلِ، لا أبعدَ منه، أكتفي بلمسات رسمِ تقريبي لِمَلمحيْن متلازمين جرت العادة على إبعادهما عن مَتْنِ المعرفة العلميّة: المتعةُ والكتابة.

وتجنّبًا للردود «المحصِّنة» للبحث، أشير، بدءًا، إلى أن تجربتي تدريسيّةٌ، أساسيًا. لا أدري إن كنتُ باحثًا، يومًا ما، في موضوع ما. وإذا صادف أن كُنتُه ففي حدود المتعةِ. ولمّا كانت المتعة من جهة الكتابة، أولًا، فهي في «لـذّةِ النصّ»، أولًا. ليس للواجب ــ ومنه واجب المهنة ــ دخلٌ في هذه المتعة، إذ هي أقرب إلى الخروج منه، إن لم تكن خروجًا عليه، غالبَ الأحيان. كلُّنا مع الواجب، قيمةً نمدحُها وأداءً نفتخِر به. شخصيًا، لا أتحمّله، في المعرفة، من دون متعتِه. وإذا كان التدريس قد منحني الإحساسَ بالجمع المُريح بين الواجب والمتعة، فالبحث لم يمنحني ذلك إلاّ استثناءً، في ما نَدر من محطّاته. ذلك الشحُّ، لا ضيق الوقت أو الوسيلة، هو ما جعلني مُقِلاً في البحث، ومُمتعضًا ممّا كان منه تحت الطلب. طبعًا، كانت لي لحظاتُ الواجبِ المؤدلَج، وهي لحظات لا يُعتذَر عنها، كما لا يُعتذَر على وعيٍ سابق. ما يهمُّ منها، في السياق، أنّ أقرب ما بقي إليَّ منها صياغتُها: صياغةٌ آنسُ بما فيها من حميميّةِ الحنين إلى حبٍّ أوّل: الأدب.

هكذا، إذا صادف أن كنتُ باحثًا، يومًا ما، فليس لأنّي بحثتُ بل لأنني ظننتُ أنّي كتبتُ. نزوةُ الكتابة تلك يُضاف إليها انعدامُ قناعتي بأنّي من المتخصصين في فرعٍ أو غرضٍ من فروع علم الاجتماع وأغراضه. لقد شاء تقاطعُ الصّدفة والرغبة أن يتسلّل تكويني إلى مناطق من التداخل لا أرتاح إلّا فيها. كيف أُصنِّف، والحال هذه؟ لا أدري، ولا حرص عندي، على التصنيف. ولو كان لي طموحٌ في هذا لكانَ أنْ لا أُصنَّف، جريًا مع المزاج الذي هو شرطُ المتعةِ.

مهنيًّا، وإذًا إجرائيًّا، أنتسِب إلى علم الاجتماع، ولكنّي لستُ واثقًا من امتثالي لما ساد من شروط هذا الانتساب وطقوسه. وليس ذلك من جهة ما نشترك في معرفته وتعليمه من نظرياتٍ ومقاربات ونصوص ومراجع، وإنّما هو من جهة ما يُسمّى عَرْضًا، على وجه الإجمال، وكتابةً، على وجه التخصيص. ما أسمّيه عدمَ امتثال للشروط والطقوس هو، تحديدًا، ذلك الإصرارُ على إخضاعِ مواضيع صمّاء لصياغةٍ تلبّي الرغبةَ في الكتابة.

لكلٍّ منّا مسارهُ، لكل منا شهادتُه. وما يستوقِفنا ليس بالضرورة ما تتقاطع فيه مساربُنا، فذلك من عموم التجارب. من منّا لم يُعطِّل أو يَبتُر طموحَ جهدِه ومردودَ طاقته غيابُ الحريات، وحتى إقامة الحدّ على علمه، في السياسة أو الدّين؟ من منّا لم يشتكِ من غياب السياسات ومن تدنّي المستويات في البحث والتعليم؟ من منّا لم يُشكّك في مدنيّة معرفةٍ ينسجها التمويل في المجتمع المدني العربي؟ من منّا لم يشعر باليُتم، في غياب مجموعة علميّة ذات سلطة معرفيّة؟ هذه أسئلة، ومثلها كثير، تتقاطع فيها خيباتُنا وأسئلتُنا وما توفّر من أجوبتنا. وراء هذا التقاطع يبقى الحميميُّ، ولكلٍّ منّا نصيبُه منه، في علاقته بمعرفتِه. نصيبي، كما أراه، هو رغبةٌ، مكبوتةٌ إجمالًا، في متعةٍ تأتي من الكتابة. تدقيقًا: تأتي من كتابة رغبةٍ في الكتابة.

الحميميُّ، في هذا المعنى، هو خارج ثنائيّةِ الموضوعي والذاتي المسطّحة والمكرورةِ في خطابنا. ذلك الموضوعيّ المكمَّمُ بالكميّ، المسكونُ بالهوس التقني والمنحسرُ فيه جهد البناءِ النظريّ، أنتجَ أطنانًا عربيّةً من البحوث ــ

أغلبها ميدانيّ ــ لم يَعد لها ذكرٌ. قد يكون ذلك لظرفيّتها، أو لرداءتها، أو لبداهة أو سذاجة فرضياتها ونتائجها، ولكن قد يكون أيضًا لِقصَرٍ في صياغتها. وهي، عندئذ، تُطالَعُ، إن كانت حاجةٌ إليها، ولكنّها لا تُقرأ، أي لا تُمتِعُ.

من الواضح أني لا أضع المشكل ولا مصدر الكبت السوسيولوجي في العجز عن إنجاز بحثٍ، وإنما في العجز عن كتابته. لهذا الكبتِ وسائلُ تخفيفٍ، منها التصعيدُ الشَفوي، كما هي الحال في التدريس، ومنها الهروب إلى مجالات ومواضيع مُطيعةٍ، إذ المجالات بعضُها من قبيل الخامات والأشكال غير القابلة للكتابة أصلًا: إذا كان الكثير من البحوث فيها كلُّ شيءٍ ما عدا الكتابة أو ليس فيها إلّا المنهجُ، على حدّ تعبير رولان بارت، فإنه كلّما كان الانتقالُ من المادّة الخام إلى التأويل، فإلى الخطاب على الخطاب، اتّسع المجالُ للمجاز، فاتّسعت العبارةُ للكتابة.

أعرفُ أن المسافة بين البحث والكتابة لا تشغل بال الكثيرين من أهل العلوم الاجتماعيّة، وأنّهم قد يرون فيها مسافةَ هروبٍ أو تسيّب. وهم، في ذلك، يستندون إلى ما تميّع وسادَ من خطاباتٍ لا تقوم على معرفةٍ أو هي لا تحتاج إليها. وليست الكتابة من هذا في شيء، إذ هي، اختصارًا، دقةُ المعرفة حين تصاغ جماليًّا.

إنّ القصد من هذه الإشارة تذكيرٌ بأنّ العلوم الاجتماعية العربيّة تحاشت طرحَ مسألةِ العلاقة بين البحث والكتابة. وهي لو طرحتها لعرَّت ما وراءها من أوضاع وأحكام: أعمُّ الأوضاع وأصعبُها بؤس اللغة، وهي هنا العربيّة، في ما آلت إليه من حال. أما الأحكام فمنها المعهودُ من اعتبار الصياغة من شكليات البحث، لا من صُلبه أو نسيجه، ومنها المعهودُ أيضًا من اعتبار اللغة مجرّد حاملٍ للمضمون أو مجرّد وسيلة للتعبير عنه. في الحالتين، يُنسى أثرُ الصياغةِ على المضمون، كما يُنسى أنّ الصياغات الشهيرة، كصياغات نيتشه مثلًا، لم تكن بحثًا عن البلاغة، لذاتها، وإنما كانت سَندًا للتجاوز في المعرفة الفلسفيّة وتثويرًا لها.

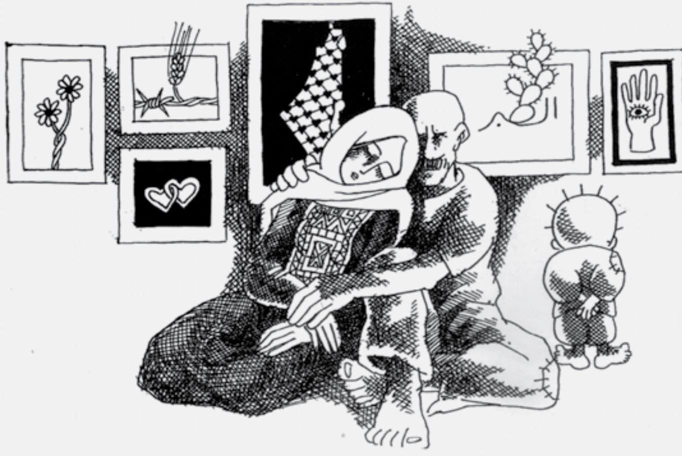
الدعوة إلى جمالية العلوم الاجتماعيّة ــ ولنقلْ إلى تجميلها ــ ليستْ جديدة، خارج الفضاء العربي. في السوسيولوجيا، مثلًا، نقاشٌ لم ينقطع، منذ بداية القرن العشرين، منذ جورج زِمّلْ على الأقل، حول علاقة المضمون بالشكل، لا في مدلوله الشكلي بل في معنى الشّكل المشكِّل وهو نقاش لو استعملنا القياس في سحبه إلى سياقنا، لظهر فيه هاجسُ التعبير، بما هو عاملُ تشكيلٍ للواقع، كما يُبنى في النصّ. وإذا عُرِّب هذا الهاجس أصبح مرعبًا لأنّ فحوى القول متباعدٌ عن شكل القول.

أقول هذا من دون أن تغيب عن ذهني نصوصٌ مؤسّسة في العلوم الاجتماعية العربية، منها ما جمع بين صرامة التحليل ورقّة الصياغة. هذا مشرقًا ومغربًا، وإنْ تميّزت في ذلك، بين الحالات المعاصرة، حالة المغرب الأقصى حيث هذا الجمعُ أوسعُ ما يكون، عربيًّا: من كبار الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع من صاغ معرفته بدقةٍ وجمال وأبدع في الأدب، بدءًا بالرواية.

هل تحتاج الدعوة إلى جمالية العلوم الاجتماعية العربية للمزيد من التبرير؟ إن كان الأمر كذلك ــ والمبررات كثيرة ــ أكتفي بمشهدين وتمنّ واحد:

المشهد الأول مشهد علم اجتماع عربي قاتم، ثقيل الظلّ، إذا قُرئ ظُنّ أنّ مجتمعاتنا ليست إلاّ نسيجَ مِحنٍ وشقاء، لا وجود فيها لناسٍ يبدعون ويحبّون ويفرحون ويأملون أو يرفّ لهم وجدانٌ لجمال الكون. لكأنَّ علم الاجتماع العربي كآبةٌ أو لا يكون. الأمثلة؟ صورة امرأة لا تكون، في بحوثنا، إلاّ مضطهدة، معنَّفة، محرومة، مطلقة، معطّلة.. وصورةُ شباب مائع، ينهش «قيمنا الخالدة» ولا يُتوقّع من «رهطه» أن يشحن، يومًا، ثورةً. من أسباب ذلك ما له أصلٌ في نشأة علم الاجتماع العربي نفسها، إذ في الأصل ربطٌ مؤسسيّ بين المعرفة السوسيولوجية وحلِّ المشاكل التي طرحها بناء الدولةِ الوطنيةِ. عالم الاجتماع نشأ «حلّالَ مشاكل» ولا يزال يُنظر إليه على هذا الاساس، وُيطلب منه الافتاءُ في كلّ شيء.

المشهد الثاني، مرتبطًا بالأول، هو فقدان التهوئة المعرفية والجمالية. مقاومةُ ما يُعتبر، على وجه التّمدرس، خارجًا عن الاختصاص، حال دون الانفتاح على مواضيع ومقاربات ثريةٍ وذكية. قد يكون في الأصل غيابُ حبيّن: الأدب والفلسفة (غيابٌ ملأه تسولُج الأدب والفلسفة أكثر مما ملأه «تأدّب» السوسيولوجيا وتفلسفها) وهو، اليومَ، غياب مرجعياتٍ ـــ من نوع زمّلْ وبارت وحتى غيرتس، إلى حدٍّ ما ـــ لا يكاد يذكرها إلا المارقون، أو ذوو النزوات من السوسيولوجيين العرب. أما التمنّي فأن يرسم الجمال، في المعرفة، للمعرفة، «معرفةً مرحة» بين سابعة السماوات وتضاريس الأرض. وإذا تطلّب ذلك مروقًا أو نزوةً فليتزايد، بين العرب، عدد المارقين وذوي النزوات في العلوم الاجتماعية، وليكن شعارهم إنقاذ ما أمكن منها بالجمالية، موضوعًا وتعبيرًا.◆



احذروا عرب اسرائيل!

رياض بيدس

روائي وقاص وناقد: شفا عمرو، فلسطين. من اعماله «الجوع والجبل» (١٩٨٠) «باط بوط» (١٩٩٣) «حكاية الديك الفصيح» (٢٠٠١) تصدر له قريبًا مجموعة قصصية بعنوان «المحو».

احذروا عرب إسرائيل لأنّهم يزدادون تطرّفًا.

احذروا عرب إسرائيل لأنّهم يزدادون عددًا.

احذروا عرب إسرائيل لأنهم يزدادون ضيقًا في بلداتهم الشبيهة باقفاص الدجاج.

احذروا عرب إسرائيل لأنهم بسبب أراضيهم التي صودر معظمها، صاروا يبنون بيوتًا كسحاحير الباذنجان، بعضها فوق بعض، ويتقاتلون على كل شبر أرض (طبعًا هذا فجع وشراهة).

احذروا عرب إسرائيل، لأنّهم يزدادون ثراء.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يزدادون ثقافة وتطورًا ووعيًا.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يزدادون تساؤلًا حول حياتهم ومصيرهم ومستقبلهم (أسئلة صعبة معقدة من السهل الاجابة عليها في فرنسا أو بريطانيا، لكن يصعب الاجابة عليها هنا للحساسيات الكثيرة).

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم كما يبدو قد نسوا تجربة الحكم العسكري المخيفة.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يزدادون فقرًا.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يقتنون كلابًا شرسة غير مطعّمة صحيًا.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون المناقل والمشاوي والتبولة والكبة النيئة والعرق اللبناني طيب المذاق.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم لا يحبون أكلة الحمص المعلبة التي احضرناها معنا من بولندا وروسيا، ويفضلّون عليها حمّص البيت وفلافل دكاكينهم وبيوتهم (أكلات كثيرة لطشوها منا وصاروا يعدونها في بيوتهم، مثل القرع وورق الدوالي والكوسا والمحمّر والمدفونة مع السمك والكثير الكثير من المآكل الاخرى).

احذروا عرب إسرائيل، لأن نسبة البطالة عالية بينهم.

احذروا عرب إسرائيل، لأن اولادهم يذهبون إلى المدارس، ويتعلمون ويحلمون بمستقبل زاهر.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون الأعراس والرقص الشرقي والغربي، ويحطون ما فوقهم وتحتهم وقد يستدينون من أجل حفلة عرس قدّ المقام، تصدح موسيقاها الى آخر الدنيا.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم منفتحون اجتماعيًا ويحبون الناس ويكرهون الغرف المغلقة ويرددون دائمًا «الجار قبل الدار» و«الجار جار ولو جار» و«نام يا جاري بخير»، وغيرها (مما يبعث على الراحة والاطمئنان، أن هذه بقايا ثقافة فلاحية في طريقها الى الزوال والاندثار).

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يشتغلون كل الاشغال السوداء في البلاد (يجب ان نعترف بانّنا نحاول منذ سنين ان نجد حلًا للمشكلة باستحضار الايدي العاملة الاجنبية الرخيصة، لكنّنا واجهنا مشكلة عويصة وهي ان بعض العاملين الآسيويين، سامحهم الله، يحبون لحوم القطط والكلاب لكن تأكدوا أنّ هذه المشكلة في طريقها إلى الحل).

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون البيض المقلي بقلايات الفخّار وزيت الزيتون.

احذروا عرب إسرائيل، لأنّهم يحبون استعمال صابون الزيت الأصلي.

احذروا عرب إسرائيل، لأنّهم يحبون الارض والزراعة والفلاحة، مع أن أغلب أراضيهم طارت كأنّ شيئا لم يكن.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون الزيت والزيتون والعلت والخبيزة، وما تنبته الارض من حشائش في

موسم الربيع (منعنا قطف الزعتر من الطبيعة وزرعنا نحن زعترًا، لكن الكثير منهم يحبون مذاق الزعتر البري الحريف، بالذات حنظلة الذي ينتظر الموسم دائمًا بفارغ الصبر ليحوّش مؤونته).

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون النرجيلة («الووتر بايب» يعني)، ويحبون الحكي والدردشة لقلة النشاطات في بلداتهم شبه الميتة، حيث لا يوجد هناك سينما أو مسرح أو حدائق عامة.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يملون أحيانًا ويضجرون ويزهقون ويغضبون ويحتدون.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم أحيانًا يمرضون ويذهبون إلى كوبات حوليم، وصناديق المرضى الأخرى.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يولدون ويعيشون ويشقون ويتعبون ويلهون ويكبرون ويهرمون ويموتون.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون المناقل والمشاوي والتبولة والكبة النيئة والعرق اللبناني طيب المذاق.

احذروا عرب إسرائيل، لأنّهم يحبون الحياة والضحك والمرح، حتى في بلداتهم الضيقة التي يموت فيها الضجر من شدة الضجر.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يخافون ويقلقون ويحرصون على حياتهم وحياة الآخرين.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يصرخون احيانًا من قحف رؤوسهم من شدة الألم.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يعرفون العبرية، وقلة منا تعرف العربية.

احذروا عرب إسرائيل، لأن بعضهم في الصيف يحب النوم في الهواء الطلق على سطوح البيوت.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم في عصر الانترنت والتلفزيون والصحافة «وواقع اللاواقع»، لا يزالون يعشقون الطبيعة ويتغنون بها.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون المسلسلات السورية، وينتظرون أعمال نجومهم المفضلين، بسام كوسا وياسر العظمة وأيمن زيدان، الجديدة بفارغ الصبر.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون الشقراوات الجميلات.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون الضيوف والاستضافة، ولا تزال بيوت كثير منهم مفتوحة، والضيف يعني لهم كثيرًا (إلى حد ما. وهذا محدود الضمان).

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يشاهدون أخبار الفضائيات العربية التي صارت مثل الهمّ على القلب.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون فيروز وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وعبد الوهاب وزياد الرحباني.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم حاضرون ومغيّبون.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم ليسوا فلسطينيين تمامًا، وليسوا إسرائيليين تمامًا، وليسوا تمامًا تمامًا، وهم بيننا وليسوا بيننا، وهم معنا وعلينا ويتحرّكون بيننا، وهم ينظرون الى أماكننا كما لو كانت مثل بُرَك سِباحة جميلة جدًا ما رأوا مثلها من قبل ويودون السباحة فيها معنا لولا القوانين المكتوبة وغير المكتوبة المعلنة وغير المعلنة التي تمنع ذلك، لهذا يعانون من مشكلة هوية وانتماء حادين جدًا.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم يحبون الأطفال وينجبون كثيرًا، وهذه البلاد صغيرة جدًا.

احذروا عرب إسرائيل، لأنّ علاقتهم بالارض والـ«نوف» أقوى منا.

تفاصيل صغيرة، لكن الشيطان يكمن في التفاصيل الصغيرة، كما يقول أصدقاؤنا الاميركيين.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم أحيانًا يحلمون.

احذروا عرب إسرائيل، لأننا مع الوقت صرنا نكتشف أنّهم بشر مثلنا لولا أنّهم عرب فلسطينيون.

احذروا عرب إسرائيل، لأنهم كالشوكة في الخاصرة.◆

(يستطيع القارئ أن يضيف، يزيد، ينقص، يمحو، ويغيّر ما يشاء وما يراه مناسبًا إلى هذه القائمة) (٢٣ آذار ٢٠٠٧)



الرفيق أحمد فارس الشدياق

اللامع الناقد الفاسق الساخر الاباحي الاشتراكي

ولد فارس الشدياق العام ١٨٠٤ لدى اسرة مارونية من الوجهاء في جبل لبنان. شارك ابوه واخوته في العامية الشعبية ضد الامير بشير ١٩٢١ فهجّرت الاسرة واضطهدت، ومات الوالد في دمشق. إعتنق اخوه أسعد المذهب البروتسطانتي فحبسه البطريرك الماروني في دير قنوبين، حيث توفي. فغادر فارس البلاد الى مصر بتشجيع من المرسلين الانجيليين.
خلال منفاه الذي لن يعود منه حيا، جال فارس البحر الابيض المتوسط طولا وعرضا في دورة مكتملة. عاش في مصر برهة من حياته وفيها درّس المرسلين البروتسطانت اللغة العربية، ودرس هو اللغة والفقه عند شيوخ الازهر، وتزوّج من ابنة اسرة شامية. ثم عاش ١٤ سنة في مالطة، حيث ادار مطبعة المرسلين الانجيليين ودرّس في كلية فاليتا. استدعي الى بريطانيا حيث ترجم كتاب الصلوات والكتاب المقدس. زار باريس وعاش فيها حياة حرية ومجون وابداع حيث الف فيها رائعته «الساق على الساق فيما هو الفارياق ». ثم زار تونس بدعوة من الباي الاصلاحي احمد باشا التونسي. وفي تونس اعتنق الاسلام. واستقر اخيرا في الآستانة حيث أمضى باقي ايامه. عيّنه السلطان في ديوان الترجمة السلطاني وأصدر «الجوائب» اول جريدة عربية في السلطنة العثمانية وتفرّغ لتحرير ونشر روائع التراث العربي. توفي في ايلول ١٨٨٧ ولما وصل جثمانة الى بيروت تنازع رجال الدين المسيحيين والمسلمين في من يصلي عليه واين يدفن. حتى أقر الرأي بأن يصلّى عليه في الجامع العمري الكبير بحضور رجال دين مسيحيين، ودفن في ضريح يعلوه الهلال في الحازمية في مدفن الباشاوات العثمانيين المسيحيين الذين حكموا لبنان زمن المتصرفية (١٨٦١ ـ ١٩١٥). من مؤلفاته في اللغة نقده «القاموس المحيط» للفيروزبادي في «الجاسوس على القاموس» (١٨٨١) و«سر الليال في القلب والابدال» (١٨٨٤). وفي السيرة وأدب الرحلات «الواسطة في احوال مالطة » و«كشف المخبا عن فنون اوروبا» (١٨٦٣). هذا هو احمد فارس الشدياق الذي تكنى بابي العباس، الحر، العاصي، اللامع، الساخر، الفاسق، الاباحي، النسوي، الاشتراكي. وهذه بعض المشوّقات من سطوره تشجيعا على المزيد.

كتاب

الساق على الساق في ما هو الفارياق

او

ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام

تاليف العبد الفقير الى ربه الرزاق فارس بن يوسف الشدياق

تاليف زيد وهند في زمانك ذا اشهى الى الناس من تاليف سفرين
ودرس ثورين قد شُدّا الى قَرَن اقنى وانفع من تدريس حبرين

طبعه بنفقته العبد الفقير الى رحمة ربه الموقّى رافائيل كحلا الدمشقي

وذلك في مدينة باريس المحمية سنة ١٨٥٥ مسيحية ١٢٧٠ هجرية

LA VIE ET LES AVENTURES

DE FARIAC

RELATION DE SES VOYAGES

AVEC SES OBSERVATIONS CRITIQUES

SUR LES ARABES ET SUR LES AUTRES PEUPLES

Par FARIS EL-CHIDIAC

PARIS

BENJAMIN DUPRAT, LIBRAIRE DE L'INSTITUT,

DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPERIALE, DES SOCIÉTÉS ASIATIQUES DE PARIS, DE LONDRES, DE MADRAS ET DE CALCUTTA, etc.

Rue du Cloître-Saint-Benoit, n° 7.

1855

١◆ حرية



في حرية المعتقد والرأي

[الى بطريرك الموارنة احتجاجا على اعتقال أخيه أسعد بسبب اعتناقه البروتسطانتية ووفاته في الحبس في الكرسي البطريركي بقنوبين]:

«... ما كان لهم عليه من سلطان ديني ولا مدني. اما الدين فإن المسيح ورسله لم يأمروا بسجن مَن كان يخالف كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط. ولو كان دِين النصارى نشأ على هذه القساوة الوحشية التي إتصفتم بها الآن أنتم رعاة التائهين وهُداة الضالين لما آمن به احد... ولم يكن دأبهم الا الحض على مكارم الاخلاق والامر بالبِر والدعة والسلم والأناة والحلم. فإنها هي المُراد من كل دين عُرِف بين الناس. واما المدني فلأن أخي أسعد لم يأت منكرًا ولا ارتكب خيانة في حق جاره او اميره او في حق الدولة. ولو فعل لوجب محاكمته لدى حاكم شرعي. فإساءة البطرك اليه انما هي اساءة الى ذات مولانا السلطان. لأننا جميعا عبيدٌ له مستأمنون في امانه وحكمه ... وهِب ان اخي جادل في الدين وناظر وقال انكم على ضلال فليس لكم ان تميتوه بسبب هذا.

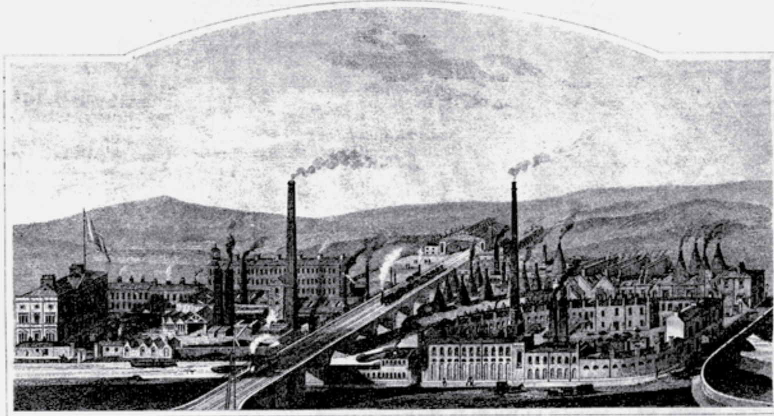
وانما كان يجب عليكم ان تنقضوا أدلته وتدحضوا حجته بالكلام او الكتابة اذا أنزلتموه منزلة عالِم تخشون تبعته، وإلا فكان الاولى لكن ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك... وكأني بكم معاشر السفهاء تقولون إن إهلاك نَفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة مَحمدةٌ يندب عليها. لكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم ان الاضطهاد والإجبار على شيء لا يزيد المضطهَد وشيعته الا كلفًا بما إضطهد عليه» (الساق ١٨٨ ـ ٨٩)

ضد التمييز

«فإن رأس الفقير ليس بأضيق ولا أصغر من رأس الامير عن ان يشتمل على اراء سديدة مما يخلو عنه رأس غيره وإن يكن اكبر عمامة منه وأغلظ قذالا. وكيف ترجو ان تكون السيدة وبناتها ذوات رشد ودراية وهن مقصورات في الدار العامرة؟ وأنتم يا سادتي الحكام والمشايخ والكبراء والمطارنة جربوا مرة ان تجتمعوا بأهلكم وأزواجكم مع اهل جيرانهك.. وان ترفعوا فرق المذاهب من بينكم فذلك ادعى لكم الى الحظ والسرور. ...إعلموا هداكم الله ان فرق الآراء في الاديان لا يمنع من الألفة والمخالّة» (الساق ٤٧٤)

الرهبان

«واني لأعجب من هؤلاء الرهبان فإنهم معما هم فيه من الوحشة والحرمان فما احد منهم نبغ في علم او مأثرة. ولو كنتُ راهبًا لملأت الدَير نظما ونثرا وألّفتُ على العَدَس وحده خمسين مقامة» (الساق ٤٦٧)



العمل والتمدّن

«لا لذة في العيش الا في العمل» (الاعمال المجهولة: ١٣٤).

ــ «العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر»

ــ «يكون التمدن عند الذين ليس عندهم صنائع أنكى واضرّ وأدهى وأمرّ».

يقارن بين الفرنساويين والانكليز

«ان الجيّد من الانكليز خيرٌ من الجيّد من الفرنسيس. والرديء من هؤلاء خير من الرديء من اولئك». واما من حيث الفئات الاجتماعية، فهو يؤثر عامة الفرنسيس وخاصة الانكليز الذين يجدهم «الأجلّ والأمثل» بين الاوروبيين قاطبة (كشف المخبا، الاعمال المجهولة: ١٨٥)

نساء فرنسا والازياء

«انهن يرين التقليد في الحب والزي معرّة فكل واحدة منهن تجتهد في فنّها حتى تصير قدوة لغيرها. اما في الزي فمنهن من تقبّب صدرها بقدر ما تقبّب نساء الإنكليز بتائلهن. ومنهن من تتخذ لها قبّتين في قُبل ومن دبر. حتى تكون إذا مشت عائقةً آستاتها ومواجهها. وكشف الساق لإبراز الحَماة ونظافة الجوارب مطرّد لهن». (الساق: ٦٢٤)

في إبراز الادبار

«وبعد فان الدُبُر هي من الاشياء التي طالما عُني الناس بتفخيمها وتكبيرها وتعظيمها حسًّا ومعنى... ثم ان من اهم ما يشغل بال المرأة ويسهِرها الليالي، هو ان تفتن ناظرها بتفخيم ذلك الموضع الرفيع العالي. وربما لهِيَتْ عن وجهها وسائر جسدها وغادرته بلا زينة من فرط إستغلالها به ولو تضمَّر وجهُها وذَوَتْ غضاضةُ بدنها لمَرَضٍ او كِبَر فقَلّ اعتمادها على محاسنها لم تبرح معتمدة عليه ومتعهدة له. فهو عندها رأس مال الخَلب والتشويق وما من امرأة الا وتتمنى أن يكون لها عينٌ في قفاها لتكون ناظرة اليه ومتعهدة له دائما... وانها حين تنظر الى عطفها وهي ماشية او راقصة فما هو الا رمز الى ما وراءه. وإن تَهَدْكُرها وتَبَهْكُنها هما أنشب مِصلاة يعلق بها قلب الرجل...» (الساق: ٤٢٨)

مقاهي باريس

«وغاية من يقال في التنويه بباريس وفي تفضيلها ان فيها مواضع للشراب والقهوة ظريفة يجلس داخلها وخارجها الرجال والنساء متقابلين او متدابِرين. فهل لمجرد القعود على كرسي يُحكَم لها بالفضل وتشهر عند الخاصة والعامة من أعصر متعددة بأنها اجمل مدينة في العالم؟ (الساق: ٦٣٨)





الباريسيات

«انهن يتكلمن بالغنّة والجنّة والنشيج ... حتى ينتشي السامع فلا يعلم بعد ذلك هل هن يفككن أزراره او فقاره» (الساق: ٦٢٤)

ــ «ان الفرنساوية أشدّ الناس شبقًا الي البعال وأقرمهم الى السفاح.»

ـــ «إن الـمُـجِـدّ عـنـد الإفـرنـج مطلوبة للرجال مرغوب فيها بمنزلة الـعـروس. إذ الفحول يتزاحمون على تسليتها وتلهيتها لعِلمهم بما تحت ذلـك الـســواد... فكأن لابسة الـحِـداد تـحـدّ شـهـوة الـنـاظـر الـيـهـا إذ يـرى عليها آثـار الحزن والكآبة والإنكسار وهـو أشــوق مـا يـكـون فـي الـنـسـاء» (الساق: ٦١٣)

ـــ «والـنـسـاء أشــوق مـا يكون اذا بكين. ولكن لا يكن كلامي هذا باعثًا على ضربهن. شُـلَّـتْ يـدا مـن مَسّهن عن غضب». (الساق: ٤٥٩)



تونس، رجالا ونساء

«قـد أعـجـبـنـي فـي زي الـرجـال في تـونـس ان سـراويـلـهـم قـصـيـرة بحيث تظهر سيقانهم. فأما النساء فسوقهن بادية ولا شــيء يستر حقائبهن. فترى الـمـرأة تمشي فـي أوان الحر وثوبها يشفّ عما تحته مـن مكبّب ومقبّب. فقالت: بـودّي لو كان زيّ النساء كهيئة أجسامهن. قلت هـذا يكون فاحشا من وجهين.» (الساق: ٥٧١)

في غرائب مومسات مالطة

«...حتى ان الزواني في هذه الجزيرة مـتـهـوّسـات فـي الـديـن. فـإنـك تجد فـي بـيـت كـل واحـــدة مـنـهـن عـدة تـمـاثـيـل وصـــور لـمـن يـعـبـدونـه من القديسين والـقـديـسـات. فـاذا دخل الى إحداهن فاسق لِيَفْجُرَ بها قَلَبَتْ تلك التماثيل فـأدارت وجوهها الى الحائط لكيلا تنظر ما تفعله فتشهد عليها بالفجور يوم النشور.» (الساق: ١٣١ــ٢٣١)

... وفي فنون مومسات باريس

«فـأمـا فــي الـحـب فمنهن مـن تـريـد عـلـى صـفـات الـمـدقـم الصفة الـتـي ذكـرهـا أبـو نـواس في الهمزية. ومنهن من يؤثر التجضّم الكمري او الامـتـلاج القنبي. وأكثر الـنـاس حـرصًـا عـلـى هـذا الشيوخ المحنكون. فإمصاصهم وتبظيرهم ليس مـن الـسَـبّ فـي شـيء. ومنهن من تجمع بين اللّذتين الخرنوقية والـفـنـقـوريـة ولـهـا سـعـران. ومنهن مـن تزيد على ذلـك مـا أراد الشيخ جمال الـديـن إبـن نباتة مـن شوص الفرخ ولـه ثلاثة أسـعـار. ومنهن من تـزيـد عليه الَـشـوص بالأخمصين ولـه أربـعـة. ومنهن مـن تمكّن من قفط الـنَـودلـيَـن وثَـغْـر مـا بينهما مـجـرّدا. ومـنـهـن مـن تضيفه الـى الـلـذتَـيـن الـمـذكـورتَـيـن مـع شـوص الـفـرخ بأنامل وأخـامـص وهـو اغلى مـا يـكـون. ومنهن مـن تتفاحل على أخـرى مثلها. ومنهن مـن تتعاطى الحِرفة التَتْرُسية وهـو قـرع التِرس بالتِرس.» (الساق: ٦٢٧)



٣◆ المخبّأ

فلاحوهم أسوأ حالا من فلاحينا

«قـد كنت احسب ونحن في الجزيرة [مـالـطـة] ان الانـكـلـيـز احـسـن حـالا وانـعـم بـــالا. فـلـمـا قـدمـنـا بـلادهـم وعاشرناهم اذا فلاحوهم اشقى خلق الله. انظر الـى اهـل هـذه القرى التي حولنا وأمـعِـن النظر فيهم تجدهم لا فـرق بينهم وبـيـن الهمج. يذهب



الـفـلاح منهم فـي الـغـداة الـى الكد والتعب ثم يأتي بيته مساء فلا يرى احــدا مـن خلق الـلـه ولا يــراه احـد. فيرقد فـي العشاء ثـم يبكر لما كان فـيـه وهـلـم جـرا. فـهـو كـالآلـة التي تـدور مـدارا محتقنا فلا فـي دورانـهـا لها حـظ وفـوز ولا فـي وقفها راحـة. فـاذا جـاء يـوم الاحـد وهـو يـوم الفرح والـلـهـو فـي جميع الاقـطـار لـم يكن له حظ سـوف الـذهـاب الـى الكنيسة. فـيـمـكـث فـيـهـا سـاعـتـيـن كالصنم يتثاءب ساعة ويرقد اخـرى ثم يعود الى بيته» (الساق: ٥٩١)

سبب بؤس الفلاحين

«وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها الله تعالى لأن تكون ملك الامراء والاشراف فقط فيستأجرها منهم أناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها... وعدد ملاك الارض في انكلترة نحو ستين الف عيلة لا غير. وقلما يذوق هؤلاء [الفلاحين] المساكين اللحم. فجُلّ أكلهم الخبز والجبن. فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة الا مرة في الاسبوع. ولا يبيع من اللحم الا نصف رطل او ربعه.»

حيّ «سيتي» في لندرة

«وبقي الآن هنا ان أقول إن هذا الخط الفريد هو مركز الاشغال العظيمة والمبايعات الجسيمة لاغنياء تجار الانكليز. فما من بناء فيه إلا وهو مصدر للحركة والعمل. وما احد يخطو فيه الا للكسب والشغل، ولا يتحرك بن لسان إلا للنفع والفائدة. ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور الا للسعي. ولا يخلج صدر مخلوق خاطر الا للتحصيل والاقتناء. فترى كل واحد من اهله فاتحا عينيه وفميه لاكل الدينا وما فيها...وليس من قطر في الدينا الا ويمده اهل الخط بالبضاعة والمهمات.» (كشف المخبا: الاعمال المجهولة، ٢٠٢)

... صنّاعها قائمون بالدنيا وهم منها محرومون

«فإذا دخلت قصور الملوك وطفت في اسواق المدن وعاينت ما فيها من الصنائع البديعة والتحف العجيبة والآلات الظريفة والفرش النفيس والثياب الفاخرة والاواني المحكمة ولا سيما مدينة لندن، علمتَ ان صنّاعها هم القائمون بالدنيا وهم منها محرومون فإن دأب الصانع كدأب الفلاح من جهة انه يشقى ويكدّ النهار كله ولا حظّ له في الليل سوى إغماض عينيه. فكيف يزيّن هذا الصنف من الناس هذه الدنيا ويبهجونها ويعمّرونها وهم عطل عنها ومحدودون منها.



والمترفون فيها لا يحسنون عمل شيء وربما لم يكونوا ايضا يحسنون الكلام.» (الساق: ٥٩٢)

بين الجنّة والجحيم

«فليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بُعد ما بين الجنة والجحيم في الآخرة. وهاك مثالا على سقر لندرة. قال في بعض الصحف ان مائة وثمانين نفسًا ما بين رجل وإمرأة وولد يسكنون في اربع وثلاثين حجرة. وفي «أخبار الكون» كان يمكث في حجرة واحدة من اربعة عشر نفسا الى عشرين ليلا نهارا. وكان يسكن في حجرة اخرى رجلان مع زوجيهما وأرملتان وثلاث بنات عزب وثلاثة اولاد فجملتهم اربعة عشر نفسا قد جعلوا أنفسهم عيلة عيلة كل عيلة تبوأت زاوية من حجرة. ... فإنه وجد فيها ٢٠٨ اولاد قد أدركوا ولم يدخل منهم المكتب سوى ثمانية وثلاثين فقط. وهم غارقون في الفساد والخساسة والقذر والوباء. [...]

وكثيرا ما ترى النساء يمشين في الشتاء حافيات ويلتقطن الجذور وفتات الخبز. غير مرة رأيت رجلا في ذراعه طفل وإمرأته بجانبه صفراء منجردة على عتبة احدى الديار في اشدّ ليالي الشتاء بردا. وفي كل سنة يبقى ألوف من ذوي الحرف معطّلين. [...] والحاصل انه لا فقير اشقى من فقير لندرية كما انه لا غني أترف من غنيّها. وكما ان طرف لندرة من جهة الشمال موسوم بحَضرة الكُبَراء كذلك كان طرفها الجنوبي مختصًّا بأهل الضعة والخمول. فلا

ترى هناك شيئا يعجبك غير حُسن النساء فإن الله تعالى جعل لهن هذا النصيب عامًا.» (كشف المخبا: الاعمال المجهولة، ١٩٧ـ١٩٨)

في الاستغلال

«كيف بُني هذا العالم على الفساد. كيف يشقى فيه الف رجل بل ألفان ليسعد رجل واحد. واي رجل. فقد يكون له قلب ولا رحمة. ويدان ولا عمل. ورأس ولا رشد ولا نهية.(الساق: ٥٩٥)

في بغاء المراهقات

«وكم لعمري من بنت حبلت أول مرة من مباديء شوطها في ميدان العهر. ثم أسقطت جنينها خوف الفقر. وإن منهن لمن تلد في طرق المدينة في ليالي الشتاء الباردة لعدم مأوى لها. او أنها تبيت مع بنت أخرى على فراش واحد وهي عادة مستفيضة. وذلك لعدم قدرتها على ان تستقلّ بفراش وكنّ لها».

(الساق: ٣٩٥ـ٤)

٤◆ اللغة والمرأة

ـ «لا مزية للرجل على المرأة في شيء» (الساق: ٥٧٥)

ـ «اية امرأة ترضى ان تقعد في بيتها كالفَرَس المسرّج المعَدّ للركوب وهي محرومة من معاشرة الناس؟» (الساق: ٤٥٩)

ـ «قالت: كنت أسمعك تحكي عن بعض الائمة ان عقول النساء في فروجهن. وقد أرى نساء هذه الدنيا الصغرى عقولهن في أدبارهن. قلت: فسّري لم أفهم ما أردتِ.» (الساق: ٥٢٣)

الإسم والفعل

«ثم إتفق بعد مدة أن قدم الى الجزيرة السيد المعظم سامي باشا المفخم المشهور بالمناقب الجميدة. وكان للفارياق دالّة عليه فسار اليه ليهنئه بقدومه. فكلفه المشار بأن يمكث عنده مدة الاعتزال فأخبر زوجته بذلك. فقالت له: كم مرة اقول لا خير في الاعتزال قال لا بأس به اذا كان مع امير فإن شرف الاسم يكفي.

قالت: لا يغني الاسم عن الفعل شيئا. قال: فقلت بل إجتزا به كثير

قالت: أمع جارٍ له.

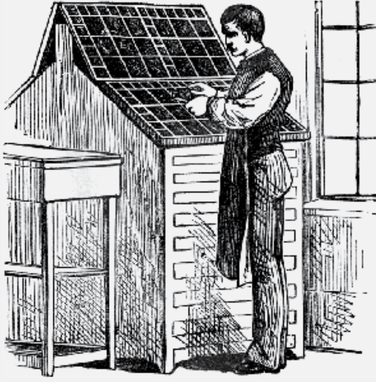
قلت: لا ادري.

قالت: لو كان الاسم يغني لكانت المرأة تكتب على موضع من جسمها لفظة امير.

قلت: اعوّض ما يمضي. قالت: وإلا فإمض على العوض. قلت: ما اعجل النساء. قالت: وما احبّهن للإبطاء. قلت: قد كنت اود لو ان الله خلقني إمرأة او انه يصيرني إمرأة اما الآن فلا اريد إذ لا صبر للنساء كالرجال. ومن يعش في هذه الدنيا فلا بد وان يكون صبورا.

قالت: لو لم تكن النساء أصبر من





الرجال ما كنّ يعّمرن في الارض اكثر منهم على ما يلحقهن من اوجاع الحبل والولادة.

قلت: ليس هذا هو السبب وانما هو ان الصالح من الناس لا تطول حياته على الارض بخلاف الطالح. قالت: هل في الرجال صلاح وما من فساد إلا والرجال يخترعوه. هل تفسد الاناث في الاناث ما تفسده الذكور في الذكور. وهل يفسد النساء غير الرجال.» (الساق: ٥٠١)

اللفظ الذي لم تعرفه العرب

[بعد ان يروي لها عدة افعال تؤدي معنى النكاح] «ثم اني فهمت من فحوى كلامك ان هذه الافعال في لغتنا الشريفة اكثر من ان تعدّ. وان اكثر المعاني قد وضع له فيها الفاظا كثيرة تسمّيها العلماء إردافية على ما ذكرتَ لي سابقا. قلت: لم اقل لك هذا وانما قلت مترادفة. وان هذا الفعل بخصوصه له اكثر من مايتي لفظة. فكل لفظ دل على دفع او نهز او ضغط او ادخال دل عليه ايضا. قالت: فهل تستطيع ان تذكر لي حرفا يدل بالخصوص على الامتناع عن النساء عفّة وتقوى. قلت: لم يمرّ بي هذا حرف بهذا المعنى وإلا

لحفظته فإني مولعٌ بحب الحروف النسائية. والظاهر ان العرب لم تكن تعرف ذلك.» (الساق: ٥٠٤)

في حب المتزوجين غير أزواجهم

«ولو ان الناس سمعوا مثلا بأن امرأة متزوجة تحب غير زوجها لأنكروا عليها ذلك كل الانكار. واستفظعوه غاية الاستفظاع. فتطبّل به الطبول وتزمّر الزمور وتكتب الكتب. ولا يبقى في البلد احد الا ويروي عنها حكاية او ترّهة. فأما اذا سمعوا عن



الرجل انه يحب غير زوجته فإنهم يحملون فعله على وجه مرضي ويعتذرون عنه بقولهم ان إمرأته غير زانفة. ... وغير ذلك من العيوب ولا يرون في فعله هذا سماجة. مع ان للمرأة اسبابا تحملها على الشطح اكثر من اسباب الرجل. قلت تفضلي بذكرها كي اجانبها. قالت اوّلها ما إذا لم يقم الرجل بوفاء حق زوجته. وهو حق الزواج الذي من اجله تترك اباها وأمها واهلها ووطنها وبلادها وغير مرة دينها. قلت اللهم لطفك وعصمتك ثم ماذا. قالت ومنها اهماله امورها وقلة اهتمامه بما فيه راحتها وإنشراح صدرها وتطييب خاطرها...» (الساق: ٥٠٢ـ٥٠٣)

ذكورية اللغة

«ليس في لغتنا هذه الشريفة ولا في لغة أمّة اخرى من الامم لفظة تدلّ على فاعل ومفعول او فاعلَين إشتركا في فعل واحد للذتهما ونفعهما. وإحتاجا الى من يدخل عليهما ليتعرّف منهما اي رفع ونصب يجري بينهما. وبيانه ان لفظة الزواج عندنا معناها ضمّ واحد الى آخر حتى يصير كل واحد منهما زوجا لصاحبه... اما لفظ النكاح فمعناه إحراز إمرأة على اي وجه كان» (الساق: ٢٧٧).

الفارياقية: «وإن اللغة انما وضعوها إستبدادًا منهم عن النساء وإفتئاتًا كما هو دأبهم في غير ذلك. مع ان اللغة أنثى. ولو كانت من وضع النساء ــ وهو الأولى إذ كل إنتاج وَوَضْع لا بدّ له من ماهية أنثوية ــ لكُنّ وضعنَ ألفاظًا تدلّ على مَن لا يفكّر في غير إمرأته» (الساق: ٥٧٤).

في البَوْس

وكان في المجلس شابٌ من الانكليز يناغي احدى بنات الفَرضي وهو آخذ بيدها. ثم جعل يبوسها بحضرة أمها والزائرين. فإصفرّ وجه الفارياق وإحمرّ وجه زوجته وبرقت أسرّة الام. فقالت الفارياقة لزوجها كيف يبوس البنت هذا الفتى وما يستحي منّا. فقال لها ليس البَوس عند الافرنج مما يعاب...

قالت ما اجهل من ظنّ انّا لا نعرف هذه الصنعة في بلادنا. قال ما اجهل من ظن هذا فان القبلة عندنا لا تكون إلا مع زفير وتنهّد ومصّ وشمّ وتغميق العينين. فأما هذا فإني أراه يرفّ خلواً من إحساس فعل المستخّف بما تحت يده. قال قد يظهر لي في القاموس ان المكافحة والملاغفة والمثاغمة واللثم والفغم والكعم والتقبيل انما هو بوس الرجل المرأة في فمها او إلتقامه له



بمرّة. فقالت حيّى الله العرب أئمة القِبلة والقُبلة. فإن تقبيل الجبين كما يفعل هؤلاء لا معنى له. ولكن لمَ كان التقبيل في غير الفم والخدّ خاليا عن اللذة التي يحسّ بها المقبّل في هذين الموضعين؟ قال لأن الظمآن لا يرتوي من وضع فمه على اعلى القلّة او على جنبها. قالت فعلى ذِكر الظمأ لِمَ تصف الشعراء الريقَ مرة بأنه حلوّ ومرة بأنه يروي الظمأ وهو خُلف؟ قال لعل ذلك من مشكلات الشِعر او من معضلات النساء.

قالت فعلى ذكر المشكلات والمعضلات هل يستطيع العاشق شرب الرضاب من غير الفم؟ قال أما عند بعض العرب فلا يبعد وأما عند الافرنج فينكرونه حتى من الفم. بل لا يعرفون له إسماً غير البصاق.





طرب الجسد: تحية كاريوكا نموذجًا

محمد الحجيري

كاتب وصحافي. نُشر جزء من هذه الدراسة على الانترنت دون ذكر اسم مؤلفها. وهي فصل من كتاب يصدر قريبا بعنوان «الرقص الشرقي والسياسة».

الراقصة تحية كاريوكا أيقونة الثقافة المصرية بل «أيقونة» المثقفين العرب. وزاد الطين بلّة أن إدوارد سعيد كتب عنها فأصبحت مقالته أيقونة «نصّية» كتب عنها الكثير. يقول سليمان الحكيم في كتابه «كاريوكا بين الفن والسياسة» ان إدوارد سعيد لم يكن وحده مَن وقع في غواية كاريوكا وشخصيتها الطاغية. سبقه عدد من المفكرين والكتاب منهم سلامة موسى ومصطفى أمين وصالح مرسي والموسيقار محمد عبد الوهاب الذي كتب عنها يقول: «إن كاريوكا حررت الرقص الشرقي من تأثير الأجنبيات، ومثلها في ذلك مثل سيد درويش الذي حرّر الموسيقى المصرية من تأثير الأتراك» («أوراق محمد عبد الوهاب»، دار الشروق). وزاد عبد الوهاب مؤكدًا أن تحية «ظاهرة وطنية»، وتكمن قدرتها في «أنّها كانت تستطيع أن تعطيك كل ما عندها من فنّ وحركة بكل جسمها في مساحة لا تزيد على متر مربع واحد، لا تحتاج إلى جري حول المكان «رايحة جاية» لتبهرك أبدًا». ولا يختلف رأي عبد الوهاب عن رأي الباحث جلال أمين، فهو يعتبر أن تحيّة ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بتاريخ مصر نفسها، وإن جسارة قلبها كانت تدفعها إلى أن تصل بالشيّء إلى منتهاه، ولكن يحميها ذكاؤها من الذهاب إلى أبعد من الحدّ الأقصى المسموح به، وحتى الكاتب عباس محمود العقاد امتدح رقص تحيّة.

وحين صوّرت نبيهة لطفي فيلمها عن تحيّة، تجلّى المزيد من غواية هذه الأخيرة في عيون المثقفين والكُتّاب والرسامين، فتقاطرت الأقلام التي تَكَتَّبَت عَن جوانب مهمّة في حياتها، وليس أقلّها علاقتها بالسياسة والرؤساء واليسار المصري. يتضمن فيلم نبيهة لطفي شهادات من محبِّي الراقصة الراحلة منهم الفنان التشكيلي عادل السيّوي الذي رسم تحية في أكثر من لوحة، والروائي صنع الله إبراهيم، والمفكر الراحل محمود أمين العالم، والكاتب رفعت السعيد، والمخرج الراحل يوسف شاهين، والكاتب صلاح عيسى وغيرهم. تكلم بعض المثقفين عن «فلسفة» رقص عند تحيّة التي حوّلت الرّقص إلى فكر كما حوّلت الجسد إلى «لوحات تشكيلية فلسفيّة». ولم يتورّع أحد المتحدّثين عن وصفها بالفنانة التي تجاوزت الإيقاع, ليس الإيقاع الموسيقي وحده وإنّما الإيقاع التشكيلي الذي أجبرته على التماهي فيها. وأجمعت الغالبية على أن فنها ورقصها كانا ينبعان من داخلها. ولعل سيرة حياتها تؤكد أن عشقها للرقص فطري تم تطويره في الدروس التى تلقتها فى مدرسة وملهى بديعة مصابني التي احتضنتها صغيرة فاستطاعت أن تحول: «الرقص الشرقي إلى فن بعد أن كان استعراضًا للجسد» حسب مقال للراحل إحسان عبد القدوس.

تحية بقلم ادوارد سعيد

الغالب في علاقة تحية بالمثقفين جاء في تفسير المثقفين أنفسهم لفحوى مقالة إدوارد سعيد. أكد البعض أن اللافت فيه هو الاهتمام بـ«الفن الشعبي»، والاعتناء غير المسبوق بدراسة الفئات المهمّشة. سعيد زار تحيّة في منزلها في سنواتها الأخيرة وكتب عنها مقالًا، نشره في جريدة «الحياة»، قائلًا «لم تكن تحيّة كاريوكا راقصة جميلة فحسب، وإنّما كانت فنانة لعبت دورًا مهيمنًا في تشكيل الثقافة المصرية». هناك من حاول التأكيد أنّ سعيد اهتم بنضال تحيّة السياسي لا بجسدها الذي كان وقت الكتابة قد أصبح كيانًا «متحفيًا» وكتلة من الشحم! وهناك من أشار إلى أن صاحب كتاب «الاستشراق» كان يعيد الإعتبار لا إلى الرقص فحسب بل إلى المرأة أيضًا. فهو تعرّف إلى تحيّة يافعًا في القاهرة عام ١٩٥٠ في «كازينو بديعة» (مصابني)، حيث شاهدها ترقص. ليس غريبًا أن يكتب سعيد عن الراقصة المصرية الكبيرة، فشأن المثقف أو المفكر أنْ يكتب عن كل شيّء، أن يؤوّل كل شيّء، والرقص الشّرْقيّ تعبير عن ثقافة شاملة وليس أمرًا عابرًا، والأمور لا تكون في الشكليّات بل في جوهر ما يكتب. وحجة سعيد أنه يكتب عن رمز من رموز الفن والتسلية الشعبية التي كان لها دور في الحياة الفنية العربية، ويحلل لغة الجسد – حيث ينتج الجسد لغة بيئته فضلًا عن اهتمامه بأدوار تحية المسرحية والسينمائية والسياسية.

يعتبر إدوّارد سعيد أن تحيّة «أروع راقصة شرقية على الإطلاق»، وأنها «تجسيد لنوع من الإثارة بالغ الخصوصيّة»، مما جعلها «أنعم الراقصات وأبعدهن عن التصريح، كما جعلها في الأفلام المصرية نموذجًا واضحًا أشد الوضوح للمرأة الفاتنة المغويّة التي يفتك سحرها بالناس». بالطبع هناك الكثير من المبالغة في توصيف سعيد لتحيّة تمامًا كالمبالغة في حديثه عن



الاستشراق، لكن الجيد أن سعيد ينزع صفة الابتذال عنها، قائلًا إنها تنتمي «إلى عالم النساء التقدميات اللواتي يتفادين الحواجز الاجتماعية أو يزلنها»، بل إنها «تنتمي إلى النسق الذي يسمى «العالمة»، ولقبت بهذا اللقب فعلًا في فيلم «لعبة الست» ١٩٤٦) ولعبت في حياتها هذا الدور. ويمضي سعيد في مكان آخر: «رشاقتها وأناقتها توحيان بما هو كلاسيكي تمامًا، بل ومهيب يستند في ذلك إلى خبرة بدت واسعة في مجال الرقص: «إن جوهر فن الرقص العربي التقليدي، شأن مصارعة الثيران، ليس في كثرة حركات الراقصة وإنما في قلّتها» و«حدهن المبتدئات أو المقلدات البائسات من يونانيات وأميركيات يواصلن الهزهزة والنطنطة الفظيعة هنا وهناك مما يُحسب «إثارة» وإغراءً حريميًا، فالهدف يتمثّل في إحداث أثر عن طريق الإيحاء أساسًا».

ويستنتج سعيد أن تحيّة تقف في قلب النهضة المصرية إلى جانب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وطه حسين وأم كلثوم وعبد الوهاب ونجيب الريحاني. من هنا فإنه يشعر بـ«خيبة أمل» من قيامها ببطولة مسرحية «يحيا الوفد» الهزلية جدًا. وقد اعترفت تحيّة في لقاء مع سعيد بأن آخر أزواجها فايق حلاوة هو الذي ورّطها في تلك المسرحية السيئة التي قام بتأليفها وكانت تفاخر أمام سعيد بأنها كانت، على الدوام، منتمية إلى اليسار الوطني.

وكانت تبريرات سعيد في الكتابة عن تحيّة تنصبّ في أسباب ثلاثة كما رصدها الروائي العراقي علي بدر في مقالة «إدوّارد سعيد وتحيّة كاريوكا: البوب آرت وبولطيقيا الجسد في الدراسات ما بعد الكولونيالية». السبب الاول، بروز دراسات الـ«بوب آرت» والثقافة الشعبية وأبحاث الفن الشعبي العفوي والمجاني كفرع من فروع تيار ما بعد الحداثة، والثاني، بروز تيار ما بعد الكولونيالية في دراسة بولطيقيا الجسد، حيث يكون جسد تحيّة هو السطح الذي تنقش عليه الحوادث التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية نفسها، والثالث هو الاهتمام الذي أولته النظرية النقدية المعاصرة إلى الكائنات المقموعة والمهمّشة من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، مثل النساء والزنوج والفقراء والأقليّات الدينية والعرقية الإثنية.

الراقصة الشرقية البارعة ترقص في متر مربّع واحد وتحية كاريوكا حوّلت الرقص الشرقي الى فن بعد ان كان مجرد استعراض.

سيرة

يوم ١٩ فبراير/ شباط عام ١٩٢١ انبعثت الصرخة الأولى لطفلة قدّر لها أن تصبح واحدة من أشهر نساء مصر. كانت فاطمة الزهراء زوجة المعلم محمد علي النيداني قد وضعت طفلة لم تولد في الاسماعيلية، بل في قرية المنزلة حيث ذهبت فاطمة ـ منذ سفر زوجها الى جدة في السعودية ـ لتقيم في بيت أخيها. كان الأب غائبًا يوم ميلاد الطفلة، التي لم ترث عن أمها شيئًا سوى ذلك النمش الكثير والكثيف الذي كان يغطي الوجه واليدين. جاءت الطفلة الى الدنيا وكأنها صورة مصغرة للأب بحسب ما ورد في سيرتها التي كتبها صالح مرسي. ورثت عنه كل شيء، اليدين الكبيرتين، والقدمين الرشيقتين، والقوة، والشخصية المتميزة بالاقتحام دون خوف! والذين تتبعوا حياة تلك الطفلة يعرفون التشابه الغريب بين أخلاقها وأخلاق البحارة ويدهشون له. فهؤلاء الرجال ذوو الطباع الخشنة والقلوب الشديدة الطيبة يقتحمون الأهوال، ويواجهون الأخطار لا لشيء، الا ليصلوا الى الشاطئ حتى إذا ما رست بهم السفينة أيامًا، إنتابهم قلق لا يزول إلا عندما يبارحون الشاطئ من جديد، ويخوضون ملحمة الطبيعة، بحثًا عن شاطئ آخر.

في طفولة تحيّة كانت مصر تفتح عينيها مبهورة على ذلك النجم الذي سطع مع ثورة ١٩١٩: فقلب حال الموسيقى، وفي شهور عديدة، كان يكتسح كل التراث في طريقه. نزل الى الناس، وراح يغني مع المتظاهرين: «بلادي بلادي». وفي تلك الأيام بالذات، كان سيد درويش يستعد لأن يفتح الستار عن أوبريت «العِشرة الطيبة» ونجح في تقديم موسيقى مصرية بحتة بعد عشرات السنين من التتريك. وكان توفيق الحكيم يرسي دعائم المسرح المصري وسط موجة من الاقتباس

والتمصير. وأحمد لطفي السيد يرفع شعار «مصر للمصريين» وليست لغيرهم. أما في الرقص فكانت محاولات حكمت فهمي لتخليص الرقص من تأثير الراقصات الأجنبيات من أرمن وروم.

وتلتبس الحكاية في علاقة تحيّة بوالدها. فهو الذي أطلق عليها اسم بدوية نسبة الى السيد بدوي الذي يرقد في ضريحه الشهير في مدينة طنطا. والسيد بدوي أحد أبطال المقاومة أثناء الحروب الصليبية، عرف في التراث الشعبي المصري بأغنية تقول: «الله ... الله... يا بدوي جاب الأسرى» لنجاحه في تهريب الأسرى المسلمين من معسكرات الصليبيين. ينحدر والد تحية من أصول حجازية جاء إلى مصر عبر البحر في قناة السويس. وقد رسا به المقام في مدينة الإسماعيلية ذات الشبه بالمدن الأوروبية. وكان البحر مهنته وعشقه الأول. فكان دائم السفر من ميناء إلى آخر بعيدًا عن الأهل.

تزوج الوالد سبع مرات، آخرها من أرملة شابة اسمها فاطمة الزهراء تنتمي هي الأخرى لأصول حجازية استقرت في مصر على ضفاف بحيرة المنزلة في الطرف الآخر من بورسعيد، رأس القناة وعمامتها! ويقال إن الأب نحر عجلا لتحية حين ولدت وكانت مدللة بالنسبة إليه، ولكن حين رحل وقعت الواقعة اذ ذاقت المرّ على يد شقيقها. لم تكد تحيّة ترى الحياة حتى فارقها الأب وقد تركها عند جدتها لأبيها لتربيتها وتعليمها، وكانت أقرب الأبناء شبهًا «بالأب الراحل» ولهذا فضّلتها الجدّة على سائر الأبناء لأنها تحب أن ترى فيها ابنها الفقيد. جاء الأخ الأكبر غير الشقيق واسمه أحمد، ليأخذ «بدوية» من أحضان الجدة ويجعل منها خادمة في بيته لزوجته «المالطية» فخرجت «بدويّة» من المدرسة، أو أُخرجت منها.

هكذا تبدأ أولى خطوات تحية على طريق «الثورة» و«التمرد»، فلم تجد أمامها غير طريق الهرب إلى الشارع. ينجح الأخ في إعادتها إلى سيطرته، ويتفنن مع زوجته «المالطية» في تعذيبها، بالكي مرة والضرب أخرى، ثم بقصّ الشعر مرة ثالثة! الى هذا الحدّ، عانت تحيّة من العنف الأخوي. وذات يوم حملت ملابسها، وذهبت إلى محطة القطار لتلقي فيه بنفسها وهي لا تحمل من النقود ما يعينها على النجاح هربًا من الأسر. ولم تكن قد بلغت الرابعة عشرة حين وصلت إلى القاهرة، فذهبت إلى شارع عماد الدين بحثًا عن مطربة وراقصة سورية إسمها سعاد محاسن كانت قد رأتها في الإسماعيلية ترقص بين الأطفال فتنبأت لها بمستقبل زاهر في عالم الرقص. لم تعثر تحيّة على المطربة السورية في القاهرة، فقد كانت تقدم عروضها في بعض مسارح الإسكندرية، فذهبت اليها الى الاسكندرية فعينتها سعاد محاسن «كومبارس» في فرقته في صالة «بيجو بالاس» بمرتب شهري لا يزيد على الجنيهات الثلاثة.

بعد فترة من التدريب في فرقة سعاد محاسن ذهبت تحية إلى الممثل بشارة واكيم الذي قدمها إلى بديعة مصابني، «ملكة الليل والمسارح آنذاك»، وقد أصبحت الراقصة الأولى في مصر. ولم تكن بديعة مديرة مجرد فرقة فنية، كانت تدير معهدًا لتدريب الفنانين وصقلهم ضم فريد الأطرش ومحمد فوزي ومحمد عبد المطلب وعبد العزيز محمود وعبد الغني السيد، ومن الراقصات حكمت فهمي وسامية جمال، ومن الموسيقيين محمود الشريف الذي تزوج من أم كلثوم فيما بعد. سوف تكوّن تحيّة مع سامية جمال ثنائيًا رائعًا في تاريخ الرقص. استعانت سامية ببعض أنماط الرقص الغربي وأدخلتها إلى الرقص الشّرْقيّ، وسمّي رقصها برقص الخيول، وهي تكتسح المسرح من أوله لآخره، «كأنها تطير» بتعبير الكاتب أنيس منصور. في المقابل طلبت تحيّة من مصمّم الرقصات الإسباني إيزاك ديكسون أن يصمم لها رقصة خاصّة تحقق لها الاستقلال والتميّز عن سائر الراقصات في فرقة بديعة مصابني. استلهم الإسباني رقصة الـ«كاريوكا» من التراث الشعبي البرازيلي وقد عرضت في أحد الأفلام الأمريكية بدُور السينما المصرية. وما أن ظهرت تحيّة في تلك الرقصة حتى اشتهرت باسم راقصة الـ«كاريوكا» يهتف رواد «كازينو بديعة» كل ليلة في طلبها، فكانت أول راقصة مصرية تحمل اسم إحدى الرقصات التي تؤديها. أما اسم

طلبت تحيّة من مصمّم الرقصات الإسباني إيزاك ديكسون أن يصمم لها رقصة خاصّة تحقق لها الاستقلال والتميّز عن سائر الراقصات في فرقة بديعة مصابني.

تحيّة فقد منحته لها بديعة مصابني، لتعرف في الأوساط الفنية والصحافية باسم تحيّة كاريوكا.

تعلمّت تحيّة رقصة «الكلاكيت» من الفنان روجيه، والرقص الشّرْقيّ من الراقصة المصرية حورية محمد، والصاجات من نوسة والدة الراقصة نبوية مصطفى. وعملت على إعادة الهارمونيا الشّرْقيّة القديمة في الرقص، وهو الأسلوب الذي تأسست عليه مدرسة كاملة، في مقابل مدرسة سامية جمال الإيقاعية.

الرقصة

لتحيّة مبدأ يقول إن الراقصة البارعة تستطيع أن ترقص في متر مربع واحد، وهذا الشرط لا تحققه إلا القليلات من الراقصات. يتخد الرقص الشّرْقيّ من البطن مصدرًا له فلا يتطلّب سوى مساحة صغيرة لأن الجسم هو المساحة الحقيقية للرقص الذي عتمد على المنطقتين الخاليتين من العضلات في جسد المرأة، الصدر والعُجُز أو المؤخرة. ومن ثم كان لا بد من تحريك هاتين المنطقتين عن طريق عضلات البطن. تبدو المنطقة الوسطى المكان الأثير للتعبير عن حركة الرقص. وهي حركة أفعوانية تتغنى بالحب في دائرة «صوفية» في نظر الشّرْقيّين، لأن مظهر الدائرة الراقصة يُرمَز إليه بالرقم 8، علامة اللانهاية، في حركة تتصل من دون تـوانٍ حتى الانطفاء ومن ثم تولد من جديد. ومع ان هزّ الأوراك والحوض والصدر يبدو للناظر بما هو حركات ايروسية، فإن الراقصة الشّرْقيّة تحمّل تلك الأعضاء انفعالات أكثر صوفية منها لحمية، لأنها في الحركة المستمرة تلغي الحاجز العازل بين الحياة والفكر.

والرقص الشرقي كما يكتب قاسم بياتلي في «الرقص في المجتمع الاسلامي» يعتمد على مبدأي الفصل والوصل، والتنسيق الهارموني الذي هو رابط ما بين المتضادات. فيجمع الانشداد والتوتر اللذين يظهران على شكل صور مرئية في الجسد. وهذا يتيح للراقصة الانتقال من حركة الى أخرى، من خلال التركيز على نوعية الطاقة وليس على شكل الحركة فقط.

ويتألف الرقص الشّرْقيّ من سلسلة محدودة من الحركات. تبدأ الراقصة والوشاح حول رأسها وكتفيها، وتتمشى بضع لحظات. وسرعان ما تنزع الوشاح وتقوم بحركات إيقاعية لكافة أجزاء جسدها. وخلال ذلك تصدح الموسيقى سريعة وبطيئة على التتالي حسبما تفضل هي. ومن الحركات الأولى التي تقوم بها، حركة البطن على حدة: تزمّه للداخل وتدفع به للخارج في حركة متسلسلة متموجة. وتحرّك الراقصة نهديها أفقيًا وهي واقفة أو وهي تتمشى. ثم تهز ردفيها في ذات الوقت الذي يجري فيه تحريك البطن في الاتجاه المعاكس. بعد ذلك تؤدي الراقصة سلسلة من التابلوهات المسرحية، تعزف أثناءها الموسيقى ببطء وتلعب على كل قطعة لوحدها على التوالي. وتتبع الراقصة ذلك بحركات تنقلها من جزء على المنصة إلى جزء، متمشيةً مع الإيقاعات الصاخبة. ثم تقف بسكون وتنحني بظهرها انحناءة كبيرة وهي تهز كتفيها ونهديها بلين وببطء. وقد تكرر بعدئذ الحركات السريعة قبل أن تختم الرقصة بلفّات قليلة.

ويساعد الزّي الذي تلبسه الراقصة الشرقية على جعلها لا تكشف عن أجزاء كثيرة من جسدها، وهي تتوصل إلى التأثير الجنسي عن طريق تحريك جسدها أكثر منه عن طريق عرضه فحسب. وهكذا فإن أزياء الراقصات تصمم بقصد إبراز حركاتهن والتشديد عليها أكثر منه الكشف عنهن وعرضهن ــ لهذا فأنهن يستعملن الوشاح، ويغطين الصدور، ويلبسن الثوب الطويل الذي غالبًا ما لا يكون شفافًا، ويتزينّ بقطع الحلي والمصوغات على رؤوسهن وأذرعهن وجذوعهن وكواحلهن. والحزام الضيق المشدود حول الردفين غرضه ابراز حركات الردفين.

تتوصل إلى التأثير الجنسي عن طريق تحريك جسدها أكثر منه عن طريق عرضه فحسب.

وعلى منوال التناقض، يمكن القول إنّ رقصة البطن، بمزجها بين الحشمة والاستعراض وبحركاتها المنسابة المتموجة، لها صفة مهدئة مسكنّة تخفف ما فيها من إثارة جنسية. ذلك أن

إثــارة الرغبة الجنسية تقابلها وتصدها اللذة البصرية الصرف في الحركة السلسة الصافية وفي الاستمتاع السماعي بالموسيقى، وهــذان معًا يبعثان أحيانًا هــدوءًا يكاد يكون منوّمًا، يقطع حبله الاستعجال في سرعة الموسيقى والتغيير في الإيقاع.

وللرقص الشرقي جــذوره، قيل إنها تعود إلــى احتفالات الــولادة التى كانت فيها السيدات يرقصن أمــام النساء فقط، وكـانـت الفتيات يتعلمنه فـى ســن مبكرة «لتقوية عضلات البطن» اسـتـعـدادا لــلـولادة. وتتطلب الأسـالـيـب الفنية لـعـزل العضلات ممارسة وتحكما، وكلما كانت الحركية فى نطاق أضيق زادت السيطرة والتحكم في العضلة وزادت حركتها.

ولأجــل ذلــك ربـمـا بــات الـرقـص الشرقي سمة فنية خالصة «للبطن»، مـا جعل الأوروبـيـيـن يسمونه «رقــص البطون» كما هو الشأن مع رقصة «الفلامنكو» المسماة «رقصة الأقـــدام». وثَمة تـقـارب بين الـرقـص الشرقي ورقــص الفلامنكو، فكلاهما يعتمد الارتـجـال بحيث تكون حركات الراقصين وليدة اللحظة وليست مُعدة سلفاً مثل ما نجده في عديد من الرقصات. تنفعل الراقصة مـع الموسيقى لتدخل فـي حالة النشوة يسميها الـعـرب «الـطـرب» ويسمّيها فريديريكو غارسيا لوركا «دويـنـدي» في حالة الفلامنكو. والمقارنة بين الباليه والرقص الشّرْقيّ مغرية في اكثر من وجـه، ففي حين تستخدم الراقصة الشّرْقيّة في الغالب قدراتها الطبيعية ولا تتكلف غيرها، تحتاج راقصة الباليه إلى أن تتعلم ما تقاوم به الطبيعة، وتتغلب على الجاذبيّة، وتتحرر من ثقل الجسد. فنساء الباليه كائنات سماوية يشبهن الهياكل العظمية تبدو أجسادهن كأنها جائعة. ينبغي على شركائهن الـرجـال نقلهنّ وحملهنّ على المسرح أو الخشبة، وعليهن أن يتمتّعن بأجساد نحيفة وأعـمـار معينة. وتعمل الراقصة الـواحـدة منهن على مبدأ الارتـفـاع فـي الفضاء وليس الاقـتـراب من الأرض. فالباليه هو العلاقة القائمة بين الجسد والـفـراغ، حيث البطل في الرقصة هو الفراغ المحيط بجسد الراقصة وليس الجسد ذاتــه، بينما الرقص الشّرْقيّ هو العلاقة القائمة بين أجـزاء الجسد ذاتــه، حيث البطل هو الجسد. الرقص الشّرْقيّ تجسيد للحس والباليه انعتاق منه. الرقص الشّرْقيّ سطوة المتناهي والباليه إطلالة على اللامتناهي.

كانت قريبة من المثقفين والسياسيين المعارضين والكتّاب اليساريين، بل انها انخرطت في «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» الشيوعية (حدتو).

فتنة الجسد

يعتبر كثيرون أن تحيّة هي الرمز المقابل لما تمثله السيدة أم كلثوم في العصر ذاتــه. التقى الرمزان لأول مـرة في عـرس الملك فـاروق ثم بمناسبة حصول النادي الأهلي على بطولة الــدوري العام في كـرة القدم، وهما المرتان الوحيدتان تقريبًا التي وافقت فيهما أم كلثوم على الغناء أمـام راقصة. وصفق الجمهور مرتين، مـرة لصوت أم كلثوم ومــرة لرقص تحية كـاريـوكـا، لـدرجـة أن أم كلثوم قالت لها: «تحية... أنت بتغني بوسطك» (خصرك).

وكانت تحية تحمل حبًا طاغيًا للحياة يظهر في تعدد ما مارسته من فنون، وانخراطها في العمل السياسي، وثــراء حياتها بالمتعة والسفر والأزواج، وحضورها الـدائـم حتى بعد تقدّمها في السن. بل إن شخصية تحيّة أثـرت في إحـدى روائــع المسرح الاميركي، وهــي مسرحية «ذات يــوم شـرقـي». لم تكن مجرد جسد نابض بالبياض، كانت تعبيرات وجهها تطلّ لتضيء من خلال الـرقـص، بدلع طبيعي، وفتنّة تصاحب فتنّة الجسد الـذي يهتز ليبهر المشاهد. وكـان يظهر عليها اعتناء واضــح بجسدها من خــلال إبقائه في وزن مثالي محدد لا يزيد ولا ينقص كي يظل صورة مـن صــور الانسجام والتناسق المطلوبين ليس فـي جسد الراقصة فحسب بـل والممثلة والـمـرأة الجميلة عمومًا.

وأكـثـر مـا يميز جسد تحيّة، هــو طــول وانسجام الساقين اللتين تحتفظان بمساحة واضحة مـا بين عظمة الــسـاق وعضلة الفخذ. كما أن تناسق عضلة الفخذ لديها وطولها تــدوّر الخصر

وبــروز الوركين فــي شكل واضــح. الــى هــذا يضاف التناسق بين ارتــفــاع الجسم وحــدود الكتفين المنسجمين بالكامل مع الطول. وهــذا ما جعل تحيّة الراقصة الأكثر فتنةً إذا ما برز منها الساقان فــي وصلة رقــص أو فــي فيلم سينمائي. ووجــه تحية اكثر حــدة مــن ليونة جسدها. فوجهها وجه إمــرأة بلدية حــادة التقاطيع مع بــروز لعظمتي الوجه ولمعة حــادّة في العينين تحتهما أنــفٌ مسلوبٌ ناعمٌ يتفق مع انفراج الخدين والابتسامة الممكنة. ولكن إذ بمجرد النظر إلى ابتسامتها الجميلة التي تعلو جِــيــدًا منحوتًا وناعمًا يتذكر المشاهد ذلــك الجسد الــجــذاب الساحر تتلوّى به رقصًا وطربًا في ساقين صُمّمتا لتكونا الأجمل والأكثر انسجامًا ونعومةً.

وتحيّة التي جعلت من الرقص الشرقي تعبيرًا عن الجسد، تلتمع في عينيها ابتسامة دائمة. كتب عنها صاحب «الاســتــشــراق»: «مــا مــن مــرة شاهدتها ترقص فــي الأفــلام الخمسة والعشرين أو الثلاثين التي شاهدتها لها إلا وكنت أعثر على تلك البسمة» إنها «رمــز لتميّز تحية في تلك الثقافة». ويمضي واصــفًــا تلك البسمة بأنها «نقطة ثابتة في عالم قُــلَّــب». ويــروي المخرج صلاح أبــو سيف الــذي أخــرج لها أشهر أفلامها «شباب امــرأة» أن هــذه الابتسامة الدائمة كانت تخلق له أحيانًا مشكلة كبيرة: «حتى في لحظات غضبِّها، كانت عيناها تبتسمان».

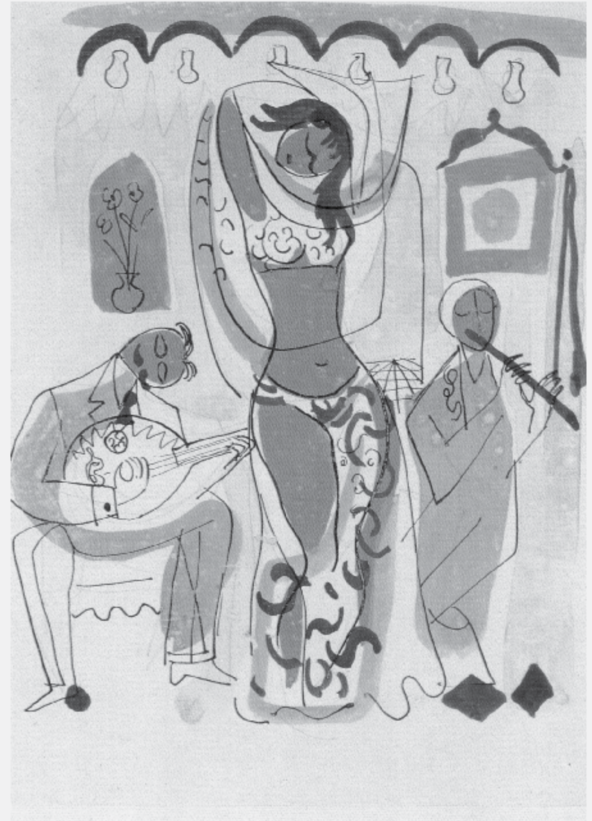
فواريق

ولتحية بــاع طويل فــي المعترك السياسي، فوالدها قضى بعض الــوقــت في المعتقلات، وعمّها قتل على يــد الانكليز. وكــان لها نــشــاط مــع الفدائيين المصريين فــي الخمسينيات عرفت خلاله أنــور الــســادات، وقــد ظــل مختبئًا بمعرفة الفدائيين لفترة طويلة. وكــانــت تحية مــن ضمن مــن ساعــده على الــهــرب. وفــي لقاء لها بــه عــام ١٩٧٨ وهــو رئيس جمهورية، قــال لها: «إنــي كنت أعمل مع شقيقك»، يقصد في العمل الفدائي. هنا وقفت تحية وقالت: «لا يا ريّس. أنت كنت هربان». فضحك السادات!

وبالرغم من أنها رقصت أمــام الملك فــاروق على أنغام أغنية «غنيلي شوي شــوي» لأم كلثوم فــي قصر «عــابــديــن»، إلا أنّــهــا كــانــت قريبة مــن المثقفين والسياسيين المعارضين والــكــتّــاب اليساريين، بــل انها انخرطت فــي «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» الشيوعية (حــدتــو). وحين كــان الصحافي صلاح حافظ مــطــاردًا من المباحث العامة في الخمسينيات لانتمائه اليساري، خبأته تحية في مخبأ ســري في بيتها. ويــروي صــلاح حافظ عن تلك الحادثة: وقعت في هــوى تحية ودفعني ذلــك إلــى طلب يدها لكنها ابتسمت لي ابتسامتها الساحرة وهي تقول: إذهب يابني إلى أصحابك، الدنيا أمامك، لا تلتفت إلى الوراء.

لما قامت ثــورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قالت جملتها الشهيرة «ذهــب فــاروق وهايِجي بعده فــواريــق» وهــي العبارة التي دفعت ثمنها مائة يــوم حبسًا في سجن الاستئناف بعد أن اتهمت مع زوجها مصطفى كمال صدقي بالانخراط في تنظيم سياسي يساري معادٍ للثورة. وعندما تــردد عليها المخرج حلمي رفــلــة لزيارتها ألــقــي القبض عليه. وفــي السجن أطلقت على نفسها لقب «عــبــاس» وهــو اســم حــركــي كــان يناديها بــه زوارهـــــا. ومثلما ثــارت خــارج الأسوار، أعلنت الغضب بداخل السجن ضد التعذيب والاشغال الشاقة.

ولــم يقتصر نشاط تحية على السياسة، كانت موصوفة بـ«الجدعنه». رفضت أن ترقص أمــام الزعيم التركي أتــاتــورك لأنــه أهــان السفير المصري أمامها. وفي



رائعة، رسم جواد سليم، العراق.



إحـدى الـمـرات جلس أحـد الأشـخـاص على طاولته فـي «كازينو بديعة»، وبهره رقـص تحيّة، لكنه تطاول عليها، فصفعته وعندما نهرها الأصـدقـاء قائلين: «هذا أمير من الأسرة المالكة»، ردّت متحدية «وأنا رقّاصة من الأسرة الراقصة».

وفـي بـدايـات عبد الحليم حافظ كانت تحية تعمل بـجـواره فـي المسرح نفسه. وعندما قـدّم أغنية لم تعجب الجمهور قذفوه بالطماطم فنهره صاحب المسرح وهــدّده بالطرد. لكن تحية صرخت في وجهه قائلة «لـو عبد الحليم خـرج هـاخـرج مـعـاه» فـلاذ صاحب المسرح بالصمت. ثـم أعطت عبدالحليم نقودا ليشتري «بدلة جديدة» بعد أن لـوّث الجمهور «بدلته» بالطماطم. ويروي سليمان الحكيم أن تحية عندما ذهبت إلـى مهرجان «كـان» السينمائي الدولي سنة ١٩٥٦، لاحظت تجاهل وسـائـل الإعــلام للوفد المصري وبعد أن لبست «الـمـلايـة الـلـف» وجـذبـت الأنـظـار جلست فـي حفل غـداء فـي جـوار الممثلة الأميركية العالمية ســوزان هـيـوارد ولما فتحت هـذه مـوضـوع إسرائيل كـادت تحية أن تأكلها بأسنانها وعندما حـاول الممثل الأميركي دانـي كـاي أن يدافع عن زميلته بصقت في وجهه فأسرع في الفرار من أمامها. وبعد هـذه الواقعة منحها الرئيس جمال عبدالناصر جائزة الدولة عن فيلم «شباب امرأة».

عـام ١٩٦٨ أصــدر وزيــر الـداخـلـيـة الـمـصـري شـعـراوي جمعة قـــرارًا بمنع عـرض مسرحية «كدابين الـزفـة». فـقـررت تحيّة الاعتصام والاضــراب عـن الطعام الـى ان رفـع قـرار المنع بعد حـذف ما يقرب من نصف النص. وفـي أعقاب قرار أنــور الــســادات طـرد الخبراء السوفييات، الـعـام ١٩٧٢، قـدّمـت تحيّة بالتعاون مع زوجها فايز حـلاوة مسرحية «يحيا الـوفـد» التي حـوت انتقادًا صريحًا لعبد الناصر وسياساته فاتهمت بأنها قدمت المسرحية دعـايـة لـلـسـادات. وتزعمت تحيّة تظاهرة الفنانين التي توجهت إلـى القصر الجمهوري فـي عهد الرئيس حسني مـبـارك للاحتجاج على تعديل قـانـون ١٠٢ الـخـاص بالنقابات الفنية، وأعلنت وزمـلاؤهـا إضـرابـا عـن الطعام لـم ينته إلا بعد موافقة الرئيس على مطالبهم. تربعت تحيّة لعقود على عـرش الـرقـص فـي مصر. ومثّلت فـي ١١٧ فيلمًا روائـيًـا وفـي عـدة ادوار مسرحية. وتـزوجـت أكثر مـن ١٢ مـرّة (تـجـاوزت النجمة اللبنانية صـبـاح فـي عـدد الأزواج). وفـي نهاية حياتها اعتكفت في المساجد وتلقّبت بـ«الحجة» واكتفت بـورع العجائز الذين يرتقون معارج العمر الأخيرة بنسيج من حكمة النهاية والاكتفاء الذي يبلغ مرتبة العشق.◆

يا نخلة واد البايّ

من شعر المقاومة الشعبي ـ تونس (قفصة)
البايات (مفرد باي) حكام تونس في العهد العثماني.
الواد: الوادي والنهر، الاقام: الافعى.

يانخلة وادي البايّ
ردي خِبَر النجوم

هي تِعوم في الضِيّ
وآنا في العِرَق نعوم

لا يعجبكْ ضحكْ الأِقام
إلانياب تحت الشفايف

لا يعجبكْ زين الكلام
والفعل مذموم نايف

ياداخل الواد عوّام
ما تدخل الواد خايف

مهما زِهت البايات أيام
هُم أمس وإحنا اليوم

قال الخروف للذيب
يا ما بايات في الخواطر

مثل الشِعر في الصغر يشيب
في الشِيب يجبر خواطر

ومهما تعدّى باي على حبيب
العزم للثار ناطر

وجمع الثمر من قبل ما يطيب
زي حرث في أمطريوم

يانخلة وادي الباي
ردّي خبر النجوم

مليت بالوَدّ كاسي
وبَلّيت ريق الاحباب

وحلفت انا نِقصّ راسي
لو ذِلّ فوق الأعتاب

وناديت يا جِرّ ناسي
الشعب غلّاب

تزول الجبال الرواسي
ومايزول شعب في يوم

ويانخلة وادي الباي
ردّي خِبَر النجوم



تأملات في قصيدة «أشواق» لرياض السنباطي

سمر محمد سلمان
صحافية وناقدة موسيقية.

لـو قـدر لـريـاض الـسـنـبـاطـي أن ينشأ فـي بـلاد تؤمن بالموسيقى وسيلة للارتقاء بالشعوب لبلغت الموسيقى العربية شأنا غير الذي هي عليه اليوم.

لو قـدر له ذلـك حقًا، لكنّا اليوم نعيش زمانًا موسيقيًا عربيًا آخـر تـذوب فيه الـفـوارق بين المحلية والعالمية مـن حيث قيمتها وتأثيرها، بين الـذات الفردية والـذات الاجـتـمـاعـيـة، بـيـن الأنــا والآخـــر. زمـــان سـتـكـون فيه الموسيقى العربية لغة انسانية عالمية عـابـرة للزمان والـمـكـان ذات فلسفة ومـضـمـون يـعـبـرّان عـن الحياة والـحـب والـجـمـال، وفلسفة نجد انعكاسها على الخير والقيم الانسانية.

تـأخـذك أعـمـال الـمـوسـيـقـار ريـاض السنباطي من عالمك الـى عـوالـم بعيدة تسكن فـي خـوابـي الماضي، تستلهم ذاكـرة الجذور، ثم تعرج بك الى مستقبل النبوءة. كأنها تبشر بزمان آخر.

هي درر فنية نفيسة كان السنباطي ينثرها في حياتنا الفنية والثقافية. عثرنا على بعضها ومـا يـزال محار كثير ينتظر. درر لـم تلق مـا تستحقه مـن رعـايـة وتقدير على مستوى التوجه الثقافي للدولة، منذ أفـول نجم الحقبة الناصرية الـتـي تـألـق وزراء الثقافة فيها وتنافسوا في إعــلاء شــأن الـفـن والـثـقـافـة، لا فـي مصر وحـدهـا بـل في الوطن العربي ككل.

و«أشـواق» درة من هذه الـدرر. نحاول اليوم أن نكشف بعضا من أسـرارهـا كنموذج لعمل فني بديع يشدك الى الأعـمـاق لتقطف لـؤلـؤة ثـم يرفعك الـى الأعـالـي لتقطف نجمة. هـذا العمل الكلاسيكي البناء والرومانسي الانتماء قد بلغ آفاقا تعبيرية متجاوزة في عمقها للمألوف في تلحين القصيدة العربية التي يعدّ السنباطي أستاذها بحق، لما يتميّز به من فهم عميق للنص وأبـعـاده ورؤاه وقدرته الفائقة على دفعه نحو آفـاق أوسـع وغايات أبعد. فبقدر ما يعبّر السنباطي بدقة متناهية عن المعاني بقدر مـا يـكـون مـتـجـاوزا حـتـى، لـكـأن موسيقاه تكتب نصها الـخـاص دون خيانة للنص الأصـلـي بـل تدفعه الـى آفـاق تعبيرية جديدة بالغة الجمال والشعرية ما خطرت ربما على قلب الشاعر فتغدو القصيدة بين يديه عالما من الجمال المتراكم.

أتـرانـا أمـام ملحّن فقط أم أمـام شاعر يكتب بالنغم يضيف ويثري ويتجاوز؟

حيرة محببة

يوقعنا هـذا العمل الرفيع فـي حيرة محببة بين مقاصد الـنـص الــذي لا يخلو مـن إشـــارات ملتبسة وطموحات الـمـوسـيـقـى. لـكـن عـمـق الـخـيـال الـسـنـبـاطـي وأسـلـوبـه الروحاني المعروف اختار في مقدمته الموسيقية الأخّـاذة أن يحسم أمـر هـذا التأرجح بين درجـات الحب، وأبـى الا أن يبلغ العاشق مقام الـوجـد. هـذا الالتباس الجميل في نص مصطفى عبد الرحمن، وفـي بعض مفرداته – الجوى / الشك / الـضـلال — يشعِرنا فـي لحظات أننا أمـام نص يكاد يلامس حالة من حـالات الحب في عالم المتصوفة. حتى اذا رسونا على مشارف التحرر من أغـلال بشريتنا، أعـادنـا الـشـاعـر مـرة اخـرى الـى حقيقتنا الانسانية في مواكبة عبقرية للسنباطي الــذي عـبّـر بحساسية بالغة عـن حـركـة الــروح فـي الـصـعـود الـى الأسـمـى ثـم الهبوط الـى الأدنــى. مـن خـلال مقامَي النهوند والـرسـت اللذين يـتـبـادلان فـي متن القصيدة وظيفة الإيـحـاء والتعبير الشجي عن طرفي الصراع بين مادية العشق وروحانيته،

وبين واقعيته وخياليته. وفي المنتصف يحتل المشهد اللحني مقام البيّاتي الذي سيكون حلقة الوصل والفصل بين عالم الخيال المشوق وعالم الواقع.

والمتأمل في المقدمة الموسيقية لقصيدة «اشواق» لا يمكنه بحال من الأحوال إلا أن يقف مذهولًا أمام هذه العبقرية الموسيقية المرتكزة الى حدس ملهم وقلب مستهام وإحساس مرهف لا يمكنه الا أن يستنتج أنه ليس أمام عمل عقلي بل حدسي الانطلاقة والالهام، ينقلنا الى عالم غير مرئي، الى عالم الروح بكل صفائه وبراءته.

تبدو المقدمة الموسيقية بمثابة حوار درامي على مستويين. الأول خارجي بين آلة العود المنفردة والأوركسترا، والثاني حوار داخلي بين العود وذاته تجسِّده حركة اللوازم الأخّاذة التي يعزفها العود منفردًا في تنويعات مقامية بديعة ترفد المقدمة بروافد جمالية تسمو بها فوق التصنيف المقولَب. لكأن المقدمة سيمفونية صغيرة تضمنت في طياتها قالبَي الصوناتا (المقطوعة التي تكتب خصيصا لآلة منفردة) والكونشيرتو (الحوار بين آلة منفردة والأوركسترا). ويمضي لحن المقدمة الموسيقية في احتدامه كلما اقتربنا من مطلع القصيدة كقلب يزداد خفقانه كلما اقترب من بلوغ المرام، حيث تتوحد الوَتَريات في التعبيرات الصاخبة الدرامية وتتآلف آلات الأوركسترا جميعها للتعبير عن هذا الاحتدام. احتدام يبلغ ذروته ثم ما يلبث أن تهدأ حركته فتختفي الآلات الإيقاعية المصاحبة، ويسلّم السنباطي خواتيم المقدمة للوتريات (الكمنجات والتشيللوهات) وحدها، لتبدو كأرواح معلقة في الهواء، هائمة تتلفت باحثة عن خليل طال غيابه، فيحاورها العود كأنها استغاثة الروح والجسد اذ يتجاذبان الشوق الى لقاء الحبيب.

يستهل السنباطي القصيدة بغناء مُرسل دون إيقاعات على خلفية من العزف الشجي المصاحب للغناء مما يعطي للتعبير الأدائي عمقا وتكثيفا شعوريا شديد التأثير. من مقام النهوند على (اللا) يغنّي السنباطي من درجة منخفضة نسبيًا تلائم حالة الشجن المقيم الذي إعتادته النفس حتى بات هتافها أو نداؤها الى المناجاة أقرب:

«أيها الناعم في دنيا الخيال / تذكّر العهد وماضي الصفحات»

ثم يواصل مناجاته صعودا بشكل متدرج أفقيا في البيت الثاني الذي يبدأ باستفهام:

«أعلى بالك ما طاف ببالي / من ليال وعهود مشرقاتِ؟»

لا رأت عيناك شكّي وضلالي/ وحنيني ولهيب الذكرياتِ»

هذه القيمة هي التي تصنع الفرق بين الموسيقى الخالدة التي تتحدث لغة انسانية عالمية أما تلك التي يأسرها عصرها وقوالبها فيطويها الزمان.

من النهوند الى البياتي

عند هذا الحد يقف مقام النهوند ليسلّم زمام اللحن لمقام طروب كثير السلطنة هو مقام البياتي الذي يحتل من قصيدته اللحنية واسطة العقد، ترافقه الإيقاعات للتعبير عن واقع يستعيده من الماضي. واختار السنباطي مقام الرست للتعبير عن الواقع الآني المعاش في الحاضر. وفي هذا الاختيار إحساس شديد الرهافة، فهو هنا يستعرض تلك الصور التي حدثت في الماضي وأصبحت اليوم مجرد ذكرى. البياتي اذًا هو المنطقة الوسطى أو حلقة الوصل بين الخيال والواقع، اي انه المقام المناسب للتعبير عن الواقع المعاش في الماضي. وهو المقام المسيطر في منتصف القصيدة. والبياتي في هذه القصيدة البديعة ثلاثي الأبعاد والغايات.

ـ بياتي بطعم الحسرة

«... عندما يعرضها الماضي لعينيّ /

«صورًا تجلو الذي ضّيعتَ مني من ليال بهوانا راقصاتِ».

ـ وبياتي ثانٍ بطعم البهجة والسرور حين يستعرض شريط الذكريات السعيدة مصحوبا بإيقاعات

«هتف الصبح وغنّى بنشيد / رائعَ اللحنِ شجيّ النغماتِ»

«كالُمنى تقبل كالحلم السعيد/ في خيال كابتسام الزهرات»

بيد اني لا أبالي بالوجود/ وأمانيه الحسان النيرات».

تستوقفنا في هذا البيت كلمة «خيال» الذي شكلت انعطافة لحنية سريعة نحو مقام آخر بما يناسب السياق اللحني الذي إختاره السنباطي للتعبير عن كل ما هو من قبيل الخيال. والتمني. وكأن السنباطي أراد ان يكبح جموحَ نفسه اللاهثة خلف سراب ويذكرها.

أما البياتي الثالث فيغنيه السنباطي من جوابه، لعل

الحبيب الذي أشاح بقلبه يسمع ويلبي:

«إن يكن قلبك لا يسمع لحني/

فلمن يا فتنة الروح أغني؟ للهوى سر المعاني الخالدات».

الآهات الثلاث

ثم ينتقل الى مقام الحجاز كار عبر لازمة تمهد للمقطع التالي. ومقام الحجاز هذا مقام شديد الايحاء بالجوى وبحرقة الفراق. وهو مقام يمنحك الإحساس بالعمق والبعد والترحال ما يجعله مناسبا للتعبير عن البعد التاريخي. من هذا المقام الساحر صاغ الاستاذ محمد عبد الوهاب مقطوعة «جبل التوباد» من مغناة «مجنون ليلى» التي غناها هو وأسمهان. هذه اللازمة الحجازية الرائعة التي تطلق الوتريات من خلالها آهاتها الخاصة في كل اتجاه صعودا ثم هبوطا، هيأت المناخ لدخول المقطع – الذروة في القصيدة اللحنية، مقطع الآهات الذي بلغ فيه السنباطي أعلى مستويات التعبير اللحني والأدائي.

هذا «اليقين» الشعري هو ذاته «اليقين» الموسيقي الذي صاغه السنباطي من الطبقة المنخفضة، فأعماق النفس هي مستقر اليقين، فيما لحن كلمة «أعلى» من منطقة أعلى تليها لازمة صغيرة جدا هي بمثابة جسر للعبور من إيهام العين الى حقيقة اليقين.

فهذه الآهات الثلاث التي يتردد صداها في أرجاء الكون الفسيح ليست سوى زفرات من نشيج الروح تكابد شوق الشوق وترتجي املا جلّ أن يتحقق. أتراها مناجاة انسان لإنسان؟ لسنا ندري بالضبط. لكأن القلب من شدة الجوى قد تبدلت أحواله وثقلت أحماله فبات يتطلع الى التخلص من علائق الدنيا الى ما هو اسمى وأعلى، حتى لتخال الحبيب المنشود هنا مَلَكًا. أو لعله قيمة أو معنى.

«آه لو تسمعني

«أشكو الجوى يا حبيبي

آه آه آه لو تسمعني».

هذا الدفع بالتأوه الى حالة النزف الروحي هو من خيال الملحن لا الشاعر. لذا تراه يكرر المقطع واللازمة و«الآه» ثلاث مرات ليكون التأثير أكثر نفاذا.

ومن عجيب خيال السنباطي تلك اللازمة البديعة التي يعود فيها الى مقام البياتي في استخدام رابع وبديع. هي لازمة تتقدم فيها الإيقاعات وتتّقد حركة الكمنجات لتعبّر عن الحركة النفسية المحتدمة لتخلق مناخا أقرب الى الاحتفالية لكنها احتفالية النيران المشتعلة في كبد العاشق ومهرجان الألم الذي يجرح قلبه...

«وترى القلب ونيران الهوى ولظاها / ودموع الشجن لترفقت بقلبي

فانطوى ما بقلبي من هوى أرقني».

حتى اذا هدأ الأجيج الذي تعبّر عنه اللازمة الموسيقية التي تلي بنحو مدهش، عاد ليستسلم من جديد فيعود اللحن الى الهبوط ليستقر عند كلمة «أرقني»، تمهيدًا لجملة لحنية هادئة شديدة التعبير عن حالة الاستسلام تلك، يعقبها سؤال ملؤه الحسرة والأسى عن أيام خلت من مقام البياتي ايضا حتى تكتمل دائرة الحالة الشعورية السائدة في هذا المقطع:

«أين أحلام شبابي؟ أين مني؟ أمسيات من فتون وتمني وعيون الدهر عنا غافلات».

ثم انتقالٌ مقاميٌ سَلِس الى النهوند في المقطع التالي بعد لازمة هي امتداد لكلمة «غافلات» لتكثيف المعنى تستقر على مقام البياتي على «اللا» في صياغة لحنية بالغة العذوبة والجمال، يتجلى فيها إحساس السنباطي المرهف، وفهمه العميق للمعاني وللغة الشعرية في نص مصطفى عبد الرحمن. في المقطع التالي:

«يا حبيبي أيقظ الماضي شجوني

حينما طافت رؤاه في خيالي

«وتلّفت بعيني ليقيني

«فإذا الحاضر كالليل حيالي

واذا بي قد خلت منك يميني

وانطوى ما كان من صفو الليالي».

هو النداء الثاني يصوغه ذوق الملحن الرفيع من مقام النهوند تماما كالنداء الأول مما يخلق نوعا من الترابط يشد طبقات البناء اللحني والشعوري بعضها الى بعض، ويحافظ على وحدةالموضوع.

ولا يخفى على المتأمل في تلحين هذا المقطع كيف استطاع السنباطي أن ينجز هذا التحول السحري للمعاني الذهنية الى موسيقى شديدة التعبير عنها كأنها هي هي. ففي

الابيات الأربعة الأولى يرسم في صعود لولبي متدرج ملامح ذاك «الطواف» بريشة النهوند. المقام البحر الذي تتيح نغماته الشجية التعبير عن الإبحار في الذاكرة واستحضار ماضٍ برمته نظرا لرحابته وسعة اشتقاقاته، حتى اذا فاجأته لحظةُ الصحو أيقن أنه كتب قصة حبه على الماء.

«وتلفت بعيني ليقيني /فإذا الحاضر كالليل حيالي».

يقين الشِعر ويقين الموسيقى

هذا «اليقين» الشعري هو ذاته «اليقين» الموسيقي الذي صاغه السنباطي من الطبقة المنخفضة. فأعماق النفس هي مستقر اليقين، فيما لحن كلمة «عيني» من منطقة أعلى تليها لازمة صغيرة جدا هي بمثابة جسر للعبور من إيهام العين الى حقيقة اليقين، إذ إنّ العين لا ترى الا ظاهر الأشياء التي تطفو على السطح وقد تخدعنا. هكذا تتّضح لنا موسيقيًا الجدلية بين عين اليقين الثاقبة ومحلها البصيرة ويقين العين الخادعة ومحلها البصر. ثم يعود الى واقعه المادي الخالي من حضور الحبيب فتراه يعبر عنه بالانتقال السلس الى مقام الراست:

«واذا بي قد خلت منك يميني / وانطوى ماكان من صفو الليالي».

هذا الغياب المادي كان يحتاج الى مقام وصفي واقعي الإيحاء قادرٍ على تصوير هذا التجسيد المتمثل في قول الشاعر «واذا بي قد خلت منك يميني ..»، فكانت هذه التحويلة المعبرة جدا من مقام الخيال (النهوند) الى مقام الواقع (الرست)، ليختم أخيرا فصول هذا الشوق الجارف بطلبٍ يصحبه توتر نفسي حاد يبوح بحالة من الرفض والتمرد على هذا الحرمان. يترجمه الشاعر بصيغة الأمر التي ختم بها القصيدة ويترجمها الملحن موسيقيًا بملامسة مقام الكورد الدرامي بارتفاع وتيرة التوتر للتعبير عن الخروج من واقع الاستسلام الى آفاق التمرد والثورة المفتوحة على جميع الاحتمالات:

«طال بي شوقي لأيام التغني
وليال كن بعضي غاب عني
فأعد لي ما انطوى من بشريات».

هل السنباطي تقليدي؟

ما نلحظه في هذه الابيات الثلاثة هو ذلك المد في لفظة «طال» المناسب تماما لطول المعاناة وثقلها، وكأنه أراد أن يضع الحبيب أمام طول المعاناة حتى يمهد لنفاد الصبر الذي بدأ يتسلل في البيت الثاني حيث الصعود التدريجي مع عبارة «غاب عني»، حتى بلوغ الذروة في البيت الأخير واللازمة الختامية التي تتلاشى تدريجيا على طريقة الـ Fondu ferme بلغة السينمائيين، اي الاختفاء التدريجي للصورة حتى يطويها الظلام. من هنا يمكننا القول إن موسيقى السنباطي هي لغة تصويرية تكاد تراها.

تتجاوز قصيدة أشواق حدود التصنيف الموسيقي بين قديم وحديث أو كلاسيكي، أو رومانسي، او حداثي. هي تجمع كل هذه المدارس، بعناصرها وخصائصها النابعة من هوية الموسيقى العربية في ضفيرة واحدة لا على طريقة القص واللزق أو التفكيك والتتابع الركيك لهذه العناصر كما نراه في أعمال آخرين أسهموا في تفكيك وحدة البناء الموضوعي للأغنية العربية منذ بداية السبعينيات التي شهدت تحوّلات سياسية وثقافية كبيرة أثرت كثيرا على الفنون بشكل عام والموسيقى بشكل خاص. نحن هنا أمام عمل لا يكاد يتنوع الا ليتوحد.

السنباطي تارة جديد وتارة أخرى قديم. وهو كلاسيكي جدا احيانا وحديث جدا أحيانا اخرى وفق ما يتطلبه النص الشعري. القيمة الجمالية اذًا هي منطلق رياض السنباطي ومقصده، مبتداه ومنتهاه.

ان التجديد عند رياض السنباطي يتجاوز الأشكال والبناء. هو حركة داخلية وينابيع عذراء تتفجر من روح السنباطي ووجدانه ورؤاه وإحساسه الخاص بالجمال. لذا نجد أن العديد من الكتابات النقدية تنحو نحو اعتبار السنباطي تقليديا في تناوله للمقامات الموسيقية. ذلك أنهم ينظرون بمجهر أكاديمي لا بمجهر جمالي. صحيح ان السنباطي في هذا العمل استخدم مقامات تتداخل في تكوينها واجناسها ودرجات ركوزها، ولم يلجأ الى الغريب او النافر، وهذا ما يعتبره بعض النقاد تقليديا. ذلك انّ السنباطي يعنى قبل اي شيء بتحويل النص الشعري الى نص موسيقي يعبر عنه بمنتهى الامانة والصدق وبتكثيف الحالة الشعورية التي يعبر عنها النص. فهو عاشق للكلمة أمين عليها، عميق الاحساس بها، هي

قنديله وهـداه. وهو في ذلك يتفوق من وجهة نظرنا على جميع أقرانه بما فيهم الأستاذ محمد عبد الوهاب...

تكمن حداثته فـي لغته الموسيقية لا فـي المدرسة الموسيقية التي ينتمي اليها. فـي قـدرتـه على التطوير المستمر لتقنياته واساليبه وفي إيحاءاته النغمية وقدرتها على الـربـط بين الـدلالـة اللفظية والـصـورة الموسيقية والانـفـعـال الـوجـدانـي، اي توظيف الـصـورة الموسيقية لتجسيد المعنى وروح النص. فاللغة الموسيقية ليست مجرد مقامات وأوزان، هي طريقة في التفكير والرؤية والـتـأمـل. هـي تلك العلاقة الحميمة بين العمل الفني والسلوك الجمالي التي تتبدى فـي العلاقة بين الشكل والمضمون وآلـيـات الـربـط بينهما. هـي تجربة رؤيـويـة خاصة اذًا، مـن العبث اخضاعها للتصنيف. والتقليدي حقا ليس فـي موسيقى السنباطي بـل فـي رؤيـة بعض النقاد وتصنيفاتهم. فهو تـارة جديد وتـارة أخـرى قديم. وهـو كلاسيكي جـدا احيانا وحـديـث جـدا أحيانا اخـرى، وفـق ما يتطلبه النص الشعري. القيمة الجمالية اذًا هي منطلق رياض السنباطي ومقصده، مبتداه ومنتهاه.

هـذه القيمة هـي التي تصنع الـفـرق بين الموسيقى الـخـالـدة التي تتحدث لغة انسانية عالمية وتلك التي يأسرها عصرها وقوالبها فيطويها الزمان.◆

